

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي هدانا لهذا
ما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله

الحياة الآخرة والحياة

الحياة الآخرة والحياة

الحياة الآخرة والحياة

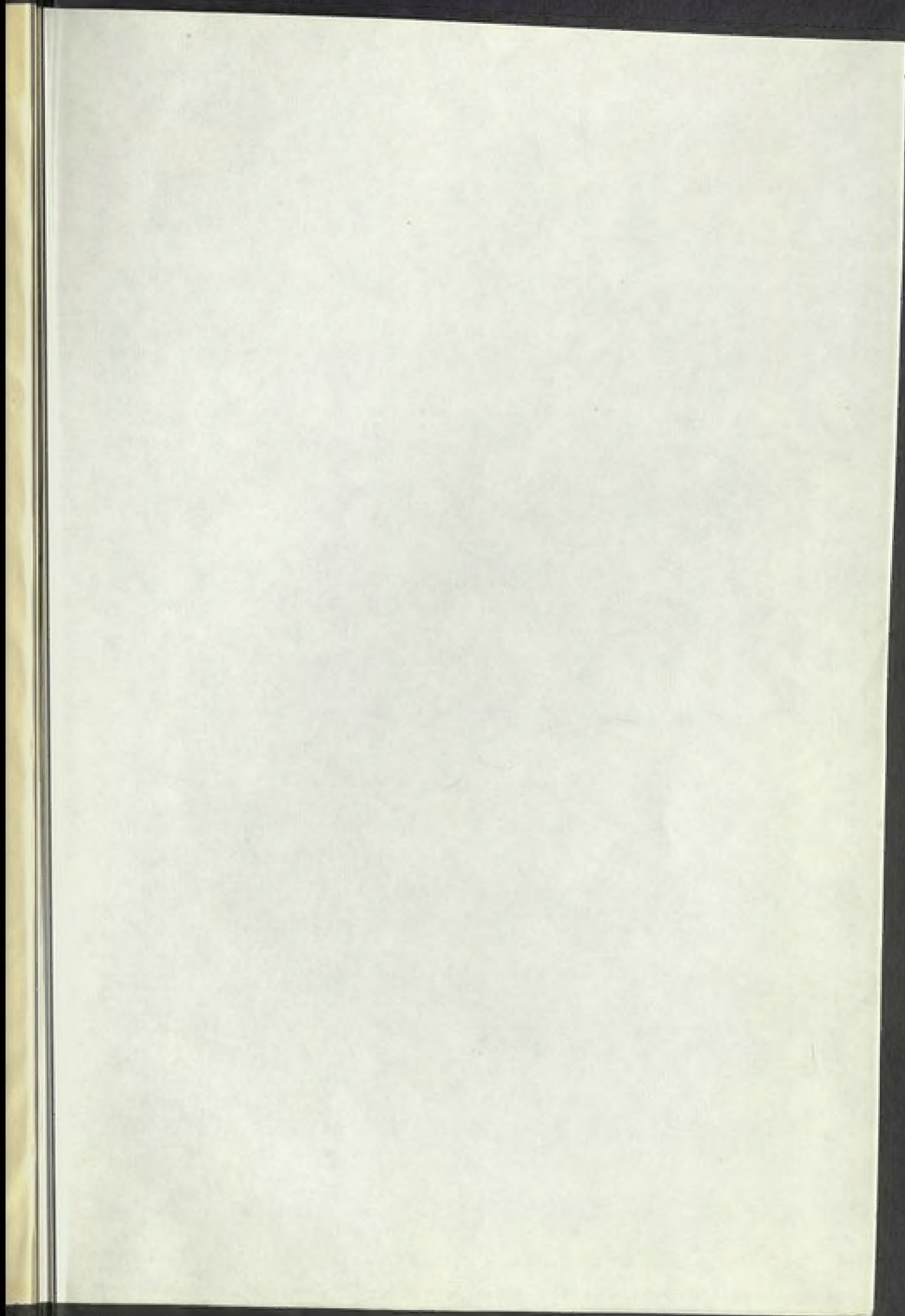
الحياة الآخرة والحياة

الحياة الآخرة والحياة

الحياة الآخرة والحياة

الحياة الآخرة والحياة

7



Philip K. Amiri

دار اليفظ العربى للناليف والترجمة ونشر

الى الدكتور فيليب
على / ١٤٠٥
بعمارة

297.09

M215A

C.1

تسارنج

الخلافه الامويه والعباسية

والدول الاسلاميه ، والمصور الوسطى في اوربا

كتاب بحث في الخلافه الامويه في الشرق والاندلس والخلافه

العباسية والفاطمية والدويلات المستقلة . وفي (الجروب) الصليبية

والماليك وبحاله اوربا في القرون الوسطى

نالف

رفيق المراهبني

ماجستر في الآداب

مفروق الطبع محفوظه للمؤلف

مطبعة دار اليفظ العربيه

بسم الله الرحمن الرحيم

وبعد ، فهذا كتاب موجز عن « تاريخ الحضارة الرومية ، والعباسية ، وبعض الروبوتات المستفزة ، وعن الحضارة الفاطمية والصليبية والمماليك ، والامويين في بلاد الاندلس ، وفهرسة تاريخ اوروبا في العصور الوسطى . »

وضعت لمساعدة الطلاب على فهم تاريخ الامة العربية في أدق أدوار حياتها وأعقدها . وكانت هدفي الايضاح ، والتنظيم والتسهيل جهد المستطاع ، لذلك وضعت خطوطاً تحت بعض الاقسام الهامة . ليميزها القاري ، عن غيرها . كما استعنت بكثير من مقتطفات المؤرخين القدماء والحديثين ، ليطلع الطلاب على عبارات هامة وآراء جيدة في الموضوع ، وليست الغاية منها الحفظ وانما المراد قراءتها في أثناء الدرس . ووضعت هوامش للقراءة ايضاً لشرح بعض النواحي الغامضة او ليراد بعض النقاط التي أهملها البرنامج والتي يحسن ذكرها حفظاً للسلسلة التاريخي . ووضعت بعض المصورات ليهتدي بها الطلاب لمواقع المدن والدويلات والاقليم . وصدرت كل بحث بلائحة لاشياء الخلفاء ، أو الامراء ، أو السلاطين ليعرف الطلاب نسب كل شخص وزمن حكمه ، وأرجو لإخواني الزملاء الاهتمام بتدريس هذه الواثق ليعطوا الطلاب فكرة عامة للبحث قبل تدريسه .

وبعد ان كتبت فصولاً عن حضارة كل قسم من أبحاث الكتاب اضطررت لحذفها نظراً لتأجيل البرنامج لبحث الحضارة للصف الرابع ، وكان الاولى دراسة حضارة كل دولة مع تاريخها السياسي ليعرف الطلاب على مقام به رجال هذه الدول في عمل الحضارة .

واني اشكر الاستاذ الشيخ زين الدين العايد بن لفضله بمراجعة هذا الكتاب ، كما اشكر بعض طلابي الذين ساعدوا في رسم المصورات ، وأشكر مقدماً كل زميل كريم يعرفني عن ملاحظاته عن هذا الكتاب والسلام .

دمشق في تشرين اول سنة ١٩٤٦

رفيق المرباني

1:55-13646

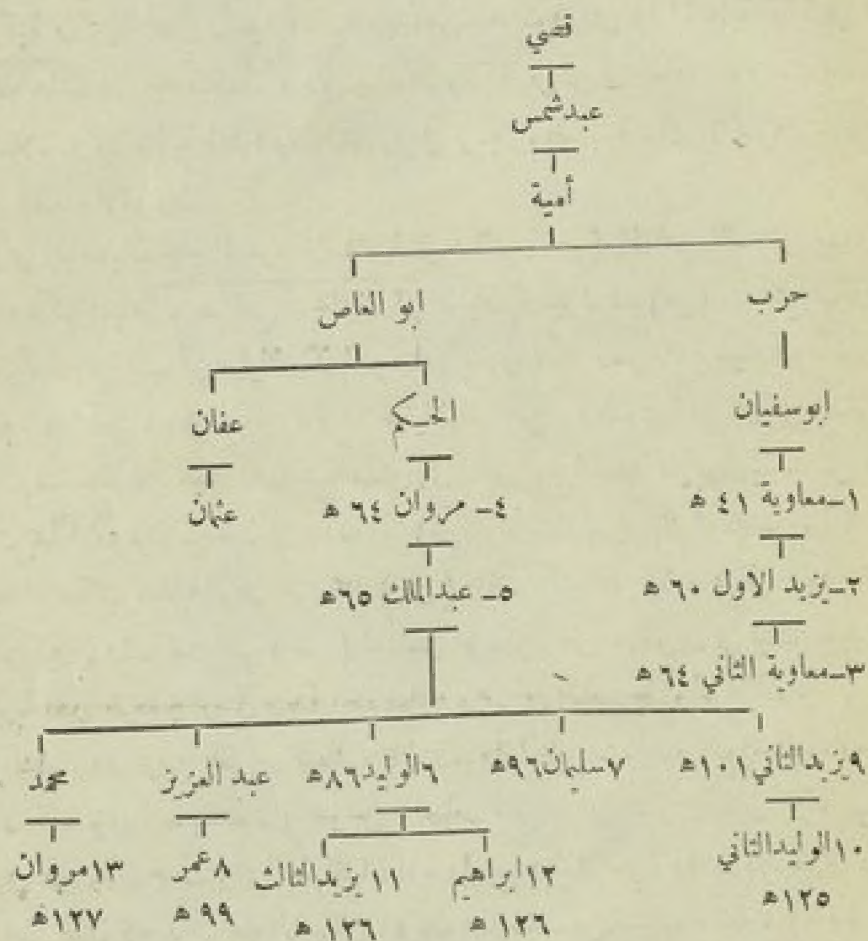
الكتاب

لسل عربي مخلص لأروبنه ، ويحمل على تحقيق ومدة البهزء العربية

القسم الاول

الخلافه الاموية

السلالة الأموية



الباب الاول

الدولة الاموية

كان أمية بن عبد شمس بن عبد مناف سيداً من سادات قريش في الجاهلية يعادل في الشرف والرفعة عمه هاشم بن عبد مناف . وكانا يتنافسان رئاسة قريش في الجاهلية ، واستمرت المنافسة بينهما في الاسلام . وكان لأمية عشرة اولاد انقسموا الى فرعين . العنابة - أي الأسود - والانياس . ومنها تفرع الخلفاء الامويون .

ولما رأى ابو سفيان نجاح الدعوة الاسلامية على يد النبي (ص) الهاشمي خاف على مكانة بيته الاموي . وذكر العباس - عم النبي - مخاوف ابي سفيان للرسول محمد (ص) عند فتح مكة ، وبلغه اسلامه ، فتألف النبي قلب ابي سفيان بأن امر منادياً ينادي بمكة « من أغمد سيفه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن ، ومن دخل دار ابي سفيان فهو آمن . » فسوى النبي بين ابي سفيان وبين الله وهذا شرف عظيم له . وبعد انتهاء فتح مكة ولي النبي عايشاً شاباً من بني عبد شمس . ومنذ ذلك الوقت بدأ الامويون يدخلون في خدمة النبي (ص) والاسلام ليسترجعوا مكائهم التي كانت لهم في الجاهلية . فكتب معاوية الوحي للنبي محمد (ص) وانضم كثير من الامويين في جيش الاسلام لمحاربة المشركين . ولما توفي النبي (ص) استعمل ابوبكر بعض الامويين في قيادة الجيوش التي أرسلها لمحاربة اهل الردة كما أرسل يزيد وأخاه معاوية وعمر بن العاص على رأس الجيوش التي ذهبت لفتح بلاد الشام . وفي زمن عمر بن الخطاب كان يزيد والياً على دمشق ، وكان اخوه معاوية عاملاً على الأردن فلما توفي يزيد بطاعون (عمواس) اضاف الخليفة عمر الفاروق عمل يزيد الى اخيه معاوية . وفي عهد عثمان جمعت بلاد الشام كلها لمعاوية واصبح والياً لها العام . وقد ازداد نفوذ الامويين كثيراً في زمن عثمان لانه قرب اهله الامويين ، وكان هذا سبب من اسباب مقتله . ولما تولى الامام علي الخلافة قامت المنازعات بينه وبين معاوية . فلستطاع معاوية بدهائه وسياسته ان يأخذ الخلافة لنفسه ولاسرتة من بعده .

وسأعرض تاريخ الدولة الاموية التي استمر حكمها من سنة ٤١ هجرية الى سنة ١٣٢ هجرية او من سنة ٦٦٢ ميلادية الى سنة ٧٥٢ ميلادية اي مايقارب الاحدي والتسعين سنة بحسب تاريخ خلفائها.

١ - معاوية بن أبي سفيان

ولد معاوية بمكة واسلم يوم فتحها ، وأبوه أبو سفيان واسمه عند . وكان بعد اسلامه كاتب الوحي عند رسول الله (ص) ، وغزا الشام تحت امره أخيه يزيد وأصبح والياً للشام في زمن عثمان . ولما استشهد الخليفة عثمان وبويع الامام علي بالخلافة في المدينة امتنع معاوية عن مبايعته ، واتهمه بالهوادة تجاه قتلة عثمان وأبواؤهم بجيشه . وباع اهل الشام معاوية على المغالبة بدم عثمان ، ونحارب الطرفان في صفين وكادت الغلبة تكون لجيش علي ، الا ان عمرو بن العاص اتقن الموقف بطاب التحكيم ، فلما اجتمع الحكمان وفضل امر التحكيم بايع اهل الشام معاوية بالخلافة ، وباع اهل العراق علياً خائفة عليهم ، وما زال الخلاف محمداً بينهما حتى قتل علي بن ابي طالب ، وسم ابنه الحسن الخلافة الى معاوية عند ما باس من نصرة اهل العراق له ورأى ان لا قبل له بمعاوية وجنده . فاجتمع اهل العراق والشام علىبيعة معاوية وبدأت بهم امور الدولة .

تولى معاوية أمر الامة وهي ثلاثة اقسام : القسم الاول شيعة بني امية من اهل الشام ومن غيرهم في سائر الامصار الاسلامية . القسم الثاني شيعة علي بن ابي طالب وهم الذين كانوا يحبونه ويرون انه احق بالامر من معاوية وغيره وان اعفاه احق بولاية امر المسلمين من غيرهم ومعظم هؤلاء من الشيعة يسكنون بلاد العراق وقليل منهم بمصر . القسم الثالث انصار ابي بكر (الكوفيين) الذين يستحلون

دماء مخالفينهم وروثهم مارقين من الدين . فكان على معاوية ان يسوس هذه الاحزاب المختلفة ويخضع
التاثر منها لسلطته فاتبع سياسة الحزم وولى الامصار رجلاً عرفوا بالدهاء والمقدرة . وسأناكم عن
اعماله في كل قطر على حدة .

اولاً في العراق :

كان العراق مركزاً لحركتين خطيرتين تثيران الشغب على معاوية ويزيدان اتهم الدولة الاموية
وهما حركة الخوارج والشيعة . وقد فاق معاوية من الخوارج لانهم قوم قدام يرفع معهم حسن السياسة .
فقد غلوا في الدين غلوً عظيماً ، وقبحوا كثيراً منه على غير وجهه ، وكانوا شجعاناً وابطالاً ، وغلاة بين
لمبادئهم ، وادكر حادثة واحدة فقط جرت لهم في منازلهم مع معاوية لايين شجاعتهم واطهر
تدينهم .

تولى امر الخوارج حوثة الاسدي فقال معاوية لابي حوثة : « اكفني امرائك » فذهب اليه
ابوه فدعاه الى الرجوع فاني فقال له يابي : « اجبتك بايثاك فلعلك تراه تصحن اليه » فقال « يا ابي انما
والله اني طعنة نافذة انتقلب فيها على كموت ارمع لشوق مني الى ابي » فرجع الى معاوية فالتخبره
فقال : « يا ابا حوثة عتاهذا جداً » وامر بحرقه . وعند البارزة خرج اليه ابوه ودعاه الى البرار
فقال « يا ابي انت في غيري متدوحة » ولي في غيرك مذهب عنك » ثم حمل على القوم وهو يقول :

اكبر على هذي الجموع حوثة فمن قليل ما نزل الغيرة

لحمل عليه رجل من طي فقتله فرأى أثر السجود وقد لمح جبينه فندم على قتله .

ثم نوات اعمال الخوارج ونوراتهم حتى اخافوا بلاد العراق ، فرأى معاوية ان لابد من تولية
العراق رجلاً ذوي مقدرة وحكمة يأخذون على ايدي السفهاء ويستبدون في طيب المريب . فاختار
رجلين كلاهما عرف بالسياسة وحسن الرأي وهما : الغيرة بن شعبة و زيد بن ابي .

اما الغيرة : فهو تقى الأصل من دماء العرب ، اشترك في معركة اليموك واديب بعينه ، وتولى
البصرة ثم الكوفة في خلافة عمر ، وعزله عثمان وجبته معاوية واليا على الكوفة ، فظفر ثباتاً في معاملة
الشيعة والخوارج وبقي والياً حتى سنة وفاة (٥١) هـ .

اما زيد بن ابي : فقد كان من دماء العرب وهو ابن جارية ندى حبة ، كانت تعيش في الصالح .
واما ابوه فشكوك فيه ويقال انه ابو سفيان . وقد قيل فيه : « لو كان ابو هذا الغلام من قريش
لساق العرب بمصاء » . وهو من اتباع عني وكان والياً له على فارس ، وساق قتل عني جمل معاوية
الغيرة بن شعبة وسيطاً في استنائه واستفدائه اليه . فأتى الغيرة زياداً وقليله : « ان معاوية استخفني
الرجل حتى يهني اليك ولم يكن احد يدبني الى الخلافة الا الحسن وقد بايع معاوية فيخذ لنفسك

قبل المؤمنين فيستغي عنك معاوية ، فقال زياد : يا امرئ على وارم القرض الأقصى فإن المفسد مؤتمن .
 فقال له المغيرة : يا امرئ ان فصل جملك بحبله وتشخص اليه ويقضي الله . وكذب اليه معاوية بالامان
 بعد عودة المغيرة فأتى اليه وعفا عنه وولاه البصرة وسراسر وسجستان سنة ٤٤ هـ . فقدم البصرة
 وخطبهم خطبته الشهيرة بالبراء . وانما قيل لها ذلك لانه لم يحمد الله فيها . وقد ذكر فيها حادثة انما اد
 والفوضى التي وصلوا اليها . وبين سياسته التي سبغها في معاملتهم وهي : « لين في غير ضيف رشدة
 في غير غف » ومنع الناس من الخروج في الليل . وكانت شرطته تجول في الاسواق فمن وجدته
 خارج بيته قتله . وفي ذات ليلة امسك رئيس الشرطة اعرابياً خرج ليلا يفتش عن بثرته فاداه الى زياد
 فقال له : هل سمعت النداء فقال : لا والله لا علم لي بما كان من الامر . فقال زياد : اطلقتك صادقاً
 ولكن في قتلك صلاح الامة . فامر بضرب عنقه . يخاف الناس واليهم الجهد خوفاً شديداً حتى
 امن بعضهم بعضاً . فكان النبي يستط من يد الرجل او المرأة فلا يأخذه احسد حتى يأتية صاحبه ،
 ودار الرجل لا يفتق باب دونه . وبلغ عدد شرطته زياد اربعة آلاف رجل .

وبعد وفاة المغيرة بن شعبه اضاف معاوية الى زياد ولاية الكوفة . فصار والي البصرة ومعاوية
 اول من جماله . فصار الى الكوفة ودخل الجامع ليخطب الناس فحسبه بعضهم وهو على المنبر فجلس
 حتى امسكوا اثم دعا قوماً من خدمته فالتفتوا ابواب المسجد ودعا من كان فيه اربعة اربعة يخافون
 ما منا حسبك فمن حلف بالله ومن لم يحلف حمله حتى دار الى ثلاثين امتنعوا عن الحلف فامر
 بقطع ايديهم . وكان يقيم بالبصرة سنة اشهر وبالكوفة مثلياً . وقد تمكن من تهدئة الحالة وبشر الامن ،
 ومعاوية الثاني من الخوارج والشيعية . وقبض على حجير بن عدي الكندي وارسله مع اخوانه سامية ،
 فمربقته وبعض اصحابه من شيعة علي . وقد توسطت عائشة بخلافه الا ان الحكم قد نفذ به . وقد
 رثت عند بنت زياد الانصارية حجيراً وكانت تتشيع بقولها :

| | |
|--------------------------|-------------------------|
| ترفع ايها النحر المنير | تبصر هل ترى حجيراً يسير |
| يسير الى معاوية بن حرب | ليفتته كما زعم الامير |
| تجبرت الجوار يوم حجير | وطاب لها المودق والدمير |
| وامرحت البلاد له محولاً | كأن لم يحبها مزن مدبر |
| الا يا حجير حجير بني عدي | تلكك السلامة والسرور |
| اخاف عليك ما اردى عدياً | وشيحاً في دمشق لها زهير |
| فان تهلك وكل زعيم قوم | من الدنيا الى هناك يصير |

وقد وجه زياد اهل العراق الى فتح بلاد المشرق فبصر فيهم عن النبي الداخلية ، فخفضت لاطاعته

الولايات من نهر الفرات الى نهر جيحون ، وهذه السياسة التي اتبعها هدأت البلاد وساد الأمن فيها . وتوفي زياد سنة ٥٣ هـ بالطاعون . وخلفه في ولاية الكوفة عبد الله بن خالد ثم النعمان بن بشير الانصاري . اما في ولاية البصرة فخلفه ابنه عبيد الله وقد اشتد على الخوارج وقتل جماعة كثيرة منهم ونكل بعروة بن مرداس وامر بقطع يديه ورجليه وسأله كيف ؟ قل : داري انك افسدت دنياي وافسدت آخرتك ، فقتله وامر بقتل ابنته ايضاً نثار اخوه مرداس بالاهواز وخرج بأربعين رجلاً ، فبعث اليهم زياد جيشاً عدته الفان ، وعليهم ابن حصن التميمي فزمه الخوارج فقتل شاعراً :

ألقا مؤمن فيما زعمتم وبقتلكم بأسك اربعونا
كذبتم ليس ذلك كما زعمتم ولكن الخوارج مؤمنونا
هي الفئة القليلة قد علمتم على الفئة الكثيرة بفصرونا

ولم يزل عبيد الله والياً على البصرة حتى توفي معاوية .

ثانياً مصر :

ان لمصر أهمية عظيمة نظراً لقربها من بلاد الشام ولوقوعها الجغرافي والحربي والاقتصادي . لذلك ترك معاوية ولايتها لداعية العرب عمرو بن العاص فاتحها واعرف الناس بها ، وهو الذي قدم اعظم الخدمات لمعاوية بإشارته عليه برفع المصاحف في معركة صفين وخدعته لابي موسى الأشعري وقت التحكيم ، وبني عمرو والياً على مصر حتى سنة وفاته ٤٢ للهجرة . ثم خلفه ابنه من بعده .

ثالثاً الحجاز :

أهتم معاوية كثيراً بأمر الحجاز فكان ولائه دائماً من بني أمية ، وانفق عليه أموالاً كثيراً في سبيل مشاريع الري ، واستألف زعمائه اليه . فجعل معاوية هذا القطر برحاء ورفاهية يشغل اهله عن المطالبة بالخلافة ، وقد نجح معاوية بهذه السياسة طول حياته وجعل الحجاز ندوة الادب والفنون . وتتابع على ولاية الحجاز في زمن معاوية ولادة كثيرون وكان عند وفاته الوليد بن عتبة بن ابي سفيان والياً على المدينة وبني بن حكيم بن صفوان بن أمية والياً على مكة .

رابعاً الشام :

جعل معاوية بلاد الشام مركز حكمه ، وجعل دمشق قلب الدولة الناشئة وصحة خلافته ، واتخذ اهلياً بطائفة واعوانه ، ليساعدوه في حكم البلاد وادارتها . وقد كان اهل الشام سابقاً تحت حكم البيزنطيين فاكثسبوا لذلك شيئا من التنظيم والخصوع ، وعرفوا طرق الحرب والادارة . وجعل

معاوية من القبائل العربية النازلة بأرض الشام نواة جيشه ، وصاهر بعض هذه القبائل ليرتبط معها بلحمه ودمه وقد بقيت بلاد الشام مخصصة له والامويين من بعده .

وقد نجح معاوية بإدارة الدولة الداخلية نجاحاً عظيماً نظراً لحسن سياسته ، وبعد نظره وصبره ، وحزمه ، ومعرفته بخفايا الأمور ، وتقريبه لرؤساء العرب من قيسيين وغناتيين وبثله الأموال لاشتراف المسلمين من أبناء الأنصار والمهاجرين واختياره أحسن الولاة القادرين على العمل والإدارة : كعمرو ابن العاص والمغيرة بن شعبة ، وزباد بن أبيه ، وقد حصر الدهاء فيهم فقد قيل : « الدهاء أربعة معاوية للروية ، وعمرو بن العاص للبدية ، والمغيرة للمعضلات ، وزباد لكل صغيرة وكبيرة » . وقيل عنهم أيضاً « ما رأيت أثقلاً حليماً ولا أطول أناة من معاوية ، ولا رأيت أغلب الرجال ولا أبذلهم حين يجتمعون من عمرو بن العاص ، ولا أشبه سرّاً بملانية من زياد ، ولو كان المنيرة في مدينة لها ثمانية أبواب لا يخرج من باب منها إلا بالمرحى لخرج من أبوابها كلها » . والحقيقة أن نجاح معاوية في حكمه يعود لحسن سياسته وحكمه وبثله فهو « مربى دول ، وسائس أمم ، وراعي ملك » . وذكر ابن عبد ربه في عقده أن معاوية قال : « لو أن بيني وبين الناس شجرة ما انقطعت أبداً ، إذا مدوها شددتها وإن شدوها رخيتها » .

سياسة معاوية الخارجية

انصرف معاوية في ابتداء حكمه لتهئية الحالة الداخلية ، والقضاء على التأثيرين الوتائيلين ذوي أطرافهم ، وبعد أن ثبت ملكه في الداخل وجه نظره لامتج والتوسع في الخارج وكان هناك ثلاث جهات يعمل بها :
أولاً جهة الشمال :

كانت بلاد الروم قوية في زمن معاوية بحكمها ملكان أحدهما قسطنطين الثاني بن هرقل الثاني الذي ولي الملك من سنة ٦٤١ إلى سنة ٦٦٨ . والآخر قسطنطين الرابع الذي ولي من سنة ٦٦٨ - ٦٨٥ م . وقد استفاد البيزنطيون من الفوضى الناشئة في بلاد العرب ليوسعوا حدودهم الجنوبية ، فسلطوا قبائل (البردي) التي كانت تسكن في جبال كليشيا وآسيا الصغرى على المناطق الجبلية في بلاد الشام لذلك عقد معاوية معاهدة مع البيزنطيين ليرفعوا الذي هذه الاقوام عن بلاده مقابل مبلغ من المال يدفعه سنوياً لهم . ولم يلبث معاوية عندما استقر له الامر في داخل بلاده أن حارب البيزنطيين بحراً وبراً :

منذ أن فتحت بلاد الشام ومعاوية يتوق للغزو الروم في البحر ، وقدمنه الخليفة عمر بن الخطاب من ذلك خوفاً على المسلمين من الفرق في البحر ، فلما ولي عثمان الخلافة استأذنه الغزو في البحر ، ولم

زل باع عليه حتى اذله بشرط ان لا يكره احداً من المسلمين على النزول في البحر وان يصحب معه زوجته : وفي آخر خلافة عثمان سنة ٤٣٥ هـ حدثت غزوة الصواري التي اقتصرت فيها الاسطول العربي على الاسطول البيزنطي ومقره من شرق البحر الابيض المتوسط. وتدرت معاوية الغزو في البحر ماضية وشائية كما هي الحالة في البر . وانظم عمل حربي حدث في زمن معاوية في هذه الجبهة هو حصار القسطنطينية سنة ٤٤٩ هـ . فقد جهز معاوية اسطولاً مؤلفاً من ١٧٠٠ سفينة كاملة العدد والعدد ، وحيثاً برأ عظيم بقيادة سفيان بن عوف وامرؤ يزيد بن معاوية ، وكان في هذا الجيش خيرة رجال العرب : كلبن عباس ، وابن عمر ، وابن الزبير ، وابي ايوب الانصاري ، وعبد العزيز ابن زرارمة الكلبي . فحاصر المسلمون اسوار القسطنطينية من ناحية البر والاسطول من ناحية البحر ، ولم يكن المسلمون من فتحها نظراً لشدة اسوارها ومتمعة موقعها وتلك النار اليونانية (١) بسفن المسلمين . وقد استشهد أثناء هذا الحصار ابو ايوب الانصاري وعبد العزيز بن زرارمة الكلبي الذي رثاه ابوه عندما بلغه منتهى بقره :

فلن يكن الموت اودى به واصبح بلخ الكلبي زوراً
فكل فتى شارب كآله فلما صغيراً ولما كبيراً

ولا يزال قبر ابي ايوب بجوار مدينة القسطنطينية زار حتى الآن . وعاليه مسجد كان الخلفاء العثمانيون يتوجون فيه . وانسحب الجيش العربي مع ولي العهد يزيد الى الشام بعد ان قتلوا كثيراً من جنودهم ومراكبهم .

وقد قام الاسطول في زمن معاوية بغزوات عظيمة في البحر منها : فتح جزيرة قبرص ، ورودس وبعض الجزر اليونانية .

ثانياً جبهة المشرق :

لم يوسع المسلمون في جبهة المشرق كثيراً في زمن معاوية ، الا انهم ارجعوا الناكثين من اهل

١ — النار اليونانية : هي نكر استخرجها رجل سوري من اعالي بعلبك واسمه (كاليلوس) اختدع لمعرفتها واخبر سرها البيزنطيين عند حصار العرب لقسطنطينية . وقد تمكن العرب فيما بعد من معرفة سر هذه النار وهي تتركب من مواد محترقة يذكرها ابن منكل في كتابه بأنها تتخذ من شحم كلاب البحر ، والزفت ، والكبريت ، والراتنج . . . وغيرها على مقدار يحدد في كتابه فتشتعل وتظل يوماً وليتها لا تنطفئ . ومن خصائص هذه النار انها تشتعل في الماء ولا تنطفئ الا بالتراب القوي او الرمل . . . (نقلاً من بحث عن الاسطول العربي المؤلف)

ثبت البلاد إلى الطائفة ، وغزا الملب بن أبي صفرة نجر السند ووادي الهندوس المنخفض . وقام
العرب ببعض الفتوحات في جهة الأفغان الشرقية .

ثالثاً جهة المغرب :

بعد أن فتح عمرو بن العاص مصر وجه اهتمامه بتوطيد حدودها الغربية ، فدار بجذبه جهة
المغرب واستولى على برفة وصالح أهلها على الجزية ، وأصبحت مركزاً للمغرب يوجهون حملاتهم منها
إلى المغرب . وكان شمال إفريقيا يسكنه قوم من البربر يخضع القسم الساحلي منه لحكم البيزنطيين .
وكان على الشرقيين المندقين قرطاجة إلى ملجئة حاكم يدعى : (غريفيوس) أو (جرجير) يكبدونه
العرب . فحارب المسلمون وانتصروا عليه ، ونهض الروم أن يدفعوا للمغرب جزية في كل سنة . ولما
وفا معاوية الخلافة وجه اهتمامه لأفريقية . فأرسل سنة (٥٠) للهجرة عقبة بن نافع . فطبع عقبة تلك
الجهات بإطاعة الخصاص ، وأصبح مقدساً عند أهلها ، ولا يزال حتى الآن يدعى « سيدي عقبة » . واحتل
مدينة القيروان بجنوب تونس . وجعلها قاعدة الحسنة ، ومركزاً يوجه ضرباته منها للروم والبربر
وتوغل داخل البلاد إلى الجنوب . واستولى على الأماكن البربر ومعاقلهم مثل (ودان) و (فزان)
واشتد في معاملة البربر . فكان يجمع أنوف رؤسائهم أو يقطع آذان مشايخهم ويقول لهم :

« هذا أدباً لك حتى تتذكر أن لا تحارب العرب » . وسبب هذه الشدة يعود لشدة غلب أولئك
البربر ، فلما دخل عليهم أمير اطاعوا وأظهروا بعضهم الإسلام ، فلما عاد الأمير عنهم نكثوا وارتد
من إسلام . إلا أن هذه الشدة سببت عزل عقبة عن ولاية المغرب وتولية أبي المهاجر دينار بدلاً منه .

البيعة يزيد

أن المغيرة بن شعبه هو أول من أشار على معاوية بولاية العهد لابنه يزيد ، لثبوت مركزه
بالكوفة بعد أن علم أن معاوية نازح على عزله . فبين يزيد أرجحيته بولاية العهد بعد أبيه . لاسيما
وأن أصحاب النبي من كبار قريش قد ماتوا ، فأنجز يزيد أمراً من المغيرة فاستدعاه معاوية وسأله عن
الخبر فقال : « قد رأيت ما كان من سفك الدماء والاختلاف بعد عثمان » وفي يزيد منك خلف فاعقد
له فإن حدث بك حادث كان كفيلاً للناس وحفظاً منك ولا تسفك دماء ولا تكون فتنة » قال ومن
لي بذلك ؟ قال : أ كفيك أهل الكوفة ويكفيك زياد أهل البصرة وليس بعد هذين الصخرين أحد
يخالفتك . « . في المغيرة على ولاية الكوفة بدو يزيد وجاء اقتراحه موافقاً لما في نفس معاوية ،
وأرسل إلى زياد ابن أبيه عامله على البصرة يستشيره بالأمر فإشار عليه بالتعريض لعدم توفر شروط
الخلافة في يزيد « ثباته وولعه بالصيد » . إلا أن زياد أقدم على يزيد ونصحه فكف عن كثير مما كان

يصنع . وكتب معاوية لمروان بن الحكم أمير المدينة يطاعه على جوهر الفكرة وهي اختيار خليفة المسلمين من بعده . وبذلك ربي أهل المدينة بذلك فاستحسنوا الفكرة كثيراً ، إلا أن ثورة الغضب انشعلت في قلوبهم عند ما علموا أنه سيستخلف ابنه يزيد . فقام عبد الرحمن بن أبي بكر وقال : ما الخبار أوردتم لامة محمد . ولكنكم تريدون أن تجعلوها هرقلية كما مات هرقل قام هرقل ، وانكر ذلك الحسين بن علي ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن الزبير . فكتب مروان إلى معاوية يخبره بذلك .

ثم دعا معاوية وفود البلاد فأنته إلى العاصمة لجمع زعماء القوم في قصره . ودخل عليهم وجلس على عرشه وزيد عن يمينه والضحك بن قيس القهري عن يساره . فتكلم معاوية فعظم أمر الاسلام وحرمة الخلافة وحقها وما أمر الله به من طاعة ولاة الامر ، ثم ذكر يزيداً وفضله وعلمه بالرياسة وعمره بدمته . فقام الضحك . وكان معاوية قد اتفق معه قبل الحضور إلى المجلس أن يتكلم . فلما ذكر ضرورة وجود ولي عهد معاوية يقوم بجمع كلمة المسلمين ويحقق دمامهم ، وأيس أصلح من يزيد لذلك لا ثم تكلم غيره بمثل ذلك وقلم رجل فقال : هذا أمير المؤمنين وإن هلك فهذا - يعني يزيد - ومن أي فهذا ، وأشار إلى سيفه فقال له معاوية : أقمه فانت سيد الخطباء ، ولم يكن أجراً من الاحناف بن قيس في تلك الساعة الرعية فنه ظهير رأيه دون وحل وفل . تخافكم ان مدقنا وعلاف الله ان كذبنا وانت يا أمير المؤمنين اعلم يزيد في ليلة ونهاره وسره . وعلايته ومدخله . ومخرجه فن كنت تعلم الله ولاأمة رشا فلا تشاور فيه وإن كنت تعلم فيه غير ذلك فلا تزوده الدنيا وانت صائر إلى الآخرة . وانما علينا ان نقول سمعنا واحضنا . فقام معاوية الا وقد تمت البيعة ليزيد من أهل الشام والعراق . فكان عليه أخذ البيعة لأبنه من أهل الحجاز فظهير الحج وسار بالفس فارس إلى المدينة ثم ذهب إلى مكة وقضى مناسك الحج بها . واجتمع بالمارضين من أبناء الصحابة فوعدهم وأوعدهم . وذهب إلى المسجد فعرس البيعة لابنه يزيد فباعوه خوفاً على انفسهم . وهكذا نجح معاوية بأخذه البيعة لابنه بالقوة . واصبحت الخلافة فيها بعد بابيت الاموي بزنها الابن عن أبيه .

اصلاحات معاوية

قام معاوية بالاصلاحات الآتية :

اولاً نظم ولاية العهد : فقد كانت طريقة انتخاب الخليفة في زمن الخلفاء الراشدين شورى بين المسلمين ، فعلم معاوية ملكاً لثبات يومى به الخليفة السابق لمن شاء من بعده ، على ان يبايعه المسلمون ويوافقوا على تعيينه . وإن كانت هذه الموافقة صورية فقط . ولا يمكن ان تعتبر طريقة

الذين تولوا به الهدى أولى من طريقة الشورى من الناحية النظرية ، إلا أنه أصبح من الصعب على المسلمين من الناحية المعاصرة أن يتفقوا على خيانة يولونه أمر دينهم ودينهم نظراً لتعدد أجزائهم واختلاف شعبيهم وكثرة المرشحين لهذا المنصب والراغبين في الوصول إليه ، وتوسع بلاد المملكة الإسلامية واتساحها بالفعل إن الشقاق قد استفحل حول انتخاب الخليفة منذ أيام علي ومعاوية فكان لابد للمسلمين من تغيير طريقة الشورى واستبدالها بطريقة الملك الأثري بدليل استمرارها في زمن الخلافة الأموية والعباسية وما بعدها .

ثانياً : أسس الأسطول العربي في زوارقه أغزو في البحر طائفة من أهل المملكة الإسلامية وتوسيعها . وقد بلغ عدد المراكب التي غزا بها المسلمون جزيرة قبرص في زمن معاوية خمسة مراكب . وآخر ما وصل إليه عدد سفن الأمويين أيام معاوية ١٧٠٠ سفينة . وهو عدد عظيم يدل على قوة العرب البحرية في ذلك الزمن .

ثالثاً : أحدث نظام البريد . وقد أقدم معاوية على الروم والفرس . وهو عبارة عن جعل خيل مضمرات في عدة أماكن فإذا وصل صاحب الخبر المسرع إلى مكان منها وقد تعب فرسه ، ركب غيره فرساً مستريحاً ، وكذلك يفعل في المكان الآخر حتى تصل أوامر الخليفة ورسائله بسرعة إلى الأمراء والعلماء . وكانت تقص أذناب خيل البريد وأمرائها لتعبر من غيرها من الدواب . رابعاً : اتخذ الحرس والحجرات على يده . وقد أشار عليه زياد بن أبيه بهذا الأمر لكثرة أعماله

وإزدحام الناس على يده لمراجعاتهم الخاصة والعامة . ولتجمع جموع الناس من الاتصال بالخليفة . خامساً : اتخذ المقصورة بالجمع يسمى بامندلاً من بقية المسلمين وذلك بعد محاولة الخوارج لاغتiale في القمامة التي دبروها له وأمي ولعمرو بن العاص .

سادساً : اتخذ ديوان الخاتم . لينقطع دابر التزوير الذي كان يطرأ على بعض رسائله . فقد كتب مرة لعمرو بن الزبير بمائة ألف درهم يأخذها من زياد بن أبيه ففتح عمرو الكتاب وزور المائة مائتين . فلما دفع زياد حياضه انكرها معاوية وأحدث على أثر ذلك ديوان الخاتم وحزم الكتب وكانت قبل لا تحزم . وكانت سرجون الرومي لا يكتب لمعاوية إلا بالرومية لأن الديوان لم يكن عربياً بعد .

هذه هي أهم إصلاحات معاوية وهي تدل على حنكة ومعرفة وتدبير .

بيت معاوية

تزوج معاوية عدة نساء منهن مبدون مات بحدائق وهي أم زيد وكانت تؤثر حياة البادية على حياة القصور وقد مات في ذلك :

لبيت تحقق الأرواح فيه أحب الي من قصر مئيف
 وأبس عبادة وتقر عيني أحب الي من أبس الشغوف
 وأكل كسيرة في كسر بيتي أحب الي من أكل الرغيف
 وأصوات الرياح بكل فج أحب الي من نقر الدلاف
 ومع كثرة مشاغل معاوية وأعماله ما كان بهدي أمر يذنه بل خصص له قطاً من وقته ينظيه
 فيه مع أهله وعائلته .

وفاة معاوية

مرض معاوية بدمشق وكان ابنه غازياً عنها فأحضر الضحاك بن قيس ومسلم بن عقبة المري وادى
 إليها وصيته المشهورة يزيد والتي قال فيها : يا بني اني قد كنتك الشد والترحال ووليت لك الامور
 وفلات لك الاعداء وانخضت لك رقاب العرب ... فانظر أهل الحجاز فاهم املك واكرم من قدم
 عليك منهم وتعاهد من غاب . وانظر أهل العراق فان سألوك ان تمزق عنهم كل يوم غدا فافعل
 فان عزك عامل السيل من ان يشر سايك مائة الف سيف ، وانظر أهل الشام فليكونوا بظانك
 وغيبك فان رايك من عدوك شيء فاقصر بهم ... واني لست أخاف ان ينازعك في هذا الامر الا
 اربعة من قريش الحسين بن علي وعبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير وعبد الرحمن بن ابي بكر ...
 وقد حذره من ابن الزبير واولاده بالآخرين خيراً . ومات معاوية بشهر رجب سنة ٦٠ هـ غزلاً
 الضحاك بن قيس انخير يزيد خزن لمسا بلغه ذلك واشدد .

اودى ابن هند واودى المجد تيمه كانا جريماً ذالما قطين معا
 اغمر البطح يسقي الغمام به لو قارع الناس عن احسابهم قرعا
 وقبر معاوية لا يزال في دمشق بترية باب الصغير .

٢ - يزيد بن معاوية

٦٠ - ٦٣ هـ ، ٦٨٠ - ٦٨٣ هـ

ولد يزيد بن معاوية سنة ٢٦ هـ وابوه امير الشام العباس بن عفان ، فترى في حجر الأميرة ،
 وقبل وفاة ابيه عيذ اليه بالخلافة من بعده . فلما توفي معاوية جدد أهل الشام البيعة ليزيد . وواصل
 يزيد الى الامصار يعلمهم بوفاة ابيه ويدالف منهم تحديده بيئته . وكتب الى الوليد بن عتبة عامله في
 المدينة يقول له : اما بعد ، فخذ حسناً وعبد الله بن عمر وابن الزبير اخذاً ليس فيه رخصة حتى

يرايحوا والسلام ، فلما علم ابن الزبير بنى معاوية ترك المدينة وذهب الى مكة وقال : اني عائذ بالبيت
الحرام ولم يبايع يزيداً وثار عليه فيما بعد . اما ابن عمر فقال عند ما سئل عن المبايعه ليزيد : « اذا بايع
الناس بايعت » وهكذا فعل . اما الحسين بن علي فعند ما عرض الوليد عليه البيعة قال : « ان متني
لا يبايع سراً فلما خرجت الى الناس ودعوتهم الى البيعة ودعوتنا معهم كانت الامر واحداً . »
ثم تفر على يزيد .

احسان يزيد الداخية

فجعة كربلاء

غادر الحسين المدينة الى مكة بجاست الوفود لزيارته : وتوافدت الرسائل تأتي اليه من اهل
الكوفة يدعونه للمجيء اليهم لمبايعته والخروج على يزيد . فيكتبون مثلاً : « اما بعد فالت الناس
ينتظرونك ولا رأي لهم في غيرك ، فانجل ! فانجل ! والسلام عليك . » كما ان ابن الزبير اشار
عليه بالرحيل الى الكوفة وقال له : « اما لو كان لي بها مثل شيعتك ما عدت بها ... » وكان يزيد
الخاضع منه لان اهل مكة لا يبايعونه ما دام الحسين فيهم . فلما رسل الى الكوفة ابن عمه مسلم بن
عقيل ليختبر حالهم ويدرس اوضاعهم ، وكان والياً من قبل الامويين النعمان بن بشير الانصاري
وكان ضعيف الارادة ، ابن للعائلة حلياً ناسكاً ، ولما بلغه مجيئ مسلم الى الكوفة والشأن اهلها
حواله ، ومبايعهم للحسين قال : « اني لا اقبل الا من ياتاني ولا اتي علي من لا يلب علي ، ولا ابي
نأتمك ، ولا اخرج بك . . . » فكثر شيعه الحسين وبيعه ١٢ ألفاً وقيل ٨ الاف فكتب مسلم
لحسين يخبره بذلك ويدعوه للكوفة . الا ان احد السراة الامويين كتب ليزيد يخبره بقدوم مسلم
ومبايعه الناس له ويضعف عامله النعمان ، فعزله يزيد وولى مكانه عبيد الله بن زياد امير البصرة وجمع
له المتمردين وامره بطلب مسلم بن عقيل وقتله او تخيه . فجا ابن زياد الى الكوفة وخطب في اهلها
ومخاضه . . . « انما متنع فيكم امره - اي امر يزيد - ومنعه فيكم عهده ، فانا لحسنكم كافر الله البر
والطيبكم كالأخ الشقيق ، وسيفي وسوطي علي من تولد امري وخالف عهدي ، فليكن امرؤ علي
نفسه . » واخذ يلاحق مسلماً وشيعته ، فتفرق اكثرهم عنه فاستجار مسلم بهاني بن عروة المرادي
فاجلده فلم يتركه الله بمكان مسلم ، واستقدم حافلاً وطلب اليه ان يسلم مسلماً فاستمع وقال : « انا ارفع
جذري وسيفي وأنا حي صحيح اصبح واري شديد الساعد كثير الاعوان ، والله لو لم اكن الا واحداً .
ليس لي ناصر لم ادفعه حتى اموت دونه . » فامر ابن زياد بحبسه وعلم بذلك مسلم بن عقيل فخرج
بأنوائه وهم أربعة آلاف ، وهاجم قصر ابن زياد ولم يكن معه الا نفر قليل فلما رسل زياد رجلاً

يوزعون الاموال على الناس ليخجلوا مسلماً ، ويبت بعض المتنفذين من اهل الكوفة بفرقون جموع مسلم ويخوفونهم شر العاقبة ويعدونهم بالامان ، وهكذا لم يبق مع ابن عقيل الا ثلاثون رجلاً . فثار في امره واختفى . فمرف ابن زياد مكانه وقلة وهاتي معه .

اما الحسين فلما عزم على السير الى الكوفة فصحه كثيرون ومنهم ابن عباس بان يمدل عن رايه ويبقى في الحجاز ، او يسير الى اليمن لانها بلاد جارية حديثة ، وفيها شجرة ابيه ، ونصحه ابن عباس ايضاً ان لا يصحب معه اهله ونساءه واولاده فها اذا صمم على السير فاني ذلك . وفي الطريق قابل الفرزدق فسأله عن خبر اهل الكوفة فقال : « قلوب الناس معك وسيوفهم مع بني أمية » والقضاء ينزل من السماء والله يفعل ما يشاء ، وقابله ايضاً عبد الله بن مطيع ولما علم بوجهته نصحه بالعودة الى مكة لان بني أمية سيقتلونه فيها اذا حال بينهم وبين ملكهم ، وثمن قتلوه لا تبقى عندهم حرمة لاحد ... وفي الطريق بلغه مقتل مسلم بن عقيل فسأله احد اصحابه بالرجوع الا ان بني عقيل ابوا ذلك عليه والخوا بالمسير لاخذ ثارهم . ولما بلغ حدود العراق قابله فرسان ابن زياد وعلى رأسهم الحر بن زيد القيسبي الذي أرسل في طلب الحسين ليأتي به الى ابن زياد . ففقد ما عرف الحسين ذلك أمر اصحابه بالرجوع الى المدينة الا ان الحر منعه واخذ يراقبه حتى لا يعود الى المدينة . وسار الحسين حتى وصل سهل كمر بلامقرب نهر الفرات ، وحين ذلك قدم عليهم جيش سيده ابن زياد لقتال الحسين بتقدمه عمر بن سعيد بن ابي وقاص وجرت مراسلات بينهما فطلب الحسين العودة الى الحجاز فكتب عمر الى ابن زياد بذلك فقال :

الآن إذ عرضت مخالفاً به يرجو النجاة ولأنا حين مناص

وامره ان يعرض على الحسين ببيعة يزيد وان يمنعه هو ومن معه من الماء . فارتقى الحسين بالمباينة فكان لا بد من القتال . وفي العاشر من شهر محرم سنة ٦١ هـ نشبت الحرب بين الطرفين : بين جيش العراق الكبير وبين فئة قليلة لا تزيد عن الثمانين فكانت النتيجة محتومة بان قتل الحسين واهله الا ثغراً قليلاً ومنهم علي بن الحسين الذي ثقب فيها بعد بزين العابدين فحصلوا جميعهم مع رأس الحسين الى ابن زياد الذي بعثهم الى دمشق . وعند ما علم يزيد بخبرهم دمعت عيناه واسف لسا حدث واكرم متواهم وجيزم بعد ذلك الى المدينة . وقد ابلغت وجهة المؤرخين في هذه الحادثة مؤرخو الشيعة يرون في مصرع الحسين تغير وجهة العالم ، اذ ان الشمس قد كسفت لمقتله ، والنجوم هوت لمصرعه والقبور احمرت لارافقه دمه ، ويخون باللائمة على بني أمية لا سيما يزيد الذي لم يتنع غامله عن القيام بمثل ما فعل . ومؤرخو السنة يرون ان الحسين طالب امرأ لم يمد له عدته خيل بينه وبين ما يشتهي وقتل دونه ، وبأسفون لما جرى ، واما المنتسقون فيرون في هذه الحادثة انقسام المسلمين وتفرق كلمتهم .

وقعة الحرة

خرج اهل المدينة سنة ٥٥٤ هـ على يزيد وخلفوه ، وسبب ثورتهم هذه تعود الى ان يزيداً اراد ان يسترضيهم ويستسلم اليه فكتب الى عامله هناك ان يرسل وفداً من اشرافهم بقاءه وفد على رأسه عبد الله بن حنظلة الانصاري . فلما قدموا على يزيد اكرم مشواهم واحسن اليهم ، وانطاعهم المال الكثير لاصحاب عبد الله بن حنظلة وابنائهم الثانية : فلما عاد هذا الوفد الى المدينة اخذوا يستمعون يزيداً ويعيرون عليه خلاعته ومجونه ، واعلنوا خلعهم من الخلافة . فتابعهم اكثر اهل المدينة على ذلك وولوا امرهم الى عبد الله بن حنظلة . فلما علم يزيد بذلك ارسل اليهم التبعات بن بشير الانصاري ليضمهم ويردعهم عن فعلتهم ، وان يمردوا الطاعة يزيد ، فلم يجد نصيحته نفعا فيهم ، بل على العكس حاصروا من في المدينة من بني امية في دار مروان ، فكتب هؤلاء ليزيد يستغيثون به فقال :

لقد بدتوا الحزم الذي في سميتي فبدلت قومي غلظة بليان

وارسل اليهم جيشاً بقيادة مسلم بن عقبة المري وهو احد جبابرة العرب وشياطينهم ، وزوده بالنصيحة الثانية : « امهل القوم ثلاثاً فان اجابوك فيها والا فقاتلهم فان ظهرت عليهم فابعث ثلاثاً فكل ما فيها من مال او دابة او سلاح او طعام فهو للجند ففدا مضت الثلاث فكف عن الناس وانظر علياً بن الحسين فاكفف عنه واستوص به خيراً فانه لم يدخل مع الناس وانه اتاني في كتابه ، ففعل مسلم ما امره به يزيد الا انه اسرف في عمله فقد قتل زعماء المدينة وترك الجند يقتلون الناس ويأخذون الماع والاموال ، ثم دعاهم ليبيعة يزيد على انهم خول له يحكم في دماهم واموالهم واهليهم ، فمن امتنع عن ذلك قتله . ولا شك ان يزيداً وقائده قد اسرفا في عمالها هذا ، فكان عليها ان يحترما عاصمة الاسلام الاولى كرامة لسيد العرب محمد (ص) .

حصار مكة

سار مسلم بن عقبة بعد فتح المدينة متجهاً نحو مكة لئلا ينال ابن الزبير الذي اعطى خلافة وعصيانه ليزيد ، فلما ابتعد عن المدينة الا وادركته منبته . فاستخلف على الجند الحصين بن غبر حسب وحية يزيد . فسار بالجيش الى مكة فوصلها في محرم سنة ٥٥٤ هـ وخرج اليه عبد الله بن الزبير في اتباعه فدارت الدائرة على جند ابن الزبير فرجع الى مكة وحاصرها فلاحقه جند الحصين ، واقاموا حولها ورموها بالنجنيق الى ان بلغهم نعي الخليفة يزيد فوقف القتال وطلب الحصين بن غبر من ابن الزبير السير معه الى الشام وقال له : « فان هذا الجند الذي معي هم وجوه الشام وفرسانه فوالله لا يختلف عليك اثنان . . . » الا ان ابن الزبير ابي ذلك . ولو خرج معه لثمت له الخلافة لان اهل الحجاز والعراق وخراسان كانوا قد بايعوه بالخلافة .

اعمال يزيد الخارجية

اعاد يزيد عقبة بن نافع الى افريقية بعد ان نجاه عنها مسلمة بن مخلد الانصاري وعين مولاه ابا المهاجر دينار بدلاً عنه ، فلما وصل عقبة الى القيروان قبض على ابي المهاجر دينار وفوضه بالحديد ، وسار بعد ذلك بجنده بكل فتح افريقية بخارب البيزنطيين المتحصنين ببلدن الساحلية وحارب البربر في تاهرت وطنجة والسوس الأدنى والاقصى حتى بلغ المحيط الاطلسي فزال ، يارب لولا هذا النصر لمضيت في البلاد مجاهداً في سبيلك . ، الا ان فتحه لم يكن موثقاً ولم يحكم مؤخرته لذلك انقص عاينه الروم والبربر في عودته وقطعوا عليه طريق الرجعة وقلعوه وابوا المهاجر دينار ومن معه من المسلمين . وكان قيس بن زهير الهجري في القيروان فلما علم بالكارثة سحب الجند وسار بهم الى برقة لانه لا قبل له باعدائه ، وضاعت شمالي افريقيا من يد الامويين .

صفات يزيد

تربى يزيد بالبادية مع امه يسون النكابة ، ولذلك اكتسب طباع البادية من خشونة وفروسية وكبرم وحب الفصيد والتهور والشعر حتى قيل : بدي الشعر تلك وختم تلك ، يتون امراً قيس وزيد . والاحكام مختلفة فيه نظراً للحوادث الخطيرة التي جرت في زمنه : من مقتل ابن بنت رسول الله ، وانتهاك حرمة مدينة رسول الله ، وتهديم بيت الله بالمنجنيق . الا ان بعض المؤرخين يبررون اعماله ويريونها ضرورة اقتضتها الظروف ولا يحملونه التبعات كلها ، بل يضعونها شيئاً منها على الذين ثاروا في زمنه ولم يحبوا حساباً لبطشه .

اهتم يزيد بالزراعة ونظام الري لسقي غوطة دمشق ، وحضر نهر يزيد الذي لا يزال يسقي ارض الصالحية . حتى ان بعض الروايات تدعو : الملك المهندس ، وانه قال : سكتة بنت الحسين : ما رأيت كافراً بالله خيراً من يزيد .

تزوج يزيد ام هانم بنت عتبة بن ربيعة وكان له منها معاوية ومخلد ، وتزوج غيرها من النساء وله منهن الاولاد ، الا ان اولاده لم يتسكنوا من انشاء الخلافة فيهم ، وانتقلت بعد وفاة معاوية الثاني الى فرع اموي آخر وهو الفرع الحسكي .

توفي يزيد في حوران سنة ٤٥ هـ وكان عمره ٢٣ سنة وحكم ما ينوف عن ثلاث سنوات وخمسة أشهر وانتقلت الخلافة لابنه معاوية من بعده .

٣ - معاوية الثاني

٦٣ هـ أو ٦٨٣ م

خلف يزيد ابنه معاوية وكان شاباً ضعيفاً يلتمس رأي أبيه ، وكان عمره إحدى وعشرين سنة لما اختاروه أهل الشام للخلافة ، ولم يلبث بعد شهرين أن اعتزل الخلافة دون أن يولي خلفاً له فأتاه في خطاب اعتزاله « لما بعد فاني قد ضعفت عن امركم فابتغيت لكم مثل عمر بن الخطاب حين استخلفه أبو بكر فلم أجده ، فابتغيت ستة مثل ستة الثوري فلم أجدهم ، فأتهم أولي بامركم ، فاختاروا له من أحببتهم » وطلب إليه أن يولي الخاء خالداً فقال : « والله ما ذقت حلاوة خلافتكم فلا اتقدم وزرها » ودخل بيته وتغيب عن الناس حتى مات بعد بضعة أيام . وبتوة أبيه حكم السفليانيين من البيت الأموي .

٤ - مروان بن الحكم

٦٤ - ٦٥ هـ أو ٦٨٢ - ٦٨٥ م

ولد مروان في السنة الثانية من الهجرة ، أبوه الحكم من اشراف الأمويين ، وأمه آمنة بنت علفمة من قبيلة كنانة ، وفي خلافة عتيان بن عفان كان مروان ساعده وكتابه ومدير امره ، حتى أن الناس تاروا على الخليفة لاستبعاد مروان بالأعمال ، ولما توفي عتيان بايع مروان علياً ، وأقام بالمدينة حتى أفضت الخلافة لمعاوية بن أبي سفيان فولاه المدينة مرتين ، وبعد وفاته قرع يزيد إليه وأكرمه وبقي في الشام إلى أن توفي معاوية الثاني دون أن يكون هناك مرشح للخلافة من الأمويين ، ففكر مروان في مبايعة ابن الزبير ، إلا أن عبيد الله بن زياد ، والي العراق الذي حاول أن يأخذ البيعة لنفسه من أهل البصرة والكوفة ونشل وكادوا أن يقتلوه ، هرب إلى الشام وأشار على مروان أن يطلب الخلافة لنفسه ، لأنه شيع بني أمية ، فقام بعمل لها . وكانت الشام منقسمة إلى أحزاب : ففي دمشق حزب الضحاح بن قيس ، وفي حمص جماعة النعمان بن بشير ، وفي قسرين أصحاب زفر بن الحارث السكابي ، وكانوا جميعهم يدعون لابن الزبير . أما في فلسطين : فكان حسان بن مالك السكابي خال خالد بن يزيد يدعون للأمويين ، ويطمعون في تولية خالد ابن اخته ميسون ، إلا أنه كان صغير السن ، ولم يقبل به أهل الأردن . فجاء مروان واجتمع بزعماء السكابين في الجابية - من أرض الجولان بين حوران والأردن - وأقنع السكابين بمبايعته ، فبايعه حسان وقومه على أن تكون الخلافة لخالد بن يزيد من بعده ، ثم لعمر بن سعيد بن العاص من بعد خالد . وهكذا تمت البيعة لمروان في شهر ذي القعدة سنة ٦٤ هـ . وانضم إليه الأمويون ، وعمل مروان على إخماد الثورات في الأمصار .

سياسة مروان الداخلية

معركة مرج راعط

أولاً الشام : كان للسياسة التي اتبعها يزيد ومن بعده ابنه معاوية الثاني من تقريب الجانبين وإبعاد القيسيين تأثير عظيم في ادكاء نار العصبية والبغضاء بين الطرفين . فعندما اضطربت حالة بلاد الشام وخلا البيت الأموي من وريث للخلافة ، قام الفيسيون بزعملة الضحاحك بن قيس القيري بعبادة ابن الزبير . فلما تمت البيعة لمروان سار اليهم ببائل غسان وكتب والسكاسك وغيرها . وانتهى بالضحاحك ومعه جماعة من بني بكر وسليم وهوزان وذيان في مرج راعط - بأطراف دمشق - في شهر محرم سنة ٦٥ هـ وجرت موقعة هائلة بين الفريقين استمرت عشرين يوماً كانت الغلبة فيها لمروان وقتل الضحاحك وعدد كبير من جماعته ، وتفرق الباقون في البلاد ، وكان لهذه الموقعة أثر كبير في ادكاء نار العصبية من جديد بين قيس وعين . وكان من جراءها خراب الدولة الأموية . كما جرت تلك المعركة إلى إثارة قريحة شعراء الطرفين . وثما قاله زفر أحد زعماء القيسيين وهو راكن إلى الفرار من وجه مروان :

| | |
|--------------------------------|----------------------------|
| أرى الحرب لا تزداد إلا تنادياً | أرىني سلاحي لا أملك أني |
| أتاني عن مروان بالغيب أنه | متيد دمي أو قاطع من لسانيا |
| ففي العيش منجاة وفي الأرض مهرب | أذا نحن رفعا نحن المثنيا |
| فلا تحبوني أن نفيث غلاتاً | ولا تفرحوا أن نشتك بلغاتيا |
| فقد يبت المري على دمن التري | ونبقى جزازات النفوس كاهي |
| فلا صلح حتى تخط الخيل بالنا | وتأثر من نسوان كلب لسانيا |

ولما تمت البيعة لمروان بالشام وجه اهتمامه لفتح مصر .

ثانياً مصر :

كان عبد الرحمن بن حجاجم عاملاً على مصر من قبل ابن الزبير ، فجهز مروان جيشاً بقيادة ابنه سعيد العزير وأرسله إلى العقبة . وسار مروان بجيش آخر إلى مصر ، فلما علم ابن حجاجم بقدومها ، نشط لجارتها بنو إسرائيل الجيوش . والمراكب وحفر خنادقاً لصد عنها عن الدخول لبلاد . إلا أن مروان وابنه تغلبا عليه ودخلا مصر في جمادي الأول سنة ٦٥ هـ . وبني مروان الدار البيضاء في القسطنطينية لتكون مركزاً لحكمه ، وبأمره الناس ألا يقرأ قليلاً فتمسكوا ببيعة ابن الزبير ، فضربوا عنقهم وأخذوا ثورة معارضة حتى استتب له الأمن وهدأت حالة البلاد . فبين ابنه عبد العزيز والياً على مصر وعاد إلى دمشق .

ثالثاً العراق :

انضم أهل العراق لابن الزبير ، وبايعوه بالخلافة . واشتد شعور بعض الشيعة وتدموا على خذلانهم الحسين في كربلاء ورأوا أنهم لا يخرجون من هذا الذنب الا اذا ثاروا للمطالبة بشأره ، وقتلوا قتله . فاجتمعوا ذات ليلة على قبر الحسين ، وقاموا بالصلاة وذكروا أنهم قد تابوا الى الله واتابوا اليه واطلقوا على أنفسهم اسم التوابين ، وعينوا رؤساً عليهم : سليمان بن صرد الخزاعي . كبير الشيعة بالكوفة . فجمعوا السلاح والعناد ودعوا الناس للاخذ بثار الحسين ونظموا القصائد في رثائه والتحريض على قتال اعدائه ، فانضم اليهم عدد كبير من الشيعة ذهبوا بقيادة زعيمهم ابن صرد لمحاربة جيش الشام الذي ارسله مروان بقيادة عبيد الله ابن زياد . فتلاقى الجيشان في عين الوردية في ربيع الثاني سنة ٦٥ هـ وجرت معركة عظيمة انتهت بمقتل سليمان بن صرد وتفرق اصحابه . الا ان جيش الامويين لم يتمكن من فتح العراق ، لانه انشغل بملاحقة القيسيين جماعة زفر بن الحارث الثماري على بني امية . ولم يتم اخضاع العراق لسلطة الامويين الا في زمن عبد الملك بن مروان .

رابعاً الحجاز :

كان الحجاز قد بايع ابن الزبير منذ خلافة يزيد ، وقد بايعته ايضاً بقية الاقطار العربية ماعدا البيت الاموي في الشام . حتى ان كثيراً من المؤرخين من يستبعدون مروان ثاراً على حكم ابن الزبير ولا يمدونه خليفة من خلفاء الامويين . الا ان تمسك ابن الزبير بالحجاز ، وعدم خروجه متداعياً الخلافة من يده ، وترك للبيت الاموي الوقت لينظموا صفوفهم ، يتفقوا فيما بينهم ، ويستعيدوا تفوقهم السابق . وقد ارسل ابن الزبير اخاه مصعب مع جيش الى فلسطين للقضاء على مروان ، الا ان عمله قد جاء متأخراً وقت الوقت . فقام عمرو بن سعيد بن العاص - المرشح للخلافة بعد خالد - وحده مصعب وارجمه على اعنابه . كما ان مروان ايضاً حاول محاربة ابن الزبير الا ان الحنية قد داهمته فترك هذا العمل لانه عبد الملك .

وفاة مروان

حاول مروان بعد ان وطد حكمه ، في الشام ومصر ، ان يتقلد الخلافة لابنيه عبد الملك ثم عبد العزيز وامر الناس باخذ الزيعة لها فبايعوها ، الا انه بعمله هذا قد تقصض عهده الذي قطعه في الحجابة لخالفين يزيد وعمر بن سعيد . فانصرف الاول للعلم والعلماء يدرس الكيمياء وينجز الكتب اليونانية . ولما اتى الثاني تفرق في زمن عبد الملك .

توفي مروان بدمشق في ٢٧ رمضان سنة ٦٥ هـ واحترف المؤرخون في سبب وفاته فمنهم من يقول

انه مات بالطاعون ، ومنهم من ينسب موته لزوجته ام خالد التي غضبت لاجلها لتنعيتها عن الخلافة وتأثرت له بأن خنقت مروان وهو نائم بالخذة . وانتقلت الخلافة لابنه عبد الملك من بعده .

٥ - عبد الملك بن مروان

٦٥ - ٨٦ هـ او ٦٨٥ - ٧٠٥ م

يرجع نسب عبد الملك من ناحية ابيه وامه الى ابي العاص من بطون أمية . لجأوه مروان وقد صرفاه وامه عائشة بنت معاوية بن الوليد بن المغيرة بن ابي العاص . وكان يضرب بها المثل بالخصال الحميدة والصفات الكريمة وفيها يقول ابن قيس الرقيات^١ متمحاً عبد الملك :

أنت ابن عائشة التي فضلت أروم نساها
لم تلتفت لئلا تها ومضت على غلواها

ولد عبد الملك سنة ٢٦ هـ وتربى تربية علمية ادمية حفظ القرآن الكريم واخذ الفقه عن اصحاب رسول الله (ص) واصبح من كبار فقهاء المدينة . تولى الخلافة بعد ابيه . وكانت حالة البلاد الاسلامية على غاية الفوضى والاضطراب : ففي الحجاز عبد الله بن الزبير وقد بايعه اهله ، وفي العراق ثورة الخوارج والشيعية ، وفي الشام عمرو بن سعيد يطالب بالخلافة ، والبلاد الاسلامية مهددة من الشمال بخاطر البيزنطيين ، ومن الغرب بثورة البربر فتلقى عبد الملك هذه الحوادث كلها بثقل ثابت وعزيمة صادقة حتى دان الناس واجتمعت الكلمة عليه . ويعتبر عبد الملك بحق المؤسس الثاني للدولة الاموية بعد معاوية . وفيما يلي نذكر كيف حل عبد الملك جميع هذه المساعب .

سياسة عبد الملك الداخلية

اولاً في العراق : ثورة المختار بن عبيد الثقفي .

ذكرنا قبلاً ثورة التوابين في العراق التي اخضرها عبيد الله بن زياد . وعلى اثرها ظهر في الكوفة في ربيع الاول سنة ٦٦ هـ المختار بن عبيد الثقفي - وعبيد هذا شريد معركة الجسر الذي استشهد في قتاله مع الفرس في زمن الخليفة عمر بن الخطاب - وكان المختار ذا اطماع كبيرة تغلب كثيراً في

(١) هو عبيد الله بن قيس الرقيات . والرقيات جمع رقية ، ولقب بذلك لانه شعب بثلاث نسوة كان اسم كل منهن رقية . وهو شاعر قرشي يؤثر العصبيية القرشية ويختص منها بحزب ابن الزبير مدح مصعب وعبيد الله ابنا الزبير ودافع عنها الا انه مال اخيراً الى بني امية لما اقتصروا على ابن الزبير .

حياته ، اتصل بأبن الزبير أملاً أن ينال حقلوة عنده ، فلم يثق به ابن الزبير ، فتركه المختار وباد إلى الكوفة ، وانضم إلى الشيعة واستقل ثورة الثوابين ثبيل اغراضه ومراميه . وجمع فلولهم بعد انكسارهم في معركة عين ورد ، واتيح جميع الخيل في سبيل جمع الناس تحت امرته : أثار ثورة الفرس ضد العرب ليستميل الفرس إليه كما أنه اتخذ كرسيًا ووضع عليه تاجاً كما يحكي اليهود أنبوت العهد في حربهم مع عدوهم وادعى أنه ينشر بإمامة محمد بن الحنفية ، وتبته بالإمام المهدي إلا أن ابن الحنفية لم يؤيده ولم يثق به ولا بأهل الكوفة الذين خذلوا أباه واختوبه من قبل . واخذ المختار بلاحق قتل الحسين واتباع الامويين وكان من قتله عمرو بن سعيد بن العاص فقد جيش الامويين في معركة كربلاء . وادعى انه مأمور من قبل محمد بن الحنفية بعمل له فخدع بذلك ابراهيم بن الأشتر وكان صاحب نفوذ وقررة في الكوفة . وولاه قيادة جيش سيره لمحاربة ابن زياد ، وكان قد ارسله عبد الملك لفتح العراق . فالتقى الجيشان على نهر الخازر وكانت موقعة هائلة انصر فيها الأشتر وقتل عبيد الله بن زياد وحمل رأسه إلى المختار وغرق كثير من جنده انشام بالير . وبذلك أصبح المختار سيداً في العراق . وكان المختار قد طرد عامل ابن الزبير من الكوفة . فأرسل إليه ابن الزبير جيشاً بقيادة أخيه مصعب ، وولاه العراق . فوصل مصعب إلى البصرة وخطب في أهلها . وقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه (طسم) تلك آيات الكتاب المبين فتلا عليكم من نبأ موسى وفرعون بالحق تقوم يؤمنون ، إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعاً يستضعف طائفة منهم يذبح

(١) أراد المختار أن تكون دعوانه مستندة على حق ثابت عند جمهور المسلمين ، فاعتمد في دعوانه على محمد بن الحنفية وهو أحد أئمة الإمام علي من زوجة له من بني حنيفة . ولذلك انقلب اليهم فدعي - ابن الحنفية - ومن أتباعه فسألت الفرقة الكيسانية ، وهي فرقة شيعية من غلاة الشيعة يعتقدون أن محمد بن الحنفية هو الإمام ، وأنه قد أحاط بالمعوم كلها ، وإن اختوبه الحسن والحسين قد عهدا إليه بالاسرار وبعم التأويل والباطن . وقد اتهموا الكيسانية بوجوب انفراد الإمام بتأويل الشريعة إلى القول بشرورة طاعته ، لأن طاعته هي خضوع لله تعالى بطل التحسك بقواعد الاسلام من صلاة وصوم وحج ... ويعتقدون بتناسخ الارواح - أي خروج الروح من الجسد وحلولها بجسد آخر . وبالرجعة - أي رجوع محمد بن الحنفية بعد موته - وأنه مقيم في جبل رضوى قرب المدينة - وأن عودته ستكون من هذا المكان . (عن الشهرستاني الملل والنحل ص ١٩٦ وما بعدها) .

(٢) هو نهر بين الزاب الأعلى والموصل يصب في نهر دجلة .

ابناءهم ويستحيي نساءهم انه كلف من المفسدين) وأشار نحو الشام - (وزيد ان نحن على الذين اسلمتمونا في الارض ونجعلهم ائمة ونجعلهم الوارثين ونمكن لهم في الارض) - وأشار نحو الحجاز (وزي فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون) وأشار نحو الكوفة - وقال : يا أهل البصرة بلغني انكم تلقبون امراءكم وقد لقيت نفسي بالجزارة وبعد ان خضعت له البصرة سار منها الى الكوفة . وكان قد دعاه بعض اشرافها ليتخلصوا من المختار وصحبه . وجرت بين جيشه وجيش ارسله المختار معركة عند المذار انتصر فيها مصعب . وسار يتفجع المهزئين الى الكوفة . فقاتله في داخلها انصار المختار فانصر عليهم وفرقهم وكان المختار محاصراً في القصر مع بعض اعوانه . ولما رأي هزيمة اصحابه خرج ومن معه في القصر وقاتل حتى قتل وبذلك تخلص منه الزبيريون والامويون على السواء . وخضع العراق لحكم ابن الزبير .

لم يكدم مصعب يفرغ من قتال المختار حتى خرج اليه عبد الملك الذي اضطر ان يتوقف قليلاً ليهادن امراة طور الروم الذي هاجم حدود ملكته عند نهر المصيصة . فقبل عبد الملك ان يدفع له الف دينار في كل اسبوع ليتفرغ لقتال مصعب بن الزبير . كذا ان نمر عمرو بن سعيد بن العاص الذي انتهز فرصة انشغال عبد الملك فدعا الناس ليعنته - وكان يسي نفسه احق بالخلافة من عبد الملك لان مروان قد وعده بها في مؤتمر الجابية . فاستعمل عبد الملك اليلة والمدة في اخضاعه فاستدرجه اليه ووعدته بالخلافة من بعده وامنه ، فصدق عمرو وجاء مسلماً ، الا ان عبد الملك قتله بعد بضعة ايام ورمى برأسه الى اصحابه ففرقوا ، وبذلك اغاد عبد الملك النظام من حديد الى بلاد الشام وسار ميمما العراق لقتال مصعب الذي كان معسكراً عند مسكن ، فبعث الاموال الى جماعة مصعب لاستبليهم اليه ووعد قواد جنده مصعب بالاقطاع والولاية ان خذله ، فتركه اكثرهم ماعدي ابراهيم بن الاسود الذي قاتل حتى قتل . ولما لم يبق مع مصعب الا القليل اشار عليه ابنه عيسى بان ينهزم ويلحق بالبصرة لان اهلها على طاعته ، ولكن مصعب ابي وقال : لا تحدث قريش اني فرت . وقال لابنه ان يلحق بعمه في مكة وان يخبره بما صنع اهل الكوفة ، ولكن الولد آثر الموت بقرب ابيه ، فتغدا مراً وقاتلا حتى قتلا .

دخل عبد الملك الكوفة ، وبايعه اهلها وأولوا له وليمة في قصر الخورنق ، واتاه المهلب خاضعاً وتمت السيادة لعبد الملك . فولى على الكوفة والبصرة ولاد ومار الى دمشق .

عبد الله بن الزبير

أبياً الحجاز :

عبد الله ابوه الزبير بن العوام من كبار الصحابة ، وامه أسماء بنت ابي بكر الصديق . وله

عبد الله في المدينة في السنة الاولى من الهجرة ، وحضر معركة اليرموك ، وحارب تحت قيادة عمرو
ابن العاص في فتح مصر . وابلا بلا حسناً في غزوات افرقية . واشترك مع يزيد بن ثابت الانصاري
في جمع القرآن في زمن الخليفة عثمان كما ان اياه ارسله للدفاع عن عثمان في يوم الدار ، واشترك في
موقعة الجمل مع ابيه وعمل على تقوية طائفة طلبة في نيل الخلافة . الا انه بعد مقتل ابيه ونشأ
حزبه انزل في الحجاز ولم يظفر طمعاً بالخلافة في زمن معاوية بل بالمكس انظم الى الجيش
الذي ارسله معاوية لفتح القسطنطينية . وكان معاوية يعرف كيف يتألفه فكان ينفق عليه الاموال
ويقول له : مرحباً يا ابن عمه رسول الله ، وابن حواري رسول الله امر له بمائة الف ، الا ان هذا
ثم منع معاوية ان يحذر يزيد منه في وحيته اذ قل له : ولما الذي يحتم لك جثوم الاسد ،
وبراوغ مراوغة الثعلب ، فذاك ابن الزبير ، فان هو فعلمها فظفرت به فقطعه ارباً ارباً وما
كاد يصل نبي معاوية الى الحجاز حتى ثار الزبير على يزيد في مكة . وأخذ يحرض الناس على بني
أمية فكان يقول لهم : أئيمد الحسين فظلمن الى هؤلاء القوم - الامويين - ونصدق قوطهم
وتقبل لهم عهداً ؟ لا : ولا تراحم لذلك اهلاً وقد اتبع نفوذ ابن الزبير بعد موت يزيد فبايحه
اهل الحجاز والعراق واليمن ومصر . وانضم اليه اكثر اهل الشام . الا ان مروان وابنه عبد
المالك استعدا نفوذهما على تلك الاقطار . ما عدا الحجاز . ولم يبق على عبد الملك بعد ان استقرت
له الحالة الا القضاء على ابن الزبير . لذلك ارسل له بعد فتح الكوفة جيشاً بقيادة الحجاج بن يوسف
التقي . فتوجه اولاً الى الطائف ومنها الى المدينة وانضم اليه عاملها ومن معه من الجند ، ثم سار الى
مكة وحاصرها وربما بالمنجنيق واشتد الحال على اهل مكة من الحصار فتفرقوا عن ابن الزبير
وطلبوا الامان من الحجاج فمنهم ، وكان ممن خرج الى الحجاج حمزة وحبيب ابنا عبد الله بن
الزبير . ولما رأى عبد الله ذلك وعرف انه مقتول لا محالة دخل على امه أسماء ، وقد بلغت من العمر
مئة سنة واصبحت عمياء وقال لها : يا امه خذني الناس - حتى ولدي واهلي ولم يبق مني الا الجبر ،
ومن ليس عنده اكثر من صبر ساعة ، والقوم يهاونني ما اردت من الدنيا فما رأيك ؟ فقالت
انت اعلم بنفسك ، ان كنت تعلم انك على حق واليه تدعو فامض له فقد قتل عليه اصحابك ولا تمكن
من رفيقك يلعب بها علمان بني أمية . وان كنت انك اردت الدنيا فبئس المدة انت ، اهبطت

(١) المنجنيق : هو آلة من خشب لها دفتان قائمتان بينهما سهم طويل ورأسه ثقيل وذنبه خفيف
وفيه يجعل كفة المنجنيق التي يجعل فيها الحجر يجذب حتى ترفع اسلحة على اعاليه ثم يرسل فيرتفع
ذنبه الذي فيه الكفة ، فيخرج الحجر منه . فما اساب شيئاً الا أهلكه (صحيح الاثنى عشرية) (صحيح الاثنى عشرية)

ج ٢ : ص ١٣٧

نفسك ومن قتل معك . وإن قتل كنت على حق فلما وهن اصحابي ضمت . فهذا ليس فعل الاحرار
ولا أهل الدين . كم خلوتك في الدنيا : القتل احسن له . فقال : يا امام : اخاف ان تقتلي أهل الشام
ان يقتلوا بي ويسلبوني . فقالت : يا بني ان الشاة لا تتألم بالسليخ بعد ذبحها فامض على بصيرتك
والستمن بالله فقتل رأسها وقل هذا رأيي ولكي احببت ان اعلم رأيك فقد زدتني بسيرة . . .
ثم خرج فقاتل حتى قتل وبعد قتله صليت جثته ثم التفت بأمر من عبد الملك وقد دامت
خلاقته في الحجاز تسع سنين من سنة ٦٤ هـ الى سنة ٧٣ هـ .

ولعل اسباب فشل ابن الزبير يعود الى بقاءه في الحجاز وميله لاعادة عصمة الخلافة اليها ، فبحسب
مساعدة أهل الشام ولم يحظ بتصرة أهل الحجاز لانهم كانوا قد انصرفوا عن الحياة السياسية ،
ومات نفوسهم الى العزلة والسكون ومطلب الآوي والنجوى . اضف الى ذلك عدم مباداة محمد بن الحنفية
له وقيام الشيعة والخوارج تأذين في وجهه فاضاع في قمع نور انهم معظم جهوده . زد على ذلك ما تزويه
المصادر عن شدة بخله وقلة حيلته السياسية . فبينما كان بنو أمية يبذلون الاموال بسخاء في سبيل
تأليف اعدائهم كان هو يقتر على جندته الذين يحاربون في صفوفه مما دعا الناس الى الانخفاض من
حواله وخفلائهم ايده .

الحجاج بن يوسف الثقفي

بعد مقتل ابن الزبير عادت الحياة الى مجراها الطبيعي وخضع العالم الاسلامي الى عبد الملك وعظم
نفوذ الامويين في الشرق والغرب . والحجاج بن يوسف الثقفي فضل عظيم في اتحاد الفتن والخصاع
الثورات وتوطيد دعائم الحكم الامويين من الفرات الى نهر جيحون والسند .
ولد الحجاج سنة ٤٩ هـ في الطائف وهو ثقي الاصل كان يعلم الصبيان في اول حياته ، ثم انضم الى
جيش عبد الملك لمحاربة مصعب بن الزبير ، فاستولت الحجاج نظر عبد الملك فرسله الى مكة لمحاربة
عبد الله بن الزبير فتغلب عليه فولاه الحجاز واليمن والحامة . وبقي والياً عليها حتى سنة ٧٥ هـ . ولما
اشتدت فتنة الخوارج انتدبه عبد الملك الى ولاية العراق والبلاد الشرقية . فذهب اولاً الى الكوفة
في اتي عنبر راكباً ، فوصلها قبيل مطلع النجر ، فصعد منبر المسجد وهو متأنم بصامدة خز حمراء
وبقي ساكناً حتى اجتمع الناس فظنوا احد الخوارج وارادوا حصبه بالحصى ، فكشف اللثام عن
وجهه وقال خطبته المشهورة التي يقول فيها :

انا ابن جلا ومضاع الثنايا متى اضع القمامة تعرفوني

و بأهل الكوفة اني لأرى رؤوساً قد فينت وحن ظافها ، واني الصاحبها واني انظر الى الدماء
بين العمام واللحي وان أمير المؤمنين اطال الله بقاءه شر كائناته بين يديه فجمع عبيدائها فوجدني

أمرها عوداً وأصلها مكسراً ، فرماكم بي لانسك طائفاً أوضعتم في الفتنة واضلجتم في مراقدة
الضلال ... واني والله ما أقول إلا دقيقت ، ولا أتم إلا مضيت ، وإن أمير المؤمنين أرتقي بإعطائكم
اعطياكم وإن أوجعكم لحربة عدوكم (الخوارج) مع المهلب بن أبي صفرة ، واني أقدم بالله لا أجد
رجلاً تخلف بعد أخذ عظامه بثلاثة أيام إلا ضربت عنقه ، ثم التفت إلى علامه وقال : « يا غلام اقرأ
عليهم كتاب أمير المؤمنين » فقرأ : « بسم الله الرحمن الرحيم . من عبد الله بن عبد الملك أمير المؤمنين
إلى من بالكوفة من المسلمين سلام عليكم » فلم يقل أحد شيئاً . فقال الحجاج : « اكف يا غلام ، ثم
أقبل على الناس فقال : « سلم عليكم أمير المؤمنين فلم تردوا عليه شيئاً » هذا أدب ابن نبيه (١) أما
والله لا أودبكم غير هذا الأدب ... اقرأ يا غلام كتاب أمير المؤمنين فلما بلغ إلى قوله سلام عليكم
لم يبق أحد في المسجد إلا قل على أمير المؤمنين السلام . » تلك هي الخطة التي اتبعها الحجاج في معالجة
أهل الكوفة وهي سياسة الحزم والشدّة ثم ركب إلى البصرة وخطب فيها خطبة تشابه خطبته في
الكوفة ، ثم أرسل أهل مصر إلى المهلب الذي كان يقاتل الخوارج منذ زمن عبد الله بن الزبير .
المهلب بن أبي صفرة والخوارج

انضم المهلب إلى عبد الملك وقدم خضوعه وخدمته إليه بعد أن كان يحارب في جيش ابن الزبير
قبله عبد الملك وأرسله لقتال الخوارج الذين قويت شوكتهم في زمن انقسام المملكة بين الأمويين
والزبيريين . وظهر الغلاة منهم في هذا الدور ومنهم أصحاب نافع بن الأزرق فحاربهم المهلب وقال نفة

١ - رجل كان على الشرطة بالبصرة قبل الحجاج .

٢ - نافع بن الأزرق الحنفي السكي بأبي راشد هو أول من أسس فرقة الأزارقة بأهله جماعة
بالمخلاة وسموه أمير المؤمنين وبعد وفاته خلفه عبيد الله بن مالحور التميمي وقبى في معركة بالأهواز
قاتلهم بها المهلب بن أبي صفرة . ثم تابعوا بعده لقطري بن الفجاءة وسموه أمير المؤمنين وهو القائل :

| | |
|---------------------------|---------------------------|
| أقول لها وقد طارت شعاعا | من الأبطال ويحك لي شرعا |
| فإن لو سألت بقاء يوم | على الأجل الذي لك لم نطاع |
| فصبراً في جمل الموت صبراً | فما قيل الخلود مستطاع |
| ولا توب الحياة بتوب عز | فيطوى عن أذى الخلق اتجاع |
| سبيل الموت غاية كل حي | وداعيه لأهل الأرض داعي |
| ومن لا يعتبط بسأم وبهم | وتسلمه الموت إلى انقطاع |
| وما نمره خير في حياة | إذا ما عنت من سقط المشاع |

وبقي قطري أمير الأزارقة حتى قُتِلت شملهم على يد كثيرين من قواد العرب منهم مسلم بن -

الناس ، وبصورة خاصة عبد الملك ، حتى أنه لم ير أحداً اعلا من هذا العمل غيره . فكان دائماً يوصي عماله أن يعملوا برأي المالك ، مشروطة في أمر الخوارج . وقد أظهر المطلب والبناء من البطولة والصبر والحكمة والمقدرة الحربية في محاولة دفع بن الأزرق وقطري بن الشجاع ما سجله لهم التاريخ عداد الانتصارات . وحوادث هذه الحروب وأخبارها مطوية لا مجال لتذكرها .

— نجس في زمن عبد الله بن الزبير ، والطلب بن أبي صبرة الذي عينه عبد الله بن الزبير على قتالهم واقروه الحاج في خلافة عبد الملك وبقي في حريمهم ١٩ سنة حتى قضى عليهم بعد أن كانوا قوة لا يستهان بها ، بين الفرسين ألف والثلاثين ألف فارس يقطنون حيات الأهواز وكرمان وفارس . ثم استولوا أخيراً أرض سابور والشير معاركهم التي خاضت ذكرهم : معركة دولاب في الأهواز التي وصفها المبرد بقوله : « وكانت معركة قوية يشوب لها لطفها لاطفل . وقد أظهر كل من الخوارج وأهل البصرة من الشجاعة والفروسية ما لا يوصف . وقتل فيها نافع بن الأزرق زعيمهم ، وابن عيسى قائد أهل البصرة . وتبدلت الراية مرات عديدة ، وتوالت كثيرين لأنهم كانوا يهلكون في الدفاع في سبيل مبادئهم » . (من السكامل للمبرد ج ٢ ص ٦١٢)

أما معتقدات الأزرق في ما يلي : ١ - أن مخالفتهم من هذه الأمة مشركون ٢ - أن مرتكب الذنوب منهم مشرك ٣ - كل من لم يهاجر إليهم من موافقيهم مشرك ٤ - استباحوا قتل نساء مخالفيهم وأطفالهم ٥ - يزعمون أن أطفال المشركين مخطفون بالنار ٦ - أنهم كفروا دنياً ودينوا عبد الله بن ملجى - قاتل علي - وكفروا طلحة والزبير وعثمان وعائشة وعبد الله بن عباس ، وسائر المسلمين من مخالفيهم ٧ - أبطلوا من رجم من زنى من الرجال وهو محض . أدبس في القرآن الكريم شيء يدل على ذلك ٨ - اسقاط حد من قذف المسلم من الرجال . مع وجوب حد من قذف المحصنات من النساء ٩ - يقولون إن الثنية خير جائزة في قول ولا عمل . والثنية هي « تكلم عن الغير معتقداً خوفاً منه » ١٠ - يجب قطع يد السارق من الذمك ١١ - رثوا من قتل عن الخروج لضعف أو غيره ١٢ - أوجبوا على المحصن الصلاة والصيام في حبسها . وبعضهم يقول أنها تقضي ما عليها أن تطهرت كما تقتضي الصيام ١٣ - قالوا يستمرأى كل من نقوه من غير أهل عسكرهم وقلة إذا قل أنه مسلم . ولكنهم لا يغفوه إن كان يهودياً أو نصرانياً أو مجوسياً ١٤ - ويعتقدون أنهم مشركون ما داموا في دار الشرك فذا خرجوا أصبحوا مسلمين . ويجب أن يقتلوا المسلمين من مخالفيهم حتى يدخلوا في رأيهم . وكانوا يمتحنون من ادعى أنه منهم بأن يقدم إليه أسير عن مخالفيهم فإن قتله صدقوه وإن لم يقتله قالوا أنه منافق وقتلوه .

وقد قمع الحجاج ثورة شبيب بن يزيد الشيباني^١ وجماعته الذين كانوا يماربون في شمالي العراق
ويمكن بعد ان استعان ببعض من اهل الشام مؤلف من اربعة آلاف ارسله عبد الملك بن مروان
من الثناب على هذه الفرقة وثنيتها . ومات رئيسها غرقاً في النهر . وقد اظهر الخوارج بحروبهم
هذه بطول عظيمة وشجاعة فائقة وتمسكاً بآدابهم وتعاليمهم في سبيلها بما تعجب وتدهش منه .

ثورة عبد الرحمن بن الاشعث

ارسل الحجاج سنة ٧٩ هـ عبد الله بن ابي بكره على سبستان فسير هذا جيشاً الى بلاد
الترك توغل في بلادهم فحاط به الترك وقتلوا اكثرهم ، فارسل الحجاج مدداً بقيادة عبد الرحمن
بن الاشعث فصار حتى قدم سبستان فصعد منبرها وقال : « ايها الناس ان الامير الحجاج ولائي
فتركوا وامرني بجهاد عشوكم الذي استباح بلادكم والادياركم فلياكم ان يتخلف منكم رجل فيجمل
بنفسه العقوبة . اخرجوا الى معسكركم فـ كروا به مع الناس . » فخرجوا وحاربوا الترك وضموا
غنائم عظيمة منهم . واخذوا قوماً كبيراً من الادم . فتوقف ابن الاشعث عن مقاومة الفتح وقال :

١ - ان شبيب بن يزيد الشيباني السكي بأبي الصخاري استعان بجماعة صالح بن مشروح الخارجي
بعد مقتله واسس فرقة الشيبانية . ويقول الطبري في سبب خروجه هو ان شيباناً قصد الشام في ايام
عبد الملك ونزل ضيفاً على روح بن زباب . وسأله ان يذكره عند الخليفة السكي فيعمل له عطاء من
بيت المال شأن اهل الشرف من آل النبي وذوي قرابه . فأجاب ابن زباب طلبه واخبر عبد الملك
بشأنه . وكان له اتباع كثيرون . فلم يهتم عبد الملك بأمره وقال : هذا رجل لا اعرفه ، وأخشى ان
يكون حروباً - أي خارجياً - فلحق ابن زباب شيباناً فولى عبد الملك . فحق عليه وغضب وقال
- سيرني بعد هذا . ووجع الى قومه بني شيبان وجمع من الخوارج الصالحية اتباع صالح بن مشروح
مقدار الف رجل ناز بهم على الخليفة . وقد قام بحروب وغارات على الكوفة والبصرة واكثر مدن
العراق شغل بها الحجاج وهزم لها اكثر من عشرين جيشاً في مدة سنتين (ابن جرير الطبري ج ٢
ص ٤٢٤ طبعة بيروت سنة ١٩٧٩ م) . أما عقوبة هذه الفرقة فلا تختلف عن معتقدات جهور
الخوارج الا في اجزء امامة المرأه . وقد نلخص احد شعراء هذه الفرقة عقيدتهم بيتين من الشعر
قال غيبا :

أبرأ الى الله من عمرو وشيخته ومن بني ومن اصحاب صفين
ومن معاوية الطائي وشيخته لا يارك الله في القوم الاثمين

وبعد مقتل شبيب استتخلف امره غزاله على اصحابه وكانت تحارب هي وزوجته حبيزة بنت
من فناء الخوارج . وقد اظهرت شجاعة فائقة في محاربة حيوش عبد الملك والحجاج .

و تكفي بما اصنأه العام من بلادهم حتى يجيبها وفقرها ويحترق المسلمون على طرفها ، ثم تتعاطى في العام المقبل بما ورائها ، وهكذا حتى نستولي على جميع تلك البلاد ، وكتب الى الحجاج يعرفه بخطته التي سبسلها في فتوحاته . فأجابه الحجاج بشدة وغلظة ومما قاله : . . . اني لم اعدد رأيك الذي اذعمت انك رأيته رأيي مكيدة ولكي رأيت انه لم يحملك عليه الا ضعفك والنيث رأيك قامض لما امرتك به . ثم أمر بعزله ان لم يطع امره وتولية اسحق بن محمد بدلا عنه . فلما كان من عبد الرحمن الا ان تار على الحجاج ، وعاد يحشه الى العراق وشق عصا الطاعة على عبد الملك . ولما بلغ الحجاج خبره بعث يستغيث بالخليفة ويطلب منه المونة بجند من الشام . وقد حاول عبد الملك اتحاد الفتنة بالمفاوضة والدياسة ووعد اهل العراق بعزل الحجاج عن ولايتهم ان عادوا وهدأوا ، فلم يجد ذلك فيهم وصمموا على خلع عبد الملك . عندئذ ارسل عبد الملك جندا للحجاج وجرت معاركة شديدة بين الطرفين في ديو الجاهم استمرت مائة يوم كانت المزيمة فيها على ابن الاشعث وجنوده وذلك في ١٤ جمادى الآخرة سنة ٥٩ هـ . ودخل الحجاج الكوفة وبابه اهليا بأن شهدوا على انفسهم بالكفر بخروجهم هذا . فمن بابه على ذلك نجوا ومن أبى قتله . اما ابن الاشعث فقد هرب واتى بنفسه من فوق قصر ومات مؤثرا ذلك على ان يدلم نفسه للحجاج ، وهكذا عاد الهدوء من جديد الى البلاد الشرقية .

اعمال الحجاج

قام الحجاج بحملة اعمال منها تنظيمه بلاد المشرق وتوطيد الامن فيها ، وارجاع الموالي لوراثة الارض وادخال الاقية والترح المائية . الا انه انماك هؤلاء بكثرة ما فرضه عليهم من الضرائب ، حتى انه ارغم الذين اسلموا منهم على دفع الجزية . فسادت حالة هؤلاء وتحزبت بلادهم . كان الحجاج يفضل القيسيين على الباقين ، فاقط بذات العصبية والغناء بين القبائل ، كما انه اشهر بطلمه وقسونه . فاذل اكابر اهل العراق واسرف في نفائره حتى يقال انه اعدم (١٢٠) ألف نفس وسجن كثيرين في سبيل تأييد سلطان بني امية .

كان الحجاج مثال الوالي المخلص الامين للمسيكه فلم يحاول ان يفصل عنه لو يشق عصا الطاعة عليه كما فعل غيره فيما بعد ، كما انه لم يرش او يجمع الاموال ويدخرها لنفسه ، فقد مات بعد ان خدم الدولة زهاء عشرين سنة ، ولم يخلف بعده غير القرآن وسلاحه وبضع مئات من العملة الفضية . وكانت اخلاقه متينة الصنف بالثبات والشجاعة والعبور وكان فصيحاً حافظاً للقرآن . وهو باني مدينة واسط ما بين الكوفة والبصرة كما انزل بها جنده ليهدم عن جو الاضطراب والشغب الذي كان في هاتين المدينتين . وضرب النقود وضبط المقاييس وادخل الكتابة ووضع الشكل للقرآن الكريم وكان له فضل عظيم في توطيد الامن وتوسيع ملك بني امية الى بلاد الهند والصين . وتوفي سنة ٥٩٥ هـ

في نهاية حكم الوليد وله من العمر ٥٤ سنة .

سياسة عبد الملك الخوارجية

الجهة الشمالية :

قلنا ان عبد الملك بن مروان اضطر ان يهادن البيزنطيين ، وان يدفع لهم الف دينار في كل اسبوع ليتفرغ لقتال مصعب بن الزبير ، ولكن ما لبث ان قطع هذه الاموال بعد ان هدأت الحالة في بلاده واتخذ يرسل الصوائف والشوافي لبلاد الروم ، وفتح عدة ثغور كانت بيد البيزنطيين ، منها قيسارية ، والمصيصة وغيرها وبذلك استرد عبد الملك نفوذه في القسم الشمالي من مملكته .

الجهة الغربية :

قلنا ان العرب انسحبوا من شمالي افريقيا الى برقة في آخر خلافة يزيد ، وعندما استتب الامر لعبد الملك عين اخاه عبد العزيز والياً على مصر ، فولى زهير بن قيس على افريقية . فقام بحملة على البربر استرد فيها مدينة القيروان . الا ان البيزنطيين اغتنموا فرصة بعده عن برقة وخلوها من حامية قوية ، فهاجموها واثاثوا فيها فساداً ، فعاد اليهم زهير وجرت معركة شديدة بين الطرفين استشهد فيها القائد العربي وكثير من جنده . ولا تزال قبورهم هناك تعرف بقبور الشهداء .

خلف زهير حسان بن النعمان سنة ٦٩ هـ على ولاية افريقية وكان حسن السياسة ، حارب البيزنطيين والبربر واجلاهم عن قرطاجنة . الا انهم عادوا بعد بضعة اشهر واستردوا المدينة ، وكان يساعدهم في ذلك اسطولهم من البحر ، الا ان اسطول العرب تناب على اسطول الروم وبذلك تمكن حسان من استرجاع قرطاجنة وتخليصها . وبعد ان وطد حكمه في الساحل قامت عليه امرأة تدعى « السكاينة » بمجموع كبيرة من البربر فذهبهم غارة العرب وتمكنت من ارجاعهم مرة ثانية لبرقة وبسطت سيادتها على افريقية مدة خمسة اشوام . وفي سنة ٧٩ هـ عاد حسان بقوة جديدة من العرب وحارب السكاينة وعندما شعرت بضعفها قامت بالتمرد وحشية ، فهدمت المنبر وخربت القري وقلعت الاشجار حتى نفر الناس منها ، وانضموا لجيش حسان ، فتمكن عندئذ من القضاء عليها وقتلها . الا انه احسن المعاملة لاشعالي البلاد وعقد مع البربر « ماهدة الاخوة » . فلم يترك كثير منهم وساعدهم ونصروه ، وبذلك تمت السيادة للعرب في شمالي افريقية . فأخذ حسان ينظم الاقليم : « دون الدواوين ووضع الخواارج » ونظم الادارة وكان عمله نواء لفتح جديد في بلاد الاندلس .

الجهة الشرقية :

بعد ان انتهى المهلب من قتال الخواارج ، ولاه الحجاج خراسان . فقام هو وابولاده بفتوحات وغزوات عظيمة في تلك البلاد ، حتى وصلوا بخارمي . الا انهم لم يفتحوها . وفي سنة ٨٣ هـ توفي

المطلب في مرو فقال نهار بن توسعة التميمي يرثيه :

الا ذهب الغزو المقرب للفقى ومات التمدد والجود بعد المطلب
إذا قيل أي الناس أولى بتمعة على الناس قتله ولم تتريب

وأوصى بالولاية بعده إلى ابنه يزيد ، وبما قبله لأولاده عندما اجتمعوا حول له وقد أتى يسراهم
وحزمها : « أترونيكم كأمريها مجتمعة » قلوا لا : قل و الترونيكم كأمريها متفرقة ، قلوا نعم . قل :
فهكذا الجماعة . واصام بالتحاد الكلمة وحدة الرحم وحسن القول والعدل والكرم وتقريب العرب ،
وملازمة الحرب والمكيدة فيه وفراصة القرآن وتعلم السنة ... وهكذا مات هذا البطل العربي بعد
حياة مليئة بالجهاد فكان مثال الشجاعة والافدام .

قام ابنه يزيد بعده ببعض الفتوحات في الشرق . وفي سنة ٨٥ هـ عزله الخجاج وولى مكانه اخوه
المفضل ، ولم يكن المفضل بيت مال بل كان يعطي الناس كل ما طلبه شيء ، وإن غنم شيئاً فسمه
بينهم ، ولم يلبث الخجاج ان عزله أيضاً وولى مكانه فتيبة الباهلي وسبغني الكلام عنه .
إصلاحات عبد الملك وسياسة القومية

بعد ان وطد عبد الملك دعائم ملكه في الداخل والخارج انفتحت الى الإصلاحات الادارية . فاتبع
سياسة غربية . وطبع المملكة بطابع قومي عربي في اللغة والملبس والعملية :
أولاً في اللغة :

كانت الدواوين قبل عبد الملك تكتب باللغة الرومية في الشام والدارسية في العراق وباليونانية
والتبيلية في مصر . فقد نقل الدواوين الى اللغة العربية في الشام سنة ٨١ هـ ، وسبب نقله ان بعض
كتاب الروم في الدواوين أساء الادب في خطبته ، فأدبه عبد الملك وأمر ساجان بن سمد ان ينقل
الدواوين الى العربية ، وولاه الاردن . فنقله في مدة سنة واحدة . ومنه ما عرّض عبد الملك هذا
الدواوين على كاتبه سرجون الرومي ، خرج الى اصحابه وقال لهم : اطلبوا المنيشة من غير هذه
الصناعة ، وقد قطعها الله عليكم . أما دواوين العراق فقام بنقله من الفارسية الى العربية صالح بن عبد
الرحمن بمساعدة الخجاج سنة ٧٨ هـ وقد نقل الفرس لصالح مئة الف درهم ، ليظهر عجزه عن تعريب
الدواوين فلم يقبل ، فقال له ابن زاذان : قطع الله اوصالك في الدنيا كما قطعت اوصال الفارسية . أما
في مصر فقد انتقلت لغة الدواوين الى العربية في زمن الوليد بن عبد الملك سنة ٨٧ هـ .

وكان تعريب الدواوين أثر عظيم على العرب إذ انتقلت الوظائف الادارية لموظفين عرب ،
واصبحت الكتابة باللغة العربية مما قوى نفوذ العرب في الحكم ، ووسع اللغة العربية وشغل العرب
من غضاضة البداوة الى روثق الحضارة ، ومن سذاجة الامية الى حذق الكتابة ، على رأي ابن
خلدون . ومما ساعد على نجاح هذا العمل الامتياز الذي عمل الخجاج على ادخاله الى الخط العربي ،

فقد كان الخط حتى ذلك الزمن خالياً من النقاط والحركات، وفي هذا مجال كبير للاضطراب والغموض واختلاف القراءة وفي هذا أيضاً خطر عظيم على مصالح الدولة والروية بعد أن أصبحت الكتابة العربية هي الكتابة الرسمية . فجاء هذا الإصلاح الذي يعود الفضل فيه إلى الحجاج نحيماً لعمل عبد الملك في تعريب الدواوين . وقد أخذ من اللغة السريانية قواعد النقط والشكل في بادئ الأمر ، ثم ما لبث أن استقل الخط العربي بالتدريج عن المؤثرات الخارجية .

ثانياً في الملابس :

كان الناس في زمن النبي والخلفاء الراشدين بسيطاً ، ولكن لما آلت الخلافة إلى ملك في زمن الأمويين أخذوا يستعملون ثياباً خاصة في بلاد الروم للخلفاء ومن دونهم من الأمراء والقواد ورجال الدولة ، ويطرزون عليها صوراً وكتابات وعلامات بخيوط ذهبية أو ملونة لتدل على رتبة لباسها . واتهم الخلفاء فيها بعد أن دمن الإسلام بحرم الصور فاجتنبوها وبقيت الكتابة فقط مطرزة على الثياب ، واستمرت الحالة على ذلك حتى جاء عبد الملك ، وخطر له يوماً أن يطلب ترجمة ما كتب على ثيابه فكان معانها : « باسم الآب والابن وروح القدس » فأبطل ذلك وأمر باستبداله بالتمهيدتين وأمر ببناء دور لطرار ونسج الثياب وقطع استيرادها من بلاد الروم ، فأغضب محله هذا ملك الروم وهدده بنقض شتم النبي على المنابر ، فنهض بذلك إلى القضية الثالثة وهي ضرب النقود .

ثالثاً في العملة :

لم يكن للعرب قبل الإسلام نقود خاصة بهم بل كانوا يتعاملون بالنقود الرومية والفارسية . ولما جاء الإسلام ضرب الخليفة عمر نقوداً إسلامية على شكل نقود كسرى ، وكذلك فعل معاوية ولكن يظهر أن النكبة التي ضربت كانت قليلة بالنسبة لاتساع رقعة البلاد الإسلامية ، مما أدى إلى استمرار استعمال النقود القديمة من رومية وفارسية المسماة عبد الملك بن مروان وضع أساساً للنقد ثانياً وعياراً دقيقاً وعمم استعماله في جميع الأقطار العربية وطبع مقادير وافرة منه وخطر على المسلمين أن يتداولوا بغيره . وهدد من يخالف ذلك بالقتل ، وعلى ذلك شاع استعمال النقود العربية بدلاً من الأجنبية . وكانت على ثلاثة أنواع : الدينار من الذهب ، والدرهم من الفضة ، والفلس من النحاس . ومن الأعمال العمرانية التي قام بها عبد الملك بناؤه قبة الصخرة في بيت المقدس في موقع هيكل سليمان . ولعل المدافع لبناء هذا المسجد هو أن الحجاز كان بيد ابن الزبير وهو الذي يقم الحج ، لذلك أراد عبد الملك أن يبعد ابتاعه عن زيارة مكة والمدينة لكيلا يتأثروا من التأثيرين على سلطان بني أمية . فاختار لهم بيت المقدس ثمكون مرارهم . ولما بصورة موقنة . كما أنه خشى الفتنة بأحتمال حجاج الشام مع غيرهم من الحجاج الثائرين من عبد الملك . فقد روى أنه في سنة ٦٨ هـ اجتمع في عرفات أربعة ألوية وهي : لواء ابن الحنفية في أصحابه ، ولواء ابن الزبير ، ولواء لجدة الحروري ،

ولوا بني أمية . وهذه حادثة غريبة في تاريخ الحج . لذلك بالغ عبد الملك باعتناؤه ببناء هذا المسجد وتزيين قبة . فهي قبة عظيمة قائمة على دائرة مربعة وفي داخلها دائرتان من الأعمدة وجدرانها ونوافذها وسقفها مربعة بالفسيفساء ، وأشكال الزهور والخطوط العربية المتشابكة . وقد أراد بنو العباس أن يتحلوا لأنفسهم ببناء هذه القبة فطمسوا اسم عبد الملك من أحد الجدران الداخلية المكتوب عليه بالخط الكوفي تاريخ بنائها ، فاستبدلوه باسم المأمون التامية العباسي . إلا أن هذا المزور لم يكن بارعا لأنه ترك تاريخ بناء القبة وهو سنة ٧٢ هـ على حاله . مما يدل على أن هذا البناء تم في زمن عبد الملك .

وقد أصبح عبد الملك بن مروان نظام البريد الذي نظمه معاوية . إلا أن عبد الملك أدخل عليه تحسينات حتى أصبح خير وسيلة تربط أجزاء المملكة بعضها ببعض .

وكان عبد الملك أملا لهذه الأعمال التي تمت في زمنه فقد كان حازما عالميا أدبيا خطيبا حتى قال عنه الشعبي : « ما جالست أحدا إلا وجدت في الفضل عليه » . إلا عبد الملك بن مروان فاني ما ذكركه حديثا إلا وزادني فيه ، ولا شعرا إلا وزادني فيه . « ولما قيل له يا أمير المؤمنين يحجل إليك الشعب قال : « وكيف لا ! وأنا أعرض عني على الناس كل جمعة » . ومن أشهر خطبه قوله : « أيها الناس إني والله ما أنا بالخليفة المستضعف - يريد عثمان بن عفان - ولا بالخليفة المداخن - يريد معاوية - ولا بالخليفة المأفون - يريد يزيد بن معاوية . فمن ذل رأسه كذا قلنا بيئنا كذا ثم نزل » .

وفي آخر عهده أراد أن يعهد لابنه الوليد من بعده بالخلافة وكان أبوه مروان قد أوصى بها إلى عبد العزيز فاستشار قنصة بن ذؤيب فهاه ، واستشار روح بن زريع الجذامي فقال له : « لو خلعتك ما انتطخ فيه عزان » . فبينما هو في ذلك إذ جاءه الخبر بوفاة عبد العزيز فقال لروح « كئنا بالله يا أبا زرعة ما كئنا فيه ، وما أجمنا عليه . وعهد إلى ابنه الوليد ثم ساجان من بعده وهما من زوجته ولادة بنت العباس من بني عباس . وتوفي بدمشق يوم الخميس في منتصف شوال سنة ٧٦ هـ عن عمر يناهز الثمانين ودامت خلافته ما يتوف عن إحدى وعشرين سنة .

ومما عيب على عبد الملك بن مروان كثرة الضحايا التي ذهبت في زمنه ، وخصره بعمرو بن سعيد وفضله بعد أن آمنه . وقوله في إحدى خطبه : « من قل لي بعد مقالتي هذا اتق الله ضربت عنقه » إلا أننا إذا قارنا ذلك مع ما تم في زمنه من الأعمال بحمد من أعظم خلفاء بني أمية .

٦ - البريد بن عبد الملك

٨٦ - ٨٩٦ هـ أو ٧٠٥ - ٧١٥ م

ولد الوليد سنة ٥٠ هـ ، أبوه عبد الملك وأمه ولادة بنت العباس . وكان أبوه قد عهد إليه بالخلافة

قبل وفاته وبعد دفنه بعد النهر قبل ان يدخل منزله ، فخطب بالناس وقال : يا ايها الناس انه لا ينضم اليكم الله ، ولا مؤخر لما قدم الله ، وقد كان من خطايا الله وسابق عليه وما كتب على اييسائه وحمله عرشه - الموت - وقد دار الى منزل الابرار ، ولي - يعني عبد الملك - هذه الامة بالذي يحيى عليه الله من الشدة على الربوب والين لاهل الباقى والظلم وقامة ما أقام الله من منار الاسلام والاعلام من حج هذا البيت ، وغزو هذه الثغور وشن هذه الفارة على اعداء الله ، فلم يكن عاجزاً ولا مفرطاً . ايها الناس عليكم بالطاعة والورع الجماعة فان الشيطان مع الفرد ، ايها الناس من ابهى لنا ذات نفسه ضرباً الذي فيه : عيبه . ومن سكنت مات يده ، نعم قام اليه الناس وباعود . وتم له الامر .

سياسة توليد الداخلية

كانت مدة التوليد غرة في جبين الدولة الاموية ، ففيها قام ما يلاح داسلي عظيم ، واشتهر في الامة قواد عظام وهم محمد بن القاسم ، وقيصة بن مسلم الباهلي ، وموسى بن نصير ، ومسلحة بن عبد الملك . فتحسوا الفتوحات الواسعة وضافوا الى المملكة الاسلامية بلاداً واسعة واستردوا هيبتها في نفوس الامة المجاورة لها . وذلك لان عبد الملك قد وضع الامور ومبناها ، وأخضع الفتن وأسكنها ، وقمع ثورة الشيعة والخوارج ، فلما ولي التوليد الخلافة وجد البلاد عائدة مطيشة ، والناس يحبهون على بعمته تخفف ابناء الحياة يسردا وذلك بطفه على الفقراء والمعوزين واهتمامه بأحوال رعيته وسرور على مصالحهم وعمه على تخفيف آلام مرضاهم وبذلك دعا له الجلو وساد الامن والسكون وانصرف الى التفرحات الخارجية .

سياسة توليد الخارجية

توسعت البلاد الاسلامية كثيراً في عهد التوليد . والحدود المملوكة العربية تمتد من نهر السند والصين شرقاً الى المحيط الاطلسي غرباً ، ومن البحر العربي والصحراء الافريقية الكبرى جنوباً الى جبال طوروس شمالاً . وفيما يلي نذكر اعمال الفتح التي تمت في زمنه في جهات المملوكة الثلاثة : الشرقية ، والشمالية ، والغربية .

اولا الجهة الشرقية :

فلما ان الحجاج عزل ابناء الملب بن ابي صفرة عن ولاية جرجان ودين عامية سنة ٨٦ هـ قذبة بن مسلم الباهلي احد زعماء انصارهين . وكان قذبة قد كاد بسلا حكاما يغنون الحرب ، ما رما شديد الوظافة . فخرج من مرو عاصمة خراسان ومركز حركانه الحربيه ، وحارب الصفد والتمرد . سكن اواسط آسيا ، واستولى على مدن سيكند ، وبخاري وسمرقند^١ وخوارزم وقرغانة وشاش^٢ الى ان وصل

١ - سيكند وبخاري وسمرقند مدن واقعة ما بين نهري سيحون وجيحون من اقليم يدعى بلاد خوارزم محصور بين هذين النهرين الذين يصبان في بحر خوارزم المسما في الوقت الحاضر (بحر آرال)

٢ - قرغانة ، والشاش والصفد هي اقليم تقع فيما وراء نهر سيحون .

كشفر على حدود الصين سنة ٩٩ هـ ففتحها وأرسل وفداً الى ملك الصين برأسه هيرة بن الشمرج
الكلابي فكلهم ملك الصين وقال لهم : قولوا القوية ينصرف قتي قد عرفت حرمه وظلة اصحابه
والا بدت اليكم من بهلككم وبهلكه . فقال له هيرة : كيف يكون قليل الاصحاب من اول
خيله في بلادك وآخرها في منابت الزيتون ؟ وكيف يكون حريصاً من خلف الدنيا قناراً عليها
وغزاة . واما تخونك ايانا بالقتل قلت لنا آجلاً اذا حضرت فأكرمها القتل ، فليسنا نكرهه ولا
نخافه . قال : فما الذي يرضي صاحبك ؟ لانه حلف ان لا ينصرف حتى يظأ ارضكم ويختم ملوككم
ويعطى الجزية . قال : فانا نخرجه من بينه نيمت اليه بخزية برضاها . ثم عاد يصحاف من ذهب
فيها تراب ويث بحرر وذهب والريرة علفان من ابناء ملوككم ثم اجاز الوفد . فداروا حتى قدموا
على قتيبة . فقبل الجزية . وختم النعمه وردهم ووطى التراب ثم عاد الى مرو .

وقد وجد قتيبة وجنده في محاربة الترك صعوبات شديدة لان تلك القبائل كانت تديش حياة
بحياة البدو فكاف شديدة القتال وممارسة الحروب . إلا أن قتيبة ذاك البطل الخالد في تاريخ العرب ،
عرف كيف يكسر من شوكة الترك ويخفف من حدتهم ويخضعهم لسلطانه . كما انه عرف كيف
يسوس جنده ويحسن اليهم فأجروه وأخلصوا العزيمة فقادهم الى الموت فلم يبالوا واتح تلك البلاد
الواسعة ونشر الاسلام فيها واصبحت جزءاً من الامبراطورية العربية .

وبينا كان قتيبة يفتح البلاد فيما وراء نهر جيحون كان محمد بن القاسم الثاني يفتح بلاد الهند ،
عينه الحاج والياً على نهر السند ، وأرسل معه ستة آلاف من جند الشام . وجهزه بكل ما يحتاج
اليه من سلاح وذخيرة ، فسار حتى اتى الديبل ١ ، فقاتل اهلها وحاصره حتى فتحها دفوة . وبني فيها
مسجداً وسار منها الى مهران بعد ان عبر نهر السند ٢ فقاتله داهر ملكها قتالاً شديداً وكان راجب
فيلا يقتله احد المسلمين وانشد قائلاً :

| | |
|----------------------------|-------------------------|
| الحيل تنهد يوم داهر والثنا | ومحمد بن القاسم بن محمد |
| اني فرجت الجمع غير مفرد | حتى شلوت عظيمهم بقتل |
| فركته تحت العجاج مجدلاً | مشفر الخب بن غير موجد |

وفتح المسلمون بلادها فيما وراء نهر السند حتى وصلوا الى الروم فحاصروها ريثم فتحها فدخلوا على
د ان لا يقتلهم ولا يعرض ليدهم ٣ ، فوضع محمد عليهم الخراج وسار الى المدن ٤ فقاتل اهلها وغنم

١ - الديبل : مدينة على الساحل الغربي للهند وتعرف اليوم باسم كراتشي .

٢ - نهر السند ويسمى اليوم بالانديس نهر في غربي بلاد الهند يصب في البحر العربي .

٣ - البلد : مكان العبادة عند الهنود وهو ككائنات التصاري ومعابد اليهود وبيوت زيراني الزرمن .

٤ - المدن : مكان في جنوب بلاد البنجاب وكان فيها يد تهندي اليه الاموال ونار له الشذور
ويحج اليه اهل السند فيطوفون به ويحلقون رؤوسهم ويطام عتده .

منهم غنائم غنيمة حتى تولوا على حكمه . وبلغه وهو في المئتان وثلثة الحجاج ثم ثنى الوليد وعزله
وبذلك توقف الفتح في بلاد الهند وخسر المسلمون بذلك قتلاً عظيماً كان له فضل عظيم في غرس
بذر الإسلام في بلاد الهند .

وكان للحجاج بن يوسف الثقفي فضل كبير في هذه الفتوحات العظيمة التي قام بها قتيبة ومحمد
لأنه كان دائم الاتصال بها وشديد الحرص على اطلاع لآخبارها واعانتها بالمدد والنصائح وكانت
لا تنقض له عين ولا تفتر له عزيمة ولا يهدأ لسانه من الوعد والوعيد وحثها على الجهاد فكان بذلك
خير دافع لها في هذه الفتوحات .
نسباً : الجهة الشمالية :

اشتهر مسعدة بن عبد الملك بحروبه مع الروم وغزوه بلادهم ، ولم يتول الخلافة لأن أمه كانت
أمة ، ولكنه عرض عن ذلك بفتوحاته في بلاد الروم . فكان يغزوهم في كل سنة تقريباً . وكان
رافقه في غزواته العباس بن الوليد ، فسقط عدة حصون بأيديهم منها عمورية وهرقلة وطرشوس .
نسباً : الجهة الغربية :

ثم في زمن الوليد فتح اسماعيل بن عبد الله في إفريقية موسى بن نصير ومروان طاروق بن زياد
وساد كسر خبر هذا الفتح في الكلام عن الأندلس .

أعمال الوليد الإصلاحية

كان لوليد ميلاً للإصلاح والمعربات . أمر بتعميد الطرق وتوسيع السبل ، وحفر الآبار في
البدان ، وقد تم في زمنه بناء المسجدين العتيقين : مسجد المدينة ، ومسجد دمشق المعروف بـ
« الجامع الأموي » . ففي سنة ٨٠ هـ طالب الوليد من عاتله عمر بن عبد العزيز توسيع المسجد النبوي
حتى يبلغ طوله مئتي ذراع وعرضه مثله . وأن يشتري الدور الملاصقة له ، ويضم بيوت أزواج النبي
اليه ، وقال له : « فإن اقتضى على ذلك أهل المدينة فإنك في ذلك سلف صدق محرم وعتيق » فقد
قام ببعض الإصلاحات في هذا المسجد . وأرسل اليه بالقملة والبنائين من الشام . وبعث الوليد
إلى ملك الروم يطلب منه المعونة في بناء مسجد الرسول . فبعث اليه ثمة ألف مثقال ذهب وبنية
عامل ، وأربعين رجلاً من القسوس ، فابتدأ عمر بن عبد العزيز بالعمل وقام به خير قيام (١)

١ - ولي عمر بن عبد العزيز ابن عم الخليفة الحجاز سنة ٨٧ هـ وقام بتأسيس مجلس شوري
في المدينة مؤلف من فقهاء وعلما أهلها . واستعان رأيهم في تصريف شؤون الولاية وأعمالها . وكان
لا يأت في أمر من الأمور إلا بعد استشارتهم وأخذ رأيهم . وأحسن معاملة الحجازيين حتى
ذكرهم بأعمال جده لأمه عمر بن الخطاب . فأقام بعض أهل العراق هرباً من ظلم الحجاج وجوره .
وكان ذلك سبب عزله ونوابة هيثم بن حيان الرعي بالحجاز مكانه . وكان ذلك برأي الحجاج .

لما البناء الذي اكسب الوليد شهرة عظيمة فهو المسجد الاموي الذي كان سابقاً معبدًا وثنيًا .
ثم حول الى كنيسة مسيحية ، وعندما فتح العرب دمشق بقي قسم منه كنيسة والقسم الآخر
حول الى مسجد يقيم به المسلمون صلواتهم الى جانب المسيحيين . وفي زمن الوليد اتسعت المملكة
الاسلامية وزداد عدد المصالحين من الوالد بن علي عاصمة الامويين لذلك عهد الوليد لشراء القسم الآخر
الذي كان بيد المسيحيين ، ووضعه الى المسجد ، وعرض عليهم ارض واموال لينزلوا لهم كنيسة في
مكان آخر . ويقال ان الوليد انفق على عمارة هذا المسجد خراج المملكة سبع سنين . وحملت
الحسابات التي صرفت على نفقته (١٨) جملاً فاحرقها الوليد دون ان ينظر فيها . وقال يا قوت اخري
في ذكر هذا الجامع : ومن عجايبه انه لو عاش الانسان مئة سنة وتأمله كل يوم لرنى فيه كل يوم
شيء جديد . ولا يزال المسجد قائماً حتى الآن بالرغم من بعض التغيرات التي طرأت على بنائه بعد
زمن الوليد وهو مثار عجب كل من يدخله من الزوار والمصالحين .

وقد فهم الوليد باعمال عمرانية اخرى حتى شغف الناس في زمنه بالبناء ، حتى كانت مستشفياتهم
عنها اذا تقابلوا . وقد أمر الوليد ببناء أحواض الماء في الشام لتسهيل استقاء الاهلين منها ، كما امر
بفتح مدارس ومستشفيات وحجر على المذنبين وخصص للفقراء صدقات تنفق عليهم ، وجرى لهم
عطائه من بيت المال يقوم بسد حاجتهم .

ولاية العهد

كان عبد الملك قد اوصى بالخلافة لابنه الوليد ولاخيه سليمان من بعده . وفي اواخر أيام
الوليد حاول الوليد نقل الخلافة لابنه عبد العزيز ، وعزل اخيه سليمان . ودعا الناس الى ذلك فر
يحيى الالحجاج وفتويه بن مسلم وبعض خواصه . وأشار عليه بعض اعوانه ان يستقدم سليمان اليه
وبرغمه على خلع نفسه وبيعة عبد العزيز . فكتب الى اخيه يدعو اليه فاجاب قائلاً وتامكاً عن اخي ،
وأراد الوليد ان يسير اليه بنفسه الا ان منته حلت دون ذلك . فمات في منتصف جمادي الآخرة
سنة ٩٦ هـ بدير حران . بعد ان بقي في الخلافة سبع سنين وثمانية اشهر ، الا انه انور حقيقة اخيه
قبل موته وبذر بذور الحق في نفس سليمان على الذين ساعدوا الوليد باخذ البيعة لابنه بدلا عنه .

٧ - سليمان بن عبد الملك

٩٦ - ٩٩ هـ او ٧١٥ - ٧١٧ م

ولدت سليمان سنة ٥٤ هـ . أبوه عبد الملك وامه ولادة بنت العباس بوبع بالخلافة بعد موت اخيه
الوليد فتلقى دعوة ابيه وكان كريماً عظاماً والزينة ، اكلوا وشابوا في الدار . قرب اليه
المسيحيين ولكن بحصوه الزينة بين فئات القصبية الزرية بين الخريجين . فخرج المسجونين الذين كانوا

في سجن الحجاج ، ففرح الناس بذلك واعتبروا أيام حكمه أيام خير وبركة وفي ذلك يقول ابن جرير
الطبري على لسان العامة : « كان سليمان مفتاح الخير ، اذهب الحجاج ، واطلق الاسارى وخلي
السجون واحسن الى الناس واستخلف عمر بن عبد العزيز . »

سياسة سليمان الداخلية

كان سليمان يفيض الحجاج واعله دولته ، ونبيل الى يزيد بن المهلب . وكان الحجاج طامعاً
لذلك حتى انه دعى الله ان يثبته في زمن الوليد فاستجاب الله دعوته . فقامت قبل ان يبي سليمان
الخلافة . وان لحج الحجاج من سليمان . الا ان عماله وقواد اخيه الوليد ومحمد بن القاسم ، وقبيصة بن
مسهر ، وموسى بن اسير وطارق بن زياد وقموا في غصبه . فكان الولد عماله ان عزل محمد بن القاسم
وولى مكانه نفي السند يزيد بن ابي كبشة السككي فقبض على محمد (ابن اخن الحجاج) وقبضه
وعمله الى العراق . فذل محمد متحلاً :

اضاعوني ولي نفي اضاعوا ليوم كبرية وسداد ثمر
ويقول البلاغري : ان الخوارج بكوا محمداً لجهته وعمله وكرم خلفه . وقد رماه حمزة بن بيش
الغني بقوله :

ان المردة والساجدة والندي محمد بن القاسم بن محمد
ساس الميوش سبع عشرة حجة يا قرب ذلك مؤدداً في مولده
وحبس محمد بواسطة وقتل في السجن ومما قل في سجنه :

فلئن لوئث بواسطة وبأرضها رهن الحديد مكبلاً متلولاً
قرب قينة فارس قد رعتها ولرب قرن قد تركت قبلاً

اما قبيصة بن مسهر : فقد بذل الخيانة لسليمان اولاً وكذب اليه كتاباً يهينه بالخلافة ويعزيه عن
الوليد ويعلمه ببلاده وجهاده . الا ان سليمان كان حذراً عليه لموافقة الوليد على عزله وتولية ابنه
عبد العزيز مكانه . وكان قبيصة طامعاً بذلك . ولذلك اتى على سليمان وخلفه ، ودعا الناس الى منى
ذلك فاجابوا عليه وولوا ادرهم وكيداً سيد بني تميم فقتل هذا قبيصة واخوته واكثر بنيه . وولى
ذلك راجع لكرههم الحجاج وعماله . فقام اليهم رجل من الدجيم وقال لهم : يا معشر العرب قائم
قبيصة ، والله لو كان منا قاتل قبيصة ، جددناه في نابوت ، فكنا نستفتح به اذا غزونا . وكانوا يهيمونه
بحرسان ملك العرب ، قائم عبد الرحمن بن حنيفة الزاهلي بنيه فذل :

كانت يا حفص قبيصة لم يسر بحش الى حش ولم يمل منبرا
ولم تخلف الرايات والقوم مولد وقوداً وذهب له الناس عسكراً

دعته الى الجحش عفا مظهر

دعته الى الجحش عفا مظهر

عقل لي حفص فيكيه عيبر

عقل لي حفص فيكيه عيبر

اما موسى بن نصير : فقد تمجّل بالتقدم الى الوليد عندما استدعاه من الاندلس فجاء حذلاً معه الاموال والهدايا الخلفة للوليد وكان مريضاً على فراش الموت . فطالب اليه سليمان ان يترث حتى يموت الوليد وتؤول هذه الاموال اليه ثم يرضى . وكان هذا سبب غضب سليمان عليه . فعزله عن جميع الاعمال وحجبه وغمره مالا عالياً لم يقدر على وقته . حتى أخذ يسأل العرب المساعدة ومات على طريق الحج وهو في هذه الحالة المرفقة كما ان سليمان عزل عاصم بن زناد ولم يستخدمه فذهبت جيود هذا البطون دون تقدير من الخليفة .

وهكذا نكب سليمان قادة الدولة ورجلها وادبهم برجل اليمنيين ومنهم زيد بن المطلب الذي ولي العراق ثم خوسان فآخذ بالادب في التيسير وفتاحهم ، وبذلك من خدمه اعوان الحاجاج اشد انتقام وبذلك آرت العصية القديمة فيها بين قيس وعين والاسم العرب قديمين وكان ذلك من اسباب سقوط الدولة الاموية .

سياسة سليمان الخارجية

كانت بلاد الاندلس قد خضعت لامويين وتم لهم لتجها منذ زمن الوليد ، وكان المسلمون في زمن سليمان يوسعون ملكهم فيما وراء جبال البرانس (الپرنه) وسأترك الكلام عن هذه الجبهة لبحث الامويين في الاندلس . وانكمم عما حدث في الجبهتين الثانية والثالثة .

الجبهة الشمالية :

تابع سليمان محمل مسعدة بن عبد الملك في جهاده في بلاد الروم فجهز جيشاً سنة ٩٦ هـ سار به الى دابق (١) وفي سنة ٩٨ هـ وجه سليمان اخاه مسعدة بهذا الجيش من ناحية البر واورسل معه كرات والمرة من الطعام والذخيرة لحصار القسطنطينية . وارسل الاسطرلاب الذي يساعد من ناحية البحر . وقد وفد على سليمان ليرون الملقب به ايد اوانه الذي كان ناقماً على امير اقطر الروم وحرضه على فتح القسطنطينية ، ووعدده بأن يطلع المسلمين على خفايا قومه ومواطن الضعف فيه . فديره سليمان بصحبة الجيش العربي . وملك المسلمون اسوار القسطنطينية وحاصروها من ناحية البر والبحر . فضايق الروم من الحصار . وعرضوا على مسعدة مائة الف دينار على ان يرفع الحصار عنهم . فاقبى مسعدة ذلك ، واستمر في حصاره . فعرضوا ليرون الخصال بأن يتصوره امير اقطر (٢)

١ - دابق مكان قرب حلب .

عليهم قبل ذلك ونقول بعض الروايات ان ليون اشرك على مسعدة واحرق مؤودة جيش المسلمين
وذخيرة وهرب الى قومه . وكان يعرف مواعين الضعف عند المسلمين فجار بهم حتى اجلاهم عن
الفسطاطية ونزلت الحجة .

الحياة الشرفية :

ولي سليمان بن يزيد بن المهلب على خراسان ، فقام بعدة حملات الى الشرق فتح بها بلاد دغستان
وطبرستان ، وجرجان وغنم غنائم كثيرة . فكتب الى الخليفة بطلبه بذلك ومما قلناه ، اما بعد فان
الله قد فتح لامير المؤمنين فتحاً عظيماً وصنع للمسلمين الحسن الصنيع فزينا الحمد على نعمه واحسانه
في خلافة امير المؤمنين على جرجان وطبرستان . . . وقد سار عندي من خمس ما افاء الله على
المسلمين بعد ان صار الى كل ذي حق حقه من الف . . . والتمنيمة ستة آلاف الف . وانا حملت ذلك
لامير المؤمنين ان شاء الله . . . ولما ولي عمر بن عبد العزيز الخلافة طأ به يهذه الاموال ، واسلم
بجدها عنده سجنه في قلعة حلب ولكنه هرب من السجن في آخر عهد عمر .

ولاية العهد

كان سليمان بن عبد الملك قد عهد لابنه ايوب بالخلافة . فمات ايوب في حياة ابيه فلما اشتد
عليه المرض في دابق ، اراد ان يولي بعض ابناءه الصغار ، ولكن رجاء بن حيوية فصححه ان
يستخلف رجلاً صالحاً يذكروه الناس بالخير فولي ابن عمه عمر بن عبد العزيز ومن بعده يزيد بن
عبد الملك ارضاء لآخرته ، وكتب في ذلك عهداً وحشمه وامر بجمع اهل بيته من الامويين ، فلما
اجتمعوا قال رجاء اذهب بكاني هذا اليوم فاخبرهم ان عهداً كتابي وامرهم ان يابعوا من وليت
فبايعوا كلهم من غير ان يعلموا من شاء وتوفي بدائي يوم الجمعة في ١٠ صفر سنة ٩٩ هـ بعد حكمه
دام سنتين وثمانية اشهر . وكانت سنة ان توفي ٥٥ سنة . فخرج رجاء بن حيوية الى مسجد دابق
وطلب الى الناس ان يبايعوا من ولاء سليمان في كتابه فبايعوا كتابه من غير ان يعلموا من هو فقرأ
عليهم الكتاب . واذا به عمر بن عبد العزيز فتمهل اولاد عبد الملك من ذلك لانقال الخلافة لابن
عمهم ولم يابعوه اولاد ولكنهم قبلوا به بعد ذلك .

٨ = عمر بن عبد العزيز

٩٩ - ١٠٦ هـ او ٧١٧ - ٧٢٠ م

ولد عمر سنة ٦٢ هـ ، ابوه عبد العزيز بن مروان الذي كان ابوه قد عهد اليه بولاية العهد إلا
ان اخاه عبد الملك ولاء مصر ونزع ولاية العهد منه . وام عمر تسمى ام عاصم بن عمر بن الخطاب ،
فهي ادة حفيد عمر بن الخطاب ، ولذلك يلقبونه بالثانية الصالحة . ويتردد بعض أهل السنة خافس

الخلفاء الراشدين ، كان متواضعاً ناسكاً محباً للعدل والامتناع وكان فوق ذلك متفشفاً في ملابسه
غير متبرف في معيشته يصرف كل يوم درهمين - توفي بالخلافة وهو يقول : « انا لله وانا اليه راجعون »
وأراد رجال الحكومة ان يحتفلوا بخصيصة خليفة ، فرفض الميرجاني وابية الملك وقال : « إنما أنا رجل
من الناس » ومنى بين الناس وذهب الى المسجد فاجتمع القوم لسماع خطبة العرش فقال : « أنت
بقاض ولكي منفذ » و« أنت مبتدع ولكي مشع » و« أنت بخير من أحدكم ولكي القاكم حلالاً » . ولما
نمت له البيعة أتى بمراكب الخلافة فقال : « داني أوفق لي » وركب دابته فصرفت تلك الدواب ثم
بيعت فيها بعد ، ورد عنها ثبوت المسأل . ثم أقبل سائراً فبذل له : « منزل الخلافة » فقال : فيه عيال أبي
أيوب ، وفي فسطاطي كفاية حتى تحولوا فأقم في منزله حتى فرغوه فيما بعد .

وكان حريص على مصلحة المسلمين ، ومنفعة رعيلاه حتى عظمت عليه مسؤولية الخلافة . فيقال
ان زوجته فاطمة بنت عبد الملك رآته ذات مرة بعد الصلاة يسكي ، فسأله عما يسكيه ؟ فقال : « لقد
وليت أمور المسلمين وغير المسلمين فتذكرت الفقراء الذين يتضورون جوعاً ، والمرضى المحرومين ،
والمموزين المضطهدين ، والمسجونين البائسين » والشيخ الميضي الجناح . فثبت ان يحليني الله من
اجلهم حساباً عسيراً ، ولهذا يسكي » .

قرب عمر الفقهاء والعلماء والصلحاء اليه وأبعد عنه الشعراء ، ولم يخط أحد منهم من أموال
الامة طمعا في تزيينهم واستمالتهم . خطب مرة في الناس فقال : « من صعدنا فليصعدنا بخمس وإلا فلا
يقربنا : برفع الينا حاجة من لا يستطيع رفعها ، وببيننا على الخير بجهده ، وبدنا من الخير على ما نهتني

١ - وما بدنا على حب عمر بن عبد العزيز للعدل والوفاء ان أهل سمرقند قالوا لعالمهم ساجان بن
أبي السريح ان قتيبة غدر بنا وظلمنا وأخذ بلادنا وقد أظهر الله العدل والانتصاف فلان لنا فليغدر منا
وقد الى لجه المؤمنين يشكون ظلامنا فان كان لنا - في اعدائنا - فان بنا الى ذات حاجة . فأذن لهم
فوجهوا منهم قوماً الى عمر فلما علم عمر ظلامهم كتب الى ساجان يقول له : « ان أهل سمرقند قد
شكروا ظلماً اصابهم وتحاملا من قتيبة عليهم حتى أخرجهم من ارضهم فذا الان كتابي فأجلس لهم
القاضي فليظفر في امرهم فان قضى لهم فأخرجهم الى معسكرهم كما كانوا وكنتم قبل ان ظهر عليهم
قتيبة » . فأجلس لهم ساجان (جميع بن حاضِر) القاضي فقضى ان يخرج عرب سمرقند الى معسكرهم
وينابذوهم على سواء فيكون - لهما جديداً او ظفراً عنوة . فقال أهل الصفد : بل نرضى بما كان ولا
نجدد حرباً . لان ذوي رأيهم قلوا قد خالفنا هؤلاء القوم وأثنا معهم ، وامنونا وأمناهم فننعدنا
الى الحرب لا ندرى ان يكون الظفر وان لم يكن لنا ، كنا قد اجتبنا عدائنا في المنازعة فتركوا
الامر على ما كان ورضوا ولم ينزعوا .

اليه ، ولا يفتان أحداً ، ولا يعترض فيما لا يمتنيه ، فانشع الشعراء والخطباء وثبت عنده المذهب
والزهد ، وقالوا ما يسعنا ان نشارك هذا الرجل حتى يخالف قوله ففعله .

سياسة عمر الداخلية

هدأت حالة البلاد في زمن عمر بن عبد العزيز ، ولم يبق عليه الا الخوارج ، فأراد ان يقتصر
بالحجة ويردهم الى السلم ، فكتب الى عامله في العراق ، ان لا يجارهم إلا اذا جربوه ، وكتب الى
زعيم الخوارج الثوريين وهو بسطام من بني بشكر يدعو المناظرة ويسأله عن سبب خروجه فأورد
بسطام رجلين من الخوارج ، لينظرا الخليفة ، وجرت بين الطرفين مناظرة ٢ تمكن فيها الخليفة من

١ - وهذا هو كتاب الخليفة ، يلقي اليك خرجت غضباً لله ونبيه ولست بأولى بذلك مني ،
فهل انتظرك فان كان الحق بأيدنا دخلت فيما دخل فيه الناس ، وان كان في يدك فقلنا في امرنا .
٢ - وهذا بعض ما ورد في هذه المناظرة : قال لها عمر : « ما اخرجك هذا المخرج وما الذي
نقسم » فقال المشكك : ما تقسمنا سيرتك انك تقتصر على العدل والاحسان . فاجبتني عن قيامك بهذا
الامر ، أعن رضا من الناس ومشورة ، أم ايقرتهم امرهم ؟ فقال عمر : ما سألتهم التولية عليهم ولا
غلبتهم عليها وعهد الي رجل كان قبلي ، انمت ولم يسكره على احد . ولم يسكره غيركم ، وانتم ترون
الرضا بكل من حال وانصف من كان من الناس . فاركبوني ذلك الرجل وان خالفت الحق ورضيت
عنه فلا طاعة لي عليكم . فقال : بئنا وبينكم أمر واحد ، وأنت خالفت اعمال اهل بيتك وميثاقها
مظالم ، فان كنت على هدي وهم على ضلالة فاعلمهم وإبرأ منهم . فقال عمر : قد علمت انكم لم تخرجوا
طلباً للدين ، وانكم أردتم الآخرة فأخطأتم طريقها ان الله عز وجل لم يبعث رسوله (ص) لئلا
وقل ابراهيم « فمن تبعني فله مني ومن عصاني فانك غفور رحيم » وقال الله عز وجل : أولئك الذين
هداهم الله فهداهم اقتده ، وقد سميت انهم مظالم ، وكفى بذلك دماً ونقساً ، وليس لمن اهل الذنوب
فريضة لا بد منها ... قل الخارجي : أما هم كذا بظلمهم ؟ قل لا ! لان رسول الله (ص) دعا الناس
الى توحيد الله والاقرار بما نزل من عنده . قل عمر : ليس احد منهم يقول لا أعمل بسنة رسول
الله ولكن القوم اسرفوا على انفسهم على علم منهم انه محرم عليهم ولكن طالب عليهم الشفاء ... فقال
الخارجي أرأيت رجلاً ولي قوماً واموالهم فعدل فيما تم سيرها بيده الى رجل غير مأمون أراد أولى
الحق الذي يلزمه الله عز وجل ؟ أو تراه قد سلم ؟ قل عمر : لا ! قل أنتسلم هذا الامر الى يزيد من
بعدك وانت تعرفه انه لا يقوم فيه الحق ، قل : : إنما ولاء غيري ، والمسلمون أولى بما يكون منهم
فيه بعدي . قل فقري ذلك من منع من ولاء حقاً ؟ وكان هذا السؤال الاسير عمر جاً ليعر . فخطب
الفتنة الاجابة عنه .

أقاع أحدها ، وزرعه الآخر لأولاده من بعده يزيد بالعهد ، التي كان سليمان قد عهد إليها . وأراد
 أن يعرض على الخوارج ما جرى بئها من المداخلة لينظروا في أمرهم ويختاروا ما يريدون .
 ومن الحوادث الداخلية التي جرت في زمن عمر ما كتبت قد ذكرته سابقاً : وهو أن الخليفة
 كان قد قبض على يزيد بن المطلب ومثابه بالذوال التي كان قد كتب يومها سليمان بن عبد الملك
 وسجنه في قلعة حلب ولم يخرج منه حتى هرب إلى البصرة في آخر عهد عمر خوفاً من ولي العهد
 يزيد الذي كان نكهاً عليه . وكتب إلى عمر وكان على فراش الموت يبين له سبب هربه قتلًا : « أني
 الله لو وثقت بجهالك لم أخرج من محبسك ولكني خفت أن يلي يزيد فيؤتلي شر قلعة » .

سياسة عمر الخارجية

لم يشجع عمر بن عبد العزيز ولاه على التوسع في الفتوحات الخارجية ، بل أراد أن يثبت دعائم
 الدولة بأمر مسالمة بن عبد الملك التي يتخلى عن بعض المراكز الامامية في بلاد الروم خوفاً على
 المسلمين من العدو فنجلي عن طرده بعد أن خربها ، وعاد قتالا إلى ماطية التي تبعد عنها ثلاثة مراحل .
 كما أنه كتب إلى ملوك الهند يدعوهم إلى الاسلام ، وقد كانت سيرته قد بلغتهم ، فأسلم بعضهم وتسلموا
 بأسماء عربية .

أما في ناحية المغرب فقد وصل المسلمون بقيادة السبع بن عبد الملك الجولاني إلى مدينة طوكوز
 وقتل في أثناء حصارها .

إصلاحات عمر بن عبد العزيز

قام عمر بن عبد العزيز بإصلاحات عظيمة : فأوسع أولا الحقوق المقترضة قبل زمانه إلى أهلها .
 ثانياً : منع سب علي وأهله على المنابر . ثالثاً : قام ببعض الإصلاح الخيرية .
 أما لإرجلته المتألم إلى أهلها فينجلي ذلك بأنه لما ولي الخلافة حضر قريناً ووجود الناس وقال
 لهم : « إن فذلك (١) كانت بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان يضعها حيث أراد الله ثم وليها أبو بكر وعمر
 كذلك ثم أقامها مروان ، ثم صارت إلى آل أبي بكر من مالي ، مالي أبي بكر ثم إلى آل أبي بكر من مالي ، ثم رددتها على ما كانت
 عليه في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم » ثم ردها إلى آل النبي صلى الله عليه وسلم .

كما أنه أبقى مغارم كثيرة كانت قد استحدثت في عهد الحجاج بن يوسف . فقد كتب إلى أمير
 العراق يقول له : « لما بعد أن أهل الكوفة قد أسلمهم بلاء وشدة ، وجور في أحكام الله وسنة خبيثة
 سبوا عليهم عمل السوء ، وإن قوام الدين العدل والاحسان ، فلا يكون شيء أهم إليك من نفسك ،
 تحمليها قليلاً من الأمن ، ولا تحمل خراباً على عامر ، وخذ منه (من أمان الخراب) ما طاق ،

١ - فذلك مكان بجانب المدينة يسكنه اليهود فتحه النبي صلى الله عليه وسلم ، وجعله لأهله وذويه .

وأصلحه حتى يبرء ، ولا يؤخذ من العامر الا وظيفة الخراج في رفق وتسكين لأهل الارض ، ولا تؤخذ اجور الضرايين ، ولا هدية الثوروز ، والبرجان ، ولا ثمن المصحف ، ولا اجور القنوح ، ولا اجور البيوت ولا درهم النكاح ، ولا خراج على من اسلم من أهل الذمة ، فانه في ذلك امرى فاني قد وليت من ذلك ما ولا لي الله ،

ودخل كثير من القباط مصر في الاسلام في زمن عمر ، فقلت مالية مصر لالة داضي الجزية ، فطلب الي مصر من الخليفة ان يأخذ الجزية من القباط بعد اسلامهم فنهى عمر وقال له : ان الله بعث محمداً هادياً ، لا جلياً .

ثانياً : امر الناس بترك سب علي بن ابي طالب على المنابر : وكان بنو امية يفعلونه ، فتركه . وكتب الى الامصار بتركه ، وابدل ذلك بقوله تعالى : (ان الله يأمر بالعدل والاحسان وإتباع ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر) والذي يعظكم الله ان تذكروا (فسال كثير عزه مدح الخليفة على فعلته :

| | |
|-----------------------------|----------------------------|
| وليت لم تنتم عالياً ولم تحض | برأ ولم تقع مقالة مجرم |
| تكلمت بالحق المبين وانما | أبين آيات الهدى بالكلم |
| وجدت معروف الذي قلت بالذي | فعلت فأضحى واخيراً كل - لم |

فكان عمله هذا نقوية للحزب العلوي وتنشيطاً له ، مما ساعد هذا الحزب على العمل من جديد لأخذ الخلافة لطرفه .

ثالثاً : قام عمر ببعض الاعمال الخيرية : فأمر بإنشاء مسجد في مدينة سرقوسة بجنوبي فرنسا . وأمر بعمل الخانات في البلدان القارية ، وكتب الى أحد عماله يقول له : ان اعمل خانات فمن وراءك من المسلمين تأفروه يوماً وليلة ، ونهضوا دوابهم ، ومن كانت به علة تأفروه يوماً وليلة ، وان كان منقطاً فأبلغه بلده .

وجعل للقضاة منزلة كبيرة عنده ، ورفع سلطة الولاة عليهم ، فكان الخليفة مرجعهم الاعلى ونهى عن تنفيذ اي حكم بقتل او قطع ، الا بعد ان يراجع هو فيه ، فجعلت هذه الاعمال الاملاكية سياسة الدولة دينية ووجهتها تخالف عن سياسة الامويين السابقة : وهي السياسة العربية المستندة على مصلحة الدولة ، وهذا التغير قد اضر بالامويين كثيراً لانه قوى عليهم الاحزاب المعارضة فيما بعد من شيعة وخوارج وموالي قدموا جميعهم يملكون على قلب الدولة الاموية وتلدوة الى دولة سلوة جديدة . كذلك فان سياسة التسامح المالية في الخراج والجزية اضررت بمصلحة الخزينة وانضمت مواردها ، ووضعت مالية الدولة في خطر والاس ، مما حدا بالخلافة الاموية من بعده ان يعيدوا

عنها ويعودوا الى سياستهم الاولى ، وكان ذلك من اسباب منقطع العامة عليهم فيها بعد .
بيت عمر ووفاته :

تزوج عمر بن عبد العزيز بفاطمة بنت عبد الملك بن مروان فقط ، ولما ولي الخلافة سألها ان
تعيد ما وجبها ابوها من ثياب مودعة ، وجواهر نفيسة الى خزينة المسلمين فقبلت مقطوعة مسروقة .
ويقال ان يزيد عرض عليها بعد وفاته زوجها ان يرد اليها مجوهراتها وملابسها ، فرفضت ذلك .
وقالت : انها لم تنهم بها في حياته ، فحري بها ان لا تنهم بها بعد مماته .
وكان من اولاده عبد الملك ، سألته ابوه مرة : « ما تقول لربك اذا اتيت » ، وقد تركت حفاً لم
نحيبه ، او باطلاً لم تحته ؟ فقال : « يا بني ان اجدك قد دعوا الناس عن الحق فانتبت الامور الي وقد
اقبل شرها ، وادبر خيرها ، ولكن أليس حسناً وجميلاً الا تطلع الشمس عدلي في يوم الاحياء
فيه حفاً ولدت باطلاً ، حتى يأتيني الموت والاعلى ذلك . »

طالب اليه الخوارج ان يعزل يزيد عن ولاية العهد فقال لهم : « انما ولاء غيري والمسلمون اولي
بما يكون منهم فيه بعدى . » وقد نظم ثوالة عليه سياسته القديرة . فقول انهم دسوا له السم
فتوفي بدير سمعان من اعمال حمص في ٢٥ رجب سنة ١٠١ هـ . وكانت مدة خلافته سنتين وخمسة
اشهر ، ولم يأس العباسيون قبره كما فعلوا بقبور بني امية — بل بقي مزاولاً يزوره الناس حتى القرن
الرابع هجري .

٩ = يزيد الثاني

١٠١ - ١٠٥ هـ او ٧٢٠ - ٧٢٤ م

ولد يزيد سنة ٦٥ هـ ، ابوه عبد الملك بن مروان ، ولله عاتكة بنت يزيد بن معاوية بن ابي
سفيان . ولي الخلافة حسب وصية اخيه سليمان ، وقام بتدعيم كل ما اصابه سلفه عمر بن عبدالعزيز
وقامت في زمنه الفتن الداخلية لما اشتد به من خلاعة وقهو ، وترب الخضر ومجاعة للقيان .

سياسة يزيد الثاني الداخلية

قامت في زمن يزيد بن عبد الملك فتنان : الاولى فتنة يزيد بن المهلب في العراق ، والثانية فتنة
يزيد بن مسلم في افرقية .

اما الفتنة الاولى فان سببها ان يزيد بن المهلب اشتد في معاملة القيسيين من اقارب الحجاج عندما
ولى العراق في زمن سليمان بن عبد الملك . وكان ممن عذبه واضطهد ابنه اخي الحجاج زوج يزيد
ابن عبد الملك . فقدم هذا ابن سليمان بن المهلب عندما تقضي اليه الخلافة ، فتحدث ابن المهلب
بقوله : « انك ان فعلت قايلاك بمائة الف مقاتل . » ولما ولي يزيد بن عبد الملك حرب ابن المهلب

من سجنه في حلب، وأعلن عصيانه في البصرة، وأخذ يفتدق الأموال على الناس حتى تجمعوا حوله، وخضعت بلاد فارس وكرمان والاهواز لسلطته، وعندما سمع يزيد بن عبد الملك بخبره أرسل له أماناً على أن يعود لطاعته. فرفض ذلك ابن الملب، فأرسل يزيد بن عبد الملك جيشاً من الشام بقيادة أخيه مسعدة وابن أخيه العباس بن الوليد، فخرج ابن الملب من البصرة إلى واسط، والتقى بالجيش الأموي في ميدان الكفر على شاطئ الفرات الأيمن بالقرب من الكوفة، وجرت بين الطرفين معركة هائلة، قتل فيها يزيد بن الملب، وأخوه حبيب، وهرب مسافر الجند. أما آل الملب فقد هربوا من وجه مسعدة وجنوده إلى كرمان، ومنها إلى الهند، إلا أن الجند الأموي تبعهم وفضى عليهم. وهكذا كانت خاتمة هذه الأسرة الكوفية التي أبانت بلاء حسناً في محاربة الخوارج. وأما مسعدة بن عبد الملك فإنه بعد أن انضم إلى أخيه يزيد الفراء وخرسان، ولم يلبث أن عزله لأنه أهدأ في إرسال الخوارج إليه، وتبين مكانه عمر بن حنيفة. فبين هذا سعيد الخدري على خردان وسنرى أماله فيما بعد.

أما الفتنة الثانية: فقد قام فيها يزيد بن مسلم. ولام يزيد بن عبد الملك ولاية افرقية فمألى أهلها البربر بالشدة والقسوة، ولما أراد أن يخرج من انتفى الإسلام منهم على دفع الجزية، كما أنه حاول أن يرغمهم على البقاء في قراهم وعدم الزواج إلى المدن، فأردوا عليه وخلعوه وولوا مكانه محمد بن يزيد، وكتبوا بذلك إلى الخليفة فوافقهم على ذلك.

سياسة يزيد الثاني الخارجية

لم يرقم العرب في زمن يزيد بفتوحات خارجية عظيمة، وذلك بسبب الاضطرابات الداخلية، وانظم الممل والنوالة، وانشغال الخليفة بلبؤه عن مصالح المسلمين، وما حدث في زمنه من الفتوحات الخارجية هو: أن سعيد الخدري والي خردان اشترك بحروب مع الصفد من اهدل سمرقند حتى كاد يستألمهم فيها. وكذلك قام الخراج بن عبد الله الحنكلي بوقائع مع اهدل الخزر وأرمينية كانت الحروب فيها سجالاً بين الطرفين.

وفاة يزيد الثاني:

توفي يزيد بن عبد الملك في أريد من أرض البقاء في ٥ شعبان سنة ٩٠٥ هـ ويقال أنه مات لحزنه على حباية التي كان يحبها هي وجارية أخرى تدعى سلامة، وقد تقام مع حباية عدة أيام بعد موتها، ومنع دفنها حتى جيفت، فتصحه أهله أن يحرق حزنه عليها حرقاً على مقام الخلافة وأن يدفنها. وما لبث بعد دفنها بضعة أيام حتى لحق بها. وأوصى بالخلافة إلى أخيه هشام ومن بعده إلى ابنه الوليد الذي كان صغير السن. ودامت خلافته نحو أربع سنين ومات وعمره ٣٨ سنة.

١٠ - هشام بن عبد الملك

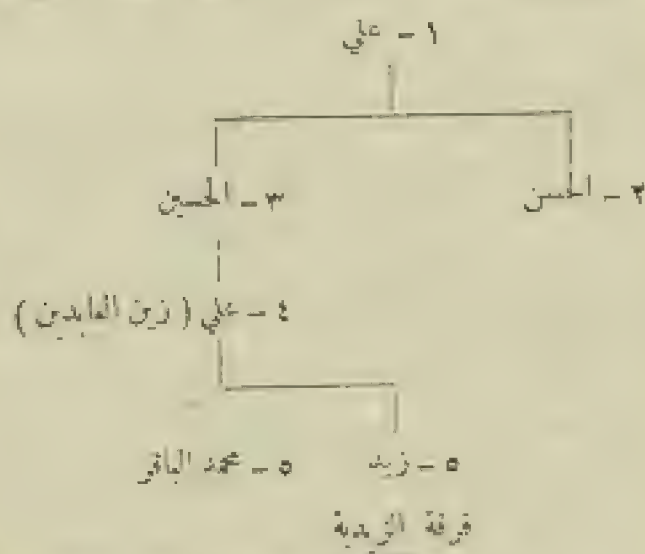
١٠٥ - ١٢٥ هـ أو ٧٢٤ - ٧٤٣ م

ولد هشام سنة ٩٢ هـ ، أبوه عبد الملك ، وأمه عائشة بنت هشام الهذلمية . تسلم الخلافة بعد موت أخيه يزيد وكانت حالة البلاد الداخلية والخارجية سيئة للغاية ، فالعصية القبايلة كانت منتشرة بين قبس وبنين ، والخوارج ينفذون على يزيد الثاني لخلافتهم ونهشكمه ، ودعاها العلويين يكيدون الأمويين في الخفاء ، بينما كانت قبائل الترك والخزر تفتد من جهة الشمال والفرز وتراجم البلاد الإسلامية فكانت البلاد في حالة أزمة شديدة ناشئة عن سوء إدارة يزيد الثاني . وتحتاج إلى حليفة قوي يدير أمورها بحكمة وعزيمة ، ليوقف هذا التدحور الذي كانت جارية فيه الدولة . فجاء هشام وأصلح الحالة بعض الشيء ، وأخر انهيار الخلافة إلى وقت أبعد . فنظف البلاط الأموي مما كان فيه من أهل البو والجرن ، وأخذ العصية القبايلة بتفريه لرجال التيسيين واليمنيين . وقع ثورة العلويين ، وحارب أعداء الدولة الداخليين والخارجيين . فبدأت البلاد قليلاً عما كانت عليه فاعتبر هشام بذلك أحد سواس بني أمية الثلاثة وهم : معاوية ، وعبد الملك ، وهشام .

- سياسة هشام الداخلية

كان ولاية العراق يضربون على سائر البلاد الشرقية ، ويراقبون أعمالها ، وذلك لأنهم أقرب لتلك الأقطار من الخلفاء الأمويين الذين كانوا يتخذون مرا كزهم في بلاد الشام . ولذلك كان ولاية العراق يتمتعون بسلطان واسع يمتد من العراق إلى حدود الصين . فهم الذين يرسلون على الأغلب عمالاً إلى البلاد الشرقية ، كما أن معظم مراسلات أولئك الدول كانت مع والي العراق . فانتخاب ولاية قديرين للعراق يتوقف عليه هدوء تلك الأقطار وتوسع الفتوحات فيها . فلما ولي هشام الخلافة عزل عمر بن هيرة والي العراق في زمن يزيد وبين مكانه خالد بن عبد الله القسري . الذي بقي خمسة عشر سنة والياً للعراق قام في خلالها بأعمال عمرانية كثيرة : حفر الترع ، وأصلح الأنهار ، وبني الابنية الكثيرة . إلا أنه قرب إليه أهله وعشيرته اليمنيين ، وعيّنهم على الولايات الشرقية . فانار بذلك حفيظة القيسيين . فاناروا بشون به إلى الخليفة حتى عزله وولى مكانه رجلاً من القيسيين وهو يوسف بن عمر الثقفي . فكان أول عمل قام به أن قبض على خالد وجلسه هو وعماله ، فانار بذلك قصة اليمنيين . وكان يوسف من ذوي الأخلاق المتناقضة ، كان طويلاً الصلابة ملازماً للمسجد . بين الكلام متواضعاً . كثير التضرع والدعاء ، إلا أنه شديد العقوبة مسرفاً في ضرب خصومه وإيذاء معاكسيه .

في زمنه قامت ثورة زيد بن علي^١ خرج بالكوفة . ويقال ان سبب خروجه يعود الى انه طلب من هشام بعض المساعدة ، فاعترض هشام عنه وأهمل شأنه ، فخرج ساجطاً الى الكوفة ، موطناً النفس على القيام في وجه الخليفة ، فنصحه أهله الا يركن الى اهل العراق ، لانهم خذلوا جدّه الحسين من قبله . فأتى وأصر على الثورة ، والتفت حوله في الكوفة (١٥) ألفاً وقيل اربعون ألفاً وبلغت اخباره يوسف بن عمر وكان بالخيرة ونهياً له . فلما علم بذلك اهل الكوفة جاءوا زيداً وقالوا له : « ما قولك في ابي بكر وعمر ؟ » قل : « رحميا الله وغفر لهما ، ما سمعت احداً من اهل بيتي يقول فيها الا خيراً ... قد ولوا فعدلوا في الناس وعملوا بالكتاب والسنة » قالوا : « فلم يفلحك هؤلاء ؟ ايا كان اولئك لم يظلموك فلم تدعوا الى قتالهم » فقال : « ان هؤلاء ليسوا كأولئك . هؤلاء فذلّمون لي والسك والانسليم ، وانما نسوكم الى كتاب الله وسنة نبيه (ص) والى الدين ان يحيا ، والى البدع ان تطفأ ، فان احببتمونا سمعتم وان ايبتم فلدت عليكم بوكير » فثار قومه وفتكوا



١ - هو زيد بن علي بن الحسين ، والى زيد تنسب الفرقة الزيدية . او الزيدية ، المنتسبون في اليمن وزيد يعتبر الامام الخامس عندهم الا ان بعض الشيعة تعتبر محمد الباقر هو الامام الخامس . وفرقة الزيدية تعتبر زيداً امامياً لانه خرج شاهراً سيفه في سبيل الدين ، محارباً الظلم والجور ، وهذه هي أهم صفات الامام عندهم فأتى رجل من اهل البصرة فحلى بها يصح ان يكون اماماً عليهم . ولا يزال اتباع هذه الفرقة قاثون في بلاد اليمن وامامهم في الوقت الحاضر الامام يحيى حميد الدين .

بيته ، وقالوا سبق الامام بمنون محمد بن الزافر ، وكان قد مات . فهاجم زيد ، الراضة ، وفي الليلة التي اتفق معهم على الخروج فيها لم يأتهم اكثر من مئتي نفس ولم يكن القتال الذي قاموا به مما يورثهم دولة ثقلة عديم ، وانتهى الامر بقتل زيد ، ودفنه اصحابه خلسة في ساقية واجبروا الماء على قبره خوفاً ان يُقتل به . قتل بعض العبيد والي العراق على قبره فنبش القبر وأخرج جثة زيد وسلبها . ثم احرقها وذر رمادها في الفرات بعد ان ارسل رأس زيد الى هشام ، فصاب على باب دمشق . فكان عمل يوسف بن عمر هذا خالياً من العاطفة الانسانية .

فما في خراسان وما وراء النهر فقد ولى في زمن هشام ولاية عديدون قاموا بمحاربة الترك بمواقع عنيفة جداً ، اظهروا فيها بطولة واقدام . وآخر هؤلاء الولاة : نصر بن سيار ، ولده هشام خراسان فكان له غزوة الى ما وراء النهر كانت كلها ناصحة ، واحسن ادارة البلاد ، ووضع الجزية عن ابنهم من المعجم . الا انه كان شديد العصبية للعضريين ، فخذله لذلك البعثنين وقتلوا عليه وسرى فيها بعد اثر هذه السياسة في قيام الدعوة العباسية

سياسة هشام الخارجية

وصل العرب في زمن هشام الى تور على مقربة من البرز في الجبهة الغربية ، ولكنهم ارتدوا على اعقابهم بعد انكسارهم في معركة جرت لهم مع شارل مارتن قتل فيها قائدهم عبد الرحمن الماقي . أما في بقية الجبهات فكان فيها ما يلي :

الجبهة الشرقية : كان امير لومينية وادريجان : الجراح بن عبد الله الحسكي قم بشروات جريئة في بلاد الخزر وغنم مقام كثيرة الا ان جموعاً عظيمة من الخزر والترك تجمعت عليه بمرج اردبيل قتله ومن كان معه ، وتقدمت حتى بلغت الموصل فأرسل هشام جيشاً بقيادة سعيد الحرشي رد هذه الجموع على اعقابها وغنم منها غنائم كثيرة ، واتقمت اقلى اردبيل ، وادل الخزر . وخلص اسارى المسلمين واستنقذ منهم كل ما كانوا قد استولوا عليه . الا ان هشاماً عزله وولى مكانه اخوه مسعدة بن عبد الملك فحزب الترك وفتح مدنها وحصونها ونشر الامن في تلك البلاد ، الا انه هزم امام جموع الخزر ، فعزله هشام وولى مكانه مروان بن محمد آخر الخلفاء الامويين وامده بمائة وعشرين الف مقاتل فتبع بهم بلاد شواحي بحر الخزر وبفضله ثبت قدم الاسلام في تلك الجهات .

الجبهة الشمالية : كانت الحرب لا تنقطع بين المسلمين والروم من جهة الشمال فكان الخلفاء الامويون يحزرون الصوائف والشوائف بسور متصلة ، ويقفون على بلاد الروم من جهة النهر والبحر

ويولون قيادة هذه الحملات كبار قوادهم ، واشتهر من هؤلاء القواد في البر : مروان بن محمد ، ومسلمة ابن عبد الملك ، ومعاوية وسليمان وسعيد اولاد الخليفة هشام . ومن ابطال هذه الجبهة الذين اخافوا الروم : عبد الوهاب بن بخت ، وعبد الله الطال الذي كانت تهاجم الروم تخوف ابناءها بنسبه . وقد فتحوا انورا كثيرة في غزواتهم التي شتوها على الروم ، اهمها : قونية ، وقيسارية وغيرها من الحصون . وكان امير البحر في عهد هشام ، عبد الرحمن بن معاوية بن حديج ، ومن اشهر القواد عبد الله بن عتبة ، وابي عبد الله بن مرزم ، وكانت جبهة العرب في هذا الدور قوية ، لان الاحوال الداخلية كانت منتظمة ، ولذلك كانت كفة العرب راجحة على كفة البيزنطيين .

صفات هشام

كان هشام خشياً نظماً ، صارماً حليماً ، عفيفاً طاهراً الذليل ، بعيداً عن الاسراف والتبذير ، الا انه متعصب في رأيه ، ضيق افق التفكير ، حريصاً على معتقدات السنة متمسكاً بها وحامياً لها عن أي خروج او تطرف . ومتمسكاً بطبيعته كثير عزل الولاة ويندبهم ، ولم يأمن لأحد منهم . وكان يهتم على الجواسيس والمؤامرات لتفريق بين خصومه واعدائه . واشتهر هشام بحسن ادارة المالية الى درجة اقصى معها بالبحر والتفتير قال عبد الله بن علي : « جمعت دواوين بني امية فلم ار دوايناً أصح ، ولا أصدق للعامة والسلطان من ديوان هشام » وقد رويت قصص كثيرة عن بخله منها : انه دخل بستان له ومعه ثمانمائة نطافوا به . فجلوا يأكلون من ثماره ويقولون يارك الله لا يمر المؤمنين . فقال هشام : وكيف يبارك في قبه واتم تأكلونه . ثم نادى حارسه فقال له : اقلع شجرة واغرس فيه زيتوناً حتى لا يأكل منه أحد شيئاً .

قام هشام بحملة اصلاحات عمرانية . فقد اهتم بتعمير القرى والضيع ، وحفر القنوات والبرك في طريق مكة ، وقوى النور كما نشط صناعة الخز والفطيفة ، وكان كافياً بالخيل وهو اول من أقام لها الخلبات من الخلفاء ، كما عني بعدد الحرب والسلاح .

ولاية العهد

كان يزيد الثاني قد جعل ولاية العهد لابنه الوليد من بعد أخيه هشام . فحاول هشام ان يعزل الوليد ويولي مكانه ابنه مسلمة ودعا بعض القواد الى ذلك ، فساعدوه الا انه لم ينجح أخيراً في مساعده وبقيت الولاية للوليد ، وكانت نتيجة ذلك ان غضب الوليد على هشام وانقطع عنهم فيما بعد ، توفي هشام في السادس من ربيع الثاني سنة ١٢٥ هـ بعد حكم دام تسع عشرة سنة وستة اشهر .

١١ = الوليد الثاني

١٢٥ - ١٢٦ هـ أو ٧٤٣ - ٧٤٤ م

الوليد بن يزيد بن عبد الملك بن مروان ، والده هادي بن الحجاج بن محمد بن يوسف الثقفي .
تولى الخلافة بعد هشام وكان حذوا عليه ، وعلى مساندته الذين حاولوا قتل بيته ، وتولية مساندته
ابن هشام بدلا عنه . كج ان هشام قد اساء معاملة الوليد ، وانزل به انواع العذاب ، وحاول اخلاله
على التنازل عن الخلافة ووعده وأوعده حتى اضطره لترك دمشق والانتجاع الى البادية ، حيث قضى
فترة وشبابه بالصير واليهو والشراب يترقب وفاة هشام بلهفة وحرقه لينتقم من اهله واعوانه ، وكان
نزلا بالزورق من بلاد الاردين عندما جاءه الثاني بخبر موت هشام . فسكر اول ما فعله ان كتب
الى العباس بن عبد الملك ان يأتي الرصافة - مقر بيت هشام - وان يخرج ما فيها من اموال هشام
وولده وبواله وحشيشه الاموية بن هشام الذي ظلم كرم ابيه في ارفق بالوليد . ففعل العباس ما امر
به الخليفة . وقد روى عن الوليد شعر كثير في الذمارة بهشام من ذلك قوله :

| | |
|------------------------|-----------------------|
| ليت هشاما كان حيا فيرى | عليه الاوفر قد اترعى |
| ليت هشاما طاش حتى يرى | مكيته الاوفر قد طبعها |
| كفاه بانصاع الذي كلفه | وما ظلمناه به اصبعها |

عوامل اتيار الخلافة الاموية في زمن الوليد الثاني

اولا : سوء معاملة الوليد لأقربائه من البيت الأموي : كان من اجاب هشاما الى خلق
الوليد محمد وابراهيم ابنا هشام بن احنابل الخزوميان ، فوجه الوليد الى المدينة يوسف بن محمد الثقفي
والبا سلبها ودفع اليه محمد وابراهيم موقوفين في شامين . فقدم بهما المدينة فاقامهما ثلثين ، ثم حملا
الى الشام فاحضر عند الوليد ، وأمر شاربهما . فقال محمد : اسألك بالقرابة ، قل : وأي قرابة سناء
قل : فقد نهى رسول الله (ص) عن ضرب بسوط الا في حد ، قل في حد اضربك وقود .
اذت اول من فعل بالمرجعي وهو ابن عمي وابن امير المؤمنين سلمان . ثم امر به الوليد فجلده هو
واخوه ابراهيم ثم اوقفهما سديدا وامر ان يمت بها الى يوسف بن عمر وهو على العراق ، فلما قدم
بها عذبا حتى مات . وكذلك فعل الوليد الثاني مع كثير من اقربائه من العائلة الاموية حتى ضاعت
هبة الامويين عند الناس ، وزال احترامهم لهم فقد امر الوليد بضرب سلمان بن هشام بن عبد الملك

١ - كان محمد قد اخذ المرجعي وقوده واقامه ثلثين وحلده وسجنه الى ان مات بعد تسع سنين
لهبائه اياه .

مائة سوط ويحرق رأسه ولحيته ، وبشعره الى عمان من ارض الشام . وحسن يزيد بن هشام وغيره
من ولد الوليد وكلهم من افراد البيت الاموي .

ثانياً : اضطهاد آل البيت والشيعة : عندما تولى يحيى بن يزيد بن علي احد ائمة الشيعة في خراسان
وكان والياً لندر بن سيار ، أرسل ندر جيشاً من اهل بيته فجمع يحيى وقومه وحمل رأسه الى الوليد ،
وصاب جسده في خراسان وقيل انه بقي مصلوباً حتى جاءه ابو مسلم الخراساني احد زعماء العباسيين
فأنزله ودفنه وتبع قتله . فمن كان حياً منهم قتله ، ومن كان مراً أطلق بأهله السوء ، وكان مثل
يحيى ومن قلة زيد من اهل الموامل في نصرة أهل خراسان لآل البيت حتى قيل انه لم يزل في تلك
المنطقة التي قتل فيها يحيى مولوداً الا وسمي يحيى لزيد . وسئل أهل خراسان من الطوائف عليها .

ثالثاً : سوء معاملة المسلمين وتقريب الوليد للزبانيين : كان خالد بن عبد الله القسري سيداً من
سادات اليمن ، وكان والياً لحشام بن عبد الملك في العراق ، فطلب اليه الوليد ان يبيع لاجيه الحسكي
وغثمان بولاية العهد من بعده ، فأبى ، فنضب عليه الوليد وعزله عن ولاية العراق ، وولى مكانه
يوسف بن عمر الثقفي احد زعماء الضريين ، وسلم الوليد خالد بن عبد الله القسري الى يوسف
مقابل خمسون الف درهم ، فعذب عذاباً شديداً حتى مات ، فنضب اليهود على الوليد
وانفضوا من حوله وكانوا هم اكثر جنده ففصر بذلك قوة لا يستهان بها .

رابعاً : خلاعة الوليد وتهتكه : كان بنوا امية بشيعون عن الوليد التالي بين الناس القبايح
والكفر حتى لقبوه - بخلع ذي مروان - وكان صاحب شراب وله الشهرة جبهة في وصف
الشر . وحين مرة فحصل معه كلاماً في مناسبتين . ويروي الله استفح فالأ في المصنف فصرح
(واستفحوا وحاب كل جبار عنيد) فخافه وخشيه بقرته وفن :

| | |
|---------------------|-----------------------|
| تهددني بجبار عنيد | فما انا ذاك جبار عنيد |
| اذا لاقيت ربك يومئذ | قل يا رب مرقي الوليد |

ونحن نذكر هذه الروايات عن اخلاق الوليد بن يزيد من المذكر والتحفظ لان تاريخ بني امية
قد دون في زمن العباسيين النافقين على الامويين ولأن بعض الروايات تصف الوليد بن يزيد هذه الصفات
وتقول : انه كان من اصف الناس ، وأشهر الناس ، وله ارج الناس ، وعلى كل حال لم يكن الوليد
من اصف الناس فلا بد ان الروايات التي ذكرت عن كثره وخلاعته فيها بعض المبالغة .

خامساً : مقتل الوليد الثاني : كان يزيد بن الوليد بن عبد الملك بريد الخليفة لندسة . فثار
الناس واليه . والتواصب ، هب حوله الجيوش ، وأخبروه على اليمة ، اشتهوا من الزبانيين
اعدادهم . فاستقار بذلك اخاه العباسي ، فهام ، فم ياته . وبزيد الناس سرّاً ، وأرسل دلاله يمدون

الناس اليه ، فبلغ الخبر مروان بن محمد وهو بآرمينية فكتب الى سعيد بن عبد الملك بأمره ان ينهي الناس ويكفهم ويحذرهم الفتنة ، ويخوفهم خروج الامر عنهم ، فأعظم سعيد ذلك ، وبعث بكتاب مروان بن محمد الى العباس بن الوليد فاستدعى أخاه يزيد وثبده ، فحكم يزيد الخبر فصدقه ، ولما اجتمع يزيد امره أقبل الى دمشق ، وقد بايع له أكثر أهلها سرّاً فاستولى عليها ، وسير جيشاً لمقاتلة الوليد وكان في قصر له في عمان ، فخرج العباس أخو يزيد للدفاع عن الخليفة ولكنه لم ينجح وعندما احس الخليفة بالغلبة دخل قصره واغلق عليه بابه ، وجلس وأخذ مصحفاً فقتله يقرأ فيه . وقال يوم كيوم عمان ، فدخلوا عليه وقتلوه ، وثرسلوا رأسه الى يزيد فصبه على رمح وأمر ان يطاف به في دمشق . وكان قتله في آخر جمادي الآخرة سنة ١٢٦ هـ وكانت مدة خلافته سنة وثلاثة أشهر وكان في مقتله انقسام البيت الأموي على نفسه وانهارت الخلافة الأموية .

١٢ = يزيد الثالث

١٢٦ هـ أو ٧٤٤ م

هو يزيد بن الوليد بن عبد الملك بن مروان ، وأمّه أم ولد أبي لبست عربية ، بل فارسية ترجع بنسبها الى كسرى وفي ذلك يقول يزيد :

أنا ابن كسرى وأبي مروان وقبصر جدي وجدي خافان

كان يزيد تقياً ورعاً متمسكاً بأصول الدين اثار في الخطبة التي القاها عقب مبايعته الى اسباب خروجه على ابن عمه ووعد بان اول ما سيفعل به هو تحصين الحدود واقامة الخياميات في المدن ، ورفع الظلم عن العباد ، وعزل الحكام الظالمين . الا انه لم يعنى ليطبق مشروعه الذي صرح به ، ولم تسمح له الظروف بالتجاوز ما وعد به من الإصلاحات وقد لقب - بالناقص - لانه انقص اعطيات الجند الى ما كانت عليه في زمن هشام بعد ان زادها الوليد الثاني .

سياسة يزيد الثالث الداخلية

قامت الاضطرابات في زمن يزيد الثالث في حمص وفلسطين ، والاردن والعراق ، وخراسان . فكانت مدة حكمه كلها فلابل قام بها اهل بيته من الأمويين وعماك الوليد الثاني المخضريين ، لان الخليفة يزيد حاول ان يعزلهم عن مناصبهم ليوليها الى اشراف اليمنيين ، الذين ساعدوه على الوصول الى الخلافة . فكانت تقيام بعض افراد البيت الأموي وقيامتهم الثورة في وجه ابن عمهم الخليفة واشتعال نار العصبية القبلية بين قيس وبنو الاثر السبي على الخلافة الأموية .

وفاته يزيد الثالث

لم تطل مدة يزيد في الخلافة فقد توفي في العشرين من ذي الحجة سنة ١٢٦ هـ بعد حكم دام

نحو ستة أشهر وعهد بولاية العبد لأخيه إبراهيم بن الوليد ثم لعبد العزيز بن الحجاج بن عبد الملك .
إبراهيم بن الوليد

عندما توفي يزيد قام بالأمر من بعده أخوه إبراهيم ، ولم تم له البيعة . فكان ناره يعلو عليه بالخلافة وناره بالامارة ، وناره لا يسم عليه بواحدة منهما . ولم يبايعه الا قسم من اهل الشام ، أما بقية الاقطار الا-لامية فلم تعترف بخلافته ، وبقيت تابعة لولائها . وقام مروان بن محمد . ولي الجزيرة وأرمينية بجيش قوي حارب به جيش إبراهيم وهزمه ودخل دمشق واستولى عليها ، فحارب إبراهيم الى تدمر بعد ان قتل اخي الوليد الثاني . فأمته مروان بعد ذلك . ولم يستمر بعض الفزارعين خلافه إبراهيم بن الوليد . وداهم حكمه شهرين وعشرة أيام .

١٣ - مروان الثاني

١٢٧ - ١٣٢ هـ او ٧٤٤ - ٧٤٩ م

ولد مروان بن محمد سنة ٥٧ هـ . وهو حفيد مروان بن الحكم ، ولمه ام ولد كردية ، كانت ابوه محمد عاملا على ارمينية والجزيرة ، ثم خلفه ابنه مروان من بعده على تلك الولاية وبقى ١٢ سنة في ولايته يحارب الروم والخرز ، فأكدته حياته الشاقة التي كان يزاولها في ميادين القتال قوة الاحتمال على شتات العيش ، حتى لقب بأخواريه لانه كان لا يحف له اليد في محاربة الخارجيين عليه . فكان يوصل اليه بالسير ، ويصير على مكره الحرب . ولقب - الجعدي - نسبة الى مؤدبه : الجعد بن درهم . وكان يكنى أبا عبد الملك ، وقد استبرأ بالشجاعة والدهاء والمكر والتدبف . وكان يعيش مع جنوده ، فلا يؤثر نفسه بشي' سواء كان ذلك في وقت السلم او في ميادين القتال . واستمر على تلك الحياة حتى بعد ان بايعه اهل دمشق بالخلافة . فقام بقتل الذين يهزم مسايده ، وناس قوية ، ولكث مزل الاضطرابات كان جارفا ، ثم استطاع مروان ان يوقفه ، فاعترف معه .

- راسة مروان الثاني الداخلية -

حكم مروان والتمورة مندعة في جميع الاقطار . فقام يظفها بمزينة ماذقة . نزل عليه اهل الشام لانه نقل العاصمة من دمشق الى حران لئلا تار اهل حمص وتدمر والفراتة والمسلمين . فحاربهم مروان وتطلب عليهم . ثم قام بقتل من احد اقربته من الامويين وهو سليمان بن هشام بن عبد الملك يطلب بالخلافة . فأخضعه مروان وقتل عددا عظيما من جنده . ثم اشتعلت نار التمورة في العراق فقام الشيعة بالكوفة بقيادة عبد الله : احد اولاد جعفر بن ابي طالب فقامت ثورة . ثم قام الخوارج بقيادة الضحاك بن قيس الشيباني واستولوا على الموصل فحاربهم عبد الله بن الخليفة مروان . ثم جاء مروان بنفسه فقاتلهم وكادوا يهزمونه ولكنه تمكن بعد قتال عنيف ان يستمر عليهم ويقتل الضحاك زعيهم .

فولوا بدلاً عنه شيسان بن عبد العزيز الشكري الذي قاتل جيوش الخليفة وانهزم من وجهه الى سجستان ، وهاك فيها سنة ١٣٠ هـ . كذلك خرج عليه الخنار بن عوف الازدي الشهير بأبي حمزة ، وانضم الى عبد الله بن يحيى وكان في الحليج وهو من اهل حضرموت فبايعه ابو حمزة بالخلافة ، ودعا الناس الى قتل مروان . وكانت الحرب تقع بين ام حجاب أبي حمزة وبين والي مكة والمدينة عبد الواحد ابن سليمان بن عبد الملك في أثناء الحليج ، إلا أنهم تمادوا الى ما بعد الحليج وجرت معركة بين الطرفين كسر فيها جيش عبد الواحد وقتل منهم عدد عظيم واستولى ابو حمزة على المدينة وخطب بأهلها ، وذا قاله بعد ان حمد الله وأثنى عليه : يا أهل المدينة ، إننا لم نخرج من دارنا وأموالنا أسراً ولا بطراً ولا عبثاً ولا للدولة منك نريد ان نخوض فيه ، ولا نأثر قتلهم نيل منا ، ولكننا لمسا رأينا مصابيح الحق قد عطفك ، وعطف الفاتل بالحق ، وقتل القائم بالقيسط ، ضاقت علينا الارض بما رحبت ، وسمعتنا داعياً يدعو الى طاعة الرحمن ، وحكم القرآن فأجبنا داعي الله . . . وانتم يا أهل المدينة إن تصفروا مروان وآل مروان يسحبكم الله عز وجل بعذاب من عنده . . .

ثم ان أبا حمزة ودفع أهل المدينة وسار نحو الشام فأرسل اليه مروان جيشاً مؤلفاً من أربعة آلاف فارس ، عليه عبد الملك بن محمد بن عاتبة السعدي فالتقى بأبي حمزة في وادي القري ، فقتله حتى قتله وهزم أصحابه وسار الى المدينة . فأقام بها شهراً ثم سار الى اليمن ، وحارب عبد الله بن يحيى فقتله وحمل رأسه الى الشام .

كل هذه المشاغل والفتن التي كانت تجري بالشام والعراق والجزيرة واليمن شغلت مروان عن خراسان وما كان يجري فيها . فكان ذلك أعظم مساعدات لائمة بني العباس ، ودعائهم الذين تمكنوا من تأليف قواستولت على خراسان والكوفة ، ونصبت السفاح خليفة . فجهز السفاح - بشأ أرسله مع محمد عبد الله بن علي لقتال مروان بن محمد ، غفرت معركة على الزاب إحدى فروع نهر الدجلة . انكسر بها مروان وجيشه ، فانهزم الى حران ثم الى دمشق ثم الى مصر فقبضه عبد الله بن علي ، قتله في يومير بالقيوم في شهر ذي الحجة سنة ١٣٢ هـ . وبقتله انتهى حكم النخلاء الامويين وابتدأ عصر جديد بقيام - الخلافة العباسية .

أسباب سقوط الدولة الأموية

كثيرت عرصات اسباب سقوط الدولة الأموية في خلال عشرين اسبقاً من الامويين وسأذكر الآن النقاط الرئيسية فقط واترك للطالب ان يتحرى الأمثلة غيرها بنفسه مما عرفه من الابحاث السابقة . يعود سقوط الخلافة الأموية الى الاسباب التالية :

١ - ولاية العهد : وتوليها لأكثر من شخص واحد .

- ٢ - مطالبة آل البيت بالانصاف ، ونصرة الشيعة لهم .
- ٣ - الحركات الدينية والسياسية التي قام بها الخوارج والشيعة .
- ٤ - العصبية الجاهلية بين قيس وعن ، وإدراكه الخلفاء والشعراء لها .
- ٥ - تغيير الولاء والنمواد حسب تغيير العزمت .
- ٦ - سياسة الدولة العربية واحتقار الموالي ، ورد الفعل من هؤلاء .
- ٧ - تغيير هذه السياسة في زمن عمر بن عبد العزيز وقلها الى سياسة دينية ، وإنهاء من أسلم من أهل الذمة من الجزية . وإعادة هذه الضريرة بعد وفاته .
- ٨ - سوء اخلاق بعض المتأخرين من الخلفاء الأمويين ، واستهتارهم بالدين وانفاسهم في القلوب والمجون ، وشدة إسرافهم وترغيمهم (١) .
- ٩ - انقسام البيت الأموي على نفسه . (٢)
- ١٠ - نقل مروان العاصم من دمشق الى حران ، وتخلي أهل الشام عن نصرتهم له .
- ١١ - اتساع بلاد الخلافة الأموية .

مميزات العصر الأموي

إن احكامنا على العصر الأموي في ذكر مميزاته تنطبق على العصر بأكمله لا على أجزائه فهو عصر انتقال من حياة البداوة البسيطة المثارة بالهذه الدينية الإسلامية في زمن الخلفاء الراشدين

- ١ - ذكر المسعودي أن سبب سقوط الدولة الأموية يعود لما يلي : « سئل بعض شيوخ بني أمية وعصائرها عني زوال الملك عنهم الى بني العباس . ما كان سبب زوال ملككم ؟ قال : إنا شغلنا بذواتنا عن تحقيد ما كان نفعه يلزمنا ، فظلمنا وعيقنا فيلسوا من إناصافنا ونشوا الراحة منا ، ونحو من على أهل خراجنا فتخلوا عنا . وخربت خيلنا خلت بيوت أموالنا ووقفنا يوم أرثنا آثروا مرافقتهم على منافعتنا وأمضوا أموراً دوننا ، وأخفوا أفعالنا . وتأخر عطاء جندنا فزال طاعتهم لنا ، واستبدناهم أئادينا فظفروا معهم على حربنا . وحلبنا أعدائنا فعجزنا عنهم لحقة انصارنا . وكان استنار الأخبار عنا من أوكد أسباب زوال ملكتنا » (مروج الذهب للمسعودي ج ٢ ص ١٩٤)

- ٢ - وقد حذر عباس بن الوليد أهل الأمويين من هذا الانقسام فقال :

| | |
|----------------------------|------------------------------|
| إني أعيذكم بالله من فتن | مثل الجبال تسمى ثم تندفع |
| أن البرية قد ملئت سياستكم | فلمنكمو بعمود الدين وأرتموها |
| لا تلحقن دباب الناس أنفسكم | أن الدباب إذا ما ألحت رتموا |
| لا تيقرن بأيديكم ببلونكم | فم لا حسرة نفسي ولا جزع |

الى حياة منظمة معقدة بعض الشيء بلغت أوجها في العصر العباسي .

فهو أولاً انتقال من خلافة ديمقراطية دينية الى ملك مركزي دنيوي . او بكلمة اخرى انتقال من حكم انتخابي الى حكم إرثي . وهنا كان الخلفاء الراشدون يتصلون بالناس ويلبسون أبسط اللباس ولا يتميزون انفسهم عن غيرهم بحرس او بلاط . نرى ان الخلفاء الامويين قد اعدوا بلاطاً فخماً أحاطوه بالحرس والحجاب وأنشأوا المقادير في المساجد وأفسوا فخر اللباس . وقتلوا ملك الروم وأكاد مرة الفرس ... ويظهر هذا التحول ايضاً في سياسة الدين والورع عند الخلفاء الراشدين وسياسة الشدة والحزم وسفك الدماء عند الخلفاء الامويين .

ثانياً كان العصر الاموي عصر ترف وبذل للاموال اتقيا الخلفاء الامويون على اشراف العرب في سبيل استئثارهم اليهم وإسكات المطالبين منهم بالخلافة وتقريبهم اليهم وكسب ألسنة الشعراء ليساعدوهم وينصروهم في دعم ملكهم ولذلك عاش كثير من العرب في بحبوحة وتعم ولا سيما في أيام الهدوء والسكينة وبصورة خاصة في الحجاز .

ثالثاً : اتبع الامويون سياسة عربية متأثرة بالعصبية القبلية . اما الخلفاء الراشدون فقد كانت سياستهم دينية مستندة على تسوية عناصر الأمة الاسلامية بعضها ببعض . واخذاء العصبية الجاهلية القديمة .

رابعاً : يمثل العصر الاموي انقضاء العرب بغيرهم من الاقوام ومزج ثقافة تلك الاقوام باللغة العربية وصورها بقالب عربي جديد له صفاته ومزاياه وطابعه الخاص وبذلك اختلفت الحضارة العربية عن حضارة الاقوام التي امتزجت فيهم .

خامساً : كان العصر الاموي عصر نزاع بين القديم والجديد . يمثل ذلك في قيام اصحاب النبي وتابعيه في وجه شباب ذلك العصر وتقدم إياهم وردم الى الحياة الدينية الاولى . وقيام الثورات في وجه بعض الخلفاء الملاحين منهم ، وظهور بعض الفرق الدينية القائمة على الحياة الجديدة كالنواصب مثلاً . سادساً : يمثل العصر الاموي عصر الازدهار والتميز لعصر حضارة ازدهى وأوسع في المستقبل سواء من الناحية الادارية او العلمية او الاجتماعية او الفنية لما قام به الامويون من الجهود في هذا السبيل ولما عملوه في سبيل توسيع حدود بلادهم في الشرق والغرب . فأعدوا الهيكل الرئيسي للعمل فجاء العباسيون من بعدهم ونسجوا عليه حضارتهم وبنوا على ذلك بما قام به الخلفاء وعملهم من الاملاجات في تعريب الدواوين وتنظيم الجيش والاسطول واتشاء البريد وضرب النقود وإصلاح الخط العربي وبناء المساجد والقصور وغير ذلك وسخرى ذلك في بحث الحضارة .

الباب الثاني

الحضارة العربية في عهد الخلافة الأموية نظام الحكم

الخلافة

كان الخليفة في أيام الخلفاء الراشدين ينتخب من المسلمين بإجماع الرأي، ولم يشترك جميع العرب في انتخاب الخلفاء بل كان الأمر بيد زعماء الأنصار والمهاجرين. ولم يرشح أي فرد من المسلمين للخلافة بل كانت محصورة في قريش. وإن كان من الممكن نظرياً أن ينتخب أي فرد من المسلمين توفرت فيه شروط الخلافة. ولم تتبع طريقة الانتخاب دائماً بل شذ عنها أبو بكر فولى عمر من بعده، وحصر عمر الخلافة رجال الشورى الستة المرشحين للخلافة. ولما انتقل الحكم الأمويين لبست الخلافة في زمنهم مظهر الملك الأرضي، واستأثر الخلفاء بالخلافة وحسبوا أن تسمية من يأتي بعدهم إن هو إلا حق من حقوقهم المستروعة فقد عهد معاوية بالخلافة إلى ابنه يزيد من بعده، وسار الأمويون على غرارهم ولبت الأمر اقتصر على تسمية واحد فقط للخلافة لكانوا احسنوا لهذه الأمة وولمروا عليها كثير من الخصومات والمنازعات، ولكن الأمر تجاوز ذلك إلى تولية اثنين لولاية العهد، مما جر الخراب وانحساراً على الأسرة الأموية وعلى الأمة العربية. وانتقل الحكم من نظام جمهوري إلى نظام ملكي. ومن نظام الشورى بين المسلمين إلى نظام التوريث والحصر في خليفة معين وأمره معينة.

البيعة

كانت مراسم البيعة تقام في المسجد الجامع حيث كان المسلمون يجتمعون في حشد حافل بعددوة الخليفة ليأبىوا الخليفة الجديد ويعاهدوه على الطاعة والولاء. أما في زمن الأمويين فكانت الخلفاء يأخذون البيعة في حياتهم لولاء عبودهم، وأحياناً يجبرون الناس عليها، وكان الخليفة يأخذ البيعة لولي عهده في دمشق بنفسه وفي الأمصار الإسلامية يأخذها بواسطة عماله وولائه. وبعد موت الخليفة تجدد البيعة مرة ثانية تأكيداً للعهد والميثاق. وأول من كان يبايع أمراء البيت الأموي ثم يلهم القواد ثم أمراء الأمصار ثم بقية المسلمين، ويقول السيد أثير علي: «إن هذا النظام: نظام البيعة بولاية العهد يجمع بين مساوي الديمقراطية والافتقار إلى دواء أن يستفيد من مزايا إحداهما. أما موافقة الشعب فكانت تقتصب اغتصاباً، سواء بطريق القوة أو التلق أو الرشوة ولكنها كانت بعد إجراء المراسم المتتادة تصبغ الانتخاب بالصيغة الشرعية.»

عمل الخليفة :

الخليفة هي رئاسة المسلمين عامة في امور دينهم وديارهم . فالخليفة هو الحاكم الديني والديني معاً له حق اتيقاع بامور المسلمين الدينية بتطبيق احكام الدين وتنفيذ شرائع المسلمين حسب ما جاء في القرآن الكريم وسنة النبي (ص) ، وله حق النظر في شؤون ديارهم ، فبيده زمام الامة السياسي وهو الذي يولي الولايات ويعين القواد ، ويبدد مالية الدولة . وهو الحاكم الزمني والروحي معاً .

الولاية :

كانت البلاد الاسلامية تدار بمعرفة أمراء او ولاية يختارهم الخلفاء من امرهم او من غيرهم ، وهم نواب عنهم في الولايات التي يحكمونها . وكان هؤلاء الافراد يختارون عمالاً على الكور والاقليم التي هي في حدود امارتهم . أما عمل هؤلاء الامراء والعمال فهو اتيقاع عن الخليفة في الامور الآتية :

اولاً : إقامة الصلوة ، وإلقاء الخطب في المساجد يوم الجمعة .

ثانياً : قيادة الجيوش او إتيابة احد عنهم .

ثالثاً : جباية الخراج والصدقات ووضع ذلك في مواضعه وإرسال ما يبقى منها للخليفة .

رابعاً : القضاء بين الناس في منازعاتهم ، وكان الخلفاء احياناً يولون جباية الخراج والقضاء بين الناس رجالاً من عندهم يتصلون بهم مباشرة دون تدخل الامراء او الولاة في شؤونهم وذلك لاهمية هاتين الوظيفتين بنظر الخليفة .

وكان الخلفاء الامويون يولون البلاد احياناً الى بعض الامراء ولاية عامة أي تكون اولاية كلها بيد الأمير والوالي ويكون مستقلاً فيها استقلالاً ادرياً يصرّف فيها كما يشاء ولا يشاور الخليفة إلا في الامور الهامة . واظهر ما كان هذا الاستقلال في العراق ومصر . أما في العراق فقد استقل بالولاية زياد بن ابيد وابنه عبيد الله . والحجاج بن يوسف وعمر بن هيرة وطلحة بن عبد الله القسري أما في مصر فقد استقل بالولاية عمرو بن العاص وبعض الولاة الذين جاؤا من بعده .

ولعل الذي دعا الخلفاء ان يولوا بعض الامراء ولاية عامة هو صعوبة الموارد والحدود وبعد المسافات بين عاصمة الخلافة وبين بقية الولايات . إلا أن الخلفاء كانوا يقرّون كل مراجعة او غلامه او شكوى على محالهم ، فيردون الحق الى الله ، وما كانوا يتأخرون احياناً عن عزل محالهم ومصادرة اموالهم وسجنهم اذا اقتضى الامر . إلا أن هذه السياسة وجدت فقط في زمن الخلفاء الخازمين ، الخريصين على حقوق الرعية لا سيما عمر بن عبد العزيز . أما في زمن يزيد الثاني والوليد الثاني فقد اخذت المحسوبيات تدخل في جسم الدولة في تولية الامراء ، وفي سماح شكوى الناس ، حتى ان بعض الامراء كانوا يتركون مراكزهم وينزحون الى العاصمة ليشتمعوا ببساحع المدينة ومسراتها ، تاركين

رؤساء الحكم : تير دفعه الامور الى وكلائهم الذين اتخذوا تلك الفرصة سبيلاً لابتزاز اموال الدولة والجذير الى الرشوة والاختلاس .

الامارات :

كانت البلاد الإسلامية في العصر الأموي مقسمة الى خمس امارات كبرى وهي :

١ - الحجاز : ويشتمل المدينة ومكة والطائف . ويقع الأمير بالمدينة . وكان يضاف أحياناً الى ذلك بلاد اليمن وأحياناً تكون مستقلة بأمير .

٢ - العراق : ويشتمل الكوفة والبصرة وخراسان وعمان والبحرين وكرمان وسائر بلاد ما وراء النهر والسند وبعض اقبام البنجاب . وكانت جميعها تؤلف اماره واحدة يحكمها أمير العراق الذي يقيم في الكوفة بعض السنة وفي البصرة بعضها . وكانت خراسان تستقل أحياناً بأمير يخاطب الخليفة رأساً عاصمته في مرو .

٣ - الجزيرة وأرمينية : وتشتمل بلاد الموصل وأذربيجان وولايات أرمينية . ويقع أميرها في حران .

٤ - أجناس الشام : وهي خمسة : نهم فلسطين والأردن ودمشق وحمص وقنسرين . وكانت قنسرين تابعة لحمص ثم فصلت عنها في زمن يزيد بن معاوية .

٥ - مصر وأفريقية : وتشتمل مصر العليا والسفلى وشمالي أفريقية والأندلس وجنوبي فرنسا وجزائر صقلية وسردينيا والبارباريك .

وكانت أفريقية تستقل عن مصر أحياناً ويولي عليها أمير يخاطب الخليفة مباشرة عاصمته في القيروان . وكانت الأندلس تابعة له يولي عليها أميراً من قبله عاصمته قرطبة .
الدواوين :

كان النظام الإداري في زمن الخلفاء الراشدين إدارياً يتناسب مع إمارة العربية فكان الخلفاء يحذون الكتاب يكتبون لهم ما يتعلق بإدارة الدولة من مراسلات مع الملوك في خارج المملكة الإسلامية أو يكتبون لهم كتباً الى الأمراء والقواد في داخل البلاد . إلا أن عمر بن الخطاب أقام نظاماً جديداً اقتبس عن الفرس وهو نظام الدواوين . فأنشأ ديوان الجند لكتابة أسماء الأمراء والجنود وما يخص كل منهم من العطاء . وأنشأ ديوان الخراج والحساب لتدوين ما يرد الى بيت المال . وما يفرض لكل مسلم من العطاء . واستمرت الحالة حتى ذلك الى ان قامت الدولة الأموية فتوسعت الإدارة قليلاً نظراً لما حدث في زمنهم من الفتوحات . وتعددت الدواوين وكتبت فئات أولية بالنسبة لما وصلت اليه في العصر العباسي وهذه هي أسماء الدواوين التي حدثت في زمن الخلافة الأموية وأهم أعمالها :

١ - ديوان الرسائل : وكان لصاحبه حق الاشراف على الولايات وتصدر عنه الرسائل الى

الامراء والعمال .

٢ - ديوان الخاتم : وقد نشأ في زمن معاوية بن ابي سفيان وكان فيه ثواب مهمتهم نسخ أوامر

الخليفة وإبداعها هذا الديوان بعد ان تحزم بخيط وتختم بالشمع ثم تختتم بعد ذلك بخاتم صاحب هذا الديوان . وكان هذا الديوان اكبر دواوين الدولة الاموية ، وظلت له أهمية كبرى حتى أواسط الدولة العباسية إذ انفي نظراً لتحول الاعمال من الخليفة الى الوزراء والامراء والسلاطين .

٣ - ديوان المستغلات : او الإيرادات المتنوعة .

٤ - ديوان الخراج : ويشبه وزارة المالية في العصر الحاضر . وقد نقل هذا الديوان الى اللغة

العربية في زمن عبد الملك بن مروان .

مالية الدولة :

كان بيت المال في زمن الخلفاء الراشدين ملكاً للمسلمين ، وكان لكل فرد من افراد الامة نصيباً معيناً يأخذه حسب قرابته للنبي او اسبقيته في الاسلام او بلانته في الجهاد ، وبما قامت الدولة الاموية اصبح بيت المال تحت تصرف الخلفاء الامويين يعطون او يحرمون من أرادوا حسب احوالهم . وكانت واردات الدولة تجنى من نفس المصادر التي كانت تجنى منها في زمن الخلفاء الراشدين وهي : القيمة والزكاة والخراج والجزية والمكوس .

أما نفقات بيت المال فهي :

اولاً : رواتب القضاة والعمال والولاة والقائمين على بيت المال وسواهم من الموظفين .

ثانياً : اعطيات الجنود ، وتمنن المعدات الحربية .

ثالثاً : إنشاء الطرق وفتح الترع وحفر الآبار واعمال العمران .

رابعاً : نفقات الخليفة واعطيائه للاشراف والشعراء وغيرهم .

خامساً : النفقة على المسجونين واسرى المشركين .

وكانت كل ولاية تصرف لإرادتها على مراقبتها الخاصة ثم ترسل ما تبقى بعد ذلك الى الخزينة

العامة ، وكانت حالة البلاد تختلف من ضيق الى رخاء حسب سياسة الخلفاء واهتمامهم بشؤون دولتهم ورعييتهم ومراقبة الولاة واصحاب الخراج . او حسب قيام الثورات والاضطرابات في الدولة ، وقوة الدولة او ضعفها ، او حسب تقدم الفتوحات وتأخرها . كل هذه العوامل وكثير غيرها كانت تؤثر على سياسة الدولة المالية .

الجيش

لم يكن للعرب في جاهليتهم جيش منظم بل كانوا متفرقين الى قبائل تدبر كل قبيلة تحت راية زعيمها ، وقد وجد بعض التنظيم في جيوش المظفرة ، والفاصلة نظراً لاحتكاكهم بالفرس والروم . فكان للمظفرة مثلاً كتيبتان من الجند أحدهما تدعى الدواسر والثانية الثمياء . وبما جاء الاسلام تغير وضع الجند فأصبح الجيش مؤلفاً من جميع المسلمين القادرين على حمل السلاح من مهاجرين وانصار ، وكانت قادم النبي (ص) في أكثر غزواتهم . واستمر الحال على ذلك في زمن الخلفاء الراشدين . إلا أن قيادة الجيوش قد انتقلت من الخلفاء الى قواد بعضهم الخليفة من كبار المسلمين نظراً لانشغال الخلفاء في ادارة شؤون الدولة . وكان جميع المسلمين يتولعون في الجيش من ناقة انفسهم دون اجبار او كره . أما التجنيد الاجباري فقد ظهر على الاكثر في زمن الدولة الاموية لأن الفتن الداخلية اضعفت الدافع الديني للجهاد في نفوس المسلمين فانصرف كثير منهم الى مزاوله الزراعة والتجارة . واترى الكثير من المسلمين وانصرفوا عن الجهاد لما اضطر عبد الملك بن مروان الى اجبار الناس على حمل السلاح وإلزامهم بالخدمة العسكرية . واستعان على ذلك بمعامله على العراق لحجاج بن يوسف الثقفي . وأصبح الجيش في زمن الامويين مؤلفاً من عنصرين :

المرتقة : وهو الجيش الدائم الذي يتأهل الزاد والرواتب في أيام الحرب والسلم .

والمطوعة : وهو الجيش الاحتياطي الذي كان يشكل عند الحاجة من المسلمين .

التمهيد :

كان نظام القتال عند العرب في الجاهلية هو الكر والفر : وهو ان يكر المحاربون على خصومهم اذا لموا منهم صفواً ثم يفرّون اذا اندوا منهم قوة . فلما طوى الاسلام وتزلت الآية الكريمة : إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفواً كأنهم بليان مردوس ، اتبع المسلمون نظام الصفوف وهي ان ينصفوا صفاً واحداً أو أكثر كأنهم في الصلاة متلاصقين بعضهم الى جانب بعض ، ويطلقون عدوهم كأنهم بليان مردوس . واستمر الحال على ذلك في زمن الخلفاء الراشدين فكانوا ينطلقون جيوشهم على ثلاثة صفوف متراصة يتقدمها حاملوا السيوف وخلفهم حاملوا الرماح ، ثم يليهم حاملوا السهام . والفرسان ينفون على مقدمة الجيش ويمسرونه ، والمبارك تبدأ بالناعدة او المبارزة بين الافراد ، ثم يلتحم الجيشان بعد ذلك . ومن اقدم الأزمان كان الجيش يقسم الى خمسة اقسام ولذلك سمي بالخميس . وهذه الاقسام هي : البعنة ، والبصرة ، والقلب ، والمقدمة ، والساقة (المؤخرة) وكانوا ينقسمون الجيوش الى فرق يضعون على كل عشرة جنود عريف ، وعلى رأس كل مئة جندي نقيب ، وعلى رأس كل الف جندي قائد ، وعلى رأس كل عشرة آلاف جندي أمير ، يخضع هؤلاء بعضهم الى

بعض حسب التسلسل في الرتبة . وإذا اجتمع عدة امراء في معركة واحدة فأمر القوم من يسلمه
لتخليفة الراية ويأمر بمقامة الصلاة بالجنود . وقد أدخل مروان الثاني آخر الخلفاء الامويين نظام الكراديس
في تعبئة الجيش .

وكان العرب يحملون معهم سهام لساعات القتال ويعملونهم في مؤخرة الجيش يرتكزون
عليهم بالكر والفر . وكان النساء يشجعن المحاربين على القتال والاقدام وعرضن الجرحى ، ويطهرن
الطعام ويجمعن السهام واحياناً كثيرة يحاربن في صفوف الرجال .
وكان المسلمون يقرأون سورة الانفال قبل بدء القتال ويرتلون الآيات القرآنية والقصائد والاشعار
أثناء المعركة وكثيراً ما كانت تدق الطبول وتفرع الصنوج في سبيل إثارة الخاسة في قلوب المحاربين .
وكان نقواد الجيوش وامرائها فضل عظيم في إذكاء الشجاعة والاقدام في نفوس المحاربين
واليهم يعود الفضل في تنظيم الجيوش وتعبئتها وانتصارها في أكثر الاحايين . ومن امثال هؤلاء القواد
في زمن الامويين المهلب بن ابي صفرة وقتيبة بن مسلم الباهلي ومحمد بن القاسم الثقفي ومسلمة بن عبد
الملك وعقبة بن نافع وطارق بن زياد وموسى بن نصير وغيرهم من القواد الذين ابوا بلاءاً حسناً في
الجهاد ورفعوا راية الامويين عالية في البلاد . (١)

أسلحة الجيش

كان الجيش يتألف من فرسان ومشاة ورماة ويحمل كل من هؤلاء سلاحاً خاصاً به . فالفرسان
يركبون الخيل والهجمن ويتسلحون بالمروح والسيوف والرماح . أما المشاة فسلحتهم المروح والسيوف
والحراب والقي والسهام مما يدل على ان الرماة كانوا فرقة من المشاة ولها أهمية عظيمة في الجيش
وذلك لان العرب مبروا في الرمي فكانت خدمهم يرمي إلى سدى بني الفزاري دون الاخرى . وهؤلاء
يسمون « رماة الخندق » . وكان الخلفاء والقواد يحثون رجالهم على إتقان الرماية كما يحضونهم على
العناية بتجهيزهم مثل عنايتهم بالساعات . وكان للعرب اسلحة ثقيلة تستخدم في الحصار اخذوها عن

١ -- اوجبوا على امير الجيش في سياسته عشرة اشياء وهي :

- (١) حراستهم من غزو يظفروا بها العدو منهم . (٢) ان يخبر لهم موضع نزولهم لغارة عدوم .
- (٣) إعداد ما يحتاج الجيش اليه من زاد وعطوة وتفريق عليهم في وقت الحاجة . (٤) ان يعرف
الخبر عدوم . (٥) ترتيب الجيش في مصاف الحرب . (٦) ان يقوى نفوسهم بما يشعرون من الظفر .
- (٧) ان يعلم ثواب الدنيا والآخرة . (٨) ان يشاور ذوي الرأي فيما يفعل . (٩) ان يأخذ جيشه
بما أوجبه الله تعالى من حقوقه حتى لا يكون بينهم مجوز في دين . (١٠) ان لا يمكن احداً من
جيشه ان يتشغل بخجارة او زراعة ...

الفرس والروم وأنها المتخفيق والديابة (١) والكباش (٢) والساو اليونانية ، وكانت معدات الجيش وذخيرته تحمل على الأبل وتوضع في مؤخرة الجيش أثناء المعركة . وقد ساعد الجمل العرب في نقل مؤونهم وذخائرهم إلى مسافات طويلة بصيرهم على الجوع والبطش ومحملة لشارق الاسفار وقطع البوادي . وكان عاملاً من عوامل نجاح المسلمين على غيرهم من الأمم التي حاربوها .

رواتب الجند :

لم يكن للجند في زمن النبي (ص) رواتب معينة بل كانوا يأخذون أربعة أخماس التي " والديابة " إلى أن قام عمر بن الخطاب ونوسع المسلمون في الفتوحات وكثرت الأموال بأيديهم ومالت نفوس بعض المسلمين إلى الراحة والعمل بالصناعة والزراعة ، فبثت الخليفة عمر ، ناديه بنسائي في المسلمين " إن عظامهم قثم وإن رزق عيسالهم سائر فلا يزرعون " . وأمر من ديوان الجند وسجل فيه أسماء المسلمين وجعل لكل منهم عطاءاً خاصاً من بيت المال ، أضيف إلى ذلك ما كان يدفعه إلى الجند وأولادهم من العطايا والحبوب . وظل الأمر كذلك إلى أوائل العصر الأموي . فقام معاوية بفرق الأموال على جنده وزاد في رواتبهم ليجلب إليه قلوبهم لينضعوا إلى حوزة . وبلغ راتب الجندي في زمانه ألف درهم في السنة أي نحو ضعف راتب الجندي في أيام عمر بن الخطاب . هذا عدا ما كان يعطيه معاوية لرؤساء الجند والأمراء من المنح والهدايا ، وما كانت تكمه الدولة لاجنود من السلاح والذخيرة . وقد قصت رواتب الجند بعد معاوية لأن حكم الأمويين قد توطد ونبت أركانه . ومع ذلك فقد ظل راتب الجندي العربي أكثر من زميله الجندي الأيراني .

معاملة الخلفاء الأمويين لجندهم :

كان الأمويون من أشد الدول على جنودهم وهم في أحسن جند ، لأن الشاميين عرفوا بطساعة السلطان من بين جميع أهل البلدان ، وبهم يضرب المثل في الطاعة والمشاغبة . قالوا وإنا وريت زناد معاوية بأهل الشام لأنه كان في أطوع جند منهم ، والطاعة أول خطوة يسلكها جندي وبفضل هذه الصفة المستحسنة رفعت أعلام الأمويين في الصين من بلاد الشرق ، وفي الأندلس من بلاد الغرب وما بينهما . وكان الأمويون إذا عرض لجيوشهم شيء من الضعف يرمونها بوجع قوي الشكيمة ،

١ — الديابة هي آلة سائرة تتخذ من الخشب المثخين المتكثف وتختلف بالبود أو الجلود المنقعة في الغل لدفع النار ، وتركب على عجل مستدير وتتحرك .

٢ — الكباش : هو كالدابة ولكن رأسه في مقدمه مثل رأس الكباش متصل في داخل الديابة بعمود غليظ معلق بحبال تجري على بكر معلقة بسقف الديابة لتسهيل جرها يستخدم هذا العمود لتثقب الأسوار وتهديها ويحتمي الرجال الذين يدفعون العمود تحت سقف الديابة .

فيرد جماعها ، ويجمع على الطاعة قلوبها كما فعل زياد والحجاج بالعراق ، ولولا شدتها لخرج ذلك القطر عن طاعة بني أمية .

وكان النعمانيون أكثرية الجيش الشامي ، وعليهم جل اعتماد رأس بني أمية في الشام . وكان بعض الخلفاء يقربون القيسيين ويدخلونهم في عداد جندهم . وكان الأمويون في الأيام العصيبة يجندون الشباب واشتد الحجاج حتى جند المعتقلين ومن أتت من الصبيان .

وقد استخدم الأمويون أهالي البلاد المفتوحة في جيوشهم من البربر والفرس والترك وغيرهم من الأقوام إلا أن المنصر العربي كان المميز على جميع هذه الأقوام وكانت القيادة بيد العرب . وهذا ما يميز العصر الأموي على غيره من العصور .

الأسطول

الأسطول هو مجموع المراكب البحرية التي تعد للقتال في البحر . والمراكب الحربية عند العرب على أنواع مختلفة حسب الغرض الذي أعدت له فبعضها يستخدم للقتال ، وبعضها لحمل الأتقال ، والبعض الآخر للملاحة النهرية . وجميعها كان العرب يستخدمونها في أساطيلهم . ولكل نوع من أنواع هذه المراكب أسماء خاصة . وقد تطورت هذه الأنواع بحسب العصور العربية واكتفي بوصف مراكب القتال التي كانت في العصر الأموي فقط . إلا أن شكل المراكب بصورة عامة كان كما وصفه لنا ابن خلدون والمراكب أجرام هندسية دنت على قالب الخوت ، واعتبار سبجه في الماء بقوامه وكذلك ، ليكون ذلك الشكل أعون لها في مقاومة الماء ، وجعل لها عوض الحركة الحيوانية التي للسماك تحريك الرياح وربما أضيف بحركة المفاتيح كما في الأساطيل .

ومن مراكب الأسطول أذكر :

أولاً الشونة :

الشونة مركب معد للجهاد في البحر ، يحمل فيه المشاة والزماة والجذافون ، ويكون مع المقاتلة مسلحهم وعددهم الحربية . وفي الشونة أبراج^(١) وقلاع^(٢) ، ومنابر ونوايت^(٣) ومنجنيقات

١ - الأبراج : هي الأبنية الخشبية التي تبنى على ظهر المراكب ليصف عليها المحاربون ويقاتلون منها الأعداء ، وكثيراً ما كانت هذه الأبراج محاطة بالجلود المسقاة بالنمل أو المطاية بالطين والأدوية التي تخرج النار من إحراقها . ٢ - القلاع : هي امسكنة خشبية تكون في المراكب تحصن بها المقاتلون من سهام الأعداء ويرمون منها الذيل والنفط . ٣ - النوايت : هي صناديق كبيرة مفتوحة من أعلاها يصعد إليها الرجالة قبل استقبالهم العدو فيقيمون فيها للاستكشاف ومعهم حجارة صغيرة في حالة معلقة بجانب الصندوق فيرمون العدو بالحجارة وهم مخبئون بالصناديق .

ومرامي فقط (١) وتقاين بأيديهم مثاقب يسبحون تحت الماء ليثقبوا سفن الأعداء عند اشتباك القتال
 وترى الشون بالاعلام قبل ذهابها للحرب. وينتدب لوكوبها جماعة من الجند الأقوياء مزودين بأحسن
 الأسلحة يقفون صفوفاً على أبراجها المؤلفة من طبقات وأيديهم قسيهم وسهامهم. وفي الطبقة السفلى
 من الشونة يكون البحريون والجذافون يعملون على تسير الشونة. وفي بعض الشون أكثر من مئة
 مجذاف يعمل على الجذاف الواحد رجلان والشونة سريعة الجري. سهلة الحركة قوية البناء، بنيت
 خصيصاً للقتال وغزو السواحل. وتقطع الطرق على سفن العدو وأخذها وساب ما فيها. وقد وصفها
 أحد الشعراء بقوله :

| | |
|-----------------------|-----------------------|
| أنشأت شواني طائفة | وبنيت على مائة مدنا |
| يسروج فتال تحسبها | في ثم شواهبها قننا |
| ترمي يسروج أن ظهرت | لعدو ، محركة بطنا |
| وتنقط أبض تحسبها | مالة وبه نذكي الكنا |
| ضمن التوفيق لها ظفراً | من علات عذالك ما ضمنا |

وكان في مقدمة الشونة حايدة رفيعة تدعى الجسام (٢) تثقب بها جوانب سفن الأعداء إذا
 صدمتها بعنف.

ثانياً : البارجة :

إن كلمة بارجة معروفة من الهندية - بيرة - وهي سفينة كبيرة من سفن العرب تستخدم في بحر
 الهند كالشونة في البحر المتوسط ، كان الهنود يقطعون على المسلمين طريقهم بهذه البوارج ، ثم
 اتخذها العرب في هذا البحر في فتوحاتهم البحرية في خليج فارس والهند.

ثالثاً : الخرافة :

الخرافة هي سفن فيها مرامي فقط ويرس بها العدو في البحر وهي مراكب حربية كبيرة فيها العرادات ٣

١ - كان النقط رمي بآلة تدعى - الخرافة - وهي النبوة من نحاس تجعل في السفن وتثبت
 منها نار النقط بإرصاد ودخان شديد متحرق سفن العدو.

٢ - الجسام : حديدية طويلة محدودة الرأس وأسفلها بحواف كسنان الرمح ، تدخل من أسفاتها
 في خشبة كالقناة بارزة في مقدم السفينة ، يقال لها - الاسطام - فيصير الأجسام كأنه سنان الرمح البارز
 في مقدمة المراكب يصفون به مراكب العدو فلا يلبث حتى يخرق فيصيب فيه الماء.

٣ - العرادة : آلة أصغر من المنجنيق ، يرمي بالنجارة أو السهام مرامي بعيدة وزرمي أيضاً
 بقذور النقط أو المقارب وما إليها.

والمتجنيقات والزرقاء التي يرمى بها النفط المشتعل على الأعداء . وفي اذن مراكب تسخره بالمواد
الحارقة . وأول من استعملها اليونان وكانوا يقدفون بالنار اليونانية منها . ثم أخذها عنهم العرب
وكانت تسمى بالمجاديف ، ويركب النافطون فيها لابين نياباً بقمهم النيران ١ وقد اطلق اسم الحارقة
فيها بعد على مراكب النزع التي يركبها الخلفاء في المدجلة والنبل ، وقد صنع للخليفة الامين حراقات
بشكل الليث والعقاب والدافين مزينة احسن زينة بالكسوة الجميلة والستور الفاخرة ٢
رابعا : الطريدة :

مراكب النقل كانت تستعمل في الاسطول لحمل الخيول والفرسان . وأكثر ما يحمل فيها
اربعون فرساً . وكانت على الاكثر مفتوحة من خلفها يركب الفارس فرسه في جوفها ويتدرع ثم
يخرج للبر . وكانت تسمى بالمجاديف على الاكثر .

هذه هي أم سفن القتال في زمن الامويين وكانت ترافق هذه السفن زوارق وقوارب وسنابلك
صغيرة وكبيرة تستخدم لانزال الرجال الى السفن وحملهم الى البر ونقل المعدات والمؤن . وأهم
المعدات التي كانوا يحملونها هي السلاح على انواعه والجلال واللاسسل والسكاليب التي تستخدم عند
التحام الطرفين في وقت المعركة . فإذا دنا من سفن عدوهم انقوا السكاليب عليه فيوققونه ثم يشدون
اليهم ويرمون عليه الألواح كالجسر ويدخلون اليه ويقالونه في داخل مركبه وإذا كان العدو قوياً
أبطل عمل السكاليب بفأس ثقيل من فولاذ ، يضربون به تلك السكاليب فتقطع وتنجو السفينة .

١ - ثياب النفاطين : هي ثياب تغطي من الداخل والخارج بمواد متخذة من البشائر والشب
النصري ، واليهامي ومواد اخرى ... فإذا التهمت النار في الثوب لا تزال مشتعلة فيه وانت تنضج على
الثوب من النفط ساعة بعد ساعة يومك أجمع ولا يصل الى داخل الثوب شيء . ولباسها الرجال انقاء
النار في القتال .

٢ - وصف أبو نواس هذه الحراقات بقوله :

| | |
|-----------------------------|---------------------------|
| سخر الله للاميين مطايا | لم تسخر لصاحب الحرايا |
| فإذا ما ركابه سرت برأ | سار في الماء راكب ليل غاب |
| عجب الناس إذ رأوه على صو | رة ليل يمر مر السحاب |
| سبحوا إذ رأوك سرت عليه | كيف لو أبصروك فوق العقاب |
| ذات زور ومنير وجناح | من تشق العباب بعد العباب |
| تسبق الطير في السماء إذا ما | تملأ بها بحبشة وذهب |
| بارك الله للاميين وابقا | وأبقى له رداء الشباب |

دار الصناعة

دار الصناعة ^١ هي مكان قاعد لانشاء المراكب البحرية ، وفيه عمال ومستخدمون يقومون بالأعمال الضرورية من بناء وانشاء للسفن وصنع أدوات ومعدات لها ويتناول هؤلاء العمال أجورهم من خزانة الدولة . والخشب هو الأساس في صنع المراكب إلا أن وصل الألواح بعضها ببعض يحتاج لربطها بمسامير من حديد أو آليات بعض الاشجار الخاصة . ولذلك تعتبر هذه الصناعة من نوع « التجارة » كما يقول ابن خلدون . وبعد صنع المراكب تطلق بالقار أو بنبهة من المواد حتى لا تقسد ولا يدخل لجوفها الماء ، أو لسد خرزها وتطرية أعوادها .

كيفية صنع السفن

لم يكن للمسلمين في بدء عهدهم خبرة في صنع السفن وركوب البحر وسبب ذلك في رأي ابن خلدون يعود الى « ان العرب لبدأوتهم لم يكونوا اول الامر مهرة في ثقافته (البحر) وركوبه . والروم والافرنجة لم يرسبهم أحواله ومرباهم في التغلب على أعواده مرتوا عليه ، فأحكوا الدراسة بثقافته . فلما استقر الملك للعرب وشمخ سلطانهم وصارت أتم البحر خولاً لهم ونحت أيديهم وتقرب كل ذي صنعة اليهم ببلوغ صناعته . واستخدموا من الثوانية في حاجاتهم البحرية أنما ونكررت بحارستهم للبحر وثقافته ، استحدثوا بصراء بها ، فتاقت نفوسهم الى الجهاد فيه ، وانشأوا السفن فيه والشواني وشحنوا الاساطيل بالرجال وامطوها المساكين والمقاتلة لمن وراء البحر من اعم الكفر ، واختصوا بذلك من محالكم وثغورهم ما كانت اقرب الى هذا البحر وعلى حلقته ، مثل الشام وافريقية والمغرب والاندلس » .

وصناعة السفن تحتاج الى خبرة في الهندسة وإلى معرفة التناسب في المقادير لاجراخ التي ، على وجه الاحكام لذلك لا يستغنى فيها من الرجوع الى المهندسين ولذلك استخدم العرب الفنيين سكان الساحل السوري في صنع مراكبهم ، حتى اتقنوا الصنعة بأنفسهم وصنعوا مراكبهم .
والسفن التي صنعها العرب على قسمين منها سفن مهاجرة ، أدخل في بنائها المهاجرون وهي سفن

١ — ان كلمة Arsenal الاوربية مأخوذة من لفظ دار الصناعة العربية . وقد اخذ الازراك هذا اللفظ عن الاوربيين فقالوا : ترسانه او ترسخانه . ثم استعمل العرب اللفظ التركي ظانين أنه كلمة آتية عن الاوربية . والحال ان مصدرها عربي :

٢ — القار مادة سوداء يطل بها سفن البحر المتوسط ويؤتى به من جهة العراق وفي البحر الهندي والاحمر وخليج فارس حيث لا يصلح القار لدهن المراكب كان أهلها يدهنون سفنهم بدهن الخروع ودهن القرش وهو شحم بعض الحيتان . لأن صنع سفنهم يقتضي ذلك .

البحر المتوسط . ومنها سفن مخيطة بحمال الليف كسفن بحر القارم (الأحمر) والمحيط الهندي والخليج الفارسي .

أما السفن المصارية : فيبدأ بإنشائها أولاً بقرب البحر على قاعدة أو مسطبة ويبدأ أولاً ببناء قوس المركب أو أساسه ثم يكمل الانشاء داخل البحر إلى أن يتم . وتجري حفلة رسمية عند انتهائه يحضرها الخليفة والأمراء والقواد والجند وجماعة الناس ويكون يوم مشهود لما تقوم به البحرية من الألباب والناورات ويخلع الخليفة على رجاله الخلع والهدايا والأعطيات .

أما السفن المخرطة : فكانت تصنع بأن يثقب الألواح بعمالة من نهايتها بواسطة مخبر من حديد ثم تحاط بأمراس من القناري ، وهو قشر جوز النارجيل يفتلون منه أمراًساً يخبطون بها المراكب وبعد ذلك يخلطونها بدمر من عيدان التخييل ثم يسقونها بدمر أو بدهن الخروع أو القرش ثم يرمونها إلى البحر .

مراكز الصناعة

كانت دور الصناعة تبنى في السواحل قرب مصاب الأنهار ، لا سيما في الأماكن التي تتوفر فيها الأخشاب كالصنوبر والسنديان والأرز وغيرها من أنواع الأخشاب . وكانت شواطئ البحر المتوسط أحسن المناطق لبناء مراكز الصناعة . لذلك بنى الأمويون دور الصناعة فيها . وكانت هذه المراكز أيضاً ملجأ للأسطول في غزواته يخرج منها للغزو ويعود إليها . وأول دار صناعة بنيت في ساحل الشام كانت في تونسكا وذلك في زمن معاوية بن أبي سفيان سنة (٤٩) هـ لأنها بعيدة عن تأثير الأسطول البرنطي الذي كان لا يتوانى عن غزو ساحل سورية وإيقاع الضرر بمراكب المسلمين . وما زالت عكا مركز الصناعة حتى زمن بني مروان فنقل هشام بن عبد الملك الصناعة إلى صور . وكانت مدينتي طرابلس وحيفا تشارك عكا وصور في صنع المراكب في زمن الأمويين . وكذلك كانت بيروت مركز صناعة المراكب في زمن معاوية ومنها جبر الأسطول الذي غزا به جزيرة قبرص . أما في مصر : فكانت الأسكندرية مركز الصناعة في زمن الخليفة عثمان ومنها خرجت مراكب عبد الله بن سعد بن أبي سرح للاشتراك في معركة ذات الصواري .

أما في شمال إفريقيا : فكانت تونس مركز الصناعة في زمن عبد الملك بن مروان وهو الذي أوثر لعامله حسان بن النعمان أن يتخذ دار الصناعة فيها لإنشاء المراكب والآلات البحرية ليحافظ على مراسم الجهاد .

أما في الأندلس : فكانت المرية دار صناعة المراكب وهي مدينة مسورة على جافة بحر الزقاق وأسوارها عالية وقامت بها منيعة شائعة وحولها الجبال المورقة . وكذلك دانية : كانت مركز إنشاء

واقعة بشرق الاندلس على البحر وعليها سور حصين ، وسورها من ناحية المشرق في داخل البحر ،
وقد بني بهندسة وحكمة والسفن واردة عليها حادرة ومنها كان يخرج الاسطول لغزو . وكذلك
طرطوشة : الواقعة على نهر الابرة وبها انتاء للمراكب الكبار من خشب جهاتها . وبجبالها خشب
الصنوبر الذي لا يوجد له نظير في الطول والمسطح ومنه تتخذ الصواري وهو خشب احمر صافي
البنرة بعيد عن التلفير لا يفسد فيما يمس ما يفعله في غيره من الخشب . وعلى المدينة سور منخر
من بناء بني امية وهي باب من ابواب البحر ...

ونلاحظ ان مرا كز الصناعة كانت محصنة بني الخلفاء والولاة حولها الاسوار المشرفة والمناطق
الصحيقة والابراج المنيعة ليحافظوا ديارها من غارات الاعداء .

وكان محم بن الخطاب اول من شدد على عماله في تحصين السواحل فكذب الى معاوية بن ابي
سفيان بأمره ، في مرمة حصونها وترتيب المقاتلة فيها واقامة الحرس على مناظرها واتخاذ المواقيد لها
ولم يأذن له في غزو البحر ، فلما قام عتبان كتب الى معاوية ، بأمره بـ تحصين السواحل وشحنها
واقطاع من ينزل ابها القطائع ففعل . . . ثم ان الناس بعد ذلك انتقلوا الى السواحل من كل ناحية ،
واستمر معاوية في تحصين السواحل وبناء الحصون عليها في ايام خلافته فحصدت جهه وانظرطوس
ومرقية وبلياس وبني حصن سفيان قرب طرابلس وبني جرة وكانت حصناً الروم جاؤوا عنه . وادخل
مدينتي شك وصور قبل دخابه لغزو قبرس . وقام عبد الملك بالسلام ما يدأ به معاوية وادخل ما خرب
من الحصون والمدن الساحلية ولا سيما سكا وصور وحصن طرابلس . وكذلك فعل عمر بن عبد
العزيز الذي بنى وحصن مدينة القلاية الا ان العمل لم يتم في زمنه بل في زمن يزيد بن عبد الملك
وعما قاله البلاذري عن اعمال الامويين الاصلاحية ما يلي : « قل كانت بنو أمية تغزو الروم بأهل
الشام والجزيرة ، وتقيم المراكب للغزو وترتب الحفظة في السواحل . »

قيادة الاسطول

ان قيادة الاسطول لا تنفصل عن قيادة الجند فكلاهما مكمل للآخر وادارتها تتبع على الاكثر
نظام واحد وجماعة واحدة يقول ابن خلدون ، قيادة الاساطيل وهي من مراتب الدولة وخطتها في
ملك المغرب وافريقية ومروسة لصاحب السيف ولحق حكمه في كتاب من الاحوال ، ويقول
ابن خردادبة : « والمغرب بجميع امور المراكب الشامية والمصرية مساحب النفور الشامية ، وكان
جند الاسطول يتخرون من فرق الحرس البري . فمعاوية بن ابي سفيان ، دار بغزي البحر باليمنية
والبحر بالقيسية ، فشق ذات على البعدي لان القيسية من حضرم ، فعانبوه فجمع بين القيلتين
واغرام معا . »

والقيادة في الاسطول على نوعين : نوع يختص بإدارة الجند والعسكر المحارب وهذه تبقى كما هي في الجيوش البرية . والنوع الآخر يتعلق بإدارة سفن الاسطول وهذه لها رتب خاصة أعلاها رتبة أمير البحر^١ : وهو أمير كبير من اعيان الامراء واقوام جاشاً يكون على رأس الاسطول ، يقول ابن خلدون : « فاذا اجتمعت الاساطيل لغزو محفل أو غرض سلطاني مهم عسكرت بمرفئها المعلوم وتمنحها السلطان برجاله والجهاد عساكره ومواليه وجعلها لنظر أمير واحد من أعلى طبقات أهل مملكته يرجمون كلهم اليه ثم يسرحهم لوجههم ، وينتظر اليهم بالفتح والغنيمة . »
وتحت امرة أمير البحر رئيس البحرية ويقال له الرئيس أو الريان ، أو المعلم ويكون له ميزة تسيير المراكب واجرائها بالريح أو بالمجاديف . وقيل : يدبر أمر الجند والقنال في البحر .

ومن مشاهير رجال الاسطول العربي في العصر الاموي عبد الله بن قيس الجاسبي الذي فتح قبرص سنة ٦٢٨ هـ وغزا خمسين غزوة بين شامية وصائفة في البحر والبر وكان لمقتله حادثة غريبة « خرج في قارب طليعة فانتهى الى المرفأ من أرض الروم وعليه مساكين يسألون فتصدق عليهم فرجعت امرأة منهم الى قريبها فقالت للرجال هذا عبد الله بن قيس في المرفأ ! فثاروا اليه فهجموا عليه فقتلوه بعد ان قتلهم . . . وقيل لتلك المرأة بعد . بأي شيء ترفنيه ؟ قالت كان كالثاثير ، فلما سأته أعطاني كالثاثير فمرفقه بهذا . . . !! » وكان عبد الله يصحب زوجته معه في غزواته في البحر كما كان يفعل غيره من العرب .

وهناك عدد كبير من أبطال العرب بقوا في البحرية لا حاجة لعدداهم وقد رفضوا علم الاسلام غالباً فوق جنة البحر حتى خافهم الروم وغيرهم من امم البحر المتوسط .

فن العمارة

أخذ العرب فن العمارة في بدء تكون حضارتهم عن الفرس والبيزنطيين ، وكيفوه حسب حاجتهم ومعتقداتهم ، واستخدموا البنائين والصناع من سكان البلاد المغلوبة في يديهم الامر ، الا انهم وجبوا في عملهم حسب الذوق العربي والطبيعة العربية فبدأ من ذلك فن له ميزاته وخصائصه التي تختلف عن المصادر الاولى التي صدر عنها .

فن العمارة في الاسلام :

كان عند العرب قبل الاسلام بعض الفنون لاسيما في البناء ، فأهل اليمن بنوا السدود والقصور والهيكل والقلاع والاسوار ، ومنها سد مأرب وقصر غمدان . وكذلك عرف الانباط والتدمريين

١ - أخذ الاوربيون هذا المصطلح عن العرب واستعملوه في لغتهم فقالوا : Amiral .

رقياً عمرانياً عظيماً ولا تزال آثار مدنيّتهم في البستراء وتندرس جاحضة حتى الآن . وكذلك آثار
الفسانة من قصور واقواس قصر ، وكنائس وحمامات ومسارح باقية حتى الآن في أرض حوران
والاردن . أما النخس في الحيرة فقد عرفوا بقصرى الثورنق والسدير . أما بقية القبائل العربية
فكانت تكثر المدينة في القصور وتحتقر الصناعات ولذلك آثروا حياة الصحراء تحت الخيام وعاشوا
على تربية انعامهم ومنتجاتها .

ولما جاء الاسلام لم يهتم المسلمون في بدء امرهم ببن البناء لانهم كانوا مشغولين بشعر الاسلام
والموالاتي التي قام بها النبي (ص) في المساجد وتابته على ذلك الخلفاء الراشدون من بعده .
فكانت ابيّتهم بسيطة بعيدة عن الزخارف والاشكال المصورة . مبنية من الطين الجوف والخشب
سوى ما بني في زمن عثمان بن عفان وقد تابع الولاة الخلفاء في ذلك فالدين والمسكرات التي بنوها
لجندهم في العراق والشام ومصر وشمالي افريقية : كالبرصة والكوفة والفسطاط والقبروان وغيرها
كانت مبنية في اول الامر بالطين الجوف والطين والقصب والخشب . ومنذ ان قامت الدولة الاموية
حدث تغير في فن البناء فقلد الخلفاء الامويون الفرس والروم في عمران ابيّتهم واستخدموا اميرة
الصناع والبنائين من سكان البلاد المفتوحة . وبذلوا الاموال الكثيرة في الفنون ببناء المساجد والقصور
والحصون والاسوار ونشأ فن جديد عند الامويين يختلف عما تقدمه من الفنون العربية والبيزنطية
والفارسية وهو يمثل في مبانيهم العامة والخاصة .

أما مبانيهم العامة : فكانت خالية من الفنون التصويرية كالرسم والنحت وخصوصاً رسم الاشكال
الآدمية والحيوانية واستعاضوا عنها بالكتابات لا سيما الآيات القرآنية ، والاشكال النباتية من زهر
ودورق وغصن وشجر إلى رسم الخطوط الهندسية التي تمثل مختلف الاشكال والرسوم وكان القوس
الذي استخدموه في بنائهم على شكل نعل فرس والمواמיד مستديرة ...

أما في قصورهم الخاصة : فقد تسامحوا برسم الاشكال الحية التي تمثل حيوانات الصيد والاشكال
الآدمية المتنوعة . ويتجلى لنا أثر ذلك بوضوح بعض الابنية التي خلفها الامويون .

المساجد : كانت المساجد التي بنيت في العصر الاموي تتبع النمط الذي بنى به محمد (ص)
مسجده في المدينة سنة ٦٢٢ م والذي بقي نموذجاً لسائر المساجد في جميع العصور . وكان هذا
المسجد مساحة من الارض مربعة الشكل يحيط بها جدران من الآجر والحجر وقد كان هناك سقف
على جزء من اجزاء هذا الجامع حيث كان النبي يؤم المصلين . ولعل الاسقف كانت مصنوعة
من جريد النخيل . وكان اتجاه القبلة يحدده المصلون بطريقة ما . ثم اخذت المساجد تتطور مع
الزمن ويزاد في بنائها اشياء جديدة ففي سنة ٩٨٩ م كان سقف المسجد الذي بني في الكوفة

مرتفعاً على محمد من الرخام قد أتي بها من مصر أحد ملوك الفرس في الحيرة ، وفي سنة ٩٤٢ م كان في المسجد الذي بناه عمرو بن العاص في القسطنطينية منبر مرتفع ، وفي زمن معاوية بن أبي سفيان أدخلت المقصورة لتعجب الخليفة عن سائر المسلمين ، وفي أواخر القرن السابع ظهرت المسانن ثم أدخل الخراب في جبة القبلة وأخيراً دخلت زبانات ثانوية في بناء المساجد وهي الأيوونات والأروقة التي تحيط بالمسجد ، عرضها وقبة المداين من الطار وحرارة الشمس ، فكان شكل الجامع الأخير هو كما يلي : باحة وسطى مكشوفة تعرف بمسجد الجامع ، يتوسطها حوض ماء للوضوء ، وحولها أروقة قائمة على محمد مرتفعة ، وفي داخل رواق القبلة قاعة الصلاة الرئيسية التي تحتوي على المنبر والمقصورة والمحراب الذي يرشد الناس إلى اتجاه الكعبة . ثم مأذنة عالية في إحدى جوانب المسجد لإعلام المسلمين بوقت الصلاة . وأهم المساجد التي بنيت في العصر الأموي هي :



شكل (١) قبة الصخرة

قبة الصخرة :

شيدت قبة الصخرة قرب المسجد النبوي الذي بناه الخليفة عمر بن الخطاب في القدس بعد فتحها سنة ٦٣٩ م ولذلك يسمى هذا المسجد أيضاً بجامع عمر . وهذا المسجد بناء على شكل مشتمل مني من الحجر شديد عبد الملك بن مروان سنة (٦٩٠) م فوق الصخرة التي يروي أن النبي (ص) وضع قدمه عليها لما صعد إلى السماء ولقوا البناء فيه عالية تغطيها مسقاه فيها موضوعات زخرفية باللونين الأخضر والذهبي ، والقبة محمولة على دائرة من أعمدة ضخمة من الرخام الأخضر والذهبي ذات تيجان مذهبة . وقد اتفق عبد الملك في بناء هذا المسجد خراج مصر سبع سنين .



شكل (٢) الجامع الأموي

الجامع الأموي :

كان الجامع الأموي معبداً قبل الإسلام ، ثم صار في زمن البيزنطيين كنيسة القديس يوحنا إلى زمن الفتح العربي ، فآخذ المسلمون نصفه الشرقي وفي القسم الغربي بيد النصارى . وكانوا يدخلون من باب واحد وهو باب الميعة الأموي في القبلة ، فينصرف النصارى إلى جهة الغرب والمسلمون إلى الشرق . ولما جاء الخليفة الوليد بن عبد الملك (٧٠٥ - ٧١٥) م عوضهم عن قسمهم وحمل كامل البناء مسجداً جامعاً وكان مبنياً على أعمدة الرخام طابقتين : الطبقة السفلى مؤلفة من أعمدة كبار وفوقها في الطبقة الثانية أعمدة سمار وفي خلال ذلك حوزة كل مدينة وشجرة في الدنيا بأنفسها الذهب والأخضر والأصفر . ولما قبليه القبة المعروفة بقبة النسر ، ليس في دمشق أعلى ولا أبهى منظراً ، وفيه ثلاث منائر (مآذن) أجدها وهي الكبرى كانت برجاً للروم وأقرت على ما كانت عليه وصيرت منارة . وتم بناء المسجد في سنة وفاة الوليد ، وقد جدد بناءه ثلاث مرات على اثر ثلاث حرائق نشبت فيه .

وأجمل ما وصف به هذا الجامع قول ابن مقفد الكتاني :

وكان جامعها البديع بناؤه ملك غير من المساجد جعفلا

| | |
|----------------------------|---------------------------|
| دو قبة رفعت فضاعت قلة | ومشار يثيت فعاكت معالا |
| تبدو الأعملة في أعالي ك | يبدو الهلال نعلانيا وتهلا |
| وريتك منقفا بالرماس مدثرا | يبدو جداراً بالرخام مزملا |
| فكأنما بحرايه من سندس | أو لؤلؤ وزمرد قد فصلا |
| وتخال طافات الزجاج إذا بدت | منه لأحظاك عبقرباً مسدلا |
| يبدو القباب بصحنه لك منقعا | يبدو العرائس بالخلي لتجلى |
| وعلى به فوارة من فضة | سالت نظنوها معينا سلا |
| وبسابه حركات ساعات اذا | فتحت لها باب تراجع مقلا |

وقد بنى الأمويون غير هذين المسجدين مساجد كثيرة منها مثلاً جامع القيروان الذي بُني في زمن هشام ونسبته مأدنته الباقية حتى الآن من أقدم المآذن وهي عبارة عن برج مربع ضخم يضيق كلما ارتفع . وبني أيضاً في زمن هشام جامع الزيتونة في تونس .

القصور :

بني الخلفاء الأمويون القصور في المدن والبادية أو ما يقرب منها . لأنهم كانوا يحبون حياة البادية ولحامون نزول العاصمة دمشق لوطوبتها التي تضر بصحتهم ولما يجد خليفة أموياً إلا وابنى له قصراً في إحدى مناطق الشام . ولا تزال آثار بعضها باقية حتى الآن . وأقدم قصور الأمويين في دمشق قصر معاوية المعروف بالخضراء الذي استمد اسمه من لون زخرفته وتقوشه ، بُني بقرب المسجد الأموي وبني حوله قصور الأمراء الأمويين . وكان قصر الخلافة في دمشق مزخرفاً بالذهب والفضة والمر التامع تكتنفه الحدائق الوارفة الظلال . وكانت أرض القصر مزخرفة بالفسيفساء ، كما كانت الغرف مطالية بآاء الذهب ومرصعة بالجواهر الثمينة . وكانت الحفلات الخاصة في عهد هشام تقام في البهو الفسيح المباط بالمر المشدود بالاسلاك الذهبية ، والمفروشة بالطنافس الحمراء الموشاة بالذهب . وكان الخليفة يحضر بنفسه تلك المسآدب الخائلة متشجاً بالملايس الحريرية الحمراء ومتضمخاً بالمسك والعنبر . وكان الخدم والوصيفات يتشجون بشباب صفر وحلي الذهب ، أو ثياب خضر وحلي الزمرد .

أما قصورهم التي في أطراف الشام فهي كثيرة جداً بعضها جعل للصيد والقنص يسكنها الخلفاء في رحلاتهم للصيد ، وبعضها الآخر جعل للسكن كحصيف أو مشق . وهذه القصور على شكل قنعة لها مدخل واحد وأسوار وخنادق حولها ، وأبراج مستديرة في زواياها وعلى جوانبها ولكنها ليست

كلها ذات صفة -سكزية ، بل بعضها له طابع مدني لا سيما في فرشته وأثاثه . وأشهر هذه القصور :

قصر محمرا :

وهو قصر أموي يجمع بين مزايا الصروح الملكية والحصون ، اكتشفه (موسيل) سنة ١٨٩٨م في شرقي الاردن . وهو بيت للصيد يُطلق ان الخليفة الوليد بن عبد الملك هو الذي شيده . وفيه مشاهد رياضية مرسومة على الجدران كالجربد وميد الطيور والسكك ، وفيه صور تمثل الصناعات وصور رمزية تمثل أدوار الحياة في البادية والتسارخ والفلسفة والشعر وخايفة جالس على العرش وحوله رجال ونساء وامرأة مريضة محلاة بالثمن ، وفيه صور اشجار الكرمة والتخيل والحيوانات والطيور . . . ويحيط في بنائه هندسة الروم والاشاميين والفرس .

قصر الحير :

وهو من أجمل القصور التي شيدها الامويون في البادية قرب ندمر . وقد كان مكانا سكنا للصيدين والصيد بنى بحاياه جامع وحمام في وسط ارض زراعية خصبة . وزخارفه متنوعة ، جمعت عناصر القنون القديمة . ففي الأرومين نافذة التي فيه يثار ان توجد نافذة ان متشابهتان في زخارفها . وبين الاعمدة الصغيرة التي في واجهة القصر توجد سبعة انواع مختلفة بعضها ذات اضلاع مستقيمة وبعضها مستديرة وبعضها اضلاعها معوجة أو تشبه جذوع التخيل . . . وقد نقل هذا القصر الى دار الآثار بدمشق .

وعدا هذين القصرين يوجد قصر الرقط في مكة بناء معاوية بن أبي سفيان ، وجعل له بيتان قرباً من العراق فكانوا يبنونه بالحصى والآجر . وارتفع ثمن البناء في الحجاز حتى ردوا ان معاوية اشترى داراً بالمدينة بستين ألف دينار ، كان صاحبها قد اشترها فيها بذكرين بقر خمر . وروى مع ذلك انه قيل لصاحبها : « قد غبتك معاوية » وبوجده أيضاً قصر الخزنة وقصر الطوبا ، وقصر المشق في شرقي الاردن ، وقصر هشام بن عبد الملك في الرصافة (جنوبي الرقة) وغيرها من القصور الكبيرة .

هذه هي أهم قصور الخلفاء . أما ما في عامة الناس فكانت في الشام تعمر على الطراز البيزنطي وفي العراق تشاد على النمط الفارسي . أما في الحجاز فكانت تبنى على النمطين معاً . فكانوا يبنون البناء ويحصبونه من الخارج والباطن ويستخدمون الحجارة المختلطة الالوان حتى تنبئ الشراء بهذه القصور لا سيما التي كانت بالقرب في وادي المدينة . وقد اتسع البناء في العتري حتى كاد يفسد جمال عمرته الشهيرة ، فتح بنو امة البناء فيها ضناً بها وحفاظة على جمالها .

الحياة الاجتماعية

كانت طبيعة عرب الجاهلية وأخلاقهم نتيجة لاسباب معيشتهم وأقليمهم ، وكان أهم ما اتصفوا به من الطباع هو العصبية القبلية ، والشجاعة والكرم والوفاء ، والنجدة والمروءة وحب الاستقلال واحترام الشيخوخة والاخذ بالثأر . وقد اشتهر من بينهم افراد اختصوا ببعض هذه الصفات حتى ضرب القتل فيهم ...

ولما جاء الاسلام بقي كثير من هذه الصفات عند العرب ، وتعدل بعضها حسب مقتضى الدين الحنيف ، لاسباب العصبية القبلية التي استبدت بجامعة الدين ووحدة المسلمين على اختلاف طبقاتهم وأجناسهم وربطتهم بعضهم مع بعض .

ولما جاء العصر الأموي عادت العصبية القبلية من جديد ، وشجع الخلفاء بعض القبائل على الاخرى بتقريب رؤسائهم واعطائهم الاموال . وظهرت حياة جديدة في قصور بعض الخلفاء ، فواميا القدر واهل البس ، وتقريب الجوارح الاجنبيين وتقليد الاعاجم في حياتهم الاجتماعية ، فقد قال ابن خلدون : « وأهل الدول ابداء يهلون في طور الحضارة وأحوالها الدولة السابقة قبلهم ، ومثل هذا وقع للعرب لما كان التتبع ، وملكوا فارس والروم . واستخدموا بناتهم وأبناءهم ، ولم يكونوا لذلك العرب في شيء من الحضارة ، فقد حكى أنه قدم لهم المرقق فكانوا يحسبونه رفقاء ، وعثروا على الكافور في خزائن كسرى فاستعملوه في عجينهم ملحاً ، فلما استعبدوا أهل الدول قبلهم ، واستعملوهم في منبتهم وحاجات منازلهم ، واخذوا منهم الميرة في أمثال ذلك أفادوهم عدلاج ذلك ، والقيام على محله ، والتمسك فيه ، مع ما حصل لهم من انساج العيش ، والتفنن في احواله ، فبلغوا الغاية في ذلك ، وتطوروا بطور الحضارة والترف في الاحوال ، واستجداد المطامير والمشارب والملايس والمباني ، والاساجة والفرش والابنية ، وسائر المانعون والفرش . وكذلك احوالهم في أيام المباشرة ، والولائم واليالي الاعراس . فأنوا من ذلك وراء الغاية ، وما أخذوه عن حضارة الامم المغلوبة : بناء الخانات والقصور . واستخدام الوصيفات في البيوت ، وقفاير الحمام ولعب الشطرنج والتمرد في النوادي . وسيتجني اثر هذا التطور عند العرب في وصف نظام معيشتهم .

اولاً . البباس :

كان الخلفاء الراشدون يكفون بالبباس البسيطة وهي عبارة عن وشاح أبيض وعمامة بيضاء . الا ان ولأنهم تأثروا بالبباس اهل البلاد المفتوحة . برز في إن عمر بن الخطاب كتب الى ابي موسى الاشعري بوجاهة فقال : « وقد بلغ أمير المؤمنين أنه شئت لك ولاهل بيتك هيئة في لباسك ومطعمك

ومركبك ليس للمسلمين مثلاً ، ولما لقي عمر بن الخطاب معاوية عند مجيئه الى الشام ، ورأى ربه من
المديد والعدة وما فيه من ابهة الملك استنكر ذلك وقال : « اكسرونية يا معاوية ؟ » فقال : « يا أمير
المؤمنين ، انما في نفر تجاه العدو ، وبنا الى مبايعاتهم بزينة الحرب والجهاد حامية ، ووردى بن الخليفة
عمر انه قال : « اتزروا وارندوا واتعلوا واحتفوا ... ودعوا التزم وزبي العجم » .

ولما آل الامر الى الخلفاء الامويين اتخذوا دور الطراز لصنع ملابسهم وزينتها . وكانوا حريصين
على أن يظهروا بأحسن هندام وأجمل زبي فكانوا يخرجون الى المساجد لابسين ملابس وعصامات
بضياء منعددة بالجواهر الثمينة ويدهم خاتم النبي (ص) والفضيب اشارة الخلافة . وإذا ذهبوا الى الحج
صحبوا معهم نساءهم وجواربهم عليهم الجلابيب والثياب المصفورة التي هي فتنة للناس . وكان بعض
الخلفاء لا يلبسون القميص الا لؤسة واحدة . الا ان يكون القميص نادراً معجباً . وكان عملهم
يرسلون لهم هذه الاثواب والخلل من ولاياتهم من اليمن والمشرق والمغرب . ووردى ان هشام بن
عبد الملك كان مغرمًا بالزينة والهندام حتى زعموا انه لم يكن في بني مروان اعطر ولا البس منه .
وانه خرج حاجاً فحمل ثياب ظبره على سفينة حمل .

وكان الامويون لا يظهرون في الحفلات امام الناس الا بأحسن الثياب ، قيل ان الوليد الثاني كان
يتشبع بالاثواب الحربية المشجرة والموشاة بالقصب والبراويل المصنوعة من الحرير والدمقس . وتقلد
الاشتراف بالخلفاء — لان الناس على دين ملوكهم — فكانوا يلبسون القلائس ورفيق الثياب
ومصيفاتها ، وتبينها وسفيلها حتى قيل ان مروان بن أبان بن عثمان كان يابس سبعة قمص كأنها درج
بعضها أقصر من بعض وفوقها رداء عدني بالني درهم .

ولم يكن النساء أقل حظاً من الرجال . فقد التفتت بعض النساء الى الزين في الثياب الملوثة
الشفافة ، واعتنيت بهندامهن وهياتهن ، وربعين في اقتناء الحياض الكريمة ، والآلي ، وانواع الماني
وكن يزين بها .

وكان بعض النساء يلففن بقصيف شمورهن على شكل خامس . وكانت بعضهن يضمن على
وجوههن الجب او الحمر الرقيقة بقصد الزينة .

ثانياً الشام :

كان طعام العرب في بدء عهدهم بسيطاً وهو عبارة عن الالبان والتمر والحبوب واللحوم . وكانوا
يصنعون منها اطعمة مركبة كالتريد من اللحم والابن والخبز ، والمصيدة : من الابن والدقيق ،
والوسيفة : من الدقيق والعدس والسمن . وعندما قامت الفتوحات تعلموا انواعاً جديدة من المساكلي
وتقنوا بمعالجة اللحوم بالالبان والخضار والتماويل على اساليب شتى . وقد حاول الخليفة عمر صد

الناس عن طعام الأعاجم والاكتفاء بما كل العرب الا انه لم يفلح لان الناس تطوروا مع الزمن .
وعندما قامت الدولة الاموية زادت رغبة الناس في تنويع الطعام حتى قيل : ان العرب لا تعرف
كثرة الألوان في اطعمتهم ، إنما كان طعامهم اللحم يطبخ بالساء والملح ، حتى كان زمن معاوية
فاتحة الألوان ، وجرى بقية الخلفاء الامويين على نهجه وزادوا عليه فسكان سليمان بن عبد الملك
يصحب معه طبائخه في رحلاته . نزل مرة ضيفاً في الضائف ، فقدم له جدي ودجاج هندي وحريرة
فاكل ثم نادى برئيس طعامه فقال : افرغت من غذائي ؟ قل ثم قل وما هو ؟ قل تساقون قدراً ، قل
اثني بها ؟ وأقدرنا ، قال فاكثر ما اكلي من كل مرة ثلاث لغم ، واقل ما آكل لقمة .

وتمكن الخلفاء وحدهم يهتمون بطعامهم بل كان ولاتهم اذلاء يسرون على غرارهم ، حتى قال امية بن
عبد الله بن خالد وكان والياً على خراسان في زمن عبد الملك : ان خراج خراسان لا يفي بطبخي :
وكذلك كان بقية الاشراف يهتمون بتلك هذه الحياة المترفة . وهناك روايات عديدة في الاغاني تدل
على ذلك . الا اننا يجب ان نلتفت شياً عامة الناس ونرى كيف كانت حياتهم ومعيشتهم . وخير
صورة تمثل بها ذلك هو ما رواه اعرابي عن نفسه قال : اني دخلت قرية بكر بن عاصم
الهملائي ، وادانا بدور منبائة ، وادنا خصاص بيض بعضيا الى بعض ، وادانا بها ناس كثير مقبلون
ومدبرون ، وعليهم ثياب حكوا بها انواع ازهر ، فقلت لنفسي : هذا احد الابدان المقطرا والاضحي ،
ثم رجعت الى ما عرج من عقلي فقلت خرجت من أهلي في عتب صفر ، وقد مضى العيدان قبل ذلك ،
فبينما انا واقف اتعجب ، اذ اتاني رجل فأخذني بيدي ، فأدخلني بيتاً قد كجد ، وفي وجهه فرش مهددة ،
وعليها شاب يقال فرح شعره كثفيه ، والناس حوله متحابين ، فقلت في نفسي ، هذا الامير الذي
يحكي لنا جلوسه وجلوس الناس حوله ، فقلت وأنا مائل بين يديه : السلام عليك ايها الامير ورحمة
الله ، قال فحذب رجل بيدي ، وقال ليس بالامير ، اجلس . قلت : فمن هو ؟ قال عروس . قلت :
واتكلى اماء ، لرب عروس بالبادية قد رأيت أهنون على اصحابه من ... فلم البث اني ادخلت الرجال
عليها آفات متدورات من خشب ، اما ما حذب منها فتشعلت حملاً . واما ما نزل فيد حرج ، فوضعت
امامنا وحلق القوم عليها حلقاً ، ثم اتينا بخرق بيض ، فالتيت عليها ، فبعت والله ان اسأل القوم
خرفة منها ارفع بها قيصي ، وذلك اني رايت لها : جاً متلاحماً ، لا يدين له سدى ولا حقة ، فلما
بسط القوم ايديهم ، اذا هو يشترق شريعاً ، وادنا من الخبز لا اعرفه : ثم اتينا بطعام كثير
من حلو وحامض ، وحار وبارد فأكثر منه .

هكذا كانت حالة الاعراب في زمن بني امية .

ثانياً الغناء :

كان فن الغناء معروفاً عند العرب ، ساء في الجاهلية والإسلام ، وقد عرف باليمن والشام والحيرة حتى ان ابن عبد ربه قال : « وانما كان اصل الغناء ومدنه في اميات القرى من بلاد العرب ظاهراً فلياً ، وهي المدينة والطائف وخيبر ووادي القرى ودومة جندل واليمامة ، وهذه القرى مجامع اسواق العرب » وكانوا يعزفون على المزاهر والبرابط (١) والعيودان (جمع عود) وكانت تغنيهم قبان ومغنيات روميات . الا ان فن الغناء ارتقى وازدهر في العصر الاموي لاسباب بعد ان اختلط العرب بالفرس والروم وغيرهم من الشعوب . وجاءتهم المغنيات من جميع البلاد تحمل كل واحدة فن قومها حتى اجتمع لديهم غناء الامم القديمة ، فعربوه وشذبوا منه مالا يتلاءم مع ذوقهم ، والبسوه حلة جديدة ، وصار فناً منظماً يقصد اليه له انظمته ، وحدوده ورجاله ومعلموه . ودخل المجتمع العربي في مجالس الخلفاء وفي قصور الاغنياء والاشراف ودور العامة والفقراء . فآثر في نفوس فتيان العرب من الامويين فقير من خلقهم ، ولطف من مزاجهم ، ورفق من طباعهم فعدوا الى اللهو ، واخذوا بأسبابه حتى قالوا : « لقد فهم قدر الدنيا من فهم قدر الغناء » .

وكان المثنون والمغنيات على جانب من الثقافة عظيم في فن الشعر والادب والتاريخ وال اخبار ، يصحبون الشعراء لينظمو لهم الاشعار فياجنوها ويغنوها . وكان اهزم الناس بالمغنين عظيم واحترامهم لهم كبيراً لاسباب في الحجاز وبصورة خاصة في المدينة ، وكان هناك ائمة خاصة فيها مغنون اخصاء يتنون فيها مختلف الغناء .

من أشهر المغنين والمغنيات في العصر الاموي: سعيد بن مسجع ، وطويس ، والقريظ ، وجميلة ، وحبابة ، وسلامة وغيرهم . أما آلات الموسيقى فزائدة عما ذكرناه سابقاً فقد استعملوا المزمار والمعارف والطناير .

المرأة

حرصت المرأة العربية على بساطتها البدوية ، وعلى الحرية التي درجت عليها ايام الجاهلية رغم انتشار اللهو والترقب في عهد الامويين . فكان نساء العرب يتألفن الرجال ويحدثن اليهن ويعقدن المجالس للشعراء والادباء . وبفاضل بن يونس . وعن اشهر من النساء عائشة ام المؤمنين التي صرحت

(١) وصف اعرابي البربط فقال : « هي خشبة تبنها في سدرها فيها خيوط أربعة يدعى الاسفل منها الزبر والذي يليه التقي ، والذي يليه المثلث والاعلى ايم » وقال عن المعارف عليه : « فاستخرج من خلالها عوداً فوضعه خلف اذنه وعرك آذانها وحركها بخشبة في يده فقطقت ... »

بهم واخر في الفقه ورواية الحديث ، والفن ، والمناجاة ، والنسب والشعر وكذلك اسماء بنت ابي بكر وقد عرفت برواية الحديث والشجاعة والكرم . وسكينة بنت الحسين وكانت مولعة بالادب ومحبة للشعر ، فقد للشعراء مجالس يذوقون اليها ، ويتناشدون في حضرتها فتنسم اليهم ، وتنفذ ما يتظنون وتروي بعض اشعارهم ، وتشرح لهم فنونهم الشعرية وتفاضل بينهم . وكانت معاصرة لعائشة بنت طلحة اديبة عصرها يجتمع اليها الشعراء ويقارون امامها وكانت متغلبة على زوجها مصعب بن الزبير وكانت هي وسكينة تسميان عتياتي قريش ، حفظتا مكانة المرأة العربية في ذلك العصر ورفعتا مقامها وشأنها الى اسمى ما يتصوره الغزل . وكذلك اشتهرت ام البنين زوجة الوائد بن عبد الملك وكان لها نفوذ عظيم عليه ولها حديث طريف مع الحجاج الذي اشار على الخليفة ان يتخلص من نفوذها فاجتمعت به ، فعاتبته وابته ، حتى خرج من عندها وكان بطن الارض احب اليه من ظهرها . وكذلك ام الخير رابعة العدوية التي عرفت بصلاحها وعبادتها . وهناك كثير من شيرات النساء في هذا العصر لا يمكننا ذكرهن جميعا .

وقد اتخذ الامويون الارقة والخصيان في قصورهم ، وقد اقتبسوا هذه العادة من البيزنطيين وكان هذا مظهرآ من مظاهر الفساد في البلاط الاموي وكان لكثرة السبايا والاماء تأثير على البيت العربي لان الرجل يتزوج بمن شاء من السبايا سواء كان قد غنمهن في الحرب او اشتراهن بالمال فلم ترج الدم العربي بدم اجناس الالم المتنوعة فخرج من ذلك التزاوج جيل جديد يختلف بطباعه وتربيته ، واخلاقه عن الجيل الاول . وكان لبعض السبايا تأثير غريب على رجال ذلك العصر حتى انهن كن ذالمش الجديد فقيرن من خلقه وطبعه فسُغف بالهو والعبث ، وماكن عليه عقله فعلق بهن وخضع لسلطانهن . حتى لم يتخلص من ذلك بعض الخلفاء كيزيد بن عبد الملك وغيره وكان دخول الاماء الاجانب في البيت العربي عاملا من عوامل تدهور العرب .

الحياة الفكرية

لم يهتم العرب في صدر الاسلام بالعلوم والاداب ، لاشتغالهم بالحروب ، وفتوح البلدان وتنظيم ادارة الدولة ، وكانت معارفهم في هذا الدور ابتدائية تشبه معلومات العصر الجاهلي ، مع ما تعلموه من الاسلام من القرآن الكريم والسنة . فكانوا عارفين بالشعر والنسب ، وبقافة الامر وعلم الانواء والنجوم ، وبعض المعلومات الطبية العملية . وقد شجع النبي (ص) المسلمين على طلب العلم فقال : « اطلب العلم من المهد الى اللحد » وقال ايضا : طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة . وغيرها من الاحاديث التي تحض المسلمين رجالا ونساء على التعلم . وقد فرض النبي (ص) على فقراء امري

يبدو أن بعض كل من يحسن الكتابة منهم عشرة من أبناء المسلمين ، مقابل فاك أسيرهم . كما أن بعضه
 الراسخ بن سارة على نهج الرسول فلما فتحوا العراق جعلوا كثيراً ممن يفهم اللغة العربية من أهل
 الحيرة يعلموا المسلمين الكتابة والقراءة . وعند ما عدل إلى العصر الأموي نجد أن معارف العرب
 قد اتسعت وازدادت ، إلا أنها ظلت أولية ، وبقيت متروكة بعضها بعضاً ، ولم تستأثر العلوم إلا في
 العصر العباسي .

وسأذكر أهم علوم العرب في صدر الإسلام وفي العصر الأموي .

القرآن :

القرآن كلام الله ، أنزل على نبيه في نحو عشرين سنة ، بلغة قریش العربية . ترك تدويناً حسب
 مقتضيات الأحوال في مكة والمدينة . لذلك آياته على قسمين مكية ومدينة . وقد أنزل على النبي (ص)
 بطريق الوحي ، بواسطة جبريل . وقد حفظه الله سبحانه وتعالى من كل تحريف أو تبدل . وقد
 اهتم المسلمون كثيراً بحفظه بعد وفاة النبي ، وكانت مفرقة في الصحف التي كتبها كتاب الوحي
 والخطابة ومخفوظاً في صدر الحفاظ من المسلمين . وقد جمعت الصحف في زمن أبي بكر بصورة
 عمر بن الخطاب . وقام بحفظه زيد بن ثابت كاتب الوحي في زمن الرسول . فجمع ما كان مكتوب
 منه ودون ما لم يكن مدوناً ، وسلم هذه الصحف إلى أبي بكر ، فبقيت عنده حتى وفاته سنة ١٣ هـ
 ولما تولى عمر بن الخطاب الخلافة حفظت هذه الصحف عند ابنته حفصة زوج النبي (ص) . وفي
 زمن عثمان جمع القرآن بصورة نهائية وأدخ منه ستة مصاحف . بثثها في أربعة مناهل إلى مكة ،
 والبصرة ، والكوفة ، والشام ، وأبي وأحداهن المدينة . والحفظ بالآخر لديه وكانت يسمى
 « الامام » وأمر الخليفة عثمان بحرق جميع المصاحف والصحف الأخرى التي كانت قبل ذلك . وبقي
 القرآن الكتاب الموقر عليه فيما بعد من ناحية التشريع ، واستنتاج القوانين والاحكام الفقهية .
 ولذلك فقد اهتم المسلمون بتفسير آياته وتفهيمها ، ومعرفة أحكامها ، لينطبقوا في حياتهم وأحوالهم .
 وكانوا يتناقلون التفسير شتاءً إلى ثواخر القرن الأول وروى أن عبد الله بن عباس المكي سنة ٦٨ هـ
 وضع تفسيراً للقرآن . وأبى محمد الباقر كان له تفسير آخر . ولم تظهر التفسيرات المفصلة إلا في

العصر العباسي .

الفقه :

الفقه هو العلم الباحث عن الاحكام الشرعية الفرعية العملية من حيث استنباطها من أدلتها
 التي هي القرآن ، والسنة ، والاجماع ، والقواسم .

فانقرآن : هو الأساس الذي استند اليه التمرج الاسلامي . ثم تأتي السنة ائمة وهي العمل على ما قاله النبي (ص) أو فعله ، أو حدث امامه واستحسنه . أما الاجماع : فهو اتفاق المجتهدين من ائمة المسلمين في مصر من العصور على حكم من الاحكام . أما القياس : فهو اتفاق امر يأخذ في الحكم الشرعي لا يخاد بينها في العلة . وقد ظهر من الفقهاء في هذا الدور عبد الرحمن بن عوف وعبد الله ابن مسعود ، وزيد بن ثابت ، وابو موسى الاشعري وابو حنيفة النعمان وغيرهم من الفقهاء .
اللمة :

ان العلوم اللغوية في صدر الاسلام لم تكن الا منذ ايام نبي المصير الجاهلي . لان المسلمين كانوا مشتغلين في الفتوحات ، وتوسيع الاسلام في البلاد التي فتحوها . هم تحدث علوم جديدة في اللغة وكل ما طرأ على اللغة في هذا الدور مقتصر على ما احسنه القرآن الكريم والحديث الشريف من توحيد الالهيات ، وتهذيب اللغة ، وزيادة مادتها بالفاظ نشأت ولم يكن العرب يعرفونها ، واخرى عرفت بزمان ، فحدث بها معاني جديدة : كالؤمن والكافر ، والمنافق ، والصلاة ، والصيام ، والزكاة وغيرها ...

ولما انتقلت الخلافة إلى الامويين تابعوا عمل الخلفاء الراشدين في توسيع الفتوحات الا انهم جعلوا من الخلافة ملكا ، فعربوا الدواوين واحدثوا ديوان الرسائل ، واختلطوا بالاعجم ، فكان من ذلك تجديد في الحياة لا بد للغة من أن تتسع معه ، وتمتد فتنهض بمقتضيات هذا التجديد ، مستحدثاته ولذلك ظهر في اللغة كلمات جديدة والفاظ سائدة ، في جميع نواحي الحياة ، في أنواع الأسلحة ، والملابس والمآكل ومصطلحات الدواوين . كما كان لاختلاط العجم مع العرب في المصارف والتجارة والشرى ، أن طرق الخلل إلى لسان العرب وأخذت تفسد في سلبقتهم اللغوية وظهر اللحن ، وفشا في الامصار ، وتمدى الاعجم وابنامهم إلى العرب الخالص ، لكثرة ما كانوا يسمعون من الخطأ ففسدت ملكاتهم . فقام العلماء يصفطون هذه اللغة فمشتت العلوم اللغوية التي ظهر منها في صدر الاسلام والعصر الاموي عم النحوي .
النحو :

النحو هو أول العلوم اللغوية التي ظهرت في الاسلام ، ويقال إن أول من فكر فيه علي بن ابي طالب ولحقه لا في الاسود الدؤلي المتوفي سنة ٦٧ هـ . ثم اخذته عن ابي الاسود جماعة التفوا حوله ونسجوا على منواله ، وزادوا على ما جاء به ، واكثروا بصر يوت لأن مدرسة البصرة سبقت مدرسة الكوفة بثلاثة سنة تقريبا في درس هذا العلم ، ونشأ بين هاتين المدرستين مناظرات واختلافات في

وظهر بعد اى اسود الخط لى مع ذلك اى المصطفى من احمد وهو اول من وضع مصحفاً عربياً
 بكتاب العيون ، والى به نسب اصحاب التراجم استنبط كورالهم واحول الموهوب كما يفتخرون الى
 تليده "سببوت" وضع اول مصنف من سببوت في الموهوب باسم الكتاب
 الاعراب والادب . ولعل سبب ظهور النحوي في العراق قبل بقية الاقطار لا يتراج المعجم بالعرب في
 هذا التطور واختلاطهم بهم قبل ان يحصل . بل هذا التراجع في بقية الاقطار ولذلك كانت ضرورة
 ضبط اللغة حاجة ماسة لا بد منها . واستنبط العلماء قواعد النحوي على ما يظهر من لغات الاجنبية
 كالبنانية والسريانية . فضبط المفتوح من الحروف بسطة واحدة فوقه ، والمكسور بنقطة واحدة
 تحته ، والمضموم بنقطة بين يدي الحرف ، وزنه الساكن بدون نقط . وكانت هذه النقط عوضاً
 عن الحركات من فتحة وكسرة وضمة وسكون ، التي حلت محل النقط فيما بعد . ثم اخذت بقية
 الحركات تطور بالتدريج في العصر الاموي والمصور التي تلتها .

الحياة الادبية

كانت الحياة الادبية في صدر الاسلام مشرقة بالقرآن الكريم ، والحديث الشريف ، وذلك لان
 العرب التفتوا للدرس القرآن وفهمه وحفظه ، كما فعلوا ذلك بالحديث ايضا . وكانوا يرسمون خطيبهم
 ورسائلهم بآيات القرآن ويملون فيها الى الابدان ، كما كانت اشعارهم فيها بعض الانقط والمساكن
 الاسلامية التي تحت في الجنة والنار والحساب والعذاب والبعث والقيوم وما لا يحده في الشعر الجاهلي
 الا ان هذا التطور الذي حصل في الحياة الادبية ليس معناه القضاء على الاساليب والانواع القديمة
 التي كانت متبعة في العصر الجاهلي . وانما هو تطور اقتضاه الاسلام ومعالجه الجديدة .

ولما جاء العصر الاموي : تغيرت الحالة تغيراً ظاهراً في الحياة الادبية نظراً لدخول عوامل جديدة
 في الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية . فظهرت في الحياة السياسية احزاب مختلفة تعالاب
 باللامعة ونشأ عنها ثورات داخلية . فكان شعراء كل حزب يدعمون حزبهم بقصائد واشعار كثيرة
 كانت تقوم مقام الصحف في زماننا هذا . وسال الخلفاء الشعراء بالمال ليدعوا ساطعهم ويشيدوا
 بمناعة ملكهم وينكروا بفسادهم ومخالفاتهم . كما تغيرت الحياة الاجتماعية : بما افاء الله على العرب من
 أموال وثروات وأرقاء وحراري . فارتقت بذلك الحياة العربية من حياة البداوة الى مستوى الحضارة
 فنشأت في ظل هذه البيئة الجديدة فنون من الشعر والادب لم تكن موجودة من قبل . وكذلك
 تطورت الحياة العقائدية بما اخذه العرب من حضارة الاقوال التي ظاهرها ، فلو ذلك في عقائدهم ونظم
 ادارتهم ونوعهم مما يشغل الناس في شعرهم وشعرهم .

الثمر :

جاء القرآن الكريم نورا لامعاً وهذا ما تقوى الشعر في المصور الاسلامية وجعل الله له

يهتمون به أكثر من قبل وكانت هناك عوامل شتى ساعدت على رقي النثر منها حاجته الخلفاء والأمراء إلى الخطابة في المسلمين في كل جمعة وفي كل مناسبة يقتضها منصبهم الديني والسياسي . فكانت الخليفة يلقي خطاب العرش عند تسلمه سدة الخلافة ، ويأتي خطبة في كل جمعة في المسجد . وكان الأمراء يقومون بنقل هذا العمل في ولايتهم . وكان القواد يخطبون بالجند قبل بدء القتال ، فنشأ من ذلك نوع الخطابة ولزدها روعا . وكان الانتشاء في أكثر هذه الخطب متين العبارة ، حسن السبك ، شديد الأسر ، موجزا مع شيء من الإطناب في التفاصيل التي تقتضي الإطناب . ومع أن أجزاء الخطب لم تكن مرتبة منطقيا . فقد كان وقعها في أغلب الأحيان عظيما .

ونما ساعد على رقي النثر أيضا طبيعة الخلافة الأموية التي إنشأ ديوان الرسائل ، الذي أوجد نوعا من النثر لم يعرفه العرب . ولم يكن لهم به عهد ، وهو ما يدعى « النثر الفني » ويقصدون به تلك الرسائل التي كانت تحرر باسم الخليفة وتصدر إلى ولايته وعماله في الأقاليم في شؤون الدولة . وشهد آخر العصر الأموي نثر من الكتاب الذين خدموا في هذا الديوان وبرزوا فيه ، وأعظمهم عبد الحميد الكاتب ، زعيم الكتاب ووضع أصول الكتابة وقواعدهما . كتب مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين ، وقد حفظت عنه رسائل كثيرة ، ويلاحظ في هذه الرسائل شيء من تطور النثر في ذلك العصر ، ولعل أثر ما في هذا التطور أمران : أولهما طول الرسائل ، وثانيهما طول الجمل ، وكثرة الترادف . والمطلف فيها .

ولعل أثر خصائص فن الرسائل في هذا العصر متانة التركيب ، وشدة الأسر وحدة الدائقة ، وتكوين المعاني بأسراده جميل مكافئ تكون متقاربة في مدلولها ، ومترادفة في معانيها ، وإيثار التأنيل وعدم تكافؤ الجمع .

الشعر :

شجع الخلفاء الأمويون الشعراء ، وقربهم إليهم وأعطوهم العطايا الوافرة . ولا يوجد خليفة أموي سوى عمر بن عبد العزيز من لم يكن له شاعر أو أكثر مقرب إليه ويدافع عنه ، حتى أن خلفاء بني أمية كانوا الشعراء يجيئون قول الشعر وهم رثي في زيده وفريقه ، وقد كان لرغبة هؤلاء الخلفاء في قرض الشعر ومثاقبه وقدرتهم على فهمه وتقدمه ، وتقديرهم إياه في رده وتشجيعهم الشعراء ورعايتهم لهم وإحسانهم إليهم بأجزل العطاء ، كان لهذا كله أثر كبير في تقدم الشعر ورواجه وانتشاره وإقبال عامة الناس عليه .

وقد الأمراء والقواد والأمراء الخلفاء في تشجيع الشعراء وإسراع النعم عليهم ورعاية الأدب ،

حتى وإن يكون منهم أدباء وشعراء ، وانتقل الشعر الى صفوف العامة من مختلف الطبقات رجالاً ونساء ، وعقدوا له الحلقات والمجالس في مختلف المواضع التي كانوا يجتمعون فيها ، وفي شتى المناسبات فنشأوا في المساجد ، وهو يساعده في رحلاتهم وأسفارهم ، ومواسم حجهم وبناتهم ، حتى كانت تعقد حلقات خاصة للشعر في العتيق (١) والمريد (٢) وفي غيرها من الأماكن ، وما أسرع ما كان يبر هذا الشعر على الألفاء ، وما أسرع ما كان ينشر ويذيع في الأقاليم ، فلا يكاد يفرغ من نظم الشاعر حتى تتناقله الركب وتسير به الى أقصى البقاع التي استولى عليها العرب .

وكانت الخصومة الأدبية تقوم بين الشعراء ، ويقومها انقسام العرب الى قيسيين وبنانيين ، وخصومات بين الأقطار والأقاليم وعداوة بين الأحزاب المختلفة من شعبة علي بن أبي طالب ، وحزب الأمويين والخوارج والزبيريين وغيرهم من الأحزاب الدينية والسياسية ، وانف حول كل حزب شعراء يذودون عن حياضه ، ويردون على خصومهم . فكان الاختلاف مثلاً يدافع عن بني أمية ، وعبد الله بن قيس الرقيات يقاتل عن الزبيريين ، وقطرب بن الفجاءة يمثل حزب الخوارج ، والكثير ابن زيد الأسدي من شعراء الشيعة . وهكذا فلكل حزب شاعر أو شعراء يدافعون عنه ويشرعون آرائه ، ويدعمون سياسته . فكانت هذه الأشعار تؤقد الفتن وتزيد في حدتها وشدتها . إلا أنها من ناحية ثانية تصور لنا ذلك العصر أحسن تصوير فهي تدل على الكمال من أراء دوس الحياة الأدبية والسياسية والاجتماعية في العصر الأموي .

(١) العتيق : وادي قرب المدينة يبعد عنها نحو ميلين أو ثلاثة من الجهة الجنوبية الغربية . وتحدو اليه السيول الهابطة من الجبال حوله ، فتجد فيه نهراً . فعند ما يسيل العتيق يخرج أهل المدينة فيجتمعون بمنظرة الميج وينفرد بعضهم يستحم بمائه ، ويعقد البعض الآخر حول ضفافه وعلى بساط رياضه حلقات الناس والطرب . فيستشرون الشعراء فيشددونهم من شعرهم ، ويلتزمون الملقين فيمتدحونهم من غلب أنظامهم . ويؤوي بعضهم تحت نخيله للبر . . .

(٢) المرید : محلة في البصرة ، والأغلب أنها كانت موضع سوق الأبل ثم عادت سوق أدب أهل العراق . فكان الشعراء يجتمعون في ساحته ويتنافرون وينهاجون ويتفاخرون ، وكان يحضر مجالسهم هذه جماعير من الناس تستمع الى اقوالهم ، وكان المستمعون ينقسمون فيما بينهم فيميلون فريق مع شاعر ويميل الفريق الآخر مع شاعر آخر وقد يجوز ان يكون بينهم شعراء فيمينون احد المجارين والآخرين على خصومه .

العلوم النظرية والاعمال

التاريخ :

كانت العرب منذ جاهليتهم يحفظون الحوادث الخطيرة التي تقع عليهم وينساقون بها بالرواية الشفهية جيلاً بعد جيل ، كانهندهم سد مأرب ، وهجرة النبائل القحطانية واليم العرب ، وكانوا يحفظون انسابهم ، فجميع هذه الاخبار كان يشكل التاريخ .

ولما جاء النبي (ص) ورغب المسلمون في تعصي افواه واقواله ليقبضوا بها ، فكان من ذلك عييل خاص هو علم الحديث . وفي هذا العلم ساد في زمن الخلفاء الراشدين نظراً لشدة حرصهم بالاعتناء باقوال النبي واقواله . ولكن في المسلمون في هذا الدور يفتقرون الاحاديث والاخبار بطريق الرواية الشفهية . ولم يدون المسلمون احاديث النبي (ص) واخبار الفتوحات الاسلامية الا في زمن الدولة الاموية ، لانهم كانوا قبل ذلك يعمرون التاريخ ، فليس يمكن لهم مجال تدوين اعمالهم ، وكان التدوين في زمن الامويين في خطاه الاولى ، حتى ان الذي تدون في العصر الاموي لم يساند كما دون لرغبة العباسيين في طمس التاريخ الاموي ، ولذلك ضاع معظم ما كتب في ذلك العصر ، ولم يبق منه إلا البقية الباقية الموجودة في الكتب التي وضعت في العصر العباسي .

أما اسباب وضع التاريخ فثلاثة منها :

- ١ - رغبة الافراد في حفظ تاريخهم ومعرفة الحوادث المهمة التي تمر بهم .
- ٢ - رغبة المسلمين في حفظ اعمال النبي (ص) واقواله .
- ٣ - رغبة العرب في حفظ انسابهم العربية والاسلامية . لا سيما بعد ما من الخليفة عمر بن الخطاب نظام العطاة من بيت مال المسلمين للافراد بحسب قرابته للنبي واسبقيتهم في الاسلام وجلالهم في الجهاد .
- ٤ - رغبة بعض الخلفاء الامويين من سماع اخبار الامم المساندة ، لاسباب معاوية الذي كانت شغواً بسماع اخبار ملوك الامم القديمة .
- ٥ - العاطفة القومية عند العرب التي نشأت بعد قيام الفرس بحركتهم الشيعية واتخاذهم عليكم الماسخي .

أما انواع كتب التاريخ العربي فهي :

اولاً : كتب السير والتراجم والعلقات : وهي السير التي كتبت في هذا الدور هي سيرة النبي (ص) كالسيرة التي كتبها عروة بن الزبير المتوفى سنة ١٠٥ هـ وهو هو القدم من تلك في السيرة النبوية . وكذلك سيرة ابن بن عثمان بن عفاة المتوفى سنة ١٠٥ هـ التي جمعها له تلميذه يزيد الرحمن بن المغيرة . وكانت

أخبار هذه السيرة تفصل بتاريخ السعد الفاسل ، حتى نرجع الى زمن النبي (ص) وكاف المساهمة لمعرفة صحة السيرة عظمية ، فنبأ من ذلك علم خاص وهو علم التصريح والتعديل ، ومن ذلك فئات كتب خاصة عن طبقات المهديين لمعرفة ثقة كل رجل من العلم ومكانته في هذا العلم ومقدار إمكان الأخذ عنه .

ثانياً : كتب الفتوح والمغازي : وهي الكتب التي تبحث عن الحروب التي تمت في عهد الرسول بصورة خاصة . وتفيد في معرفة معاملة أهل البلاد المفتوحة ، لأن طريقة معاملتهم تختلف بحسب قوتهم للبلد بالحرب أو بالمفاوضة والسلام . ككتاب ابن شهاب الزهري المتوفى سنة ١٢٤ هـ في المغازي وكتاب موسى بن عبيدة المتوفى سنة ١٤١ هـ في المغازي أيضاً . وكتاب ابن اسحق المتوفى سنة ١٥١ هـ وغيره ...

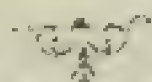
ثالثاً : الرسائل والمؤلفات الخاصة : وهي رسائل تبحث في موضوع خاص له أهميته في تاريخ المسلمين ، وله أثره في حياتهم كبيعة أبي بكر الصديق وقتل عثمان بن عفان ، وواقعة الجمل وسفينة وغيرها . وقد كتب في هذه المواضيع أبو مخنف وحشام الكوفي . وقد ضاعت هذه الرسائل ولم يبق منها إلا تنق بسيرة في الكتب العامة . لا سيما في كتاب ابن جرير التاريخي . وقد حدث أنواع أخرى للتأليف التاريخي في العصر العباسي .

الطب والكيمياء :

كان الطب عند العرب في صدر الاسلام عملياً ، أي أنهم نتيجة تجاربهم عرفوا بعض أنواع الأمراض وعلاجاتها . ولما قامت الفتوحات الإسلامية واختلط العرب بغيرهم من الأمم المجاورة ، أخذوا عنهم بعض المعلومات الطبية ، واشتهر من الأطباء في زمن النبي (ص) الخارث بن كندا الثقافي وابنه نصر من بعده . وبروى عن الخليفة خالد بن يزيد الأموي أنه عمل على نقل بعض الكتب الطبية اليونانية الى العربية ، وكان عمله فريداً من نوعه لأن بقية الخلفاء الأمويين لم يهتموا بهذه الناحية ، ولم يتابعوا عمل خالد .

كذلك انصرف خالد الى علم الكيمياء والنجوم . ويقول ابن النديم في كتابه الفهرست : إن الذي عني في إخراج كتب القدماء في الصنعة هو خالد بن يزيد بن معاوية ، وهو أول من ترجم له كتب الطب ، والنجوم والكيمياء . وله عدة كتب ورسائل فيها . وينسب الى خالد ديوان شعر في الكيمياء ، يصف فيه عملية التقطير والتكليس يوسف جميل . ولم تزدهر هذه العلوم وتدرس بصورة واسعة إلا في العصر العباسي .

المغلاصة : ان العرب في صدر الاسلام والعصر الاموي قد تطوروا قليلا في سلم الحضارة ، فكان اهتمامهم اولا بالعلوم القرآنية واللغوية . ثم بدأوا يميلون بالعلوم العقلية والعقلية . وكانت تعاليمهم في الاكثر مستمدة من القرآن والحديث . ولم يكن للاستنباط العقلي عندم إلا الحفظ القليل . إذ كان نشاط العرب العلمي في هذا الدور منحرفاً الى الناحية الشرعية واللغوية ، قد رسوا لغتهم ، وفهموا دينهم وقاموا بشعره في البلاد التي فتحوها . ولم تكن العلوم قد استقامت بعضها عن بعض ، فكان الشخص الواحد قارئاً ومفسراً ومحدثاً وفقهاً وراويّاً للاخبار والشعر والأدب . ولم تستقل هذه العلوم بعضها عن بعض ، وتتشكل البحوث الاختصاصية وتدون إلا في العصر العباسي .



الباب الثالث

حالة أوربا في زمن التحول الروماني

الامبراطورية الرومانية :

لا يستطيع احد ان يقدّر القرون الوسطى ، إلا أن يعرف شيئا عن حالة الامبراطورية الرومانية التي ظهر في ضمن حدودها انبراسة الجرمن ، ونشأت بعد تطور طويل دول أوروبا الحالية . لم يكن حكومات مستقلة في أوروبا كما نشاهد اليوم على المصورات الجغرافية في مطلع القرون الخمس ميلادي . فجميع البلاد التي تشكل اليوم انكلترا ، وفرنسا ، وإسبانيا ، وإيطاليا ، كانت تملك واسعة النطاق خاضعة للامبراطور الروماني وولائه . وكانت بلاد الجرمن ، مقاطعة ملوكة بالغايات يسكنها أقوام متوحشون . حاول الرومان - دون جدوى - الاستيلاء على بلادهم ، وأخيرا اكتفوا بمنع هجمات الجرمن بتحصين الحدود وبناء القلاع ، ووضع الحاميات على امتداد نهر الرين والدانوب .

وكانت حدود الامبراطورية الرومانية تمتد على جنوبي وغربي أوروبا ، وغربي آسيا والقسم الشمالي من أفريقية . وتضم مختلف الشعوب والاجناس من مصريين وعرب ويهود ويونان وجرمن وغالين وبريطانيين وإيرين ، وكلهم خاضعون لسلطة رومة . وقد ورثت هذه الامبراطورية الكبيرة حضارة أثينا والاسكندرية وإفلاكية وقرطاج ، وسواء عاش الانسان في انكلترا او في بيت المقدس او في قرطاج او فينا ، كان عليه ان يدفع ضريبة خراج رومة ، وان يخضع للقوانين الرومانية ، وتحمي من قبل الجيش الروماني .

وللنظر الأولى لا يصدق المرء ان مثل هذه الامبراطورية العظيمة التي تضم على بعض شعوب إفريقية ، وآسيا ومعظم شعوب أوروبا على اختلاف درجة حضارتهم ان تبقى متمسكة مدة خمسة قرون قبل ان تقضي عليها هجمات البرابرة . وتؤسس في ضمنها ممالك متعددة . ويمكننا ان نعالق واحدة هذه الامبراطورية الى الامور التالية :

- ١ - نظام الحكم المطلق ، الذي ينفذ الى جميع اجزاء الامبراطورية دون ان يفوته جزء منها .
- ٢ - عبادة شخص الامبراطور الذي تمثل في الدولة .
- ٣ - تطبيق القانون الروماني في جميع اجزاء المملكة .

- د — المرافق المعبدة المنتشرة في جميع أنحاء الامبراطورية ، ونظام التقعد الموحد الذي يشجع على المبادلات الاقتصادية . ووحدة الاوزان والقياسات في جميع البلاد الرومانية .
- هـ — المعلمين الذين ترسلهم الحكومة لتوحيد الثقافة ونشرها بين صفوف الشعب الروماني . وكان يظن ان هذه الامبراطورية الرومانية ستبقى الى الابد .

سقوط الامبراطورية الرومانية

- لماذا سقطت هذه الامبراطورية القوية امام غارات البرابرة المتفرقة ؟
- ان الجواب على مثل هذا السؤال صعب جداً . ولكن اعل ذلك يعود الى ان سكان هذه الامبراطورية اضعفوا بالتدريج قوتهم ووحدةهم ، وأصبحوا اقل نجاحاً مما كانوا عليه ، ولعل يمكننا تحليل اسباب هذا السقوط بالامور التالية :
- ١ — نظام الضرائب الجائر الذي اقل كاهل جميع الطبقات حتي الغنية منها ، وذلك لسد نفقات البلاط .
- ٢ — نظام الرق الذي انزل اجور اليد العاملة ، وانقص العمل في وجه العمال الاحرار لرخس اجور الارقاء وكثرة عددهم ، فكان الفقير في رومة من لا يملك عدة عبيد ، اما الغني فيملك عدة الالوف منهم .
- ٣ — سوء انتاج الارض ، والحفاظ محصولها بسبب قلة خصبها .
- د — تسرب البرابرة الى البلاد الرومانية الذين سهلوا الطريق لاختوانهم فيما بعد لاكتساح القسم الغربي من الامبراطورية الرومانية . وقد استعان الابطرة الرومان هؤلاء البرابرة في جيوشهم ليفتقوا على حدود الامبراطورية ، ويمنعوا اختوانهم الجرمن من الدخول الى بلاد الرومان . وكان يوليوس قيصر اول من استخدمهم في جيشه ، وهذا حذوه من جاء بعده من الابطرة ، حتى صار استخدام الجرمن في الجيش الروماني امرأ عادياً . وكنت ترى جيوشاً رومانية بكاملها مؤلفة منهم ، حتى ان بعض القبائل الجرمانية كانت تنضم بكاملها الى الجيش الروماني وتبقى تحت قيادة رؤسائها . ونشع من هؤلاء الجرمن بعض القواد ، وتلك بعضهم وظائف كبيرة في الجيش وفي الحكومة . وبهذه الصورة صار عدد عظيم من سكان الامبراطورية الرومانية من الجرمن قبل غارتهم الكبرى على البلاد . فخرجوا من نساء الرومان وعرفوا مواطن الضعف في الامبراطورية وسهلوا الطريق لاختوانهم فيما بعد لاجتياح الامبراطورية الرومانية .

قبائل الجرمن

الجرمن : هم الاقوام الذين كانوا يسكنون الاراضي الواقعة بين نهري الرين والفيسل ولما بين

بحر البلطيك ونهر الدانوب . وهم قبائل كثيرة العدد يقسمون الى ثلاثة اقسام :

اولاً : الجرمن الغربيون . - ومنهم الفرنك واللمان والسكسون ...

ثانياً : الجرمن الشماليون . - ومنهم القانجباركيون وسكان اسكانديناوية ...

ثالثاً : الجرمن الشرقيون . - ومنهم القوط والاندال .

وجميع هؤلاء الجرمن من اخلاف متتارية ، ومن اشكال متشابهة . فهم طوال القامة ، بيض البشرة ، حمرة الوجوه ، شقر الشعور ، زرق العيون ، يكتسبون مجلود الحيوانات او يابسون نسيجاً من الصوف ، واغنياؤهم يابسون قصافاً وسراويل صيفة . ولباس نسائهم كلباس الرجال الا انه اوسع منه . وأما الاولاد فهم عراة تقريباً .

وكان الجرمن يعيشون قبائل مستقلة لهم رؤساء يديرون امورهم ويحكمون بينهم ، وكانوا مولعين بالحرب والخر والميسر . وكانوا ثلاث طبقات : الاشراف والعامه والعبيد . وكانت قراهم مؤلفة من أكواخ غريبة من الاساس والقرش ، محاطة برية الموائج : من غم وقبر وخنازير . وكانوا مولعين بصيد الحيوانات المفترسة . وكانوا يزرعون الشيلم والدوفان ، ونساقوم بفزلي وينسجن الملابس . وكان سلاحهم السيف والرمح والقوس والنبيل . واداء ذهبوا الى الحرب كانوا يأخذون نسائهم واطفالهم معهم ويضعونهم في عجلات كبيرة . وكانوا يبعدون قوى الطبيعة من اشجار واحجار ونجوم . وكانو يعتقدون انها تسكن السهول وقمم الجبال والصحاري . ولم يكن عندهم كنهنة ولا رجال دين . واخذوا يعتقدون المسيحية في القرن الرابع ميلادي عندما ترجم احد القوطيين الكتاب المقدس ونشر المسيحية بينهم .

هجمات البرابرة وانقسام الامبراطورية الرومانية

كانت محاولات الجرمن German قبل سنة ٣٧٥ م للدخول في بلاد الامبراطورية الرومانية تعود لهم للعقارة . واملهم في كسب حضارة الرومان ، والافتاس في نعيمها ، او اكتسب اراضي جديدة لتزايد عددهم في بلادهم ، وكان الرومان يمنعون هؤلاء البرابرة من الدخول لبلادهم بواسطة جيوشهم وحصونهم وحامياتهم . وقد حدث ان جاءت قوة جديدة من قبائل الهون Huns (وهي قبائل مغولية من اواسط آسيا) دفعت القوط نحو الامبراطورية الرومانية . (وهؤلاء القوط Goths من القبائل الجرمانية التي كانت تسكن الضفة العليا لنهر الدانوب) . فاجتاز بعضهم نهر الدانوب والتجأ الى الامبراطورية الرومانية . فصددهم الجيش الروماني وجرت معركة عظيمة عند أدريه Adrianople سنة ٣٧٨ م تطلب فيها القوط وقتلوا الامبراطور الروماني فالتر Valnes .

دخل الجرمن لرض الامبراطورية ، وعرفوا انهم يستطيعون التناوب على الحياوش الرومانية .
وكانت معركة « ثورنة » مبدأ اكتساح القسم الغربي من الامبراطورية الرومانية من قبل الجرمن .
واستمرت الغارات بعد ذلك فبعد عدة سنوات من هذه المعركة جاءت جموع من قوط الغرب Visigoths
وقبلت شروط المعاهدة التي قدمها رجال الامبراطور ، وانضم بعضهم الى الجيش الروماني .

أما الاريك Alaric احد قواد الجرمن ، فم قبل ثلاث المعاهدات ، فجمع جيشاً غزواً كانت
نواته من قوط الغرب (الفيزقوط) وهاجم إيطاليا ، واستولى على رومة سنة ٤١٠ م ونهبها رجاله .
وكان عجب الاريك من الحضارة الرومانية عظيماً ، لذلك امر جنده ألا يغربوا المدينة ، ولا يهدموا
فيها أضراراً ولا يتعدوا على الكنائس او بيوتها . وبذلك نجت رومة من الخراب . ومات الاريك
قبل ان يوطد جذره في إيطاليا أرضاً يسكنها ، لذلك انتقل قوط الغرب الى غاليا - أي فرنسا - Gaul
ثم الى اسبانيا ، وكان يسكنها من قبل بعض القبائل البربرية . ومنهم الفاندال Vandals والسويف
Suevi الذين اجتازوا نهر الرين ومسكوا غاليا قبل فتح الاريك لروما بأربع سنوات . وقد طأوا في
البلاد فساداً وخراباً . ثم اجتازوا جبال الپيرنة ودخلوا الى اسبانيا . وعندما وصل قوط الغرب
الى اسبانيا ، عقدوا صلحاً مع الرومان ليتفرسوا لمحاربة الفاندال . فعادروهم وكسروهم مما جعل
امبراطور الرومان ان يمنحهم سنة ٤١٩ م أرضاً واسعة في غاليا ، حيث أسسوا مملكة قوط الغرب فيها .
وانتقل الفاندال بعد عشر سنوات الى افريقية ، وهناك أسسوا مملكة سادت غرب البحر المتوسط
جميعه ، وحل محالهم في اسبانيا قوط الغرب الذين تغلبوا بقيادة ملكهم Euric (٤٦٦-٤٨٤ م)
على معظم شبه جزيرة ايبيرية . واصبح ملكهم يحده من نهر الالار حتى مضيق جبل طارق . وقد
حارب العرب عند فتح بلاد الاندلس الفاندال ، وتغلبوا عليهم واستولوا على شبه الجزيرة منهم . وقد
اطلق اسم « اندلوسيا » على القسم الجنوبي من شبه جزيرة ايبيريا . ثم شمل هذا الاسم شبه الجزيرة
بأكملها .

ولا فائدة من تتبع حركات البرابرة وانتقالاتهم التي حصلت في القرن الخامس ميلادي . لانه لم
تبق قطعة ارض من اوروبا من خطرهم حتى برغالوسيا التي اجتاحتها قبائل من الجرمن وهم
الانسل Angles والسكسون Saxons . الذين التفتوا مع بعضهم فيما بعد وشكلوا العرق
(الانسكوسا كسون) ، واحاط اسم انسلتوا على الارض التي سكنها قبائل الانسل ، وكانت هذه
القبائل متوحشة ونائية في بادئ امرها كبقية القبائل الجرمانية التي تقدم ذكرها . إلا أنهم اعتنقوا
الديانة للمسيحية عندما ارسل لهم البابا ميثرون مدعوهم للدين المسيحي .
واضيف الى الاضطراب الذي عم اوروبا بسبب دلتيان البرابرة الجرمن مجيء الهون

مرة ثانية الى غربي اوريا بقيادة ثيسم اتيل Allila الذي اجتاح غاليا ، وملا غرب اوريا وجدا .
 إلا ان الرومان والجرمن اتفقوا عليه ، وغلبوه في معركة شالون Châlons سنة ٤٥١ م . فسار اتيل
 بعد انهزامة الى ايطاليا ، وحلق الرعب فوق سماء رومة ، إلا ان البابا ليو الكبير Leo the great
 اتخذ الموقف بان يستأله اليه ، ومات اتيل بعد سنة وبنوه زال خطر الهون عن اوروبا بصورة نهائية .

تعريف القرون الوسطى

انتهت سنة ٤٧٦ م بسيرة عامة ، تاريخ سقوط الامبراطورية الرومانية الغربية . والجدد
 القرون الوسطى . وقد حدث بعد موت ثيودوسيوس الكبير Theodosius The Great في
 سنة ٣٩٥ م ان اوصى بان تقسم ادارة الامبراطورية الرومانية بين ولديه . وبعد انقسامها الى على عرش
 القسم الغربي من الامبراطورية حكم ضعاف ، وكان البرابرة في هذا الزمن يجتاحون هنا وهناك كما
 يريدون ، وكانت فرق الجيش المؤلفة من الجرمن ، والتي كانت بخدمة الامبراطورية الرومانية الغربية
 تنسحب بجزل وتعيين البطرة كالمعب بلديهم . وفي سنة ٤٧٦ م طلب جنود الجرمن المرتزقة الذين كانوا
 في الجيش الروماني بان يغسلوا نبت اراضي ايطاليا . وعندما رفض طابعم عاقب قائدهم اوداكر
Odoacer العنقل الصغير المنسوب لامبراطور على القسم الغربي من الامبراطورية (وكان اسمه البرابرة
القدر روموقوس الصغير ، كاسم مؤسس روما الاول) بنفيه الى قصر بقرب مدينة نابولي . وارسل
 (اوداكر) الى امبراطور بيزنس (وهو اسم الامبراطورية الرومانية الشرقية) وعيّن بذلك خليفة
 لها (بيزنس) يسأله ان يحكم ايطاليا باسمه ، بالنيابة عنه فوافق على ذلك . وتم بذلك انقراض
 امبراطورية رومة الغربية سنة ٤٧٦ م بعد ان عاشت نحو الف سنة ، وظل قياصرة بيزنطة يتكلمون
 في القسطنطينية نحو الف سنة اخرى ، إلى ان سقطت امبراطوريتهم على يد الماعظ محمد الفاتح
 العثماني سنة ١٤٥٣ م . وفي هذه السنة انتهى المؤرخون نهاية القرون الوسطى ، وبدأ عصر
 جديد وهو القرون الحديثة .

قوط الشرق Ostrogoths أصبحت ايطاليا منذ سنة ٤٧٦ م بيد اوداكر فاختل تنظيم شؤونها
 ونهض بالبلاد من كيونها ، وعاد الرعب الى ايطاليا . إلا ان اوداكر لم يتمكن من الشااملة جرمانية
 في ارض ايطاليا ، وذلك لان عدوا جديداً هاجمه ، هو ثيودوريك Theodoric ملك قوط الشرق
 (استروقوط) وكان هؤلاء يسكنون واسط حوض الدانوب ، وقد خضعوا لقبائل الهون ، واشترى هؤلاء في
 انتصارات اتيل وعزائمه ، ولما عادوا من الغرب ، سكنوا شمال البلقان وشرقي بحر الادرياتيك
 وكانوا يهاجمون الامبراطورية الشرقية ويهددون عاصمتها من وقت لآخر . ونهضي ثيودوريك عشرة

سنوات من سباه في القسطنطينية. ومنحه امبراطور القسطنطينية القاب شرف متعددة ليستعمله اليه
 ومنح شعبه اراضي واموالا كثيرة ، وشجبه على غزو ايطاليا ليتخلص منه ومن شعبه فقبل ان
 يذهب وان يفي تايماً له ان انقصر على اوداكر الذي كان يحكم ايطاليا فذهب وجرت بين الطرفين
 معارك حامية امتدت عدت سنوات . تمكن ثيودوريك اخبرامن التغلب على عدوه وقتله بيده سنة ٤٩٣ م .
 واخذ ينظم شؤون ايطاليا ، واستفاد من حضارة الرومان الفائرة وتعاون مع اهالي ايطاليا في اصلاح
 بلادهم وتحسين حالتهم فبيد الطرق ، وجفف المستنقعات ، وقهر العدل والامن بتطبيق القانون
 الروماني في البلاد ، وشجع الزراعة والصناعة والتجارة ، وسك عملة جديدة وضع عليها اسم
 الامبراطور البيزنطي وكان ثيودوريك حر التفكير ومنساعفا في شؤون الدين ، حتى قال لا نستطيع
 ان نحكم في قضايا الدين ، لانه لا يمكن ان يجبر انسان على ان يعتقد خلاف ارادته ، وبهذه
 الطريقة ارضى البابا وسكان ايطاليا بالرغم من انه وقيسته واكثر الشعوب الجرمانية كانت تتبع في مذهبها
 تعاليم اريوس Arius (١) وكان له نفوذ كبير في غربي اوروبا ، وذلك لانه تربطه ثلاث المصاهرة
 والمخالعة مع اكثر القبائل الجرمانية . ولكن ملكه تبدد بعد موته سنة ٥٢٦ م وذلك لعدم وجود
 وارث له . والخلاف الديني الذي نشأ بين قومه وبقية سكان ايطاليا . فانضمت ايطاليا لحكم جوستينيان
 (٥٢٧ - ٥٦٥) م امبراطور بيزنطة وظلت طيلة حياته تابعة له ، وبعد موته هاجمها قبائل المبارديين
 قبائل المبارد : كان انقراض مملكة قوطا الشرق من ايطاليا وبالا على البلاد لان قبائل جرمانية
 متوحشة وهم المبارديون هاجموا المقاطعات الواقعة في شمالي نهر (البو) والتي سميت منذ ذلك الزمن
 حتى وقتنا هذا باسمهم . ثم توسعوا في فتوحاتهم نحو الجنوب ودخلوا في شبه الجزيرة فساداً فخرّبوها ،
 ونهبوها وقتلوا كثيراً من سكانها ، الا انهم لم يتمكنوا من الانبلاء على جميع اقسامها ، فقد ظلت
 رومة وجنوبي ايطاليا والجزر التابعة لها بعيدة عن خطر هؤلاء ، وتابعة للامبراطورية البيزنطية
 ولم يلبث ان تخضر المبارديون ، وهذا توحشهم نتيجة احتكاكهم بالسكان الاساليين واعتنقوا النصرانية
 وبقيت مملكتهم في ايطاليا نحو مئتين سنة ، الى ان قضى عليها شارلمان .

(١) اريوس كان بطريق الاسكندرية سنة ٣٣٦ م . خالف الكنيسة الرومانية في نظره الى
 طبيعة المسيح وصلاته بالثالوث المقدس ، وحكم عليه بالموث في اجتماع نيقيا ، وكان له اتباع كثيرون
 انتشروا في الشرق والغرب . كانوا يشيرون بشماله بين البرابرة الجرمن وقد اعتنق قوطا الشرق
 تعاليمه ايضاً . وكانوا يظن كنيسة روما هراطقة مارفين من الدين .

المملكة الفرنكية

الأسرة الميروفنجية : (١) لم تكن قبيلة من القبائل الجرمانية التي تكلمنا عنها حتى الآن ان تؤسس مملكة دائمة إلا قبيلة الفرنك Franks اما بقية القبائل فقد اندثرت بسبب منازعاتها بعضها مع بعض ، أو من قبل الامبراطورية البيزنطية ، أو من قبل العرب كما هي حالة القبائل التي كانت في بلاد الاندلس . اما الفرنك الذين سنتكلم عنهم فقد اخضعوا معظم القبائل الجرمانية لسلطتهم ، حتى امتد نفوذهم الى البلاد التي يسكنها السلاف Slavs وأول ما نعرف التاريخ هؤلاء الفرنك عندما كانوا يقيمون في الجزء الاسفل من نهر الرين أي ما بين مدينة كولون وبحر الشمال . وكانت طريقة استيلائهم على البلاد الخاضعة للامبراطورية الرومانية تختلف عن الطرق التي اتبعها القوط والفيستيون والفاندال وغيرهم من الشعوب الجرمانية ، فبدلاً أن يقطعوا صلتهم بقبائل الجرمن ويصبحوا بجزيرة في بحر الامبراطورية الرومانية ، كانوا يحتلون بالتدريج الاراضي التي حولهم ، ويوشوا على اتصال مع القبائل الجرمانية . وهذه الصورة ظلوا محافظين على حماسهم الحربي الذي كان يفقده غيرهم من القبائل التي انصلت بالامبراطورية الرومانية واكتسبت الحضارة الرومانية .

وفي مطلع القرن الخامس ميلادي احتل الفرنك المقاطعات التي تؤلف اليوم مملكة بايبيكا والاراضي التي في شرقها . وفي سنة ٤٨٦ م تقدموا بقيادة ملكهم الكبير (كلوفيس Kloviss) (٢) واحتلوا بلاد الغال Gaul أي فرنسا بعد ان تغلبوا على قائد الرمان هناك . وبلغت حدود بلادهم الجنوبية نهر اللوار . ثم وسع كلوفيس حدود مملكته من ناحية الشرق ، فتغلب على قبائل (الالمان Alemanni) وهي قبائل من الشعب الجرمانى كانت تسكن مقاطعة الغاية السوداء وجرت بين الطرفين معركة مهمة سنة ٤٩٦ م تأخرت صفوف جنود كلوفيس في بدشها وكان وثيقاً وزوجته نصرانية ، فتدور أن يقتصر ان يقتصر في المعركة وفي نذره بعد ظفره بأن تقتصر هو وثلاثة آلاف من جنوده وما لبث كلوفيس بعد ذلك ان وفق مصالحه مع مصلحة الكنيسة الكاثوليكية . وكان لاتحاده مع البابا اثر عظيم في تاريخ اوروبا الغربية .

وكانت تقوم في جنوب مملكته مملكة قوط الغرب . وفي الجنوب اشرقي مملكة برغاندي Burgundy وسكانها من الجرمن . فعارب كلوفيس القوط وطردهم الى ماوراء الپيرنه . واخضع

(١) الأسرة الميروفنجية : تنتسب الى ميروفة ومنه اخذت اسما ، وميروفة هذا جد كلوفيس الذي وجد قبائل الفرنك والى الملكة الفرنكية

(٢) من كلوفيس آتى اسم لويس وهو الاسم الذي كان يطلق على اكثر ملوك فرنسا .

البرغنديين لحكمه ، فكانوا يدفعون ضريبة له ، ثم ضمهم الى مملكته . وبعد محاولات قتل عديدة
قام بها كلوفيس ضم اليه اقسام بلاد الغال جميعا ووحد الاقسام التي كانت مستقلة ومنفصلة عنه .



مملكة الفرنك تحت سلطة الاسرة الميروفنجية

يُظهر هذا المصور نمو مملكة الفرنك . ففي سنة ٤٨٦ م عندما كان كلوفيس شاب هزم القائد
الروماني (سباكروموس Spacrius) بقرب سواسون ، و اضاف المقاطعة التي حول باريس لمملكته
ثم اصاب سنة ٤٩٦ م مقاطعة ألمانيا الواقعة في شرقي مملكة ، وفي سنة ٥٠٧ م انقلب باريس عاصمة
مملكته ، واحتل إكيتانيا التي كانت قبلا بيد قوط الغرب وبدأ يضم برغنديا . وتابع اولاده عمله من
بعده فاكثروا ضم برغنديا ، واستولوا على بروفانس ، وإفريا ، وغاسقونيا ، لمدة نصف قرن .

بعد موت كلوفيس سنة ٥١١ م في باريس التي كانت عاصمة مملكته ، تقسم اولاده الاربعة البلاد
فيها بينهم ، و قامت المنازعات بين الاخوة جعلت مملكة الفرنك في اضطراب دوى مدة ثمانية سنين تقريبا
ومع ذلك فقد استمر تشكيل مملكة الفرنك بالرغم من هذه الاضطرابات . وذلك لانه لا يوجد دولة
قوية تنافسها .

وقد احتفظت هذه المملكة بشيء من الوحدة بالرغم من المنازعات القائمة بين أفراد الأسرة المالكة على الأراضي . وقد امتد نفوذ ملوك الفرنك على جميع البلاد التي تضم فرنسا في الوقت الحاضر ، بإضافة إليها بلجيكا ، وقسم كبير من غرب ألمانيا .
وآخر ملوك الأسرة الميروفنجية هو داغوبرت Dagobert حكم سنة ٦٣٨ م ووجد مملكة الفرنك مرة ثانية وجعلها في سلالاته .

وكان هناك خطر جديد يهدد هذه المملكة وهو ظهور قبائل الجرمن الذين سألون رتباً كبيرة في الجيش ، وكان ملوك الفرنك يكافئونهم على ذلك بأقطاعهم أراضي واسعة في مملكتهم ولم يلبث هؤلاء القبلاء ان استقلوا في مقاطعاتهم وشكلوا ممالك مستقلة . وكان من أكبر وظائف الشرف التي كان نبلاء المملكة يتراحمون عليها هي وظيفة « حاجب القصر » Mayor of the Palace التي تشبه وظيفة رئيس الوزارة في وقتنا هذا ، أو وظيفة أمير الأمراء في العصر العباسي . وكان حجاب القصر بعد موت داغوبرت يحكمون باسم الملوك الميروفنجيين الذين كانوا ملوكاً بالاسم فقط ، وليس لهم من السلطة شيء . وكان حاكم القصر في (أوسترازيا Austrasia) وهي إحدى الأقسام التي تتألف منها مملكة الفرنك يدعى (پيپان Pippin) تمكن أن يضم إليه قسمين آخرين من مملكة الفرنك وهما :

نوستريا Neustria وبراندي Burgundy وأن يجعل السلطة في أسرته وهي الأسرة الكارولنجية التي سيأتي الكلام عنها .

انحطاط البرابرة الجرمن بالرومان

لم يكن عدد الجرمن على اختلاف قبائلهم الذين هاجموا الإمبراطورية الرومانية عظيماً جداً ، لذلك لم يلبثوا ان اندمجوا بالرومان واخذوا حضارتهم ، واقتبسوا عاداتهم ، وتكلموا لغتهم اللاتينية التي كانت منتشرة في كل مكان وطبقتهم قدم الرومان . أما البلاد التي لم يستول عليها الرومان فظلت تحكم لغاتها المحلية كالسكاندينافية ، والأونكلوساكسونية ، والدنياركية ، والسويدية وغيرها . وبقيت بعيدة عن تأثير اللاتينية فيها . كذلك نرى ان الشعوب الأوروبية التي احتللت بالرومان لم تلبث لغاتها ان انفصلت بالتدريج عن اللغة اللاتينية ، وشكلت لغات محلية هي اللغات الفرنسية ، والإسبانية ، والإيطالية والبرتغالية . التي تحت بصلة النسب الى اللغة اللاتينية . الا ان ظهور هذه اللغات المحلية لم يكن من عمل البرابرة أنفسهم بل سبق مجيئهم . وكل ما عمله البرابرة هو أن أكلوا هذا العسل واضافوا بعض الكلمات البربرية الى اللغات المحلية ،

ولم يكن الجرمن يكرهون الرومان . حتى ولا الرومان يهضون الجرمن عند ما تكون سفاهم موحدة ، وينسبون الى فرقة دينية واحدة ، وكانوا يتزاوجون من بعضهم البعض ، حتى ويستخدمون موظفين في الحكومة وجنداً في الجيش من كلا الشعبين . ولا يفرق الرومان عن الجرمن الا في قضية واحدة ، وهي اتباع كل منهما قانونه الخاص . فكان الجرمن يحتكون الى قانونهم البربري ، كما ان الرومان يتفاضون بحسب القانون الروماني . وبقيت الحالة كذلك في جنوبي اوربا طوال القرون الوسطى ، لان الجرمن كانوا قلائل اما في بقية الجهات فظال القانون البربري سائداً حتى القرون الثالث عشر والرابع عشر .

وكانت المحاكمات البربري بحسب القانون البربري بطريقة خاصة تختلف عنها في القانون الروماني . فكان يعرف البري ، من المذهب مثلاً باحدى صور ثلاثة .

(١) إما ان يخلف يانه بري ، ويخلف معه من قبياته عدد من الاشخاص تعينهم المحكمة بانه بري .
(٢) أو يارز خصمه ، وينصر الله البري ، ويخذل الجاني . (٣) أو بنفس المذهب يديه بالماء الحار ، أو يقبض على حديدة حامية مسافة معينة ، أو يسير على الجرف فاجتاز هذه الصعوبات ولم يتأثر منها لمدة ثلاثة ايام يكون عندها برياً !!

انتشار الجبرل

إن هذه المحكمة هي مثال لما كانت عليه حالة الجرمن القاسية وحضارتهم المتأخرة التي ظلت مقام المدنية الرومانية والقانون الروماني ، وقد انتجت العلوم والآداب والفنون في هذه العصور المضطربة . ومات معها العلماء والادباء ورجال الفن منذ سنة ٥٢٥ م . وما وجد في ذلك العصر من المعارف إنما هو الا رسالة كتبها كاسيودورس Cassiodorus سنة ٥٧٥ م وهي تحت في القواعد ، والحساب ، والمنطق ، والهندسة ، والموسيقى ، والبلاغة والفلك ، كتبت بقصد تعليم رجال الدين بعض معلومات اولية محكمهم من فهم الكتاب المقدس وتعاليم الكنيسة ، وهذه الرسالة التي كتبت مؤلفها عدة صفحات عن كل علم من العلوم السبعة المتقدمة ، والتي هي مضحكة بالنسبة لآباء هذا العصر ، تبين الخطا الط التعليم في ايطاليا في القرون السادس . ومع ذلك فقد ظلت هذه الرسالة نموذجاً عالياً يقتدي به كل من كتب في هذه المواضيع زمن القرون الوسطى . وكانت هذه الرسالة وامثالها عماد العلم والمعرفة في اوربا ، وتدل الى اي درجة انحطت اللغة اللاتينية في القرون الوسطى . وفي مدة ثلاثمائة سنة حتى مجي شارلمان ، بندر أن نجد في اوربا كتاباً واحداً يستطيع ان يصف حوادث زمنه ، حتى ولو بأسلوب كتابة لاتينية . وقد تضاعفت جميع العوامل على احوال التعليم

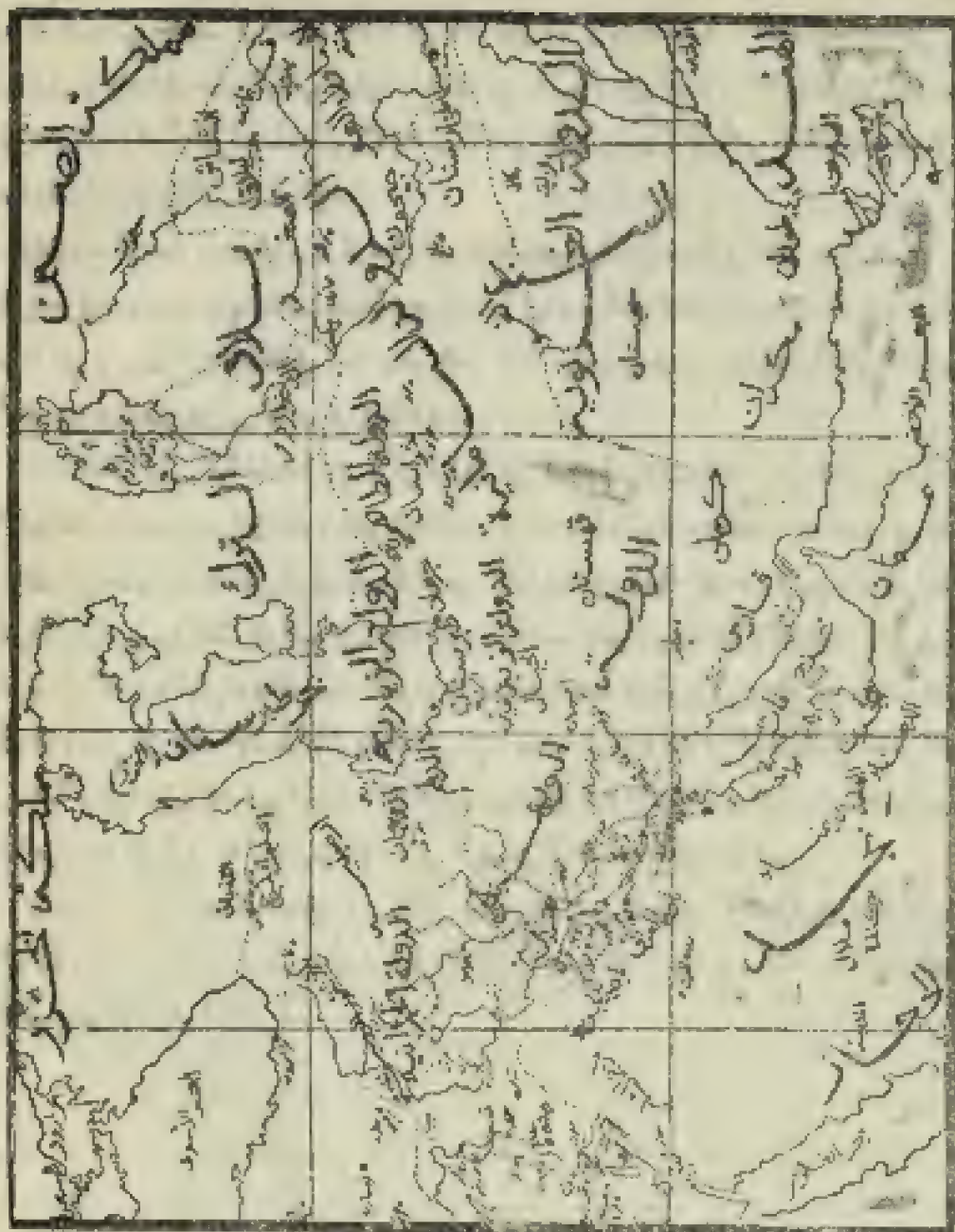
فواصل الثقافة : كقرطاج ورومة والاسكندرية وميلان ، قد خربت من قبل البرابرة ، حتى ان دور الكتب التي حفظت في المعابد والهيكل قد اندثرت وانالت بسبب التعصب المسيحي لان المسيحيين وجدوا في هذه الكتب الوثنية ما ينافي مع ديانتهم . حتى ان اياضرة البيزنطيين بعد موت (تيؤدور بك) قد اوقفوا مساعدتهم المالية الى المسلمين الذين يعملون على نشر الثقافة وتوحيدها . كما انهم اخلقوا مدارس الفلسفة في اثينا .

والمؤرخ الوحيد الذي يذكر ذكره في القرن السادس ميلادي ، والذي كان مادياً غريباً هو (شريغوري Gregory) أسقف مدينة تور في سنة ٥٩٥ م الذي كان يأسف في كتابه ، على الحالة المزرنة التي وصلت اليها الثقافة في زمنه وهو يقدر تماماً جهله . ويبرهن ذلك باللغة اللاتينية الخاطئة :
" فقد من بيننا من يدرس الادب في زماننا : "

ان القبائل الجرمانية المختلفة التي ذكرنا شيئاً عن تاريخها ، كانت تختلف في عاداتها وطبائعها الا انها كانت تحب في شيء واحد ، وهو انها كانت تجهل تماماً الفنون ، والآداب والعلوم التي نشأت في بلاد اليونان واخذها عنهم الرومان . فلجروا من كانوا جاهاً بسطاء اقوياء . لا يعرفون الا الحرب وتقوية اجسامهم . وكانت غرائبهم على البلاد الرومانية سبباً لفوضى وداعياً لانهلاك المادية الرومانية فحربت المكاتب والمباني ، وانقرست الفنون ولم يصالحوا شيئاً مما حرموه . ووضع علم الغرب بحسنة يرثى لها . ومع كل هذه الانهيارات والخراسات التي احدها البرابرة فقد تركوا شيئاً من الفاض المدنية الرومانية ، بنوا عليه مجتمعهم الجديد . كما أنهم تعلموا الخرافة الزراعية الرومانية عند ملوهم الدرجة احتاجوا معها الى الزراعة ، واتبعوا الاسلوب الروماني في انشاء ابنتهم وطرقهم .

والخلاصة : ان الميراث العظيم الذي تشكل ببطء منذ زمن المصريين والفينيقيين والقرطاجيين واليونان . والذي يتركب عناصر الحضارة الرومانية ، لم يضع كله !! بل بقيت منه بقية حفظها العرب وكانت نواة للاحياء الحاضرة .





أقسام الخلافة العباسية

تظهر هذه الخريطة بعض الدول المستقلة التي انفصلت عن الخلافة العباسية في بغداد مع المناطق التي كانت فيها تلك الدوليات .

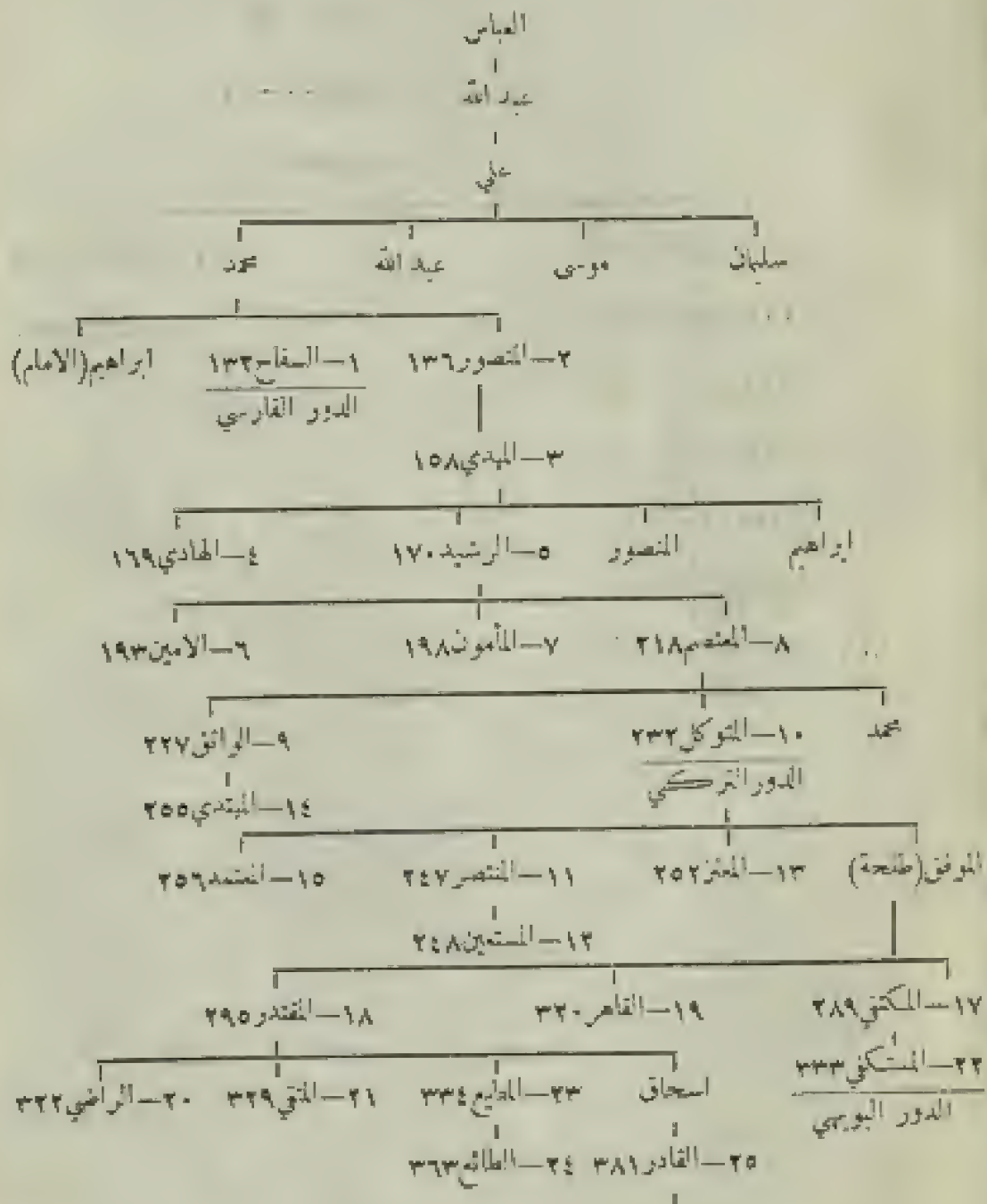
القسم الثاني

الخطبة العباسية

ربطتكم ومسا

بما بينكم

السلسلة العباسية



٢٥- القادر ٣٨١

٢٦- القاسم ٤٢٢

الدور السلجوقي

محمد الذخيرة

٢٧- المفتدي ٤٦٧

٢٨- المستظهر ٤٨٧

٣١- المفتي ٥٣٠

٣٢- المنجد ٥٥٥

٣٣- المنفي ٥٦٦

٣٤- الناصر ٥٧٥

٣٥- الظاهر ٦٢٢

٣٦- المستنصر ٦٢٣

٣٧- المنصور ٦٤٠- ٦٥٦

نهاية الخلافة العباسية

٢٩- المسترشد ٥١٢

٣٠- الراشد ٥٢٩



الباب الرابع

العت العباسي :

ينتسب العباسيون إلى العباس عم النبي (ص) وهو من سادات بني هاشم وعقلائهم ، تولى سدانة الكعبة ثم تولى عنها أبو طالب لغيره . وكان صديقاً وثيقاً لأبي سفيان ، ولما جاء الإسلام بقي على دين قومه أولاً إلا أنه ساعد النبي (ص) وحماه ، وخرج معه في بيعة العقبة الثانية ، وخطب في أهل يثرب ومما قاله لهم : « يا معشر الخزرج ، انكم قد دعوتهم محمدًا إلى ما دعوتهموه إليه ، ومحمد من اعز الناس في عشيرته بمنعمه والله من كان منا على قوله . ومن لم يكن منا على قوله ، منعه للحسب والشرف وقد أبى محمد الناس كلهم غيركم ، فإن كنتم أهل قوة وبصر بالحرب والاستقلال بعداوة العرب فامطبة فإنها ستربكم عن قوس واحد ، فارتزوا رأيكم واتقوا أمركم ولا تغتروا إلا عن ملاء منكم واجتماع . فإن أحسن الحديث صدقه . . . » وخرج العباس مع قريش إلى بدر مكرهاً وأسر في تلك المعركة ففدى نفسه ورجع إلى مكة ، وكان يكتب للنبي (ص) بأخبار قريش وأسلم قبيل فتح مكة ، وكان سبباً في نجاته أبي سفيان يوم فتحها ، وخرج إلى المدينة وأقام بها وكان النبي (ص) يحبه ويكرمه وبعد وفاة الرسول (ص) لم يطعم بالخلافة مع أنه كان أكبر بني هاشم سنًا ، وطلب أبو سفيان أن يبايعه فأبى . وتوفي في خلافة عثمان بن عفان سنة ٣٣ هـ وله عدة أولاد يهتأ منهم .

عبد الله بن العباس :

كان عبد الله أعلم الناس بآيات القرآن الكريم وتأويلها ، وأحد الفقه والمحدثين ، المشهور برجاحة عقله ودلالة لسانه ، وكان مقرباً إلى النبي (ص) وإلى الصحابة من بعده ، استأواه الخليفة عمر ، وولاه عثمان موسم الحج . ولما بويع الإمام علي بالخلافة كان له حشداً ونسيراً في حروبه كلها وولاه البصرة وأعمالها ثم اختلف مع علي بن أبي طالب واعتزل السياسة ، ورجل إلى الطائف وأقام بها حتى سنة وفاته ٦٨ هـ . ومن نسله نسا البيت العباسي والشيعة الأولاد :

علي بن عبد الله : ولد ليلة مقتل علي بن أبي طالب في سنة ٤٠ هـ فسمي باسمه وكفى بكنيته أبي الحسن ، وكان سيداً شريفاً بليغاً ، وقد أقطعه الوليد بن عبد الملك أرضاً في الحفيمة (١) ليكون

(١) — الحفيمة : أرض في شرقي الأردن ، بين الشام والحجاز .

بعيداً عن الحجاز ، واخذ يحرك الدسائس لتزع الخلافة من الامويين وجعلها في عقبه فدعى ان اياهاشم محمد بن الحنفية بن الامام علي قد تنازل له عن حقه بالخلافة ، واثف حوله جماعة الكيسانية من الشيعة (١) كانوا نواة الحركة العباسية . وتوفي سنة ١١٤ هـ واعقب اثنين وعشرين ولداً ذكراً واحدى عشرة انثى واشهر اولاده محمد بن علي .

الدعوة العباسية

محمد بن علي مؤسس الجمعية السرية ومنظم الدعوة العباسية ، التي كتب لها النجاح في قلب الدولة الاموية ، وجعل الخلافة في اولاده وهم : ابراهيم الامام : وابو العباس السفاح ، وابو جعفر المنصور اتخذ مركزه في الحيرة ، واتخذ الدعوة يدعون الناس الى ولاية اهل البيت بدون ان يسموا احداً ، خوفاً من بني امية ان يقضوا على الدعوة اذا عرف ولكن لا يغضب العلويين ويطالبون بتغيير دين بالخلافة ومنفصلين عن العباسيين ، ورأى ان احسن منطقة بيت فيها الدعوة هي : الكوفة ويلاذ خراسان . وذلك لان الكوفة مهد التشيع لاهل البيت من قديم فيمكنهم ان يؤولوا اليها ويحلقوها نقطة مواعيلهم ، واما خراسان فسهولة الدعوة فيها مبنية على ثلاثة امور (١) ان اهل خراسان كانوا خاضعين الى ملوك الفرس ، ويعتبرون ان جن المالك يجب ان يبقى في الاسرة المسالكة ولذلك كانوا يرون ان اهل بيت النبي (ص) هم احق بالخلافة ، وان الامويين قد اختلسوا الحكم منهم (٢) ان الامويين قد اضطهدوا الفرس ، وعاملوهم معاملة سيئة ، لذلك كانوا ينضمون لسبيل ثار علي الامويين ، لعله ينقذهم من الحالة الذليلة التي كانوا فيها (٣) ان الفرس كانوا يعظمون باعادة ملكهم المندثر وارجاع سلطانهم الغابر . فكانوا يشعرون على العرب وسندسون في صفوف ابناء الم في سبيل تفريق قوتهم وإدكاء نار العداوة بينهم . واتبع محمد بن علي نظام التسلسل والمرتبة في تنظيم الدعوة فكان يقبل بمسرة مولى علي بن عبد الله الذي كان مقبلاً في الكوفة وخلفه بعد موته بكير بن ماهان ، وهو

١ - راجع عن الكيسانية هاشم صفحة ١٢ من هذا الكتاب . وابوهاشم محمد بن الحنفية جاعلنة ٩٨ هـ الى سليمان بن عبد الملك الاموي فاكرم وقادته واظهر التوقد له ، ولكنه دير امر قتله خشية ان يدعوا الى نفسه . قدس له من سمته وهو في طريقه الى الحيرة ، حيث كان يقسم علي بن عبد الله ، وقد قيل ان اباهاشم لما شعر بدنو اجله ، افضى باسراو الدعوة الحاشمية الى علي وزل له عن حقه بالامامة ، وامده باسم داعي دعائه في الكوفة ، ومن بابه من الدعوة كاسلمه رسائل يقدمها اليهم ومند ذلك الحين انتقلت الدعوة الحاشمية من العلويين الى العباسيين .

شيخ عليم وموسر كبير، ساعد الدعوة بحاله وجهده وكان يتعدى بدعوة خراسان، وكان فيها محمد بن حنيس وأبو عكرمة السراج، وكان ينقطع لها اثني عشر نفياً أشهرهم ساهك بن كثير الخولاني، وقصبة بن شبيب الطائي... وتحت إمرة هؤلاء سيمون داعية يقيمون في الأقاليم ويشترون الدعوة. وقد كتب لهم محمد بن علي كتاباً ليكون مثلاً ونهجاً يقيمونه ويسيرون بموجبه. وفي هذا الكتاب يقول: «... وأما الكوفة وسوادها، فتبعة علي وولده. وأما البصرة وسوادها فتبعة علي وأما الجزيرة فحزبية مارقة، وأما أهل الشام فليس يعرفون إلا آل سفيان مطاعة بني مروان، وعداوة راسخة وجملاً متراكمة، وأما مكة والمدينة فقد غاب عليهما أبو بكر وعمر. ولكن عازيك بخراسان، فن هناك العدد الكثير، والجلد الظاهر. وهناك صدور سايعة وقلوب فارغة، لم تقسمها الأهواء، ولم يتوزعها التآغل، وهم جند لهم الأذان وأنجاس، ومناكب وكواهل وعلماء وحملي وشوارب، وأصوات هائلة، ولغات غمة، تخرج من أجواف منكبة... وبعد فاني أنفاسي إلى المشرق، وإلى مطلع سراج الدنيا ومصباح الخلق.»

وكان الدعاة ينتقلون في مختلف الأمصار، وكانوا في ظاهر الأمر طلاب رزق يزاولون التجارة وكانوا في الواقع رجال سياسة ودهاء، يثبون الدعوة بالحكمة والوعظة الحسنة. ويدعون الناس إلى مناصرتهم بشق الأساليب. وكانوا يبلغون أمرهم وأنصارهم إلى القائم بالكوفة، وهذا يؤصلها إلى الحبيبة أو إلى مكة في مواسم الحج. وكان الحج أعظم سائر طوول الدعوة، وخير فرصة لهم للتنقل من مكان لآخر وتبلغ الأوامر وإعطاء المعلومات. وقد ساق هؤلاء الثقباء والدعاة أدنى كبير من ولاية بن أمية، ولكنهم صبروا وتكتموا وساعدوا على نشر دعوتهم انشقاق البيت الأموي على نفسه، وبعد حركتهم عن مركز الخلافة في دمشق، وانقسام العرب في خراسان إلى فسيين، وبنانيين. وكان رئيس الفسيين وكبيرهم نصر بن سيار وإلى خراسان الأيوبي. وزعيم البنانية جديع بن شبيب الملقب «بالكرماني» لأنه ولد بكرمان. وجرت حروب شديدة بين الطرفين انضمت قوى العرب وقوات هيبتهم في فوس الفرس الذين انضم كثير منهم إلى الدعوة العباسية.

وفي أثناء وقوع هذه الحوادث توفي محمد بن علي وخلفه في الدعوة ابنه إبراهيم الإمام، ودار الدعوة يدعون له، وأقام في الكوفة نائبا عنه أبو سلمة الخلال بعد موت بكير بن ماهان، وأقام في خراسان أبو مسلم الخراساني. ولد أبو مسلم بأصفهان ونشأ في الكوفة، واختلط في نسبه ببعضهم بحمله عربياً من اليمن وآخرون يجعلونه مولى لآل أبي بكر بن ماهان، وعنه ثلث أصول الشيعة، ثم اتصل بمحمد بن علي سنة ١٢٥ هـ ثم لبثه إبراهيم الإمام، الذي لقبه بأبي مسلم وسيره لخراسان لنشر الدعوة. وكان أبو مسلم من أبطال الحرب والسياسة، شديد الاخلاص للعباسيين مسرفاً في

خدمتهم ، كثير الذهب ، واسع الخيلة ، خيراً بما يقتضى عمله من الحزم والقسوة ، ولا تعرف الرحمة
لقلبه سيلاً ، مثل مرة بأي شيء أدركت هذا الامر ؟ فقال : « ارتدبت بالكتمان ، واتزوت بالحزم ،
وحالفت الصبر ، ومساعدت المقادير ، فأدركت ظلي وحزرت حدي بنيتي » ، وأنشد :

| | |
|-------------------------------|--------------------------------|
| أدركت بالحزم والكتمان ما عجزت | عنه ولونته بني مروان إذ حشدوا |
| ما رلت أسمى عليهم في ديارهم | والقوم في عجلة بالشام قد رقدوا |
| حتى ضربتهم بالسيف فالتفروا | من قومة لم ينسأ قبلهم احسد |
| ومن رشي عفا في ارض مبيعة | ونام عليها تولى رعيها الاسد |

ونما لوصاه به ابراهيم الامام قبل دخوله الى خراسان قوله : « يا عبد الرحمن إنك رجل منا
أهل البيت فاحفظ وصيتي . وانظر هذا الخي من اليمن فأكرمهم وحل بين أظهرهم فإن الله لا يتم
هذا الامر الا بهم . وانظر هذا الخي من ربيعة فاهبهم في امرهم . وانظر هذا الخي من مضر فانهم
العدو القريب الذي فقتل من شككت فيه ومن كان في امره شبهة ، ومن وقع في نفسك منه شيء ،
وان استطعت ألا تدع بخراسان لساناً عربياً فافعل . فأجما غلام بالغ خمسة أشبار تنبهه فقله . »

وقد حرص ابو مسلم على تنفيذ هذه الوصية ، فسكن يفرق بين العرب ، ويسرع الى قتل كل من
ينبهه منهم حتى بلغت ضحاياه مائة الف نفس .

ذهب ابو مسلم الى خراسان سنة ١٢٨ هـ ، فأسسها بحزم ودهاء وقوة ، وأقام بقية من قري
مرو يدعى صفية بلخ ، وقد كثر انصاره وأتاه الناس من كل حذب وحوب ، وفي رمضان سنة ١٢٩ هـ
عقد ثلوا الذي بعث به ابراهيم الامام ، وكان يدعى الفل على ربح ، وأعلن بأمره إبس السواد ،
وأخذ شعراً للمباسبين ، وكاتب نصر بن سيار الوالي الأموي يقول له : أما بعد فإن الله تبارك
أسمائه وتعالى ذكره غير أقولاً في القرآن فقال : (واقسموا بالله جهد إيمانهم لننجزن نذرنا لكونن
أعدي من إحدى الأمم ، فلما جاءهم نذرنا زادهم إلى نفوراً واستكباراً في الأرض ومكر الدي
ولا يحين المكر الذي إلا بأفعله . فلو ينظرون إلا سنة الأولين قلن نجد لسنة الله تبدلاً ولن نجد
لسنة الله تحويلاً) . فأرسل نصر له مولاه بخيل عظيمة إلا أنها هزمت فأرسل يستنجد بالخليفة
مروان الثاني بقوله :

| | |
|---------------------------|---------------------------|
| أرى بين الزمان وبين ناز | وبوشاك أن يكون لها خرام |
| فإن النصر بالمودين قد كثر | وإن الحرب أولها كلام |
| فقت من أشعجب ليت شعري | ألفاظ أمية أم نيلم |
| فإن بك قومنا لنحوا نيأماً | قلل قوموا فقد حانت القيام |
| ففرى عن رحالك نعم قول | على الاسلام والعرب السلام |

إلا أن مروان كان مشغولاً بأطفاء الفتن والثورات في الشام فلم يستطع أن يجده ، وكتب له :
 وإن الحاضر يرى ما لا يرى الغائب ، فاحم أنت هذا الداء الذي قد ظهر عندك () إلا أن الخطب تقام
 لزيادة انصار العباسيين وكثرت الوفود على أبي مسلم حتى ضاقت سفيدنج فرحل إلى الماشون ، وهي
 قرية كبيرة من قرى مرو ، وكانت عدة من كان معه سبعة آلاف رجلاً وامثال أبو مسلم في الفرقة
 بين نصر ورجاله حتى تخلى عنه انصاره واحداً بعد واحد ، فقام من الماشون في جمادى الأولى
 سنة ١٣٠ هـ فاصداً مرو ، وفتحها وحرب نصر فأرسل خلفه قحطبة بن شبيب من أهل الحجاز مع
 فرقة من الشيعة لاحقت نصر حتى مرض في بلاد الري ومات في (ساوة) وعمره (٨٥) سنة ونقدم
 قحطبة ومعه ابنه الحسن فيفتحان البلاد الشرقية ، ثم توغلا في بلاد العراق ، والتمحا في معركة مع
 يزيد بن عمر بن هبيرة أمير العراق من قبل الأمويين ، فنجرت معركة بقرب الكوفة قتل فيها قحطبة
 فخلقه ابنه الحسن في أسرة الجبش ، فهزم ابن هبيرة إلى واسط وسار بحيشه إلى الكوفة ، واستولى
 عليها في المحرم سنة ١٣٢ هـ وسلم الأمر لأبي سلمة الخلال حسب وصية أبيه .

في هذا الوقت وقع في يد مروان بن محمد كتاب لإبراهيم الإمام مرسله إلى أبي مسلم الخراساني
 فعرف عندها مروان مصدر الفتنة ورئيس الحركة ، فأرسل إلى والي دمشق بأمره بالقبض على إبراهيم
 وأن يوجهه إليه ، ففعل العامل ما أمر به . ولما أحس إبراهيم بأنه مقتول لا محالة ، نعى نفسه إلى
 أهل بيته ، وأوصى إلى أخيه أبي العباس بالأمر ، وأمر أهله بالسير إلى الكوفة ، وحضهم على السمع
 والطاعة لأبي العباس . وقد حبس إبراهيم في سجن حران مع جماعة من خصوم مروان من بني أمية
 وظل في سجنه حتى مات ، وقد اختلف المؤرخون في كيفية موته ، فمنهم من قال : أنه سقى سمّاً ،
 ومنهم من قال : عدم عليه بيت ثقات . وما قيل في رثائه :

| | |
|------------------------------|-----------------------------|
| قد كذت أحديني جليلاً فضعضني | غير بحراني فيه عصمة الدين |
| فيه الإمام وخير الناس كلام | بين الصفائح والاحجار والطين |
| فيه الإمام الذي عمت مصيئته | وعيثت كل ذي مال ومسكين |
| فلا عفا الله عن مروان مظالمه | لكن عفا الله عن قل أمين |

أما أهل بيته فتجهزوا يردون الكوفة حتى قدموها في صفر سنة ١٣٢ هـ ورئيس القوم وقتئذ هم
 أبو سلمة الخلال المعروف بـ بوزر آل محمد ، الذي خانهم في آخر الأمر ، وكاتب ثلاثة من أعيان
 العلويين يعرض عليهم الخلافة وهم : جعفر الصادق بن محمد الباقر ، وعبد الله المحض بن حسن . وعمر
 الأشعر بن زين العابدين . ولكنه فشل في مؤامره لعدم قبول هؤلاء الثلاثة ، وكانت خاتمة
 حياته القتل .

مميزات ادوار الخليفة العباسية

اعتاد المؤرخون ان يقسموا الخلافة العباسية الى اربعة ادوار يتغير بعضها عن بعض حسب العناصر الاجتماعية التي كانت تؤثر في الحكم . واذا اخذنا هذا التقسيم فذلك للمبرر بحث ودرس هذه الخلافة مع الاعتراف بأنه تقسيم عملي ، وان هذه الادوار الاربعة متصلة ومرتبطة بعضها ببعض ، وتشكل وحدة تامة وهي : القوة الفارسية

اولاً : دور النفوذ الفارسي - او دور القوة : وهو يمتد مئة سنة من ١٣٢ - ٢٣٢ هـ او ٧٤٩ - ٨٤٧ م وكانت الخلافة في هذا الدور قوية ، والخلفاء هم القابضون على زمام الحكم ، وكانت سلطة الخلافة تمتد على القسم الاكبر من الامبراطورية ما عدا الاندلس وقسم من شمالي افريقية ، وكانت احوال الدولة الداخلية والخارجية منتظمة على العموم ، الا من بعض فتن قام بها العلويون والعباسيون من اجل المطالبة بالخلافة ، وبعض حركات من قبل الفرس . ويمكن الخلفاء من بسط رعايتهم على العلماء والادباء ورجال الدين ، وبذلك ازدهرت الحياة العلمية والاجتماعية والعمرانية . وإتسم هذا الدور - بالفارسي - لان اكثر رجال الدولة لا - كما نوزراء كانوا من العنصر الفارسي .

ثانياً : دور النفوذ التركي - او دور بدء الانحطاط : وهو يمتد مئة وستين من ٢٣٢ - ٣٣٤ هـ او ٨٤٧ - ٩٥٥ م . وبدأت الخلافة تتحط في هذا الدور ، واصبح الخلفاء العرب يد قواد الاتراك المتغلبين على الحكم . وكان هؤلاء الاتراك يتعلمون وينصبون الخلفاء كما يشاؤون ، وقد يخلعونهم ويخلعونهم ايضاً . وقد انفصل عن الخلافة المركزية في بغداد مناطق واسعة ، وشكل بعضها دويلات مستقلة . وأهم هذه الدويلات في الشرق هي : الدولة الطاهرية في خراسان ، والصفاوية في جستان والسامانية في بلاد ما وراء نهر سيحون ، والويهية في بلاد الفيل ، والزيرية في طبرستان ، والزيرية في جرجان ، والساجية في أذربيجان وأرمينية . أما في الغرب فتأسست الدولة الحمدانية في حلب ، واليعقوبية في اليمن ، والعلوية والاحشيدية في مصر والشام ، والفاطمية في شمالي افريقية ومصر والشام ، والأغالبة في المغرب الأوسط ، والأدارسة في المغرب الأقصى . وكانت المنازعات الداخلية شديدة ، ويرجع سببها الى منازعة الاسرة العباسية على الحكم . ومنازعة الخلفاء مع القواد ومنازعة القواد فيما بينهم ، وقيام الحركات الدينية لاسيما حركة العلويين ، وظهور القرامطة والفرج والزعج وغيرها من الحركات . وكانت اكثر العلاقات الخارجية في هذا الدور مع الزنطينيين ، وكان العرب سجناء بين الطرفين . أما الحياة الثقافية فكانت قد قطعت شوطاً لا بأس به في مضمار التقدم

والاختصاص لاسيما في العلوم الشرعية والفقهية ، الا ان الحياة الاجتماعية كانت مضطربة ، والحاجة
نظراً لنفوذ العناصر الأجنبية في الخلافة . وانما سمي هذا الدور - بالتركي - لأن العناصر التركية
كان لها أكبر تأثير فيه لاسيما في قيادة الجيوش .

ثالثاً: دور النفوذ البويهي - أو دور أمير الأمراء : وهو يمتد مئة وثلاثة عشرة سنة من ٤٤٧ - ١٠٥٥ م في الخلفاء في هذا الدور للتركيز الديني في الدولة فقط ، بكفون
برواتب معينة ويتركون السلطة بيد أمير الأمراء . وكان يتعاقب على هذا المنصب أسرة البويهيين
من الذين ، وقد ظهرت الخلافة الفاطمية في شمالي إفريقيا ومصر في هذا الدور وكذلك دولة آل مرداس
التي حلت محل الحمدانيين في حلب ، وسلالة بني عقيل في الموصل ، والدولة الزيدية في قلب العراق
في الحلة الواقعة بقرب الكوفة ، وظهر البريدي في البصرة ، والفرمانية في البحرين وبقي كثير من
الدويلات المستقلة التي مر ذكرها في الدور التركي تحكم في هذا الدور منفصلة عن سلطة العبّاسيين
أما الحالة الداخلية فلم تكن حسنة بسبب منازعة البويهيين فيما بينهم على الحكم ، ومنازعتهم مع قواد
الأتراك سلب السلطة منهم ، وتأجج نذر الفتنة بين السنة والشيعة . أما من الناحية الخارجية فقد
تأخرت جبهة العرب في جهة بلاد الروم ، وانتقل الدفاع عن البلاد الإسلامية من العبّاسيين إلى
الحمدانيين وغيرهم من الدويلات المستقلة ، وكانت كفة البيزنطيين رابحة على العموم على كفة
العرب بسبب الفوضى الداخلية ، وانقسام العرب على أنفسهم . وهذا الدور هو العصر الذهبي للحياة
العقلية في العلوم والفلسفة واللغة والآداب . وتعددت مراكز العلم في جميع نواحي المملكة الإسلامية
في بغداد وبخارى وجرجان وغزنة وحلب والقاهرة وقرطبة . ولم تكن الحياة الاجتماعية موحدة
في هذا الدور بل كانت تختلف من منطقة إلى أخرى حسب قوة الدولة المستقلة وضعها . وحسب
التأثرات الخارجية التي تطرأ عليها . وانما سمي هذا الدور - بالبويهي - لتغلب البويهيين فيه ،
واستيلائهم على أعلى منصب في الدولة وهو منصب أمير الأمراء .

رابعاً: دور النفوذ الساماني والمغولي - أو دور الانقراض : وهو يمتد على ما يتوقف على متى
سنة من ٤٤٧ - ٦٥٦ م أو ١٠٥٥ - ١٢٥٨ م ، وكان النفوذ في المئة والخمسين سنة الأولى منه
للسلاجقة ، والخمسين سنة الباقية كان التأثير الفعال فيه بيد المغول . والسلاجقة والمغول من العرق الأصغر .
وكان الخلفاء أقوياء في هذا الدور ، حاولوا اخذ السلطة الفعلية لأنفسهم ، ولكنهم فشلوا لثقل
السلاجقة عليهم . وقد نشر السلاجقة - لمطالبتهم على أكثر المناطق فكان لهم دولة في بغداد والعراق والشام
وكرمان وبلاد الروم . كما ظهرت دولة شاهات خوارزم في جنوبي بحر خوارزم (بحر آرال) أما الحالة الداخلية

فكانت سببة بسبب المنازعات التي حصلت بين الخلفاء والسلاجقة ، وبين السلاجقة أنفسهم ، ولضعف
أعوان السلاجقة ، واستبداد أنابكهم واستئلالهم في الحكم ، ومنافسة بعض الدويلات المستقلة
للخلفاء العباسيين . ولنشيط الحركة الإسماعيلية في فارس والشام ، وكانت الحالة الخارجية مضطربة
للغاية في هذا الدور لحج الصليبيين لبلاد الشام ومصر من ناحية الغرب وبحج قبائل الفز ، والفور
والتتر (وهي قبائل تركية) من ناحية الشرق وقضائها على الخلافة العباسية ، وفي هذا الدور وجدت
العقلية العربية من الناحية العلمية ، والنحط عما كان عليه في الأدوار السابقة ، فمن بعد هناك
ابتكار ، وإنتاج في العلوم والآداب ، وكل ما في الأمر هو تقليد وجمع ما أنتجه المتقدمون .
أما الحياة الاجتماعية : فكانت متدهورة في هذا الدور لاختلاط المسلمين بالصليبيين والتتر ، وما
أحدثه هؤلاء من اضطراب في الحياة ، وتخريب للبلاد ، وما سببوه من فقر وأمراض ، كل ذلك
كان له أثر في المجتمع العباسي . وإنما سمي هذا الدور - بالسجوف المنولي - لتقلب السلجوقيين
على السلطة الحقيقية في الدولة ، ولاجتياح المغول للخلافة العباسية .



الفصل الاول

١ - دور النفوذ الفارسي

١٣٢ - ٢٣٢ هـ أو ٧٤٩ - ٨٤٧ م

حكى في هذا الدور تسعة خلفاء هم : أبو العباس السفاح ، وأبو جعفر المنصور ، والمهدي ، والهادي ، وهارون الرشيد ، والأمين ، والمأمون ، والمعتصم ، والواثق . ولا هية هؤلاء الخلفاء تذكر كل خليفة منهم على حدة .

أبو العباس السفاح

١٣٢ - ١٣٦ هـ أو ٧٥٠ - ٧٥٤ م

ولد السفاح سنة ١٠٤ هـ في الحيرة ، أبوه محمد بن علي بن عبد الله بن العباس . وأمه ربيعة عربية النسب لذلك تقدم على أخيه أبي جعفر المنصور بالخلافة مع أن المنصور أكبر منه سناً . وكان أبوه قد عهد بأمر الدعوة لأخيه إبراهيم الإمام ، ولما احتس إبراهيم اقتراب أجله عهد لأخيه أبي العباس بأمر الدعوة ، وأمره أن يسير بأهل بيته إلى الكوفة فذهب إليها ، وكان الدعوة قد هيأ له الخلافة في الكوفة ، وفي يوم الجمعة في ١٣ ربيع الثاني سنة ١٣٢ هـ بويع السفاح بالخلافة في مسجد الكوفة ، فخطب بالباس وعما قاله في خطابه : الحمد لله الذي أسقط الإسلام نفسه تكربة ، وشرفه وعظمه واختاره لنا ، وأيده بنا ، وجعلنا أهله وكهفه وحضته ، والقوام بدو القابض عنه والناصرين له وأمرنا كفة التقوى وجعلنا الحق بها وأهلها ، وخصنا برحم رسول الله وقرابته وأنزل بذلك على أهل الإسلام كتاباً بتلى عليهم ، فقال عز من قائل فما أنزل من عنكم القرآن : (انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ، ويظهر لكم تهجيرنا) وقال : (والفر عشيرتك الاقرين) وقال (ما قام الله على رسوله من أهل القرى فله والرسول والقرى والانس) ، فاعلمهم قبل تناؤه فضلنا ، وواجب عليهم حقنا ومودتنا وزعمت الشيعة الضلال أن غيرنا الحق بولاية والسياسة والخلافة منا ، مشاعت وجوعهم وأننا لأرجوان لا يأبىكم الجور من حيث أنكم الخير ، ولا الفساد من حيث جاءكم الصالح بأهل الكوفة ، أنتم محل محبتنا ومثل مودتنا ، أنتم الذين لم تشيروا عن ذلك ولم تشكم عن ذلك تعامل أهل الجور عليكم . حتى ادر كنتم زماننا ، وانما كنتم الله بدولتنا فأنتم اسعد الناس

بنا واكرمهم علينا ، وقد ردتكم في ارضيائكم ما تقدمتم فاستدوا فاما السفاح المبيح والنازح مبيح
وهذه الجنة الاخيرة لقب بالسفاح ، وهذا ايضاً لكثرة ما قتل من الامويين ، وكان السفاح موعوا
فاشد به الوعاك جلس على المنبر ، وسعد داود بن علي عمه وكان من الفصح بني العباس ، فخطب
خطبة قال فيها الحمد لله شكراً شكري الذي اهدى عدونا ، واصار الينا ميراثنا من نبينا محمد
(ص) . ايها الناس والله ما احزننا في طلب هذا الامر لنكفر طيناً ولا عقياناً ولا نحفر نهراً ، ولا
نبني قصرآ ، والتمس الخرجنا الا لمة من التراب حقتا ، والغضب لبي عمنا وافقد كانت اموركم
نومنا ونحن على عرشنا ، وبشت علينا سوء سيرة بني امية بكم وسرقهم بكم . واستدلالهم لكم
واستلزامهم بدينكم ، وصدقكم ومة منكم ، لكم دمة الله تبارك وتعالى ان تحكم فيكم بما
انزل الله وتعمل فيكم بكتاب الله ، ونسير في العامة والخاصة منكم بسيرة رسول الله (ص) . بنا
بنا لبني حرب بن امية وبني مروان ، آثروا في مذهبهم وعصرهم العاجلة على الآجلة والدار القانية على
الدار الباقية ، فركبوا الآثام وطلعوها الانام ، واتهكوا المحارم يا اهل الكوفة انا والله ما لنا
مظلومين متبورين على حقتنا حتى اتاح الله لنا شيمتنا اهل خراسان ، فاحيا بهم حقتنا ، وافرح بهم
حجبتنا واظهر بهم دولتنا ولو انكم انتم تهتظرون ، واليد تشوقون فاطير فيكم المايعة من عاذم
وبعض وجرحكم ، وانالكم على اهل الشام وعلى اليكم السلطان وعز الاسلام ومن عليكم بالامام منحه
العذابة واعطاه حسن الايالة ، فخذوا ما اناكم الله بشكر ، وازموا طاعتنا ، ولا تخذعوا عن انفسكم
فان الامر امر كما قال لكل اهل بيت مصر او انكم مصرنا وبعد الاثمت الخطبتان والصلاة خرج
السفاح الى القصر ، واجلس اخاه ابا حنيفة ليأخذ البيعة على الناس في المسجد ، فقبول يأخذوا عليهم
حتى صلى بهم العصر ثم صلى بهم المغرب وحظهم القليل فدخل . وهكذا تمت البيعة للسفاح .

سياسة السفاح الرافضة

معركة الزاب

١ - حرمان بني مروان

٢ - حرم بني مروان من هبة

بعد ان يوقع السفاح بالسلامة بدأ بحاربة مروان بن محمد الاموي الذي كان لا زال حايضاً ومعه
جوش كبير ، فاختار السفاح محمد بن علي بن ابي بكر بن عبد الله بن علي الذي ذهب حارب مروان
وكانوا منتسبين بالسوادين في ارض حتى اتهموا الخدمين ، وكان خيولهم ورجالهم متهجداً بالسواد ايضاً
وكانت الماشقات فاقة بين ابي العون احمد قواد قسطنطينة الذي ارسله لفتح الجزيرة الفراتية ، وبين
جند الله بن الخليفة مروان الاموي اخاه عبد الله بن علي مدد ابي العون وتولى القيادة العامة وجاء

الخليفة مروان بنفسه بجيش كبير مؤلف من مختلف القبائل لمساعدته واجتمع الجيوش على نهر
 الزاب (١). وكان الجيش الأموي على الضفة اليمنى من الزاب ، والجيش العباسي على الضفة
 اليسرى . فرسل عبد الله بن علي خمسة آلاف من جنده ليعبروا النهر ، ولما وشوا بجيش مروان
 فضلوا ذلك ، وانسحبوا قبل حلول الظلام وفي اليوم الثاني عقد مروان جسرا فقدم ابنه لئال فهاجم
 جند العباسيين في ليل الأمر فقام عبد الله بن علي يشجع رجاله ويدعوهم إلى محاربة الأويين ويقول :
 « يا زب ! حتى متى تقتل فيك ؟ يا أهل خراسان ! يا ثارات إبراهيم ! يا محمد يا منصور ! » واشتد القتال
 واشتد وضع جيش مروان فذهب إلى قضاة وقال لهم : ازلوا فقالوا : قل لابي سليم قايلوا . وكان
 مروان كلما طالب من قبيلة أن تعارب قالت له أن يصاب من غيرها . وطارت الفرقة القبلية بين
 الزباني وتفرق جيش مروان فاراد ابن يشجهم قومه بالمال وأمرجه لهم وقال : « ادبروا وقاتلوا
 فيذه الاموال لكم » فلما رأها الجند تحولوا عن القتال اليها فرسل ابنه ليردهم . فلما ذهب لمحافظة
 على المسالك ظن النعم انه انهزم ، فنهزموا معه فاراد مروان الخيلولة دون انهزامهم فلما بقطع الجسر
 فقتل كثير من منهم وغرق كثير ونجا مروان إلا انه قتل في مصر كما سير معنا . وفي نريد موصيه
 الثالث السفاح بعد ان تخاض من مروان لقتل يزيد بن عمر بن هبيرة والي المواق الذي تخشن
 وبواسطه بعد ان هزموه الحسن بن قحطبة ، فرسل السفاح اخاه جعفر بجيش طارئة فاستند لقتل
 بين الطرفين أحد عشر شهرا ، ولما بلغ ابن هبيرة مقتل مروان طلب الصالح وجرت المناوشات
 بينه وبين المنصور فمته وكث بذلك كتابي ابن هبيرة يشاور العلماء فيه لوبين اليه حتى رضى
 ثم ارسله الى ابي جعفر فاقضه هذا بدوره الى السفاح فمهر بمضاهيه ، وبذلك تم الامر لابن هبيرة
 إلا ان السفاح استشار ابا مسي بالامر فاجابه « ان الطريق السهل إذا اقتت فيه الحجارة تنهد ، لا والله
 لا يصلح طريق فيه ابن هبيرة » فغدر السفاح به وأمر بقتله .

قال جيب
 في القصة
 حاططاً وفي
 من يلقى في
 مروان
 جند
 قتل
 في
 في

قتل الامويين وانصارهم

بعد ان غادر السفاح يزيد بن عمر بن هبيرة قام هو وأهله العباسيون بمنزلة رحبة في الامويين
 واعوانهم ، وكانت مدة حراقة السفاح ثلاثة بجوات القتي والقدر والدمج . قيل ان ابى العباس
 كان جالساً في بعض بيته في مجلس ثلاثة وعنده سليمان بن هشام بن عبد الملك وقد اكبره وتوسط
 معه فدخل عليه خاتمه سديف فقتله :

(١) نهر الزاب : احدي روافد نهر الدجلة ، يصب فيه من جهة المشرق .

لا يفرثك ما ترى من رجال
ان تحت الضلوع دالة دوبا
فضع السيف وارفع السوط حتى
لا ترى فوق ظهرها اموا

قامر السفاح بسليمان فقتل ، ومما قاله سيف هذا يهيج السفاح على الامويين قوله :

كيف بالغوا عنهم وقد بنا
أين زيد وابن يحيى بن زيد ؟
والامام الذي أصيب بحرا
ن امام المهدي ورأس الثقات
قتلوا آل أحمد لا عفا الله
ب لمروان غافر السبقات

وما فعله السفاح اصبح سنة عباسية يقتدى بها افعله وولاه لاسما اذا وجد من يهيج العباسيين
وبدكرهم بقتلهم فقد فعل عبد الله بن علي واخوته بالامويين ما ينبغي له الجبين ، قيل ان شبلي بن
عبد الله مولى بني هاشم دخل على عبد الله بن علي وعنده من بني امية نحو تسعين رجلا على الطعام
فقتلهم :

اصبح الملك ثابت الاساس
طويوا وزير هاشم فشفوها
لا تبقين عهد خمس شارا
خرمهم اظهر التودد منهم
وانتد ساء في وساء قبيلي
انزلوها بحيث انزلها الله
واذكروا مصرع الحسين وزيد
والثبيل الذي بحرات امي

بالليل من بني العباس
بعد ميل من الزمان وليس
واقطن كل رقعة وغراس
وبهم منكم كحل النواس
قربهم من نكارف وكراس
بدار المسوان والاماس
وقتيلا بيواسب الميراس
رحن رمس في غريه وناسي

قامرهم عبد الله فضرخوا بالعمد حتى قتلوا ، وبسط الضلوع عليهم فاكل الطعام عليهم وهو يسمع
انين بعضهم حتى ماتوا جميعا .

لم ينته عبد الله بهذه الواقعة التي اقامها على بيت الامويين ، بل تمداها الى بنش قبور بني امية
ومحو اثرهم فبنش قبر معاوية بن ابي سفيان فوجد فيه عظما كانتها الرماد . وبنش قبر عبد الملك بن
مروان فوجدت فيه جمجمته ، وكان لا يوجد في القبر الا العضو بعد العضو ، غير هشام بن عبد
الملك ، فقد وجد مخرجا مضربه بالسياسة وسلبه وحرقه وفرداه في الريح ثم تعقب اولاد الخلفاء من
بني امية فلم يفلت منهم الا من كان في المبد وادرك بعض الممارين الى الانكاس فقتلهم بنهر ابي

قطرس (١) واخذ اموالهم ولما اتى من عمله انشد :

| | |
|-----------------------------|-----------------------------|
| في امية قد اقيت جحكوا | فكيف لي منكوا بالاول الماضي |
| يطيب النفس ان النار تحبكم | وعوضتموا من انساها شر معاضي |
| منبتوا لا اقل الله نعتكم - | بليت غلب الى الاعضاء نهاض |
| ان كان غيظي لغوت منكوا فلقه | ميت منكم مما ربي به راض |

واكمل عمل السفاح وعبد الله بن علي اخوته سليمان بن علي وداود بن علي فقتل الاول بالبصرة جماعة منهم احضرم وعليهم الثياب الموشاة وقتل الثاني بمكة والمدينة عدداً وافراً منهم ، ولم يكن من الحرب والنجاة من هذه الجزيرة التي اقامها العباسيون في كل مكان الا عبد الرحمن بن معاوية ابن هشام الاموي الذي هرب الى الاندلس وأسس دولة اموية فيها كما سيأتي معنا .

لما آمن العباسيون شر الامويين ، وهدأت قلوبهم وتوطد ملكهم ، تهبوا الى ما فعلوه في ابناء عمهم من تقتيل وتشيع وعرفوا ان هذا امر اقتضته السياسة فحاول بعضهم ان ينقذ من تبقى من الامويين فكتب سليمان بن علي يطلب الامان من السفاح في بعضهم قتل الله : ، يأمر المؤمنين بالمقد وفد واقد من بني امية علينا ، وانا انسا قتلناهم على عقوبتهم لا على ارحامهم قلنا بجمعتنا وايام عبد مناف ، والرحم تبل ولا تقطع ، وترفع ولا توضع فل رأى امير المؤمنين ان يهرم لي فليعلم ، وان فعل فيجعل كتاباً يقرأ الى البلدان ان نشكر الله على نعمه عندنا وإحسانه اليانا فاجابه السفاح الى ما سأل فكان هذا اول امان اعطى لبني امية .

بعد ان قضى السفاح وأهله العباسيون على أكثر بني امية اتفقوا الى انصارهم ودعائهم ، الذين قامت دولتهم على ايديهم يسعون ان يخلصوا من يشكون في امره ويستعملون كل وسيلة في الوصول الى غايتهم ، فسلطوا بالامم الحراساني على ابي سلمة الحلال فقتله ، وقتل عماله وافساده الذين كانوا ببلاد فارس بحجة انه حاول نقل الخلافة منهم الى العلويين . وكذلك فعل ابو مسلم بساجان بن كثير شيخ الدعوة العباسية فقتله لانه شك بامرء .

إلا ان السفاح شك بامر ابي مسلم الحراساني واراد قتله ، فخرىض من ابيه بالنصير الا انه خاف من شيعته الحراسانيين ان يثوروا عليه . وعندما كتب اليه ابو مسلم يستأذنه في الحج ارسل الى ابيه ابي جعفر النصور بامرء بالحج ويؤمره على موسم الحج في تلك السنة حتى لا يؤمر ابي مسلم .

(١) نهر ابي قطرس : يضم الفاء وسكون الطاء وضم الراء وسين مبهمة . موضع قرب الرملة من ارض فلسطين .

فغضب هذا وقال : « أما وجد أبو جعفر علماً يحج فيه غير هذا ، وكان زاحم المنصور في الطريق
 ويظهر قوته وكبره ، كما ملاء قلب أبي جعفر المنصور حقداً عليه وانتقم منه أيام الخلافه كما سئرى .
 وكان السفاح يراقب العلويين مراقبة شديدة خوفاً منهم أن يخرجوا عليه فكان يأمر عبوته
 وبعض ثقاته عسايلي « قم بأمرهم ولا تأل في إلزامهم ، وكما خلوت معهم فاطمير النيل اليهم والتجامل
 علينا وعلى تاجيتنا ، وانهم اسحق بالأمر منا ، واحصي في ما يقولون وما يكون منهم في مسيرهم
 وعقدتهم »

بهذه السياسة الشديدة تمكن السفاح من نهضة الحالة في زمنه ، وهذه دعائم حكمه ، وجعل
 الخلافه في أسرته والتخلص من أعدائه ومن كل من شك في أمره فنجح خير نجاح ، وإن كانت
 بعض الطرق التي سلكها مشنوبة لانتقامهم والاضلال العربية إلا انها انتالهم ومصلحته هو ومصلحة
 أسرته .

سياسة السفاح الخارجية

انشغل السفاح بتهدئة الحالة الداخلية ، فلم يثن له القيام بأي عمل خارجي بل كانت بلاده معرضة
 لغزو الروم الذين اكتسبوا قسمة اشد من المسلمين بمضيق فهاجر اجدود الدولة النهاية ، فحربوا
 المدن والقفور ونهبوها وقتلوا من وجدوا من سكانها ، وأدتولوا على ملطية بعد حصار طويل ولم
 يتمكن المسلمون من إيقاف الروم وردم على أعقابهم إلا في خلافة المنصور .

تنظيم الدولة

قام السفاح بعد تهدئة الحالة الداخلية بتنظيم الدولة ، فعين اقربيه على الولايات لأنه يركن اليهم
 ويعلمون لهم ، كما انه يرضيهم بذلك ويسكنهم على متاعهم له ومساعدتهم إياه في قيام الدعوة
 والخلافة العباسية . فعين ابا جعفر المنصور على الجزيرة الفراتية وأرمينية ، وعبد الله بن علي على
 الشام ، وسالم بن علي على فلسطين ، وأبا العوز على مصر وداود بن علي على الحجاز واليمن والنجاة
 وسليمان بن علي على البصرة والبحرين والاحساء والاهواز ، وأبا مسلم الخراساني على ولاية المشرق
 وخراسان .

كما انه قام بحملة أعمال عمرانية ، فبنى الابراج وجعل المزارع على طريق الحاج من الكوفة الى
 مكة ، حتى يأمن الحاج من السلال والفياع ، كما انه رقم هذا الطريق فجعل رقماً عند نهاية كل ميل
 ليعلم الساري ما بقي عليه من الطريق وأسس مدينة الحشمية لكنه توفي قبل أن يتم بنائها ، وكان

صحته أولاً في الكوفة . ثم انتقل منها إلى الحيرة ، ثم إلى الأنبار ونقل إليها دواوينه وجعل مائة
الدرية بيد خالد بن برمك .

صفات السفاح وأخلاقه ورواية العرب ووفاته

كان السفاح مسلماً جليلاً يحمي الشعر مثويلاً لبعض أئمة الأئمة ، حسن التصحية . وكان سليماً
وقوراً عاقلاً كاملاً ، واشتهر بالكرم حتى قيل عنه كان السفاح استخى الناس ما وعد عدة فأجرها
عن وقتها ولا قام من مجلسه حتى يقضيها ، ومما يؤثر عنه قوله : « إن من أدباء الناس ووجهائهم
من عدل الخيل حزم أو الخيل ذلاء ، وقد قرب إليه الأدباء والشعراء والمثقفين ، وكان يطرب من وراء
الستور وكان يحب مسامرة الرجال وأهل العلم ، ولا يرغب في محاسبة النساء . تزوج قيل ولايته الخلافة
من — أم سلمة — ولم يتزوج غيرها بعد خلافته ، وكان له ولد منها اسمه أحمد ، ولدت أصهاراً وبناته
عبد السفاح لأخيه أبي جعفر بالخلافة ، وجعلها من بعده ليعي بن موسى بن حمزة ، وكتب عهداً
بذلك ، وصيره في ثوب وختم عليه بختامه وخواتيم أهل بيته ، وودعه إلى عيسى بن موسى ومات
بالخدي في الأنبار في ١٣ ذي الحجة سنة ١٣٦ هـ بعد حكم دام أربع سنين وتسعة أشهر ودفن في قصره
وكان يعاصره في تلكه البرزخيين قسطنطين الخامس (٧٤٦ — ٧٧٥) م وفي فرنسا كان يحكم في
عنده — بين القصير — من العائلة الكارولنجية .

أبو جعفر المنصور

١٣٦ — ١٤٨ هـ أو ٧٥٤ — ٧٧٥ م

ولد أبو جعفر سنة ١٠٩ هـ بالخيمية ، أبوه محمد بن علي العبّاسي ، وأمه — لامة البربرية ، وكان ضد
أخيه السفاح في التآمر على الثأرين والقضاء عليهم ، وكان أمير الحج سنة وفاة أخيه فأخذ له البيعة
بالأنبار عيسى بن موسى وكتب إليه بولاه السفاح وولايته كالمهد ، فلقبه الرسول بمكان يقال له
زكية . فدنا الناس فابموه وأبى أبو مسلم الخراساني وقال أبو جعفر : « أين موضعنا هذا ؟ » قالوا
زكية . فقال دأمر زكي لنا إن شاء الله تعالى ، وقت له البيعة .

مباشرة المنصور الراشدة

قسمت في زمن المنصور ثلاثة أحداث خطيرة ، تمكن من القضاء عليها بدعائه وحزمه وهي : (١)
ثورة عمه عبد الله بن علي (٢) مقتل أبي مسلم الخراساني (٣) ثورة العلويين برئاسة محمد النفس الزكية

١- لورد كزيم من رهبان الدير القبطية عمل صوره لوفياك وانظر على راسه قد حفر كذا
وتحمله في يده الشمامسة

[illegible]

اولا ثورۃ عبد اللہ بن علی : ص ۱۴۸ حدیث اول و دوم

ادعى عبد الله انه احق بالخلافة من المنصور وان السباع وعدده بها لما انفضت لخلافة مروان .
وشجعه العرب من اهل الشام على القيام ضد المنصور ، فجمع عبد الله جيشاً كبيراً من اهل الشام
والجزيرة واهل خراسان . وسار بهم الى ثغالي الجزيرة وعسكر عند مدينة اميدى . ولما علم
بذلك ابو جعفر المنصور سار اليه ابو مسلم الخراساني بحش من الفرس . ولرتكب عبد الله اخطاء
عديدة اخبرته المفركة منها : (١) انه كان في جيشه نحو سبعة عشر الف فرسي امر صاحب شرطته
فقتلهم خوفاً من ان يستميلهم ابو مسلم اليه (٢) خلف من حميد بن قحطبة احد كبار القواد في جيشه
فاراد ان يخلص منه ، فكتب له كتاباً ووجهه الى والي حلب ، وكتب اليه في الكتاب : اذا قدم
عليك حميد فاطرب عنقه . ولكن حميد شك بامر الكتاب وفتح في الطريق وعرف ما فيه ، ودعا
اصحابه لحرب عبد الله (٣) تمكن ابو مسلم بدعائه الخري ان يحتل مكان عبد الله الحسين ، وذلك بان
كتب اليه انه ذاهب لتولي الشام وانه لا يريد حربه ، ولم تكن هذه الحيلة لتدعاه الى عبد الله لانه
كان يعرف مكايده خصمه ، فكما اثرت في جند الشام الذين خانوا على عيالهم واموالهم من ابي مسلم والخوا
على عبد الله ان يسير بهم الى ديرهم . ولما خرجوا من مكانهم اسرع ابو مسلم واحتله وتخلص به
واصبح في مكان منيع . ثم اقتتل الفريقان ونفي العرب ستة اشهر ، واتى بظفر ابي مسلم في جمادي
الاحيرة سنة ١٣٧ هـ وجزية عبد الله بن علي الذي اثار عليه احد قواده ان يصبر ويقاوم حتى
يموت لان الفرار قبيح مثله ، وقبل باب على مروان فرائده وقال له قبح الله مروان جزع من الموت
ففر . ثم يصف عبد الله الى هذا الرأي ، وفر عابوا الى اخيه سليمان بن علي امير البصرة لاركا امواله
وجيشه لابن مسلم فآواه اخوه وحماءه وتوسط الى المنصور به فاعطاه الامان ، وقال انه سجنه في
دار اساسها من ملج ، فلما هطلت المطر سقطت الدار عليه ، على من معه فقتلوا ، وتخلص المنصور
منه سنة ١٤٧ هـ .

ثانياً مقتل أبي سعيد الخراساني :

خفي المنصور ان يثور أبو مسلم الخراساني وان يشكل حكومة فارسية منفصلة عن الخلافة
 عباسية ، وقد قام أبو مسلم بأعمال كثيرة أوقعت الريبة في قلب المنصور منها (١) عدم تعزيتة بعون
 السفاح ونهشته بالخلافة (٢) سخره رسائل أبي جعفر ونحكه على مرأى من الناس عليها عند قرائتها
 (٣) غطبه على رسول أبي جعفر الذي جاء ليحيي الغمام التي تركها عبد الله بعد هزيمته ، ومحاولة
 قتل الرسول لولا ان قيل له ، ما ذنب ؟ إنما هو رسول ، فحلى سبيله ، ولم يحككه من احصاء

الناس يقول : لا اكون امينا على السماء ، غير امين على الاموال (٤) كفتب اليه المصور كتابا يقول فيه : اني قد وليتكم مصر والشام في خبرك من خراسان ، فوجهته الى مصر من اميت واقم الشام حتى تكون قرب امير المؤمنين فان احب اليك اقله من قريب ، وكفتب غيلة المصور الى بعد ايامه عن خراسان لان حربه فيها ، فكتب ابو مسلم وقال : هو يوليى الشام ومصر وخراسان لي ، وصحهم على ان يذهبوا الى خراسان وسار حتى واصل حلوان . وهنا جاءه كتاب الخليفة بامره بالمشور اليه الى الانان . فابى : فارسل اليه كتابا مع عيسى بن موسى ولى مصر . ومعه ابو حمزة الرواسي وامره ان يملك البصرة باليمن ما يملك به احد وان يقيه ، فان ابى مهدده بقتل الخليفة عليه يومين نفسه على قتله حتى لو خاض البحر بخاصه حلفه ، ولو اقتحم النار لاقطعها وراءه حتى يشته . ففعل الرسول ما امره به الخليفة . وبلغ ابا مسلم ذلك فغضب اولاً ثم خضع لا سيما منه ما هو ان المصور عين على خراسان ورئيس الجند هناك طيلة حياته . وكفتب هذا الى ابي مسلم يقول له : يا ابا مسلم اخرج لمصيبة صفاء الله وأهل بيت نبيه (ص) فلا تخافن إمامك ولا ترجعن الا بآفته . فاستسلم عندها ابو مسلم وقطع الأمل من خراسان وقبل دعوة الخليفة .

كان المصور مصعباً على قتل ابي مسلم ولكنه اجتهد ان يكون الرجل آمناً لا يحسن انبياء من الجلاء ، فلما قارب ابو مسلم المدائن امر المصور في هاتم ان يرحبوا به ويقتلوه احسن لقاء وهكذا فعلوا حتى دخل على المصور فسلم عليه المصور . الا ان لا يشعرو به شي خفيف ، وامره ان يفرق قسوزيل واهل السقر ويخرج ليته ، ولما جاء اليه امر صاحب سره ان يجعل خمسة رجال اقرباء خلف ارماني . فلما سمعوا الفتيق خرجوا الى ابي مسلم وقولهم ثم دعا ابا مسلم فدخل عليه وجرب يمينه

المخافة الثانية :

المصور : اخبرني عن نسلين اوميا في مائة عبد الله بن علي ؟

ابو مسلم : هذا احدهم الذي على .

المصور : ارنيه !

ابو مسلم : اتقاه واوله اليه (فخذ ابو حمزة وهزه ، ثم وضعه تحت فراشه) وانما فعل

ذلك ليؤمن على نفسه حتى لا يفكك به ابو مسلم إنما احسن بالشر واقبل عليه بماتبه :

المصور : اخبرني عن تيمك ابي في طريق الحيرة ؟

ابو مسلم : كبرعت اجتماعنا على الماء فيضرب ذلك بالناس .

المصور : فمراؤقتك وخروجك الى خراسان ؟

ابو مسلم : خفت ان يكون قد دخلك مني شيء .

— انصباغ به اسلحه بر سر خود در ده روز از صباغ —

— كند خنجره بر سر خود — انصباغ به اسلحه —

المصور: انت السكاتب الى تبدأ بنفسك؟ والسكاتب الى لخطب امينة بيت علي؟ رداك الى
قتل سليمان بن كثير الخزازي مع ائمة في دوتونا وهو أحد نقبائنا قبل ان يدخلك في
شي من هذا الامر... ما ناعلمت في دوتونا وريعتنا، ولم كان ذلك اليك ما قطعت
فتيلا. لقد اوتيتك — لا املك — مرقى مديا

فاخذ ابو مسلم بيد الخليفة فاداه وبعثه، وصلى المصور فخرج حمية وحمل من وراء المنار
وقتلوا ابامسي، فقال قبل وفاته: استغفرني لعدوك، فاجابه المصور: اشي عدو أندى لي منك؟
مات ابو مسلم، وبعثه قضي على آمال الفرس الذين كانوا يطمحون إلى إعادة ملكهم المأثور،
وإرجاع مجدهم القديم، وتخلص ابو جعفر من عدو شديد المراسم، نوي يخشى بأسه. ومقتل ابو مسلم
بدلتنا على قوة خلفاء هذا الدور: وتكلمهم من القضاء على اندائهم بشي الاساليب والخرق. وبدلتنا
على حيوية الخلافة وان المظفر هم القابضون على ناحية الحكم، وان الامر لا يزال بيدهم ولم يخرج
منهم. ومن جهة اخرى نجد ان مقتل أبي مسلم قد أثر حماس كثير من الخراسانيين، الذين يعتبرون ان
اباسم بطليم القوي. فقال بعضهم انه لم يمت، وأنه يعود ودلا الأرض عدلا بعد ان تكون
قد امتلأت جوراً. وقال آخرون بأمانة ابنته فاطمة وهى المسلمية او الفاطمية وقام الفرس بعد ذلك
بحركات ثورية عنيفة. حدث بعضها في زمن المصور: كثورة سيناذ القارمي الذي قام في خراسان
مطالباً بدم أبي مسلم، وكحركة الراوندية: التي حدثت بعد عودة المصور من الحج سنة ٩٤٠ هـ
فقد التفت حوله جماعة من الفرس في مدينة المدشمية يقولون بتناسخ الارواح، وان ابا جعفر ربههم
الذي يطعمهم ويسقيهم قد اوى قصره، وطافوا حوله، فامر المصور بحبس اثنين منهم، فقتلوا
ودخلوا السجن واخرجوا اصحابهم منه. وتوجهوا إلى قصر المصور، يريدون قتله ولولا دفع معن
بن رائد^(١) عنه تقطعت على الخليفة في ذلك اليوم. وقد قام الفرس قتل هذه الحركات فيما بعد
سند كرها في حينها.

(١) — من بن رائد: الشيباني: هو قائد شجاع كان في أيام بني امية مشغولاً في الولايات ومنقطعاً
إلى يزيد بن عمر بن هبيرة أمير العراقيين. فلما جاءت الدولة العباسية وحاصر يزيد بن عمر بواسط
ابن معه يومئذ بلا حسناً. فلما سمع يزيد وقتل خاف معن على نفسه من المصور، فاستقر مدة طويلة
حصلت له فيما غرائب من اضرها: انه تذكر وركب جملاً قاصداً البادية. فبينما هو خارج من باب
المدينة تبعه عبد اسود مثقل سيفاً، فقبض على خطام جملة فأنزله، وقبض على يدي معن، وقال:
انت طلبة أمير المؤمنين، انت معن بن رائد. فلما رأى الجند منه اخرج عقد جوهر ثمنه اضغاث —

ثانياً ثورة العلويين :

كلام طه عبد الله عن السيد مفتاح عبد الوهاب محمد أنه المصنف في الدين بشرية

اضطرب العباسيون أبناء عمهم العلويين بالرغم ان الدعوة كانت لهم في بادئ الامر . وتنجي لنا ذلك في قول محمد بن عبد الله الملقب بالنفس الزكية ، الى عمه الحسن بن الحسين بن علي قال : والله يا عمي ! لقد كننا نعلمنا على بني أمية ما نعلمنا ، فما بنو العباس إلا أقل خوفة لله منهم ، وإن الحجة على بني العباس لا وجب منها عليهم ، وقد كانت لغووم السلاطين ومسكرهم ليست لأبي جعفر ، وكان المنصور قد بايع محمد النفس الزكية بالأمانة في آخر العهد الأموي . كما بيده أهل بيته بذلك ، لكفايته ومقدرته المعجبية ، حتى أنه سمي بالنفس الزكية . لسوء فكره وزهده ونسكه . ولما مارست الخلافة للعباسيين لم يبايع محمد النفس الزكية السفاح ، ولا المنصور بالخلافة : كما أنه لم يحضر هو ولا أخوه إلى المدينة مع بني هاشم عند ما حج المنصور في زمن أخيه مما أوقع الريبة في نفس أبي جعفر ، فصار يحفل يعرف أخباره وأخبار أخيه ، وولي عدة ولاية في المدينة بغية الحصول عليها والنق كغيرة من المال في هذا السبيل وأخيراً ولي المدينة أحد صانيك العرب وهو ربيع بن عثمان بن حبان المزي فأتى المدينة سنة ١٩٤ هـ واضطرب الأعراب الذين يستحقون محمد عندهم ، كما أنه أوهق بني الحسن - أسرة محمد النفس الزكية - وجسمهم في المدينة ، وأسلم بذلك محمد جد أبيه عند وقال لها وإني قد حملت إني وعمومي ما لا طاقة لهم به . ولقد همت أن أضع يدي في أيديهم فمسي الزنجي عنهم ، فتذكرت عند وليست أطواراً تم جاءت الدين كبرية الرسول فذل لها ، فلما آقا عبد الله أبو محمد النفس الزكية نهض إليها فاجبره بما قال محمد فقال : كلاً ! بل نصبر فوالله اني لأرجوا

— ما جعله المنصور من يأتي به ، فقال الأسود حذو ، ولا تكن سبباً لفك دمي ، فتأمله الأسود وقال : لست أقبله حتى أسألك عن شيء ، فإن صدقتني أطلقك ، إن الناس وصفوك بالجود . قبل وهبت ما لك كله ؟ قل : لا ! قل فضغه ؟ قل : لا ! ولم يزل حتى بلغ المأمر . فقال معن : نعم . فقال له الأسود : أنا رزقي من المنصور كل شيء عمرون درهما وهذا الخمر فيمنه الوفاء والغير . وقد وهبت لك ، وهبت نفسك وجلودك المأثور بين الناس ، وتعلم أن في الدنيا من هو أجود منك فلا تعجبك نفسك ، وتحتقر بعد هذا كل جود فمائه ولا تتوقف عن مسكومة ، ثم رمى القدر في حجره وترك ختام الجمل وولي منصرفاً . فقال له معن : والله قد فضحتني ونسكت دمي احزن علي بما فعلت ، فخذ ما دفعته لك فاني في غنى عنه ، فضحك وقال : أردت أن تكذبني في مالي والله لا أخذته ولا أخذت بأمر وفي ثمننا ومضى لسيده . . . وبعد حادثته الطاعية سمى المنصور : أسد الرجال وأعطاه الأمان وولاية الدين ثم - جستان . وقد قتله الخوارج سنة ١٩٥ هـ

ان يفتح الله به خيراً ، قولي له فليدع الى امره وليجد فيه فان فرجنا بيد الله ، فانصرفت وبقي محمد
على اختلافه . ولما حج المصور سأل عبد الله عن ابنه ، فذكر ان يكون عنده علم بها ، فبقيت
المصور كذبه . وأمر بناته مع المصورين من بني الحسن الى العراق فاحملوا متبدين بالانزال على
أسود حال الى قصر بن هبيرة (١) وعندهم فوات أكثرهم ولم يصح محمد النفس الزكية على عذاب
أهله فخرج في المدينة سنة ١٤٥ هـ وطرد أهلها وخطب في الناس وبساقته : يا أيها الناس ، إنه كان
من أمرنا وأمر الطاغية عدو الله ، أبي جعفر ما لم يخف عليكم من بانه أقبه الخضراء التي بناها
معاذ الله في ملكه ، ونصيراً للكبيرة الحرام ، وإنا اخذ الله فرعون حين قال : انار بك الأعلى ،
أيها الناس ، والله ما خرجت بين أظهركم وأنتم عندي أهل قوة ولا شدة ، ولكني اخترتكم نفسي ،
والله ما جئت هذه . وفي الأرض مصر بعد الله فيه ، إلا وقد اخذت في يده البيعة . ومن هذا الخطاب
يشين أن محمداً كان يعتمد على أهل الأمصار الإسلامية في قيام حركته ، والذي أوقعه في هذا الخطأ
وجعله غيماً ان دعوته قد انتشرت في جميع البلاد ، هو ان المصور كانت يكتب ل محمد عن الدين
قواده بدعونه الى العصيان وانهم معه . فكان محمد يقول : لم اتبعكم مال الى القواد كذب . وما
سب فشل حركته تأخر خروج أمية ابراهيم الذي كان يدعو له في البصرة . وكان متقدماً معه
على يوم بيزان معاوية . ولكن سادف ان ابراهيم كان مريضاً بالجدري فتأخر في توريته . وقد أخطأ
محمد النفس الزكية بالتمسك على المدينة في حركته إذ انها ليست بمركز حربي ولا تسليح الدفاع
لان حياتها من خارجها فلا تحتمل الحصار الا قليلا . كما ان أهلها ضعفاء لا يقعون على مقاومة - بل
المباشرين . وقد سأل بعضهم الامام مالك في خروجهم مع محمد ، وفي رقبهم بيعة للمصور فاتهم
بالخروج ، لانهم اسوا منكروهم ، وليس على منكره دين .

كان المصور حين بلغه خبر ان محمد ، مستغلاً بقاء بغداد وقد حمل اليه الخبر اوس الثمري
الذي قلع المسافة من المدينة الى الحسنية في تسعة ايام فعداه الحسنية تسعة آلاف درهم . واسترجع
المصور الى الكوفة وبعث اليها حتى لا تنفر منها احد ، ولا يدعها احد لا تبع شيعة كآل أبي
واحد المصور ان يرسل محمداً قبل عاصيته فكتب اليه كتاباً يقول فيه : يا أيها الله الرحمن
الرحيم من عبد الله عبد الله أمير المؤمنين ، الى محمد بن عبد الله . أما بعد فاننا جزاء الذين يحاربون
الله ورسوله ، واسعون في الأرض فساداً ان يقتلوا او يسلموا او قطع ابصارهم ولرجلهم من خلاف
او ينفوا من الأرض ذلك لهم جزاء في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم إلا الذين تابوا من قبل
ان تقدروا عليهم ، فاعلموا ان الله غفور رحيم . فثبت عهد الله وبشرته وحتى ندينهم (س) ان ثبت

(١) قصر بن هبيرة ، بلدة في شرقي الكوفة على نهر الفرات غربي بغداد .

ثورة ابراهيم

ابراهيم اخو محمد النفس الزكية ، جاء البصرة ودعا اهلها الى مبايعة اخيه ، فبايعه كثيرون من اهلها ، واتجاهه قتيان العرب ، ثم اعلن عصيانه واستولى على البصرة ، والاهواز ، واسط ، وكان لقتل اخيه تأثير عظيم في شل حركته . قام في ثورته متحزراً فتمكن المنصور من القضاء على كل واحد منها على حده ، ولمّا سمع المنصور بثورة ابراهيم أرسل يستحث عيسى بن موسى في القدوم لمخاربه ، كما انه انظر قدوم ابنه الذي مع جيشه من خراسان ، وظل المنصور سبعة اسابيع في الكوفة على سوء حال ينام على بساط ولا يبدل ثيابه السوداء ، خائفاً من قيام اهل الكوفة عليه ، وابس عنده حذر بحميمه ، حتى وصل ابنه وعاد جيش الحجاز وتحارب مع جيش ابراهيم عند باخري — بجوار الكوفة — وانقصر عليه وقتله . وبذلك تخلف المنصور من حركة العلويين هذه التي كانت خطراً على دولته . وعلى اثر ذلك خطب المنصور في وفد من اهل خراسان خطبة رائعة ولا هميتها نذكرها قال : يا اهل خراسان اتم شيمتنا وانصارنا واهل دولتنا ، فلو بايعتم غيرنا لم تباعدوا من هو خير منا ، وان اهل بني هذيل من ولد علي بن ابي طالب تركناهم والذي لا اله الا هو والخلافة لم تعرض لهم فيها بغيره ولا كثير ، فقام علي بن ابي طالب فتأطع وحكم عليه الحكمين فافترقت عنه الامة واختلفت عليه الكلمة ، ثم وثب عليه شيعة وانصاره واتحاده وجماعته وشقائه فقتلوه ، ثم قام من بعده ابنه الحسن ، فوالله ما كان فيها رجل قد عرشت عليه الاموال قبلها ، فندس اليه معاوية اني اجعلك ولي عهدي من يدي فخذعه ، فذبح له مما كان فيه وسلمه اليه ، فاقبل على النساء بزواج في كل يوم واحدة فيطلبها عدا ، ثم رزق على ذلك حتى مات على فراشه . ثم قام من بعده الحسين بن علي فخذعه اهل العراق واهل الكوفة واهل الشقاق والتفاق والاغراق والفتن ، اهل هذه المدينة السوداء (و اشار الى الكوفة بيده) فوالله ما هي بحرب فاحر بها ، ولا سلم سالمها عرف الله بيني وبينها ، فخذلوه واسلموه ثم قام من بعده زيد بن علي فخذعه اهل الكوفة وغروه فلما اخرجوه اطروه واسلموه وقد كان ابي محمد بن علي نائبا في الخروج ، وسأله ان لا يقبل اقبول اهل الكوفة وقال : انا نجد في بعض علماء ان بعض اهل ينما يصلب بالكوفة ، وانا اخاف ان يكون ذلك المصلوب ، ونشده عمي داود بن علي وحذره غدر اهل الكوفة فلم يقبل ، واتم غدره خروجه ، فقتل وصلب ، بالكوفة . ثم وثب عاتينا بنو ابي ذر بن اشرافنا وذهبوا عزلاً واقدما كانت لهم عندنا ثمة يطلبونها ، وما كان ذلك كله الا قيمه وبسبب خروجهم عناهم فنقلنا من البلاد ما لنا مرة بالثائف ومرة بالشام ، ومرة بالشراف حتى ابعثكم الله لنا شيعة وانصاراً ، فاحيا شرفنا بنا بكم اهل خراسان ، ودفع بكمكم اهل الباطل ، واظهر حقا واحبار اليتام ميراثنا عن نبينا (

فقر الحق مقوله . . . فلما استقرت الامور فبنا على قرارها من فضل الله علينا وحكمه العادل لنا وثبوا علينا ظمناً وحسداً منهم لنا وبنيائنا فضلنا الله به عليهم ، واكرمنا به من خلافته وميراث نبيه (ص)

جهلاً على وجبتاً عن عدوهم
ليأست الثلثان الجبل والجبلين
وشمره المنصور بن الحسن ، وحسن وقتل كثيرين منهم ، ومن اشرف البصرة الذين ساعدوا
للمعوية العلوية وهدم بيوتهم وحارب بسائيتهم ، وارسل رأس ابراهيم الى ابيه عبد الله في السجن ،
فراذله وحزنه وقتل الرسول : قل لاصحابك . قد مضى من يومنا ايام والمضى الزمان ، فلتبصر
المنصور من هذا القول واتخذ .
حادثة شمالي افريقية ،

لم تكن شمالي افريقية هادئة في زمن المنصور ، نظراً لبعدها عن مركز الخلافة ، واتهام الخوارج
بثورات متعددة فيها ، فطلب المال الذي يرسله الخليفة اليها وقد وفق الخليفة الى والي قدير وهو
يزيد المهدي الذي تمكن من تهدئة الحالة في شمالي افريقية ، وقمع ثورات الخوارج وتغلب بلوهم ،
واسترد منهم مدينة القيروان ، وقهر الامن في ربوع البلاد وبقي والياً فيها مدة خمسة عشر سنة الى
ان توفي سنة ١٧٠ هـ

سياسة المنصور الخارجية

اولاً بلاد الاندلس :

هرب عبد الرحمن بن معاوية بن هشام الأموي الى بلاد الاندلس ، في زمن أبي جعفر المنصور
وانس بها دولة أموية منفصلة عن الخلافة العباسية في بغداد ، وكانت هي أولى دولة انفصلت عن
ملك العباسيين ، وتسمى عبد الرحمن بالأمير فقط ، وقطع صلته مع الخليفة في المشرق ، وكان المنصور
مخيب من عبد الرحمن لقدوته وكفايته ، لتسكنه من الحرب من وجه العباسيين ، وتأيسه دولة
في الغرب ضاعفت ملك العباسيين في المشرق ، ولحقه المنصور ، صفر قرين ، ولم تكن العلاقة حسنة
بين الدولتين ، فان المنصور ارسل عدله على افريقية ابن مغيث اليحضي ليقزو بلاد الاندلس ، ففشلت
حميته فشلاً مريعاً ، وانزل بها عبد الرحمن هزيمة منكرة ، وبعث برأس قائد هذه الحملة الى مكة ، وأتى
بسر أيام المنصور ، الذي كان حاجباً في تلك السنة ، فارتاح ، وحمد الله الذي جعل بينه وبين صفر
قرين حجاباً .

ثانياً بلاد الروم :

غزت جيوش قسطنطين الخامس امبراطور الروم حدود المملكة الإسلامية الشمالية سنة ١٣٨ هـ واستولت على ثغر (١) بلطية وهدمت سورها ، فأرسل المنصور محمد صالح بن علي ، ومعه اخو المنصور العباس بن محمد بن علي في غزو الصائفة ، فغزوا الروم ، وأعادوا بناء ما هدمه الروم من بلطية ، وفي السنة الثانية سنة ١٣٩ هـ قاما بغزو أرض الروم من درب الحذت ، ومعها احتا صالح : أم عيسى ، وابنة ابنها علي ، وكانتا نذرنا ان قال ملك بني أمية أن يجاهدنا في سبيل الله . وهم في هذه السنة فداء (٢) بين المنصور وملك الروم ، اتفدى به المنصور اسراء المسلمين . وكانت الصوائف تتوالى في غزو بلاد الروم الى سنة ١٥٥ هـ ، وفيها طلب امبراطور الروم الصلح من المسلمين على أن يؤدي لهم الجزية ، وقبل بذلك المنصور ، وعقد بينهما صلح لمدة سبع سنين . وكانت هذه الحروب التي تجري بين المسلمين والبيزنطيين عبارة عن غزوات يقوم بها أحد الطرفين على الآخر إذا انس منه ضحفاً ، فيغير على البلاد ، وينهب ما اتصل يده اليه ، ويخرب الحصون والتمور ، التي يصادفها في طريقه ويعود الى بلاده ، ولم يكن يقصد من هذه الغزوات فتحاً واستيلاء دائماً وإنما هي عبارة عن مناورات حربية يقوم بها من يشعر بقوته وكفاءته ، وهي تدل على حيوية الدولة ونشاطها . وكانت الأراضي الواقعة على حدود الملكتين تتراوح بين الطرفين ، فمن كانت أحوال دولته الداخلية مستقرة والنظام والامن سائدين في بلاده ، توغلت جيوشه في تلك الأراضي واستولت عليها ، فذا ما اختلت الحالة الداخلية ، بقيام ثورات وفن ، وضعف الجيش الم رابط على الحدود ، لانتعاش الارزاق عنه ، تراجع الى الوراء ، واحتل الطرف الثاني مراكزه . وكانت الجنود الم رابطة على الحدود نوعين ، المرتقة وهم الحد المفروض لهم عطاء في الديوان ، والمطلوعة : وهم المقاتلون الذين يتطوعون من أنفسهم للجهاد في سبيل الله ، ولا يأخذون أجراً على ذلك ، ويكتفي الخليفة بتعيين قائد لهم .

ثانياً بلاد طبرستان والخرز :

كان أهل طبرستان القاطنين في الجنوب الغربي من بحر قزوين ، لازالوا على دينهم القديم ، ويتحكم رؤساء من بينهم ، بالرغم من أنهم خاضعون لحكم المسلمين ، وعندما عرفوا انقلاب الخلافة

(١) أطلق كلمة ثغر على المدن والحصون الواقعة على حدود المملكة الإسلامية ، زيادة على معناها الأصلي ، وهو ميناء على البحر .

(٢) كان الخلفاء - يقدون - اسراء المسلمين من وقت الى آخر ، فيبادلون مع الروم كل أسير قتله ، وإذا بقي من المسلمين من هو في الأسر ، دفعوا دينه وفكوه من الأسر .

الأموية ، وانتفضها لبني العباس ، ثاروا على العرب المواليين في ديارهم ، وفشكو بعدد غير قليل منهم فأرسل الخليفة جيشاً كبيراً هزمهم ونكّل برؤسائهم ، وألحق طبرستان نهائياً بالدولة العباسية . وقم أهل المدينتين بثورة على الخليفة ، فأرسل لهم المنصور جيشاً أخضعهم ، وبني الحصون والمعاقل على حدود بلادهم . وكذلك شق أهل الخزر في كورجيا عصا الطاعة على الخليفة فقمع المنصور حرّكتهم وأدب زعماءهم . وحاول الأكراد في الجزيرة الفراتية الثورة على الخليفة العباسي فأرسل لهم المنصور وزيره خالد بن برمك غملاً على بلادهم ، فاستطاع بعلابته وحزمه أن يقمع حرّكتهم ، ويثبّر الأمن والسلام في تلك البلاد .

كان سبب هذه الحوادث التي وقعت في أطراف المملكة أن الخلافة الإسلامية مرت في دور انتقال من بني أمية إلى بني العباس . فكان من الطبيعي أن يثور أهل تلك البلاد عندما وجدوا أن العرب يتنازعون فيها بينهم على الخلافة ، وأن أحوالهم الداخلية في بلادهم غير مستقرة ، ولتسكن المنصور سياسته الخازمة عرف كيف يخضع هذه الشعوب ، ويوطد نفوذه في بلادها .

أعمال المنصور العمرانية

بناء بغداد

أراد المنصور بناء عاصمة للكل ، وكانت المدينة في زمن النبي (ص) عاصمة المسلمين والخلفاء الراشدين الثلاثة الأولين ، أما الإمام علي فقد اتخذ الكوفة مقر حكمه لأن بها شيعته . ولما قامت الدولة الأموية جعل معاوية دمشق عاصمة الخلافة الإسلامية ، إلا أن دمشق لا تصلح عاصمة للخلفاء العباسيين ، لأن أهلها من حزب الأمويين ، ولأنها بعيدة عن بلاد الحجاز ، التي تضر أهلها بالباسيين وقاموا بدموتهم . فبنى السفاح قصرًا بجوار الأنبار على الضفة الشرقية من الفرات ، عند مخرج نهر عيسى دعاه الهاشمية . ثم جاء المنصور واتخذ له قصرًا آخر بين الكوفة والبصرة دعاه الهاشمية أيضًا ، ولكن هذا المكان لا يصلح أن يكون عاصمة للخلافة ، لذلك فكر المنصور في البحث عن مكان آخر يكون موافقاً لغرضه . فبحث ووجد أن برنادون له مكاناً مناسباً ، فاختاروا له مكاناً ببغداد ، فاستشار أهل ذلك الموضع من الرهبان ، فحسنوه له وما قالوه : « تنزل في بغداد ، فذلك تعبير عن أربعة طباسيح (نواحي) ... فإن تأخر عمارة طموج منها كان الآخر عامراً . رأت يا أمير المؤمنين على الصراة ودجلة ، تحيثك بالبصرة من الغرب . وفي الفرات من الشام وبصرة ، وتلك البلدان . وتحمل إليك طرايف الهند والسند والصين والبصرة وواسط في دجلة ، وتحيثك ميرة أرمينية وأذربيجان

والموصل وديار بكر وريقة . وأنت بين انهار لا يصل اليك عدوك الا على جسر أو قنطرة . وقد قطعت
الجسر لم يصل اليك عدوك ، وأنت قريب من النهر والبحر والجبل . فوافق الخليفة على هذا الموقع
وكان يسمى بغداد بالنسبة الى قرية قديمة كانت قائمة فيه . وأمر بإنشاء مدينة السلام في سنة ١٤٥ هـ
وأمر بجميع الصنائع والعمال من جميع الجهات والنواحي فأحضروا وكان عددهم نحو مئة ألف عامل ،
وأمر باختيار قوم من ذوي الفضل والعدالة والفقه والأمانة . والمعرفة بالهندسة . ليشولوا مراقبة
العمال ، وعند اللين ، ثم رسمت خطوط المدينة وتقسمت محلاتها . فأمر المنصور ان ينظر اليها ، فأمر
ان ينظر الرماح على خطوطها واقسامها كي تظهر ، ثم اقبل واخذ يدخل من كل باب ويمر في فاصلاتها
وطاقتها ورحابها ، وهي خطوطها بالرماح . ثم أمر ان يجعل على تلك الخطوط حطب القطن ، ويصب
عليه النفط ، فنظر اليها والثار تشتعل ، ففرحها وعرف رسمها وأمر ان يحفر أساس ذلك الرسم . ثم
ابتدى في محملها . ووضع المنصور اول لبنة بيده وقال : « بسم الله والحمد لله والأرض لله يورثها من
يشاء من عباده والعاقبة للمتقين » ثم قال : « ابتوا على بركة الله » واحتاج الخليفة الى أجر فقال لما لم
البرمكي : « ما ترى في تقض ايوان كسرى بالمذاني وحمل نقضه الى مدينتي هذه ؟ » قال خالد :
« لا أرى ذلك يا أمير المؤمنين : » قال : « ولم ؟ » قال : « لأنه علم من أعلام الاسلام ، يستدل
به الناظر اليه على أنه لم يكن ليزال مثل اصحابه عنه بأمر الدنيا ، وإنما هو على أمر دين ، ومع هذا
يا أمير المؤمنين فان فيه معلى على بن ابي طالب سلوات الله عليه ، فأجابه المنصور : « هيبات
يا خالد ! أبيت الا الميل الى اصحابك المعجم » ثم أمر المنصور ان ينتفض القصر الابيض ، فنقضت
ناحية منه ، وحمل نقضه ، ولكن الخليفة وجد أن هدمه يكلف أكثر من نفقات عمل أجر
جديد فتركه .

كانت بغداد في اول أمرها مدينة مدورة ، يحيطها سوران عظيمان ، وخارجها خندق عظيم فيه
ماء . وفي داخلها سور صغير يحيط بالساحة الوسطى وفي الاسوار اربعة ابواب متساوية الابعاد وهي
باب الكوفة . وباب البصرة . وباب خراسان . وباب الشام . ويحيطها عشرون ألف دراع . وفي وسطها
ساحة مستديرة فيها قصور وجامع وفي مركز هذه الساحة قصر الذهب . وهو قصر الخليفة
المنصور ، وكان فوق ايوان هذا القصر قبة خضراء على رأسها مثل فلرس في يده رمح . وكان
مقر الخلفاء العباسيين ، وكان يحول هذا القصر جامع المنصور . وكان في المدينة المدورة ايضاً
قصور اولاد الخليفة وبيوت الخدم وشككة لحرس الخليفة ، ودور لدواوينه المتعددة وتحت الاسواق
والحلات خارج المدينة المدورة ، وتم بناء بغداد سنة ١٥٠ هـ .

وفي سنة ١٥١ هـ بنى المنصور الرصافة لابنه المهدي وهي عبارة عن قصر وجامع في الجانب الشرقي

من بغداد ، وتوسعت بغداد بعد ذلك كثيراً .

اتفق المنصور على مدينة بغداد ثمانية عشر ألف دينار ، وحشر إليها العلماء من كل بلد وأقليم ، وأما الناس أفواجا ولم تزل تتماظم ويزداد عمرانها حتى صارت أم الدنيا وسيدة البلاد ومهد الحضارة الإسلامية في عهد الدولة العباسية ، وأراني سكانها على مليونين .

سقطت هذه المدينة العظيمة سنة ٦٥٦ هـ بعد حصار هولاكو الذي لها ، ولم يبق من أثارها القديمة اليوم إلا بعض الأطلال البالية ، ويعود سبب اندثارها وعدم بقاء آثار ظاهرة فيها إلى أن مائة البناء فيما كانت على الأغلب من اللبن والآجر ، اللذان لا يقويان على البقاء مدة طويلة .

وقام المنصور أيضاً بحملة أعمال عمرانية منها أنه بنى سنة ٦٥٥ هـ مدينة الرفقة ، كما شيد الأسوار وحفر الخنادق حول مدينتي الكوفة والبصرة . ولما أراد بناء سور الكوفة وحفر خندقها وأمر بأعطائه خمسة دراهم لكل رجل من أهل الكوفة حتى يعمل عددهم أمر بعد ذلك بجمع أربعين من كل واحد منهم ، فجمعوا هذه المبالغ وأنفقوها في بناء السور وحفر الخندق . فقال أحد الشعراء يذكر هذه الحادثة :

يا تقومي ما لنا
من أمير المؤمنين
قم الحجة فينا
وجيئنا الأربعين

وبنى المنصور كذلك قصراً عظيماً في المدينة بالجوار اتفق عليه أموالاً كثيرة ، وأمر بتزيين الحصون ، وإقامة المدن على حدود الدولة العباسية ، لا سيما الواقعة بينه وبين الأيوبيين ، وكان يزور تلك المواقع بنفسه ، ويرمم ما تخرب منها ، ويضع الخيميات فيها ، ويبنى حصوناً جديدة غيرها .

إدارة المنصور وصفاته

كان المنصور من أعظم الخلفاء العباسيين شدة وبأساً ، وعظمة وحزماً وملاحاً ، واعتناء بمصالح الرعية وجداً في بلاطه ، وهو موطن الحاكم العباسي ، ويعتبر بحق المؤسس الثاني للدولة العباسية ، كما كان عبد الملك بن مروان بالنسبة إلى الدولة الأموية . وكان يسيراً بطبيعته إلى النظام . يقدم نهاره كما يلي : ينظر في صدر النهار في أمور الدولة ، وما يعود على الرعية من خير ، فإذا صلى العصر جلس مع أهل بيته ، فإذا صلى العشاء نظر فيما يرد عليه من كتب الولايات والشؤون ، وشاور وزيره ومن حضر من رجالات دولته فيما أراد من ذلك . فإذا مضى ثلث الليل انصرف بمحماله ، وقام إلى فراشه فنام الثلث الثاني ، ثم يقوم من فراشه فيدخل في مجلس في محرابه حتى مطلع الفجر ، ثم يخرج فيصلي بالناس ، ثم يدخل فيجلس في أموره ، وبدأ عمله كمعادته في كل يوم .

والمصور هو الذي وضع أساس العقيدة القائلة بوجود تقيس مقام الخلافة وإعلاء شأنها ،
 وكان يعتبر نفسه ممثل الله على الأرض ، فيجب على المسلمين الخضوع له وعدم مخالفته ، فهو الذي جعل
 الخلافة هيئة دينية ، وصار الخلفاء من بعده يستمدون على هذه الفكرة ويحافظون عليها ، حتى
 انهم عندما حسروا سلطانهم في اواخر حكمهم بقيت لهم السلطة الدينية . وقد عبر المنصور عن هذه
 الفكرة بقوله : « ايها الناس ، انا انا سلطان الله في ارضه ، اذوسكم بتوقيفه وتسديده ، وثناخلره
 على قبته ، اعمل عشيته ، واقسمه بآرادته ، واعليه ياديه . قد جعلني الله غاية قفلا ، ان شاء ان
 يفتحني لا عطياتكم وقسم فيكم وارزاقكم فتحتي . وانا شاء ان يغلطني اقفالي . » وجعل المنصور الخلافة
 تحت ثقلها مظهر آرائها وكيانها ثابتاً . وجعل حوله طبقة من العلماء يشدون ازره ويدعمون سلطانه ،
 فجاء بأهل العلم والادب من كل جهة الى مدينه بغداد ، وترجمت كتب الفلب والتنجيم والعلوم
 والفلسفة من اليونانية والهندية والفارسية الى اللغة العربية ، وبدأ العرب يدونون العلوم الدينية
 ويضعون اصول الفقه ، وعمل المنصور على اثناء شربه تشجيع التجارة ، ووطد الأمن في البلاد ،
 فكان يطلب من صاحب شرفته « ان يعصف الضعيف من اقوي » ومن القاضي ان « لا تأخذ في
 الله لومة لائم » ومن صاحب الخراج « ان يستعفى ولا يظلم » ومن صاحب البريد ان يكتب بخبر
 هؤلاء على الصحة ، فكان ولادة البريد يكتبون الى المنصور كل يوم بامر القمح والحبوب والأدم ،
 وبكل حدث ، وكانوا يكتبون حوادث النهار اذا ملوا المغرب . ويكتبون اليه بما كان في كل ليلة
 اذا صلو الغداة ، فاذا وردت كتبهم نظر فيها فلما ربي الاسماء على خالها أمسك ، وان غير شي من
 حاله كتب الى والي العامل هناك وسأله عن الملة التي تحت ذلك عن سمعه ، فاذا ورد الجواب بالملة
 تطلب لذلك برفقة حتى يعود سمعه ذلك الى حاله ، وإن اذكر شيئاً كتب اليه بولته وبلومه . وكتب
 والي البريد يوماً الى المنصور يخبره ان واليه في حضرموت يكثر الخروج في طلب الصيد بزيادة وكلاص ،
 قد اعددها فكتب اليه : « تكثرت اماك ، وعددتك عشيترك ، ما هذه العدة التي اعدتها لتكابة في
 الوحش ؟ انا انا استكفيناك امور المسلمين . ولم نستكفك امور الوحش . » فلم ما كنت الي من
 عملنا الى فلان بن فلان . والحق بأهلك يوماً مدحوراً .

واشتهر المنصور بصفاته بصدائه ، وفكره بتخالفه دون رحمة ولا شفقة . دون ان يتقيد بوعود
 وعدها او عهود قطعا ، بل كان مذهبه « الغاية تبرر الوسيلة » . بها كان نوع تلك الوسيلة :
 وعرف المنصور بالثبات عند الشدائد ، ولا شك ان هذه الصفة كانت من أبرز الصفات التي

كفئت له النجاش قد تغلب على من خرج عليه من اهل بيته من العباسيين والعلويين ، وقضى على
ابن مسلم انطراساني ووقع ثورة الفرس ، ووطد دعائم ملكه بعد ان اصبح قاب قوسين أو أدنى من
الوهن والانهلال .

وعرف المنصور بالفصاحة في القول ، والابلية من مقصده ، وفي خطبه ورسائله اتى بالقامات
وكتبت في مختلف اللغات اكبر دليل على ذلك .

واشتهر المنصور بالجد في بلاطه ، لم يعرف منه ميل الى الهوى ، ولا شرب الخمر ، وردى منه حماد
التركي ما يلي : سمع المنصور يوماً في داره جدية فقال : يا هذا يا حماد ! انظر ، قد ذهبت ، فذا خادم
له قد جلس بين الجوارى وهو يضرب لمن بالطنبور وعن يضحكن ، نجبت فأخبرته فقال : واني
شيء الطنبور ؟ فوصفه له ، ثم قام حتى أشرف عليهم ، فلما همروا به تفرقوا ، فأخذ الخادم الضارب
وكسر الطنبور على رأسه وأخرجه من قصره .

وكان المنصور حريصاً على جمع المال ، كما كان أحرص منه على إنفاقه ، وكان يغلب عليه الشح
حتى ضرب المثل بشحه وحرصه ، فسمي «أبو الدوايق» لشده في محاسبة النيل والصناع على الحبة
والدائق - وهو مقدار لا يزيد على سدس درهم - فانه لما بنى مدينة بغداد كان ينظر في العروة بنفسه ،
فيحاسب الصناع والأجراء فيقول لهذا : أنت تفت القائلة ، ولهذا : أنت لم تتركز الى عملك ، ولغيره
أنت انصرفت ولم تكمل اليوم ، فيعطي كل واحد منهم بحسب ما عمل في يومه ، فلا يكاد يعطي احده
يوم واحد !! ولم يكن يعطي الشراء تلك المطايا البالغة حد الاراف ، وإنما كانت اعطياته الى القلة
أميل ، وكان يراقب اولاده حتى لا يذهبوا الى البذخ والغرف .

وبالحجة كان المنصور حازماً سديد الرأي ، حزين السياسة ، من غطاه الخوف وعقالاتهم ، شديد
الوقار ، وكانت الحمرة الاسلامية في يده وطوع امره ، إلا أنها لم تكن عربية خالصة ، حتى ان العرب
في العراق تقلدوا بالفرس ، وأخذوا منهم العادات والآداب والأزياء ، فلبسوا القبا وبنوا بيوتهم
فقال الشاعر أبو دلامة في ذلك :

| | |
|---------------------------|-------------------------------|
| وكننا نرجي من امام زيادة | فتراد الامام المعطى في التلاص |
| نراها على هام الرجل كاشية | دنات يهود جللت بالبرانس |

ولادة العزيز ووفاته المنصور

بعد ان هدأت احوال الدولة الداخلية واستقر الامر للمنصور ، فكر في نقل الخلافة لابنه
المهدي ، فعمل ابن أبيه موسى بن موسى على التنازل عن ولاية العهد ، واستعمل ضروب الحيلة في

الوصول الى غايته وتقديم محمد المهدي عليه ، وأخيراً تمكن من ذلك وأوصى ابنه وصية قيمة جاء فيها
 ... وأرغب الى الله عز وجل في الجهاد والحلمة عن دينه ، وإصلاح عدوه بما يفتح الله على المسلمين ،
 ويُمكن لهم في الدين ، وأبذل في ذلك مَهْجَتِكَ ومَجْدَتِكَ ومَالِكَ ، ونفقت جيوشك أيامك ونهارك ،
 وأعرف مرا كثر خيولك ومواطن رحلتك . والله فليكن عصمتك وحولك وقولك ...

وفي سنة ١٥٨ هـ حج المنصور ، وفي أثناء الطريق عرض له وجمعه واشتدت غلته ، وكان يسأل
 عن دخول الحرم ويوصي صاحبه الربيع بن يونس بما يُريد ، وتوفي عند طلوع الفجر في بئر ميمون
 — وهي بئر على ستة أميال من مكة — ليلة السبت في ٦ ذي الحجة سنة ١٥٨ هـ ، ولم يحضر عند
 وفاته إلا حاجبه الربيع فكتم موته ، ومنع النساء وغيرهن من الإكاء عليه ، ولما أصبح الصباح ، وحضر
 أهل بيته وجلسوا مجالسهم خرج الربيع إليهم ، وقرأ عليهم عهد المنصور الى ابنه ، ووصيته لهم
 بطاعته والقيام بدولته ، والوفاء له . وأخذ البيعة منهم ومن القواد فباعوا . ثم أرسل من اخذ البيعة
 للمهدي من أهل مكة والمدينة . ودفن المنصور مكشوف الرأس لأنه مات محرراً ، ودامت خلافته
 ٢٢ سنة . وكان يناصره في الاندلس : (عبد الرحمن الداخل) وفي فرنسا : (بين القصير ، ثم
 شارلمان) وفي القسطنطينية : (قسطنطين الخامس) .

المهري

١٥٨ - ١٦٩ هـ أو ٧٧٥ - ٨٧٥ م

هو محمد ولقبه أبوه المنصور بالمهدي ، وأمه أرزي بنت منصور الخيري ، وكانت تكنى أم موسى .
 ولد سنة ١٢٦ هـ بالحبشة ، ونشأ في بيت الخلافة ، ودعى أبوه بتثنيته وعهد به الى المنفل الضبي ،
 فعلمه بلها عربياً ، وجمع له امثال العرب ومختار شعرهم ، فنشأ فصيحاً يقوئ الشعر ويحمده ، ويحفظ
 كثيراً منه . ومن امثال العرب . ساعد أباه في قمع الفتن التي قامت في خراسان ، ونولى أمانة الحج
 سنة ١٥٣ هـ ، ولما توفي المنصور أرسل الربيع بن يونس رسولا يخبره بوفاة أبيه ، ويحث معه بقصيب
 النبي (ص) وورثته التي يتوارثها الخلفاء ، ويخاتم الأئمة ، فجاء الناس يعزونه بوفاة أبيه ، ويهشونه
 بالخلافة ، وكان أول من دخل عليه الشاعر أبو دلالة الذي انشده :

| | |
|---------------------------|-------------------------|
| عيناى واحدة نرى مسرورة | بأمرها جاتلى وأخرى تعرف |
| نبكي ونضحك تارة ويسودها | ما انكرت ويسرها ما تعرف |
| فيسودها موت الخليفة محرمأ | ويسرها ان قام هذا يخلف |
| ما إن رأيت كراثيت ولا أرى | شعراً اسرحه وأخبر اتف |

هذه الخليفة بل أمة أحمد
هذا جباه الله فضل خلافة
وأناكم من بعده من خلف
ولذلك جنات النعيم مترخرف
وخطب المهدي خطاب العرش في الجامع وبايعه المسلمون في بغداد .

سياحة المهدي الراغبة

كان المصور قد مهد لآبائه أحوال البلاد ، وأخضع شوكة اثنا عشر من علويين وعباسيين وخرس ، وترك له بيت مال عامر يكفيه عشرة سنين كاملة ، لذلك كانت حالة الدولة في أيامه سعيدة ، تشبه في كثير من الوجوه أيام الوليد بن عبد الملك ، بدأ المهدي أعماله بأن أطلق سراح المسجونين السياسيين وأبقى المسجونين الجرميين الذين في وقتهم دم أو قتل أو من كان معروفاً بالفساد والظلم . وفي زمنه خرج عبد الله بن مروان بن محمد الأموي ببلاد الشام سنة ١٦٦ هـ فحاربه المهدي وهزمه وقبض عليه وحجسه ثم عفا عنه ووسع عليه الرزق ، وخرج عليه في السنة التالية عبد السلام بن هشام البشكري في الجزيرة ، واشتدت شوكمته وكثر اتباعه ، وغاث في الأرض قساداً ، ولكنه هزم وقتل في قيسرين . وقامت عليه ثورة في الموصل ومصر فأخدها . وأهم الأحداث التي جرت في زمنه ثورة هاشم بن حكيم الملقب «بالقنق» لقب بذلك لأنه كان يضع على وجهه قناع من ذهب ليستر وجه وجهه ، وهو من أصل عربي ثار في خراسان ثم انتقل إلى ما وراء النهر ، وكانت خراسان مرتعاً خصباً لثقي الطوائف والمذاهب . وكان يقول يتناسخ الأرواح ، وأن روح الله تحمل من وقت إلى آخر في أحد عباده المصطفين ، وأنها حلت في شخصه كما حلت من قبل في آدم ونوح وأبي مسلم الخراساني . وهو يذهب إلى أن الديانة هي الإيمان بحسب ، وكانت تعاليمه إباحية تدعو إلى التحرر من القيود الأخلاقية ، فاستهوى جماعة كبيرة دافعوا عنه ، وحاربوا جيوش المهدي التي بقيت أربع سنوات تحاربه ، وكان أصحابه يلبسون ثياباً بيضاء ولذات سموا «بالمريضة» وقد حاصرتهم جيوش الخليفة في قلعة ، ولما اشتد على المنقع الحصار وقطع الأمل من النجاة ، أوقد النار في القلعة وحرق نفسه وأهله وأصحابه .

وقامت في زمن المهدي فرقة الرنادقة في خراسان وبلاد فارس والعراق ، وكان هؤلاء الرنادقة من الفرس الذين لم يتمكن الإسلام في قلوبهم ، اعتنقوا مذهب - مزدك - فعبدوا النار ، وأباحوا زواج الأخوات والبنات ، وتحالوا من كل قيد أخلاقي ، كما أنهم صاروا يخطفون الأولاد من الشوارع ، فحاربهم المهدي واضطهدهم وأسس دائرة خاصة للنظر في شؤونهم ومطاردتهم ، برئاسة - صاحب

الزنادقة - وكان ظهور هذه الفرقة وغيرها دليلاً على أن عقائد الفرس القديمة كانت لا تزال تؤثر في
 جسم الدولة الإسلامية ، ولا شك أن الفرس الذين فشلوا في الناحية السياسية ، رأوا أن خير وسيلة
 في إرجاع نفوذهم السابق للفرس في العقيدة الإسلامية وتطريق المسلمين إلى مذاهب وشيخ ، وهكذا
 فعلوا ففسدوا الأمة الإسلامية على نفسها وتوا في عضدها ، وفرقوا بين صفوفها ولم يخلصوا لها في
 أكثر الأوقات .

سياسة المهدي الخارجية

لم تكن العلاقة حسنة بين أمير الأندلس عبد الرحمن الداخل والخليفة المهدي ، إلا أن بعد المسافة
 بين الطرفين حالت دون معارضة أحدهما الآخر .
جبهة الروم :

كانت الحرب بين البيزنطيين والمسلمين دائمة في زمن المهدي ، وكانت المواقف والشواقي لا
 تبطل من قبل المسلمين ، كما كانت الفارات - مستمرة من قبل الروم . وكانت الحروب بين الطرفين في
 البحر والبحر ، وكانت كفة العرب هي الراجحة في هذه المرة ، ففي سنة ١٦٣ هـ أغر الجيش البيزنطي
 على البلاد الإسلامية فعات في المدن المجاورة فساداً ومخرباً ، كما استولى على مدينة مرعش ، وأشعل
 النار فيها ، وقتل بأهلها ، وما أن اقترب جيش المسلمين بقيادة الحسن بن قحطبة من البيزنطيين حتى
 تقهقروا من المواقع التي احتلوها ، وانتقم الفاتح العربي من الروم أشد انتقام ، غلب بعض مدتهم
 وتكل بالهيش ثم تشكيل . وكذلك قام هرون الرشيد بن الخليفة المهدي بجيش كبير من حلب
 - وكانت مركز حركاتهم ضد البيزنطيين - ومعه كبار رجال الدولة وقواده مثل عيسى بن موسى
 وعبد الملك بن صالح وحسن بن قحطبة وبجي بن خالد ، واستولى من مدينة سملا بعد أن حاصرها
 ٣٨ ليلة وضربها بالمنجنيق ، وتولى الرشيد بعد ذلك ولاية بلاد المغرب كلها ، ونظامها وأحسن إدارتها ،
 وعندما هاجمه الروم جبر عليهم جيشاً عدده (٩٥٧٩٣) رجلاً فغاربهم وهزمهم وأزال بهم خسائر
 فادحة . وواصل الرشيد زحفه حتى وصل القسطنطينية ، وكانت أربني - زوجة ليون الرابع -
 تحكم بلاد الروم بالنيابة عن ابنها قسطنطين السادس . وما أن رأت جنود العرب على ضفاف البوسفور
 حتى طلبت الصلح ، فأجابها الرشيد على طلبها على أن تدفع له جزيرة ستوبه كبيرة ، وتقيم الأدلاء
 والحرس والأسواق في طريقه ، وسلمت أسارى المسلمين ، وعقدن معه هدنة إلى ثلاثة سنوات ،
 إلا أن الروم غدروا وقصدوا عهدهم قبل تمام المدة فغار بهم المسلمون وظفروا عليهم .

غزو الهند :

أراد المهدي أن يوسع حدود بلاده الشرقية فأرسل حملة كبيرة سنة ١٥٩ هـ في البحر لغزو بلاد الهند ، فحاصر الجيش بلدة باريد سنة ١٦٠ هـ وأقاموا عليها يومين ، وضربوها بالسيف ، وقتلوا عتوة ، واعتلوا النيران فيها ، إلا أن الأمراض فتكت فيهم ، فاضطروا إلى الرجوع ، وفي أثناء عودتهم عصفت عليهم رياح شديدة كسرت مراكبهم ، فغرق كثير منهم ، وكانت بحيرة قلشلة لا تسبح المهدي فيها .

صفات المهدي وأعماله

كان المهدي محسناً كريماً ، شهماً فطناً ، سارع بعد اعتلائه منصب الخلافة إلى إصلاح أعمال الشدة والأوهام التي وقعت في عهده ، فأعاد المحدث للقدسة الامتيازات التي كان أبوه قد عطلها ، وسمح بإرسال الاعانات التي كانت ترسلها مصر إلى بلاد الحرمين الشريفين ، ورد إلى العلويين أملاكهم وأحسن إليهم ، وأعاد أموال المظالم التي عودت في زمن أبيه إلى أصحابها ، وكان المنصور قد وضع المال المصادر في أكياس ختمها وأودعها بيت المال ، وكتب على كل منها اسم صاحبها ، وأوصى ابنه المهدي أن يرد هذه الأموال إلى أصحابها ، أي كتب بهذا العمل قلوب الرعية ، وبني المهدي الابنية في طريق مكة ، وزاد على ما كان قد بناه أبوه في الجهات الأخرى ، وكان السفاح قد شيد عدة منازل في طريق مكة من القادسية حتى زباله ، فأمر المهدي بتعديد ذلك الطريق وتوسيعه ، وزاد في عدد المنازل وأثابها ، وسن المهدي سنة كسوة الكعبة بكسوة جديدة في كل عام ، بعد أن كانت توضع الكسوات بعضها فوق بعض . كما بنى الأحواض التي تملأ من الآبار لسقاية القوافل والحجاج ، وأقام الحرس لحماية الحجاج والمسافرين . وأجرى على أهل السجون والمزوءين ، حتى يتمتعوا عن السؤال ، وبحول دون انتشار الأمراض . وأعاد بناء المسجد الحرام وحملته ، إلا أنه محي اسم الوعيد ابن عبد الملك من حائط الحرم . ووسع المدارس والجوامع في جميع المدن المشهورة كما شيد جوامع جديدة في كثير من المدن . وجدد الأميال ، وأقام البريد بين مكة والمدينة والمين ، وأدخل عليه ضرباً من التحسين ، وعين الأمناء في الولايات ليؤاخذوا بأخبار الولاية ، وفساد العدل ، حتى عم الرضاء جميع أرجاء الدولة .

كان المهدي يميل إلى السنة فزعم المقاصير من المساجد ، وصير المنابر على القدوة الذي كان عليه

منبر الرسول (ص) . وكان يجلس المظالم وتدخل القصص (الامثلة) اليه ، فارتضى بعض أصحابه بتقديم بعضها ، فاتخذ بيتاً له شبك حديد على الطريق تطرح فيه القصص ؛ وكان يدخله وحده ، فيأخذ ما يقع بيده من القصص أولاً أولاً فينظر فيها ، فلا يقدم بعضها على بعض . وقد بلغ حبه للمعدن ، وميله الى رد المظالم لأصحابها انه كان يقول : أدخلوا نبي القضاة فلو لم يكن ردى المظالم إلا للحياء منهم لسكني . وكان المهدي لا يشرب النخبة ، وإن كان سملوه بدمه بونه في مجلسه ، وكان يسع الغناء وصارت بغداد في عهده مركزاً تجارياً عظيماً ، وكان محباً للادب ، ومشجعاً عليه حتى أصبح الادب والموسيقى من سمات هذا العصر ، وكان المهدي محباً الى الخاصة والعامة .

ومن خلقه الحياء والدفء والحلم . أراد ان يعتمد على العرب ويقرهم فجعل في المصاحبة (٥٠٠) فارس عربي لحراسته ، واكرمهم واقطعهم ارضاً بجوار بغداد إلا ان الفرس ضلوا متقايين على الدولة وكان المهدي موثقاً في اختيار دوزرائه ، وإن كانت السعاية أحلت بعضهم العذاب وسوء المعير . وكان حاداً في مطالب الزنادقة . والبحث عنهم في الآفاق والفتك بهم ، حتى قتل كثير من الأبرياء بهذه التهمة ، لأن هذه التهمة كانت وسيلة الى تشفي من يحب ان يشفي من عدوه وخصمه . وكان المهدي شديد الغيرة على النساء بالرغم من أن الخيزران زوجته كان لها نفوذ واسع عليه ، وكان قصرها مزدحماً دائماً بطلاب الوظائف ، وأصحاب الخواص . جاءت اليها - مزينة - امرأة مروان آخر خلفاء بني أمية ، تشكو رقة حالها ، فأفردت لها الخيزران جناحاً خادماً في قصرها تنم فيه بالقرب منها . وعكنا ان نقول ان المهدي في إدارة شؤون رعيته كان يعمل بوجه عام على رفاهية الأمة واسعادها وكان عصره مجداً للعصر الذهبي الذي أتى بعده .

ولاية العهد ووفاة المهدي

أقصى المهدي يحيى بن موسى عن ولاية العهد ، وجعلها توليده من زوجته الخيزران من بعده ، فتولى أولاً موسى الهادي وعقبه بعده اخوه هارون الرشيد . وفي محرم من سنة ١٦٩ هـ بما كان المهدي يديد الظباء على جواده ، دخل ظبي الى باب حربية ، فدخل قوس المهدي خلفه ، فدقه باب الحربية فقطع ظهره ، فمات من ساعته .

كان بعاصر المهدي في بلاد الاندلس (عبد الرحمن الداخل) وفي فرنسا (شارلمان) وفي بلاد الروم (ليون الرابع ثم قسطنطين السادس) ولعصره كان امه إيريني تنوب عنه في إدارة الممالك .

الرهادي

١٦٩ - ١٧٠ هـ أو ٧٨٥ - ٧٨٦ م

هو موسى الهادي ، أبوه محمد المهدي بن أبي جعفر المنصور ، وأمه أم ولد اسمها الخيزران ، ولد الهادي سنة ١٦٩ هـ وولاه أبوه العهد وعمره ستة عشر سنة ، وولي قيادة الجنود في الشرق . وفي اليوم الذي توفي فيه أبوه كان مقيماً بمرجبان ، فأخذ له أخوه هارون البيعة على الجند ، وأرسل إليه بخاتم الخلافة ، وبالفضيب والبردة والتمغية والتهنئة ، وتمت له البيعة .

سياحة الرهادي المرافقة

اضطهاد الزنادقة :

ورث الهادي عن أبيه كراهيته للزنادقة ، وعمل على استئصال شأقتهم ، وقد قام بوجوه أبيه التي أوصاه بها خير قيام وهذه الوجوه هي : « يا بني ، إن دارك هذا الأمر ، تتجرد لهذه العصابة (الزنادقة) فانها تدعو الناس الى ظلم حسن ، كتاب القوامش ، والزهد في الدنيا ، والعمل الآخرة ، ثم تخرجها الى تحريم اللحم وفس المساء الطيور ، وترك قتل الحوام تخرجها من هذه الى عبادة اثنين أحدهما النور والآخر الظلمة ، ثم تبيع بعد هذا شكاح الاخوات والبنات ، والاغتسال بالبول ، وسرقة الاطفال من الخراف فتقدم من ضلالة الفطنة الى هداية النور ، فرفع فيها المشب وجرد فيها السيف وتقرّب بأمرها الى الله لا تسبكت له » .

ثورة العلويين :

خرج الحسين بن علي (١) في المدينة سنة ١٦٩ هـ وسبب خروجه ان والي المدينة عمر بن عبد العزيز (٢) أخذ الحسن بن محمد النفس الزكية وجماعة كانوا على دراب لهم ، فأمر بظمرهم جميعاً ، وطيّف بهم في المدينة والجبال في اعناقهم ، فبعث الحسين بن علي الى والي وكلفه فيهم ، وكفل الحسن هو وبني بن عبد الله بن الحسن ، فاستغفى الحسن بن محمد النفس الزكية ، فطلبه والي من كنفيليه وسأله عنده ، فحلفوا انها لا يدرين موضعه ، فكلّمها بكلام اغلظ لها فيه ، فوعده يحيى أن لا ينأى حتى يأتيه به ، وخرجوا من عنده واعلنا الثورة ، وباع أكثر أهل المدينة الى الحسين ، وأتعب جماعته ما في بيت المال وذهب بهم الى مكة . فأمر الهادي محمد بن سليمان بن علي - وكان عائداً من الحج - بحاربة الحسين .

(١) الحسين بن علي بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب .

(٢) عمر بن عبد العزيز بن عبد الله بن عبد الله بن عمر بن الخطاب .

فأمره وقتله هو ومن كان معه ، وأفلت من الموت رجالان أحدهما إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي ، أخو محمد النفس الزكية ، ذهب إلى المغرب الأقصى ، وأسس في تلمسان بمساعدة البربر دولة الأندلس التي سيأتي الكلام عنها ، والآخر يحيى بن عبد الله الذي ذهب إلى بلاد الديلم ونار في زمن الرشيد .

صفات الهادي

كان موسى الهادي قاضي القلب ، شرس الأخلاق ، صعب المزاج ، كثير الأدب مجالاً له ، طيب المسامرة ، كثير النادرة . وكان شجاعاً جواداً سخياً طاهر التهمة . وكان شديد الثيرة على حرمه ، ويشبه في ذلك سابان بن عبد الملك في بني أمية ، وقد نهى أمه الخيزران أن يدخل عليها أحد من القواد أو رؤساء حكومته . بعد أن كان لها من نفوذ الأمر في عهد زوجها المهدي ما لم يكن لأمر آخرها . وكاف الخيزران في أول خلافه موسى كثيراً ما تكلمه في الخواص ، فكان يحبسها إلى كل ما تسأله حتى مضى لذلك أربعة أشهر من خلافته ، وأزال الناس عليها ولمعوا فيها ، فكانت المواقب تغدو إلى بابها . فكانت يوماً في أمر لم يجد إلى إجابتها إليه سبيلاً فقتل بأمه ، فقالت : لا بد من إجابتي ، قل لا أقبل ! قالت : قل قد تضمنت هذه الحاجة لعبد الله بن مالك . فغضب موسى وقال : وبلي على ابن الفائلة ! قد علمت أنه حاجبها ، والله لا قضيتها لك ! قالت : إذا والله لا أسألك حاجة أبداً . قل : إذا والله لا أبالي ، وحي غضبه ، فقامت معضبة . فقذف : ما كنت تستوعبي كلامي ، والله وإلا فانا نفي من قرايتي من رسول الله (ص) ثلث بلغي أنه وقف ببابك أحد من قواديه أو أحد من خاصتي أو خدمني لأضرب عنقه ، ولا أقضين ماله ، فمن شاء فليأثم ذلك ! ما هذه المواقب التي تغدو وتروح إلى بابك كل يوم ! أما لك منزل يشترك أو مصحف يذكر لك ، أو بيت يعصونك ، إليك ثم إياك ، ما فتحت بابك إلى مدني أو دمي : فأنصرت ما قتلت ما لظاً ، فم تنعاني عنده بحلوة أو مرة بعدها ، وكلم قواده بالأمرد منهم من التحدث معها ، واقطعوا عنها البتة ، فشق ذلك عليها ، فأنزلته وحلفت ألا تكلمه ، فلما دخلت عليه حتى حضرته الوفاة . وقد قالوا : إن الهادي حاول سبها فم يفلح . على أن الخيزران أفلحت في القضاء عليه حين مرض ، فقد ذكروا أنها دست إليه من جواررها من قتله بالجلوس على وجهه فبات خنقاً .

كان الهادي يجلس العظام ، ويغسل في دعاوي الناس ، ويرد الحقوق إلى أهلها ، وكان يرى الناس لا يصلحون إذا شجب خليفهم عنهم ، حتى أنه قل لحاجبه الفضل بن الربيع : لا تحجب دني الناس فإن ذلك يزيد عني البركة ، ولا تنق إلى امرأ إذا كشفت أسننته بأطلا فإن ذلك يوقع الملك

ويُفسر بالرعية . وكان موثقاً في اختيار وزرائه ، وكان يشرب الخبث ، ويسمع الغناء وهو أول من فعل ذلك من خلفاء بني العباس ، وكان شجاعاً قوياً روي عنه أنه كان يلب على الدابة وعليه درعان !

ولادة العبد

عزم الهادي على خلع أخيه هارون الرشيد ، والبيعة لابنه جعفر ، وشجعه على ذلك رجال بلاطه وكان يحيى بن خالد البرمكي يقوم بخدمة الرشيد ويصحه بأن لا يسقط عنه من الخلافة بعد أن طالب الرشيد نفسه بالخلع ، فبلغ ذلك الهادي فاستدعى يحيى وكلفه في ذلك فقال يحيى : يا أمير المؤمنين إن فعلت حملت الناس على نكث الأيمان ، ونقض العهود ، وتجرأ الناس على مثل ذلك ، وثو تركت أخاك هارون على ولاية العهد ، ثم بايعت جعفر من بعده كان ذلك أوكد في بيته . فثرت هذه النصيحة في الهادي مدة من الزمن ، ثم غلب عليه حبه لولده ، وإشعاره بحب أخيه ، فأحضر يحيى وفوضه في خلع الرشيد ، فقال له : يا أمير المؤمنين ، لو حدث بك حادث الموت وقد خلعت أخاك ، وبايعت لابنك جعفر وهو صغير دون البلوغ ، أفترى كانت خلافتك تصح ؟ وكان مشايخ بني هاشم يرضون ذلك ، ويسلمون الخلافة إليه ، قل : لا ! فقال يحيى : قدح هذا الأمر حتى تأتيه غفوة فمولى لم يكن الميدي بايع هارون لوجب أن تابع أنت له لئلا يخرج الخلافة من بني أبيك . ولكن الرشادة ما زالوا يوشون يحيى ويحرضون الخليفة على خلع الرشيد ، ويضيقون على الرشيد ويضطهدونه ، ويحطلون من شأنه حتى أشار عليه يحيى أن يستأذن الخليفة الهادي بالتأرجع إلى القيد ، فأذن له ، فلما غلب أكثر مما استأذن وطال غيابه ، كتب إليه بايع عليه في العودة ، وببالغ في تحنيره وإهانته ، والرشيد ينتحل الاعتذار حتى أتاه نعيه . وكان لتخبر أن يد في موته ، لأنها كانت غامرة على ابنها الهادي لابعادها عن المداخلة في أمر الملك ، وعجزها لابنها الرشيد الذي كان برأبها ، حتى أنها أرسلت إلى يحيى تأمره بالاستعداد للأمر ، فربما يحيى الكتب للعزل باسم الرشيد بقرم على ولايتهم ، ويبلغهم وفاة الهادي ، ولمسات الهادي بعثت الكتب على البريد ، وكانت وفاته في ١٤ ربيع الأول سنة ١٧٠ هـ بعد حكم دام سنة وشهراً ، واثنين وعشرين يوماً ، وكان يعاصره في تلك الأثناء من كانوا يعاصرون أباه .

هارون الرشيد

١٧٠ - ١٩٣ هـ أو ٧٨٦ - ٨٠٩ م

ولد هارون الرشيد بالري سنة ١٤٥ هـ . أبوه محمد المدي ، وأمه الخيزران ، ولاد أبوه الميدي

أعمالاً كبيرة لما عرف فيه من الكفاءة والمثابرة ، وفي سنة ١٦٤ هـ ولاء المغرب كله من الانسحاب إلى أطراف إفريقية . وفي سنة ١٦٦ هـ جعله المهدي ولي العهد بعد أخيه الهادي . وفكر المهدي قبل وفاته في العدول عن عهده السابق ، وأراد أن يرشحه بالخلافة بمدة مباشرة وساعده على ذلك الخبزان ، لأنها كانت تحبه وتؤثره على أخيه الهادي ، إلا أن منية المهدي حالت دون ذلك .

تولى الرشيد الخلافة في ليلة التي توفي فيها أخوه الهادي ، وهي ليلة مات فيها خليفة وهو الهادي وجلس فيها خليفة وهو الرشيد ، وولد فيها خليفة وهو المأمون .

كانت خلافة الرشيد أزهى زمن مر على المسلمين ، وأظهم عهد مر به التاريخ العربي ، فدوى اسم الرشيد في مشارق الأرض ومغاربها ، وتحدث الركبان عن ازدهار العلوم والآداب والفنون ، فكان عصر الرشيد عصر بحري ، شاب عقول أهل الغرب ، وزها نفوس أهل الشرق ، فبو عصر الف ليلة وليلة ، الذي يوحى صوراً مختلفة دارت كلها حول شخص الرشيد . فكان الرشيد صورة عصره ، ومرآة زمنه ، انكسرت عليها حياة جميع الناس على اختلاف طبقاتهم . وسخرى الزهرة الصور عند الكلام عن أخلاق الرشيد .

مباشرة الرشيد الدافعية

ثورة العلويين :

لم يضر العلويون عن المطالبة بالخلافة في زمن من الأزمان . وبالرغم من تسامح الرشيد معهم في بدء ولايته ، وإطلاق سراح من كان مسجوناً منهم في بغداد ولم يرجع إلى المدينة ، فقد ثار عليه يحيى بن عبد الله بن الحسن في بلاد الديلم ، واشتدت شوكته فيها . فأرسل الرشيد إلى قتالة الفضل ابن يحيى البرمكي ، ومعه خمسون ألف مقاتل ، فاحتال الفضل عليه ، وكاتبه واستأله إليه ، وما زال به حتى قبل بتقديم الطاعة إلى الخليفة على أن يعطيه الأمان ، فأداه الرشيد ما طالب ، وجاء إلى بغداد فأحسن إليه الخليفة وأمر له بحال كثير ، وتقدم بنزل فخيم ووضع تحت إشراف الفضل الذي أطلقه دون عم الخليفة مما سبب غضب الرشيد عليه وعلى أسرته وتكبته لهم .

وحاول الرشيد القضاء على دولة الأديسة العلوية التي نشأت في بلاد المغرب (مراكش) ، فأراد أن يرسل جيشاً للقضاء عليها ، ولكن بعد المداخلة عدل عن ذلك ، وأرسل سليمان بن جرير الملقب بالشيخ . وطلب منه أن يحتال في قتل إدريس بن عبد الله بن الحسين ، أخي يحيى المتقدم المذكور ، وزوجه مالا يستعين به . فذهب الرشيد ودين السم لأدريس وفر هارباً . ومات إدريس

بمسبب من
عسايب
سليمة المراكشية

سنة ١٧٧ : ولم يكن له ولد ، وكانت له جارية حاملاً ، فانظروا وضعها فولدت غلاماً سموه ادريس باسم والده ، ورجوه حتى كبر ، وابعوه بالخلافة . واستمرت دولة الادارسة في المغرب كما ستفصل ذلك فيما بعد .

١) تأسيس دولة الاغالبة :

كان ابو جعفر المنصور قد عين يزيد الهادي على افريقية (تونس) وخلفه من بعده داود واخوه « روح » الذي عينه الرشيد حاكماً هناك سنة ١٧١ هـ . فعلم البلاد سبع سنين بحزم وقوة . وبعد موته قامت قبائل البربر بشورات على ابنه سنة ١٧٨ هـ فاضطر الخليفة الى اخضاعها ، خوفاً ان يخرج شمال افريقية من يده . فأرسل هرثمة بن أمية على جيش كثيف استطاع ان يقضي على الثورات ويضع الأمن ، وبعد ثلاث سنوات احتل هرثمة بن حكم افريقية بعد ان عرف صمودية اخضاع البربر ، فعين الخليفة مكانه حاملاً ظهر عجزه في ادارة تلك البلاد ، فعرض ابراهيم بن الاغلب على الرشيد استمداده لدفع اربعين الف دينار سنوياً ، على ان يحمل حكم افريقية دورياً في امرته ، فقبل الخليفة ذلك ، لان تلك البلاد كانت تكاف بيت مال المسلمين مئة الف دينار تؤخذ من خراج مصر في سبيل تسديد نفقات حكومة افريقية . ولتف هذه الدولة في وجه دولة الادارسة التي نشأت في المغرب . وبذلك تم تأسيس دولة الاغالبة التي كانت خاضعة اسمياً للحكومة المركزية في بغداد ، واصبح مركزها القيروان .

ثورة الخوارج :

خرج الوليد بن طريف الشامي على الرشيد سنة ١٧٨ هـ وذهب تهر دجلة حتى وصل الى حلوان ، وكثر فيها اتباعه ، فبعث الرشيد اليه يزيد بن مزيد الشامي وهو ابن اخي مدين بن زائدة الشامي ، فجهزت بين الطرفين معارك شديدة تبارز فيها القائدان فقتل الوليد والهزم الخوارج وقضي على ثورتهم ، وبعث يزيد رأس الوليد الى الخليفة بعلقه بظفره . ومن جميل ما قيل في رثاء الوليد قول اخيه القسارعة :

| | |
|---------------------------------|----------------------------|
| أيا شجر الخاور ماتك مورقاً | كأنك لم تجزع على ابن طريف |
| فلا يحب الزاد إلا من التقى | ولا المال إلا من فنا وسيوف |
| ولا الدخر إلا كل جرداء صلوم | معانودة فكسر بين صفوف |
| حبيب الندي ما عطر برضي به الندي | فان مات لا يرص الندي بحليف |
| فقدناك فقدنا الشباب والبنات | فقدناك من قياتنا بألوف |

وما زال حتى أزهق الموت نفسه
عابسه سلام الله وفقاً فاني

شجاً لعهده و نجاً لضميف

أرى الموت وقاعاً بكل شريف

نورة أهل الشام :

حدثت بلاد الشام مدة من الزمن لها أصابها من سقوط الدولة الأموية وتحويل الحياة السياسية منها إلى العراقي . ولم يكن العباسيون يهتمون بشؤونها ، بل تركوا الخيل على غزبه ، فقامت المنازعات بين القيسيين والهاشميين ، وظلت دمشق مسرحاً للاقتتال والحروب الداخلية ، فقال أحد الشعراء :

قد حاجت الشام هيجاً

يشيب رأس وليده

فولى الرشيد موسى بن يحيى البرمكي والياً عليها فأخرج بين أهلها وسكت الفتن وهدئت البلاد .

نورة أهل خراسان :

كانت بلاد خراسان في زمن الرشيد مصدر النفاق والفتنة ، وظلت كذلك حتى بعد موته . فاستشار الرشيد وزيره يحيى بن خالد البرمكي في تولية علي بن عيسى بن ماهان بلاد خراسان فأشار عليه ألا يفعل ، لخالفه الرشيد ودلاه إياها . فسار هذا الوالي في إدارته خراسان سياسة الظلم والفساد ، واستنصب الأموال من الأهالي . وكان يرسل إلى الخليفة من الهدايا ما لم ير منها من الخيل والرفيق والثياب والأموال . فقال إبراهيم بن خالد : « هذا الذي أثمرت ألا توليه هذا الثغر ، فقد خالفناك فيه فسكن في خلافك بركة » فقال يحيى : « يا أمير المؤمنين جعلني الله فداك أنا وإن كنت أحب أن أصيب في رأيي ، وأوفق في مشورتي ، فانا أحب إلي من ذلك أن يكون أمير المؤمنين أعلى ، وقراسته أثق ، وعلمه أكثر من علمي ، ومعرفته فوق معرفتي ، وما أحسن هذا وأكثره أن لم يكن فيه ما يكره أمير المؤمنين ، وأسال الله أن يعينه ويعضه من سوء عاقبته ونتائج مكروهه » . وبين له أن هذه الأموال قد استلبها الوالي من الأهالي ذلماً وعدواناً . إلا أن الرشيد لم يصغ له وأتى عني بن عيسى على ولايته ، فكتب أهل خراسان إلى الرشيد يشكون سوء سيرة الوالي ونهب أموالهم وشده في معاملتهم ، فعزم الرشيد على الخروج لحاربته ، وعسكر في الري ، فقدم عليه عني بن عيسى من خراسان بالأموال والهدايا والاعراف أكثر من الهدايا الأولى ، ووزع على أولاد الخليفة ورجال بلاطه وكتابه وخدمه وقواده كل على قدر مرتبته وطبقته ، فرضي الرشيد عنه ورده إلى خراسان وخرج مشبهاً له . فرجع الوالي إلى خراسان وعاد سيرته الأولى ، وانتقم من كتبوا إلى الخليفة أشد انتقام .

وحدث في ذلك الوقت أن رجلاً من أهالي سمرقند يدعى رافع بن ليث بن نصر بن سيار أغوى

امراً من ذوي البسار الى الكفر ، تخلصاً من زوجها يحيى بن الاشعث الطائي الذي ذهب الى بغداد ،
وأقربها وطالت غيبته ، وتزوج رافع بالمرأة ، فاشتكى يحيى بن الاشعث الى الخليفة ، فأرسل الى عامله
علي بن عيسى يأمره ان يفرق بين رافع والمرأة ، وان يعاقبه على فعلته ، فنفذ الوالي امر الخليفة ،
وسجن رافع ففر هذا من سجنه ، واستغاث بأبن الوالي عيسى بن علي . فأعانه وكلم أيام ففعل عنه ،
وأذن له في الانصراف الى سمرة ، حيث قام بشرة وقتل عامل الخليفة فيها ، وباعه كثير من الناس
في سمرة وما وراء النهر ، فأرسل اليه علي بن عيسى ابنه عيسى فقتله رافع فديباخ . وكان عيسى
قد دفن في بستان داره بباخ أموالاً عظيمة ، فعم الناس بها ، فدخلوا البستان ونهبوا الاموال ، فبلغ
الرشيد الخبر فقرر عزله وتبينت له خيائته وجبنه . وسوء سياسته ، فأدفع هرثة بن ادين وولاه
تغر خراسان ، وكتب لعلي بن عيسى كتاباً يحظه يومئذ فيه ، ويطلبه بعزله ويقول فيه : ... وقد
وليت هرثة بن ادين مولاي تغر خراسان ، وأمرته ان يشد وطأته عليك وعلى ولدك وكتائبك وعمالك
ولا يترك وراء ظهوركم درهماً ولا حقاً لستم ولا معاهداً ، إلا اخذكم به حتى ترده الى اهله ، فإن أبيت
ذلك واباد ولدك وعمالك ، فله ان يسطر عليكم العذاب ، ويحب عليكم السياط ... فقبض هرثة على
علي بن عيسى وأتباعه وهدم اموالهم ، وأرسلها بعد عيبتهم الى الرشيد محملة على ١٥٠٠ بعير ، وذهب
هرثة الى الجامع فخطب في الناس ، وقرأ عليهم كتاب تدينه . ففرح الناس وسروا خلاصهم من
والي القديم وعلت اصواتهم بالنهيل والتكبير وكثرة الدخا لأمر المؤمنين . واهتم هرثة بتجارة
رافع بن ايت . ولكن استفحل امره دعا الرشيد الى العذاب بنفسه لمريه ، إلا ان القية ادر كنهه
وهو في طوس في طريقه لحرب رافع ، وفي نازراً لزم من المأمون ، عندما جاء مسلماً من غير قتال .

أسرة البرامكة

نسب هذه الأسرة الى جدّها برمك ، وكان يخدمه النعمان ، وهو مجيد المعجوس في باخ ،
توفي فيه النعمان . وكان برمك وشوه مدينة طند المريد . وأدنى البرامكة ان الملوك الفرس القدماء
هم الذين أسسوا هذا الهيكل ، وقتلوا ائمة من سلالة وزراء الملوك الساسانيين ، وكان برمك خبيراً
بالفلك والطب ، شفى على يده مسعدة بن عبد الملك ، ويشك المؤرخون بسلامه ، وظهر من اولاده في
أوائل الدولة العباسية خالد بن برمك .

كان خالد من اكبر دعاة العباسيين ، وكان ذا صفات طيبة ، أهله لسيادة ورفعة القادر
حتى استوزره ابو العباس السفاح بعد هلاك أبي سلمة الخليل ، فكان مديراً امره ، غير انه لم يكن

يسمى وزيراً تشافماً من الوزراء ، إلا أنه كان يعمل محل الوزراء ، وفي خلافة المنصور في خالدي منصبه مدة من الزمن ثم ولاد فارس ، وانكسرت عليه جملة من المال ، فعمل إلى بغداد ، وطول بالمال ، ونظر المنصور أنه لم يحضر المال بعد ثلاثة أيام ، فاستعان بأصدقائه فأعطوه ووفى ما عليه ، فولاد المنصور الموصل ، فأحسن إدارتها حتى قل بعض أهلها ما يحبنا قط أميراً هيباً خالدين برك ، من غير أن تشد عقوبته ولا ترى منه جبرته ، ولكن هيبه كانت له في صدورها واستمر والياً على الموصل حتى وفاة المنصور ، وتوفي خالد في أوائل خلافة المهدي سنة ١٦٣ هـ .

يحيى بن خالد :

كان يحيى واحداً الدنيا للعلم وأدباً وفطلاً ونبلاً وجوداً . رباب أبوه فأحسن تربيته . وترى يحيى في كنف الدولة العباسية ، وكان عند أبيه في ملهاته وشهائده ، وقد اختاره المنصور لولاية أذربيجان سنة ١٥٨ هـ وقال له عند توليته : قد أردت لك لأمر مهم من الأمور ، واخترتك لشغل من الثغور ، وكانوا لا يولون ثغور إلا من كانت تتهم به عظمية . وكان محمود السيرة في ولايته ووفى والياً حتى وفاة المنصور . وفي سنة ١٦٢ هـ اختاره المهدي ليكون كاتباً ووزيراً لابنه هارون فكان معه يدبر أمره ، وهارون لا يناديه إلا بأبي ، وذلك لأن زوجة يحيى أرضعت هارون بلبان ابنها الفضل ، وأرضعت الخيزران الفضل بلبان ابنها هارون . وفي سنة ١٦٣ هـ خرج هارون لغزو الصائفة ، وكان يحيى على أمر العسكر ونفقائه وكتابته والقيام بأمره . ولما نكب المهدي يحيى لذلك الأمر قال له : إني قد تصفحت أبناء شيعتي ، وأهل دولتي ، واخترت منهم رجلاً هارون ابني أضمه إليه ليقوم بأمر عسكره ، ويتولى كتابته ، فوعدت عليك خيرني له ، ورأيتك أولى به ، إذ كنت مريته وخاصته ، وقد وليت كتابته وأمر عسكره . وفي سنة ١٦٤ هـ لما ولي المهدي ابنه هارون المغرب كله أمر يحيى بن خالد أن يساعده في ذلك ، فكانت إليه أعماله ودواوينه يقوم بها ، واستمر على تلك الحالة إلى أن مات المهدي ، ولما تولى الهادي إبقاء على حاله مع هارون ، حتى إذا انفرد بالهادي انبجس أنجاء من ولاية العهد ابتدأت محنة يحيى ، فانه هو الذي جبراه على الاستمساك بمحنة الذي منحه إياه أبوه المهدي . وكان هارون قد طاب نفساً بالخلع ، فقال له يحيى : لا تفعل . فقال الرشيد : أليس يترك لي الهني والمرى وأعيش مع ابنة عمي — وكان هارون يحيد بأمر جعفر وجداً شديداً — فقال له يحيى : وابن هذا من الخلافة ؟ وإرشاد يحيى تمكن الرشيد من المحافظة على حقه في ولاية العهد ، وحفظ هذا الجليل له ، فولاد وزارة النقوبض عند استلامه الخلافة وفعله : قد كنت أمر الرعية وأخرجته من عني اليك ، فاحكم في ذلك بما ترى من الصواب ، واستعمل من رأيت ،

وانزل من رأب ، وامنض الامور على ما ترى ، ودفع اليه خاتمة ، فأصبح الحبل والعقد بيد يحيى وصارت جميع الاموال اليه ، فعلا شأنه وبعد صيته واصبح هو وأولاده كعبة الآمال ، وغدت تشد اليهم الرحال ، وفي سنة ١٧٦ هـ ضم الرشيد اليه خاتم الخلافة فاجتمعت له الوزراء ، وفيه يقول ابن المقفلي : نهض يحيى باعباء الدولة اتم نهوض ، وسد الشفور وتدارك الخلال ، وجبى الاموال ، وعمر الاطراف . وأظهر رونق الخلافة ، وأصدى لمهبات الممالك ، وكان كاتباً بليفاً ايدياً ادبياً سديداً ، صاحب اقراء حسن التدبير ، ضابطاً لما تحت يده ، قوياً على الامور ، جواداً يباري الرمح كرمياً . وسواك ، محدثاً بكل اسان ، ساعياً شفيهاً وفوراً مبرهاً ، وله يقول القائل :

لا تراني مصافحاً كفت يحيى لاني لست فعلت ضيعة مالي

لو تيسر البخيل راحة يحيى لسخت نفسه ببذل النوال ...

وكان يحيى اربعة اولاد وهم : الفضل ، وجعفر ، وموسى ، ومحمد ، وستكلم عن كل واحد منهم بإيجاز .

الفضل بن يحيى :

هو اكبر اولاد يحيى ، وكان عضد ابيه ينوب عنه في جلائل اعماله ، وقد رضع مع الرشيد وبذلك يقول مروان بن ابى حفصة :

كفى لك غمراً ان اكرم حرة غذلك بشدي والغايضة واحد

ولما ولد الامين جملة الرشيد في هجر الفضل وعهد اليه بتربيته ، فكان له أبا . وفي سنة ١٧٦ هـ

نذبه الرشيد لحرب يحيى بن عبد الله الذي تولى بلاد الديلم ، وولاد تلك البلاد ، فخرج اليه ولم يزل يحتال في امر يحيى حتى استنزله من معتقه بأمان من غير ان يربق في ذلك ففعل قدم ، إلا حين الدياسة . وفي سنة ١٧٨ هـ ولاد الرشيد خراسان وثنورها ، فأحسن اليه فيها ، وبني بها الرباطات والمساجد ، وغزا ما وراء النهر واخضع الثاثير واتخذ في خراسان جنده من الفرس وعظم « الباسية » ، وجعل ولائهم له ، وبلغ عددهم خمسمائة الف رجل ، جاء بعشرين ألفاً منهم الى بغداد ، وحالف الباقى في خراسان على رؤسهم ، وقد خرج الرشيد مع بني هاشم لاستنزاله عند عودته ، وعرف الفضل بكرمه وكفائه ، وصمى بالوزير الصغير لانه كان يخلف اياه في اعماله .

جعفر بن يحيى :

اشتهر جعفر بالقصاصة والفطنة ، والحلم والكرم وخلافة الوجه وسماحة الاخلاق . وكان الرشيد يأنس به ، ويؤثره على اخيه الفضل لثراثة اخلاق الفضل . فل الرشيد يوماً يحيى : قد أحبت

ان اتقل ديوان الخاتم من الفضل الى جعفر وقد استجيت من مكاتبته في هذا المعنى ، فاكتب انت
اليه . فكتب يحيى الى الفضل : « قد امر امير المؤمنين اعلی الله امره ان تحول الخاتم من بيتك الى
شمالك » فأجاب الفضل الى ذلك واعطى اخاه الخاتم .

وفي سنة ١٧٦ هـ ولاء الرشيد مصر ، وفي سنة ١٨٠ هـ ارسله لحرب اهل الشام على اثر فتنة
اشتعلت فيها ، فأصلح بين الناس ، وضرب على ايدي المشاغبين منهم ، ولم يدع بهارحاً ولا فرساً ،
وعاد الى بغداد يشفع الخليفة في اهل الشام ويستعطف قلبه عليهم ، ففقا عنهم . وفي نفس السنة
ولاه خراسان ثم عزله عنها ليوليه امر الحرس الملكي . وفي سنة ١٨٢ هـ بايع الرشيد لابنه المأمون
بولاية العهد بعد اخيه الأمين ، وضمه الى جعفر بن يحيى ليكون المدير لأمره ، كي كان الأمين مع
الفضل بن يحيى . وبلغ نفوذ جعفر في الدولة وتأثيره على شخص الخليفة الى حد يشك في تصديقه .
فيقال ان عبد الملك بن صالح (٢) من قرابة الخليفة ، جاء الى جعفر يلتبس منه ان يختلط الرشيد
في ثلاثة حوائج فسأله جعفر عنها فقال : « لو لم اكن علي ديناً مبلغه الف الف درهم لريد قضاؤه ،
وثانيها لريد ولاية لاني يشرف بها قاره ، وثالثها لريد ان تزوج ولدي بابتنة الخليفة ، فثما بنت عمه ،
وهو كفء لها ، فقال له جعفر : « قد قضى الله هذه الحوائج الثلاث : اما المال ففي هذه الساعة
يحمل الى منزلك ، واما الولاية فقد وئيت ابنك مصر ، واما الزواج فقد زوجته ثلاثة ابنة أمير المؤمنين ،
على صداق مبلغه كذا وكذا ، فانصرف في امان الله : » وعندما عاد عبد الملك بن صالح الى منزله
وجد ان المال قد سبقه ، ولم يالك من القدر حضر جعفر عند الرشيد وأعلمه بما جرى فأقره على
تصرفه . ولم يخرج جعفر حتى كُتب لابن عبد الملك تعليد ولاية مصر ، وعقد عقده على ابنة الرشيد .
فان صحت هذه الرواية فيكون جعفر قد بالغ من النفوذ ما تقاويل به على شخص الخليفة ، ونسبكم في
اموره الخاصة .

موسى بن يحيى :

كان أشجع إخوته واشدهم بأساً ، وكان قائداً شجاعاً ولده الرشيد بلاد الشام سنة ١٧٦ هـ عندما
هاجت بها الفتن ، فأصلح امورها واسكن الثورة بها . وانهمه علي بن عيسى أمير خراسان بالآرة
الاضطراب فيها ، وحببة أهلها له ، وانه يعمل معهم على الخروج على الرشيد . فعلم الخليفة بذلك فغضب
عليه ، واتفق ان يقتل موسى بسبب دين عليه ، فتأكد الرشيد من صدقة الوشايات عليه ، وأمر
به فحبس في الكوفة سنة ، ولم يدلق سراحه إلا بوساطة — أم الفضل — وضمالة ابيه يحيى .
فمما الخليفة عنه وخلع عليه .

(٢) عبد الملك بن صالح بن علي بن عبد الله بن عباس

محمد بن يحيى :

كان محمد شجاعاً بعيد الهمة ، ولم يكن له من الثروة ما كان لأخوته ،

وكانت هذه الأسرة في عهد الرشيد غرة في جبين الدولة العباسية جمع أفرادها من الصفات الحمودة ما استحقوا به ثناء معاصريهم من الكتاب والشعراء وكانوا من (الإلانة والولاء الكلام ، كما كانوا مبرزين في حلية الجود والسخاء ، تهزم الأرمية عند سماع المدح ، فيجودون بما ضن به الكرام ، حتى أنشوا الناس ذكر الأقدمين .

وظل البرامكة في خدمة الدولة العباسية إلى سنة ١٨٧ هـ عندما فكهم الرشيد .

نكبة البرامكة

١٨٧ هـ

١٨٩ هـ

تعود نكبة البرامكة إلى الأسباب الآتية :

أولاً : ازدياد نفوذهم ، وكثرة بذخيم وعظائمهم ، حتى مدحهم الشعراء ومارت قصورهم تضاهي قصور الخلفاء . فكان يحيى إذا ركب أمد صررا في كل منها مائتا درهم يدفعها إلى الذين يقفون في طريقه ، ويكتمون معونته . وعمر جعفر داراً كلفته عشرين ألف ألف درهم أقل له بعض أصحابه . وهو شي لا آمنه عليك غداً بين يدي أمير المؤمنين هـ . (١)

١ - فل ابن خلدون في نكبة البرامكة ما يلي : « أما نكبة البرامكة ما كان من استبدادهم على الدولة ، واحتياجهم أموال الجباية ، حتى كان الرشيد يطلب اليهم من المال فلا يصل إليه . فقلوبهم على أمره ، وشركوه في سلطانه ، ولم يكن له معهم تصرف في أمور مملكته ، فغلبت آثارهم ، وبمدحهم ، وعمرؤا مراتب الدولة وخططها بالترؤساء من والدهم وصنائعهم ، واحتازوها عن سواهم : من وزارة وكتابة وفيادة وحجابة وسيف وقم . يقال : أنه كان يدار الرشيد من ولد يحيى بن خالد خمسة وعشرون رئيساً من بين صاحب سيف ، وصاحب قلم ، زاحموا فيها أهل الدولة والمناصب كبر ، ودفعهم عنها بالراح لمكان ابنهم يحيى ، فتوجه الأشرار من السلطان إليهم ، وغلبت الدالة منهم ، وانبط الجاه عندهم ... ونحفت إليهم من أقصى الخنوم هدايا الفول ، ونحفت الأمراء وتسربت إلى خزائهم في سبيل الزائف والاسئلة أموال الجباية ، وأفضوا في رجل الشيعة وعظماء القرابة الطغاة ، ولوقوم المن ، وكسوا من بيوتات الأشراف المعدم ، وفكوا العاني ، وأمدحوا بما لم يمدح به خليفاتهم ، واستولوا على القرى والضياع من الضواحي والأصوار في سائر الممالك ... فكشفت لهم وجوه المنافسة والحسد ... »

ثانياً : الى استبدادهم بالامر دون الخليفة ، وتقليلهم على الحكم والسلطة والاموال وتسيير شؤون الدولة دون مراجعة الخليفة ، فكانت الخليل تردحهم ببلهم والمراجعون يتوجهون اليهم ، ويلتصون منهم حاجاتهم ويطلبون معونتهم . .

ثالثاً : الى عدم اخلاصهم للاسلام ، حتى ان الهادي اتهم يحيى بالكفر . ويروي انهم كانوا لا ينصتون عند تلاوة القرآن ، ولا يظفرون احترامه له .

رابعاً : الى اعتمادهم على المتصر القاري وتقريرهم رجال القوس اليهم . وكانت الخيزران — التي عادت اليها امتيازاتها التي حرمتها ابداً الهادي — تقدم نفوذاً . وتزري شكيتهم . ولكت البرامكة خسروا معونتها بسبب وفاتها .

خامساً : الى تخوف الرشيد من اخذ الحكم لانفسهم ، وانشاء دولة فارسية تقاوم الدولة العباسية . سادساً : يلزم الى الحزب العلوي ، واطلاق جعفر البرمكي : يحيى بن عبد الله العلوي من جهة دون علم الرشيد . ولما بلغ الفضل بن الربيع — عذوهم ومناوئهم — التأثير الى الخليفة ، سأل الرشيد جعفر البرمكي : « ما فعل يحيى بن عبد الله ؟ » قل : بحاله يا امير المؤمنين في الحابس الضيق ، والا كبر : قل : بحياتي ! فاسجهم جعفر — وكان من ادق الخلق ذهنًا واسجهم مكرًا — فمحس في نفسه انه قد علم بشي من امره ، فقال : لا وحياتك ياسيدي ، ولكن اطلتته ولجت الله لا حياة به ، ولا مكروه عنده . قل : زلتهم ما فعلت : ما عدوت ما كان في نفسي ، فلما خرج ابعه بصره ، حتى كاد ان يتوارى عن وجهه ، ثم قال : قتلتني الله بسيف الهادي على عمال الضلالة ان لم اقللك .

سابعاً : قيام الحزب العربي وعلى رأسه « زينة » يساند بها الفضل بن الربيع في الكيد لهم والوشاية عليهم ، وحض الرشيد على تقييد سلطانهم . « أثر ذلك في نفس الخليفة حتى منع يحيى من الدخول عليه دون اذنه ، وكان سابقاً بدخل عليه وهو في فراشه ، وأمر الخدم والخدمان ألا يقوموا له اذا دخل عليه ، وكان يحيى يستقي الشرية من الماء في حارس الخليفة فلا يستقونه ، وان سقوه يكون ذلك بعد ان يدنو بها مراراً .

كأنياً : قصة العباسية المشكوك في صحتها ، وهي تزوج جعفر بالعباسية أخت الرشيد ، وإبلاؤها غلاماً

كلى هذه الأسباب جعلت الرشيد يتأكد من عدم اخلاصهم له وللدولته وثابيت العباسي فعمل على نكبتهم سنة ١٨٧ هـ . امر مولاه مسروراً الخادم بقتل جعفر ، ورايت جثته على جسر بغداد ، وسجن يحيى وإولاده الباقيون . ما عدا محمد — بسجن الرقة ، ومودرت اموالهم ، وارسلت كتب الى الولاة في جميع أنحاء الدولة بتصادرة الاكوم واقبض على مناصريهم . وانتبرت حياة هذه الاسيرة بهذه النتيجة السيئة بعد ان خدمت الدولة العباسية نحو ١٧ سنة . وتوفي يحيى في السجن

سنة ١٩٠) وحسن به ابنه الخضر بعد ثلاثة سنوات ، ولم يفرج على الباقين الا في خلافة المأمون
عندما أعاد اليهم أموالهم وامتنيازاتهم .

سياسة الرشيد الخارجية

عظمت هيبة الدولة في زمن الرشيد في الداخل والخارج ، والمزاد نفوذ الخليفة في البحر والبر
ولما كان عنده من الجيوش والاساطيل ، وحارب أعداء البيزنطيين وكان متغلباً عليهم . كما انشأ أولمان
— ملك فرنسا — بقرب منه ، وطلب موافقة وبنا على سداد كرم ما جرى من المصادات في هاتين
النسبتين .

أولاً: حروبه مع البيزنطيين :

بدأ الرشيد حروبه مع البيزنطيين منذ عهد أبيه المأمون ، ولما صارت الخلافة اليه تابع محله في
غزو الروم ، فمكّن يغزو عاماً وبحج عاماً ، وترك عاصمته آياته — بغداد — وانتقل الى الرقة ليكون
قريباً من البيزنطيين . ومنذ السنة الأولى من حكمه نظم حدود مملكته الواقعة بقرب البيزنطيين
وكانت بلاد الشام قبل زمنة تقسم الى أربعة أجناد وهي : جند دمشق ، وجند فلسطين ، وجند الأردن ،
وجند قيسرين . فزاد ولاية جديدة دعاها جند المواسم وهي الأقسام الشمالية من بلاد الشام الواقعة
على حدود البيزنطيين ، فصالحا عن الجزيرة وجعلها مستقلة عن غيرها ، وأما سميت بالمواسم لأن
المسلمين كانوا ينتصمون بها من العدو اذا انصرفوا من غزوه . وكانت الثغور الإسلامية الواقعة على
حدود بلاد الروم تقسم الى قسمين : ثغور الجزيرة : في الشمال الشرقي وثغور الشام : في الشمال الغربي .
وهذه الثغور تحمي الجزيرة والشام من غزوات البيزنطيين .

وأهم الثغور الجزرية هي : مرجش ، عين زربة ، الحارورية ، ملطية والحدث .

وأهم الثغور الشامية هي : طرطوس ، المصصة وطوانة .

وحصن الرشيد هذه الثغور ، ووضع فيها حديدات قوية للدفاع عن حدود المملكة . ولما بنا

تحتاج اليه من زاد وذخيرة .

وأشهر القواد المراتبين في هذه الثغور هم : عبد الملك بن صالح . وكان مركزه في منبج ،
خلفه بعد عزله القاسم بن الرشيد في هذا المركز . وكان في طرطوس فرج التركي . وكانت الحروب
متواصلة تقريباً بين العرب والبيزنطيين في البر والبحر ، فاستعاد العرب جزيرة قبرص ، وغزوا جزيرة
كربت وغيرها من جزر البحر وشواطئه ، وأسيروا أمير البحر البيزنطي ، وكانت كفة العرب هي

الرجحة على الروم . وكان يحكم الروم امرأة تدعى « ايريني » باسم ابنتها الصغير قسطنطين السادس ،
 فقامت في الملك . فسلمت بين ايديها سنة ٦٨٢ هـ وأعلنت نفسها ملكة ، وثقلت باسم « اوجستيا »
 وساعدتها في ادلة الدولة عشيقها الذي « أوتوبوس Aetius » . فارتعابها الروم . فاكسب العرب
 هذه الاضطرابات الفاتحة في بلاد الروم . وغزوا بلادهم ، فطلبت ايريني الصلح من الرشيد ، مقابل
 جزيرة تدفعها له سنوياً فقبل الرشيد بذلك . وكانت ايريني مشغولة باخماد الثورات الداخلية الفاتحة
 عليها ، والدفاع عن بلادها من هجمات جيوش شارلمان ، الذي كان يعمل على القضاء عليها من ناحية
 الغرب ، وما لبثت ايريني بعد خمس سنوات قضتها في اخماد الثورات الداخلية ، وحاربة أعدائها
 الخارجيين أن سقطت وقم بدلا منها « نففور » ، فمقد معاودة مع شارلمان ، دين بها تقوم المعارك
 والتفت بعد ذلك الى العرب ، وكتب كتاباً الى الرشيد يقول فيه : « من تقفون ملك الروم الى
 هارون ملك العرب ، لما بعد فان الملكة التي كانت في اقلشك مقام الخ ، وأقامت نفسها مقام البيدق ،
 فحصلت اليك من اموالها ما كنت حقياً بحمل أمثاله اليها ، لكن ذلك ضعف النساء وحققهن ،
 فاذا قرأت كتابي فاردد ما حصل قبلك من اموالها ، وانتد نفسك وإلا فالسيف بيننا وبينك »
 فلما قرأ الرشيد الكتاب استغره الغضب ، ودعا بدواة ، وكتب على ظهر الكتاب : « بسم الله الرحمن
 الرحيم : من هارون امير المؤمنين الى تقفور كلب الروم ، قد قرأت كتابك والجواب ما تراه دون
 ان نسمة » وقام الرشيد من يومه وسار حتى وصل هرقلة ، وانصر على الروم واضطر تقفور الى
 الخضوع ، ودفع جزيرة سنوية ، فلما رجع الرشيد الى الرقة تقضى تقفور العهد وخان الميثاق ، وكان
 البرد شديداً ، فبأس الروم من رجمة العرب ، ونهب رجال الدولة أخبار الرشيد بالخير لاشفاقا عليه
 وعلى انفسهم من الكربة في مثل تلك الايام ولكنهم دسوا له شائراً أنشدوه قوله :

| | |
|----------------------------|--------------------------|
| نقض الذي اعطيته تقفور | وجابه دائرة الخوار خدور |
| أمر امير المؤمنين فانه | تبع ذلك به الاله كبير |
| تقفور امير حزين تقور ان ذى | سنت الامام بالمثل مقور |
| أضحت حين غدرت أنك مغت | عذلك امك ما طفت غرور |
| ان الامام على اقتدارك قدر | قربت ديارك أم نأت بك دور |

فمرف الرشيد تقضى تقفور ، فسار اليه في الشتاء وعبر جبال طوروس ، وحاربه حتى غلبه وأصابه
 ببعض جراح ، واضطر للدفع الجزية ورجع . ولما عرف الروم سنة ٦٨٩ هـ انشغال الرشيد فيها
 وراة الهم ، تقضى تقفور العهد ، وأغار على حدود الدولة العباسية ، فتصدى له التاسم من الرشيد
 وأوقع به وهزمه ، إلا ان تقفور أعاد الكر مرة أخرى ، فتصدى له الرشيد بجيش كبير مؤلف من

(١٢٥) التي انتاج به آسيا الصغرى ، واستولى على مدن كثيرة . ووصل الى البحر الاسود ، فطلب
تظفر السليح ، فأجاب الرشيد اليه وقيل منه بدمع الجزية . ومن الغريب ان يقبل الرشيد طاعة تظفر
بعد تلبية المنكر ، ويخبره الى طلبه بدمع الجزية بعد ان ثبت له خيائته ونقضه للعهد ، والاعتراف من
ذلك عدم النضاء عليه ، وعلى دوائه بعد ان اجتمعت الحيوش الاسلامية بلاد الروم ، واصبحت على
مقربة من القسطنطينية . صفة بلاد الروم ، ولكن الروايات تظهر تضام مع الرشيد . وحين معاماته
لاعدائه ، فقد طلب اليه تظفر خفائية ابنه التي وقت اسيرة بيد المسلمين ، كما طلب خفياً وهرادقا ،
فأجاب الرشيد طلبه ، وارسل القناصة مكرمة وبعث بها هدية فخر قومها ايضاً ماله تظفر .
وفي زمن الرشيد حصل لقاء بين المسلمين والروم ، فلم يبق من ارض الروم الا قودي به ،
وهكذا نجد ان المسلمين في زمن الرشيد كانوا متفوقين على اعدائهم البيزنطيين .

ثانياً : علاقة الرشيد بشارلمان : عند قسطنطين الراسخيد بشارلمان
تذكر المصادر اللاتينية لاسم المؤرخ Einhard ، مؤرخ الاسرة الكارولنجية ،
وحديث شارلمان ومناصره ، تبادل وفود وهدايا بين الخلفاء العباسيين وبعض ملوك الاسرة الكارولنجية .
قلت هذه العلاقة بين ابي جعفر المنصور وبينان القصير . فقد ارسل بشارمان سنة ٧٩٥ م وقدأ الى
المنصور بقي ثلاث سنوات في الشرق ، وعاد عن طريق البحر الى مرسيليا مصطحباً معه وفدأ من
قبل ابي جعفر المنصور ، حاملاً هدايا الى بيان القصير ، فاستقبل ملك الفرنك هذا الوفد احسن
استقبال ، وفضى عنده فصل الشتاء وعاد منزلاً مكرماً ، ومعه الهدايا الى الشرق .
وفي زمن هارون الرشيد تولى عرش بلاد الفرنك شارلمان بن بيان القصير ، فاستؤنفت تلك
العلاقات من جديد بين الطرفين . فأرسل شارلمان سنة ٧٩٧ م وفدأ مؤلفاً من رجلين من الزنبيين ،
ومعهما مترجم يهودي يدعى اسحق . وظل هذا الوفد ثلاث سنوات في بلاد العباسيين مات خلالها
الرجلان اللاتينيان وعاد اسحق الى شارلمان حاملاً هدية ثينة من قبل الرشيد وفيها فيل كبير يدعى
بأب العباس . وماسة وبعض الثياب جميلة . ويقال ان رجل شارلمان اساروا الساعة تعجبوا منها .
وظنوها من الامور البحرية ، وهما اسكرها لشعبي الادبراملور عن ذلك . وأرسل الرشيد رجلاً
فارسيأ من قبله وآخر من قبل عامله ابراهيم بن الاغلب في افريقية الى شارلمان ، وملا اليه قبل
اسحق ، فاستقبلها شارلمان بحفاوة عظيمة ثم ردها الى المشرق مع هدية ثينة الى الرشيد .

وفي سنة ٨٠٢ م أرسل شارلمان وفدأ آخر للرشيد وفي عنده أربع سنوات ، ثم عاد الى بلاده
معزراً مكرماً . فرد الرشيد على هذه الزيارة بوفد أرسله سنة ٨٠٧ م الى شارلمان كان احد افراده
يدعى عبد الله . ومعهم هدية فيها حيوان ملون بالوان متنوعة ، ومنسوجات حريرية ، وكنائية ،

وروايح عطرية وأواني نحاسية ، فلسفة لهم شارلمان يترحاب ثم رجعوا إلى بلادهم .
وتذكر الروايات اللاتينية أيضاً وجود العلاقات بين بطريك أورشليم وشارلمان بين سنة ٧٦٩
و ٨٠٢ م وأن البطريك أرسل مفاتيح النهر المقدس ، ومفاتيح القدس مع راية خاصة إلى شارلمان !!
تسلحها هذا في مدينة رومة ، وبسنتج بعض المؤرخين الأفرنسيين الحديثين من هذه العلاقات المختلفة
حماية الأفرنسيين في الوقت الحاضر الأراخي المقدسة والحجاج المسيحيين الآتين لهذه البلاد !!
وقد بحث هذه المسألة كتاب عددون نقوا :

أولاً : إمكان وجود علاقات ووجود بين هارون الرشيد وشارلمان .
ثانياً : إذا فرض وجود مثل تلك العلاقات ، فتكون العلاقات قديمة بما يخص من قبل الفريشين ،
وايست وفود رسمية مرسله من قبل الفريشين ، ويقولون - بحق - أن ما ذكرته الروايات اللاتينية ،
ما هي إلا أسطورة ملفقة ، وخرافة لا صحة لها . دليلهم على ذلك :
أن المصادر العربية لم تذكر مطلقاً حدوث مثل هذه العلاقات بين العرب والأفرنج . وأن
المصادر اللاتينية وحدها هي التي انفردت بهذه الأخبار .

وإذا درسنا ما كانت عليه حالة الدولة الإسلامية من القوة والسيطرة ، والعلم والمدنية في زمن
الرشيد ، وما كانت عليه أوربا من الهزيمة والاضطراب ، يمكننا بأنه من المستحيل أن يوافق الرشيد
على ترك قسم من بلاده تحت حماية ملك أجنبي أقل منه شأنًا وأضعف قوة ، ونستبعد أن يجرأ بطريك
أورشليم بالعمل على ما ذكرته الرواية اللاتينية دون أمر الخليفة ولله . ولهذا إذا صح وجود علاقة
بالفرض بين الطرفين فتكون بمثابة علاقة السيد هارون الرشيد بحولاء شارلمان . وذلك لأن
شارلمان كان بحاجة لمعارف العرب ولعلمهم ، ومساعدتهم على أعدائه وأعداء العرب بنفس الوقت وهم
البيزنطيون ، لئلا كان قائماً بين هؤلاء وشارلمان من نزاع على لقب الإمبراطورية ، وعلى السلطة على
العالم المسيحي . ولذلك لعله حدث مثل هذه الصداقة بين هارون الرشيد وشارلمان ، لأن الرشيد
كان بطبع في انقياء على البيزنطيين وعلى الأندلسيين الجارين لبلاد شارلمان والذي كان في نزاع شديد
معهم . فتكون المصاحبة عندئذ جمعت بين الطرفين . إلا أن هذا الأمر يفتقر بثابة فرضية لا يمكن
إثباتها إلا إذا وجد في المستقبل نصوص عربية تؤيد ما ذكرته المصادر اللاتينية . وإلا فيبقى الأمر
تعبارة عن خرافة من خرافات اللاتين .

انفلاق الرشيد

كان الرشيد ديناً محافظاً على التكليف البربرية ، فكان يصلي في كل يوم مئة ركعة إلى ان انفلق

الدنيا الا اذا عشت له علة . وكان يتصدق من ماله الناس في كل يوم بألف درهم سوى العطايا التي كان يعطيها للناس . ولم يكن يتخاف عن الحج الا اذا كان غالياً ، وقد اقم الناس حجهم تسع مرات في سني حكمه . وكان اذا حج اخذ معه ماله من الفقراء وابنائهم ، واذا لم يحج بعث بدلا منه ثلثمائة رجل بالثقة والكفوة . وكان ورعاً يسمع وعظ الواعظين ، وتؤثر فيه الموعظة ؛ فكان رفيق القابض ويرجع الدفعة . وكان شجاعاً لا يترك الجهاد مع جنده بل كان غائباً في مقدمتهم ، فكان يغزو سنة ويحج اخرى . وكان عتفي آثر المنصور ويعمل بها إلا في بذل المال ، فلم ير خليفة قبله كان اعطى المال منه . وكان لا يضع عنده احسان محسن ، وكان يحب الشعر والشعراء ، وتبيل الى اهل الأدب والفقه وبكره المراء في الدين ، وكان يحب المدح سبها من شاعر فصيح ، ويشتريه بالثمن الفالي . وكان يشرب النبيذ الذي يرخص اهل العراق في شربه . وكان يسمع الغناء ويحب عليه اعظم ثواب ، ولذلك اشتهر في زمانه اعظم الموسيقين والمغنين ببغداد . وكان كثير الخوارج . كما كان يتخفى بنفسه في الليل ، ويجول في شوارع بغداد وأزقتها ، ليتفقد احوال الرعية ويقيم العدل ، ويغيث الملهوف وينصف المظلوم .

وقد بلغت بغداد في عهده درجة عالية من الحضارة والعمران . ففي فيها الجوامع الكبيرة ، والقصور الشاهقة ، والجامعات الفخمة ، والاسواق الواسعة ، وامتد البناء فيها امتداداً عظيماً ، حتى صارت كأنها مدن متلاصقة على جانبي دجلة ، وبلغ عدد سكانها مائتي نسمة ، وازدادت مواردها ونهها ، فكانت متاجر البلدان القادمة تصلها براً وبحراً ، من خراسان وما وراء النهر والهند والصين ، ومن الشام والجزيرة . حتى ان الرشيد فكر في وصل بحر الاحمر بالنيل ، وادخل الفئدة القديمة التي بناها الفراعنة ، وجدها عمرو بن العاص إلا أن يحيى البرمكي حذره من ذلك ، حتى لا يصل الروم الى الحجاز ، ويدخلوا المسجد الحرام ، فعدل عن رأيه . وكانت الطرق التجارية آمنة مطمئنة في زمانه ، والمسلم الاسلامي هادئاً سالكاً في ابله . فلزدهرت التجارة وتوسعت في جميع البلاد ، ففي الناس ، وازدادت ثروة الدولة وماليتها حتى بلغ ما يأتيها من الضرائب والترايح في السنة ، ٥٠ مليون درهم . فكان الرشيد يستلقي على ظهره وينظر الى السحابة الملوحة من فوقه ويقول : « اذهبي حيث شئت بأني خراجك » . ساعد على ذلك وجود رجال اكفاء في بلاط الخليفة يذكرهم الخلفاء البغداديين في تاريخ بغداد فيقول : « اجتمع للرشيد ما لم يجتمع لاحد من جد وهزل ، وزرافه البرابكة ، لم ير مثلهم سخاء وسروراً ، وقضيه ابو يوسف ، وشاعره مروان بن ابى حفصة ، وندبته عمم العباس ابن محمد ، وحاجبه الفضل بن الربيع ، ومغنيه ابراهيم الموصلي ، واحد عصره في مناعته ، وضاربه زلزل ،

وزامره برصوما، وزوجته أم جعفر (زبيدة) أرغبت الناس في خير وأسرعهم إلى كل بر، وهي
 أسرع الناس في معروف، أدخلت الماء: الحورم...
 انتشر المذهب الحنفي في بغداد، نشره القاضي القضاة أبو يوسف، وكان مذهب الدولة الرسمي.
 كما توسعت دائرة الترجمة والنقل من اللغات المختلفة إلى اللغة العربية، فزدهرت علوم الطب والحكمة
 والصناعات المختلفة، وأصبحت بغداد قبلة العالم الإسلامي يؤمها الطلاب من جميع البلاد الإسلامية
 ليلتموا بها، وساعد على ذلك ما كان يتدفقه الرشيد ووزرائه ورجال دولته على العلماء والادباء من
 الأموال والهدايا حتى أصبحت دولة الرشيد من أحسن الدول وأكثرها وقراً وورعاً وخيراً،
 وأوسعها رقعة، جنى الرشيد معظم الدنيا... ولم يجتمع على باب خليفة من العلماء والشعراء والفقهاء
 والقراء والقضاة والكتاب والندماء والمثنيين ما اجتمع على باب الرشيد، وكان يصل كل واحد منهم
 أجزل حلة، وورقة إلى أعلى درجة، وكان فاضلاً شاعراً راوية للأخبار والآثار والأشعار، صحيح
 الذوق والتمييز، مريباً عند النخاسة والعمامة...
 وقد بلغت الدولة الإسلامية في زمنه أوج مجدها ودروة عزها، وكانت أيامه كلها خير ورفعة
 على بلاده وشعبه.

175 Hija ولاية العهد

ارتكب الرشيد خطأ عظيماً في حياته، كان له أسوأ الأثر بعد ثمانه، وهو ولاية العهد لثلاثين
 ابنائه وهم: الأمين، والمأمون، وإمام، وكان على الرشيد أن يتبع ما أحياه من أخيه المصلي
 في سبيل البيعة بالخلافة، وإن يكون درساً قديماً له، ولكن الرشيد كان مدفوعاً بسفه هذا الأمين
 كان لها الأثر الشديد في سياسة الدولة وهي:

أولاً: الأحزاب المختلفة التي كسطن في سبيل دعم سلطتها.

ثانياً: نساء الخليفة ومن حولهن من جواري وإماء وحاشية.

وفي سنة ١٧٥ هـ عقد الرشيد لابنه محمد الأمين بولاية العهد، وكان عمره خمس سنين وقدمه
 على ابنه الأكبر عبد الله المأمون. بتأثير زوجته زبيدة وحزبها العوي وعلى رأسه الفضل بن الربيع،
 وأخوها عيسى بن جعفر بن أبي جعفر المنصور.

وفي سنة ١٨٢ هـ بينما كان الرشيد في الرقة أعلن بولاية العهد لابنه المأمون بعد أخيه الأمين،
 وكان ذلك بتأثير أمه (مراجل) الفارسية وحزبها من الفرس وعلى رأسهم البرامكة والفضل بن سهل
 الفارسي سبيل المأمون.

وفي سنة ١٨٨ هـ بايع الرشيد لابنه القائم بعد المأمون ، وتقبه بالمؤمن على أن يكون ولي العهد
الثالث اذا قبل المأمون بذلك ، وكان ذلك بتاريخ مريه عيد الملك بن مانج الغياثي ، الذي انتسب
الى الرشيد تيمنه ، طمعا بأن يعظم نفوذه ويحظى بالتقدم عنده فيما بعد .
وقسم الخليفة مملكته الواسعة بين اولاده الثلاثة على أن يتولى كل منهم قسما منها بحسب كفايته
طول حياته . فولى الأيمن المقرب من القوافل الى تونس ، وولى المأمون المغرب من (شمالا) الى
ما وراء النهر ، وولى القائم الجزيرة والعمام ، وظن الرشيد أنه بذلك قد راعى ذلك ، وأولج
بين الأسرة . وفي سنة ١٨٦ هـ حج الرشيد ومعه الأيمن والمأمون ، وفي حاشيته الوزراء والواد
والقضاء . وبعد أن قضى مناسك الحج امر الفقهاء أن يكتبوا المأمون كتابا يذكر فيه في الاول
تعهد الأيمن بالخدمة لاية العهد ، وفي الثاني تعهد الأمانة ان تفي له بذلك . وسجل الكتابين في البيت
الطرام بعد اخذه البيعة على محمد الأيمن وإبراهيم عليه السلام : الله واللائكة . ومن كان في الكعبة معه
من ولده ولعل بيته ، ووزرائه وكتابه ، وقواده ومواليه . وأمر أن يلقى الكتابان في الكعبة ، ولما
رأوا أيضا وقعا ، فقام الناس وقال بعضهم لبعض : وان هذا الامر سريع التقلع منه فلي تمامه .

وفاة الرشيد

خرج الرشيد لقمع الفتن في خراسان ، واستخلف ابنه محمد الأيمن في بغداد وأصلح معه
ابنه عبد الله المأمون . ولما وصل مدينة طوس قرب مدينة (مشهد) في إيران شعر بمرضه الأخير .
فما من كان بمسكبه من بني هاشم ، ولوصاهم ثلاث : : المأظ لأمرتكم . والتمسح لأفئدكم ،
واجتماع كفتكم ، وانظروا محمد آ . وعبد الله . فمن رضى عنها على حاجته فردوه من بيته ، وقبضوا له
بيته وسكنه . . وأمر أن يكون ابائس الذي كان معه المأمون . وتوفي ليلة السبت في ثلاثة من
جمادى الآخرة سنة ١٩٣ هـ ودفن في طوس ، وكانت مدة خلافته ٣٣ سنة وشهرا ثمرة .
وكان يحضره في الاندلس الأمير عبد الرحمن الداخل ، ثم ابنه هشام ثم النعمان بن هشام . وفي
فارسا شارسان . وفي بلاد الروم قسطنطين السادس . وكانت له اربع بنين نساء ، إلا أنها استبدت
بملك فظلموا قوما وتولى مملكتها تفرور .

محمد الرابع

١٩٣ - ١٩٨ هـ أو ٨٠٩ - ٨١٣ م

ولد محمد الأيمن سنة ١٧٠ هـ ، وكان بعد مولده أخيه عبد الله المأمون بسنة ثمرة ، وأمه

الحرب العرسية

أم جعفر - زبيدة - ابنة جعفر بن المنصور ، وأبى في خلفاء بني العباس من أبواء هاشميان سواء .
ولما توفي الرشيد بعلوس ، أرسل صالح بن الرشيد إلى أخيه الأمين الذي كان قائماً مقام أبيه في
بغداد ، حاتم الخلافة ، وقضيب النبي (ص) والبردة ، وهي شارات الخلافة ، فنهض إلى المسجد فصلى
بالناس وألقى خطاب العرش ، وأخذ البيعة من قواد الجيش والأشراف والعمامة فقل أبو نواس برقي
الرشيد وبني الأمين بالخلافة :

| | |
|-------------------------------|---------------------------|
| جرت جوار بالسيد والنحس | فجرت في مآثم وفي عرس |
| القلب يبكى والدين ضاحك | فجرت في وشة وفي انس |
| بضحكتك الفائم الأمين ويب | مكينا وفاء الامام بالانس |
| بدران : بدر أضحي ببغداد في ال | خلد ، وبدر بعلوس في الرمس |

سياسة الراشدين

التزاع بين الأمين والمأمون

أسباب التزاع :

السبب الاول . - كان الرشيد قبل وفاته قد جدد البيعة لانه المأمون وأمره بأن يصير ما
معه من قواد وجند وسلاح ومال إلى المأمون ، وأخذ الوثائق على ذلك من كان معه . وبعث الأمين
لما بلغه مرض الرشيد ، وتوقع وفاته برسول يوافيه بأخبار الرشيد كل يوم . وانفذ معه كتاباً أمره
بتسليمها إلى أصحابها بعد وفاة الرشيد . ومن جملة هذه الكتب : كتاب للمأمون بعزبه فيه عن أبيه ،
وأمره أن يأخذ البيعة على من قبله لأمين بالخلافة ، والمأمون بولاية العهد ، وللقائم المؤمنين بعده .
ومنها كتاب لصالح بن الرشيد يأمره فيه بالمسير إليه مع جميع الجنود والذخائر والسلاح ، وينصحه
أن يعتمد في تنفيذ ذلك على الفضل بن الربيع ، الذي كان وزيراً الرشيد . وأصبح بعد ذلك وزير
الأمين ومسيرة في نزاعه مع أخيه المأمون .

وقد قال الفضل بن الربيع لقواد الجنود وأولاد الرشيد عندما كانوا يتشاورون في اللحاق بالأمين :
« لا أدع مسلماً حاضراً لا خير لا يدرى ما يكون في أمره » وأمر الناس بالرحيل ففعلوا ذلك ، محبة
منهم للاحق بأهلهم ومنازلهم في بغداد ، وتركوا المبرود التي كانت أخذت عليهم المأمون .

كان المأمون - بمرو - عندما وصل إليه خبر عودة الجيش ببغداد فأرسل إليهم بتحيةة الفضل
ابن سهل (مشرقة رسولاً يذكرهم البيعة التي أخذوها على أنفسهم ، والوفاء بها ، فلم يجد عملها شيئاً .
وأصبح الفضل بن سهل وزير المأمون ، ومسيرة أعماله . وأشار عليه أن يعتمد على المبرود ، وبعث إلى

الغفهاء ، ويدبرهم الى الحق والعمل به ، والى أسبأ السنة ، ورد المظلم ، وإن يكرم القواد وإنساء
المولك ، ويستميل الفرس اليه . فلما فعل ذلك أحبه القوم لاسمها الشراسيين ، وقلوا : « ابن أخنوخا
وابن عم نينا (س) » والتفوا حوله ، وبذلك انتقل النزاع من الاخوة الاميين والمأمون ، الى الفضل بن
الفضل بن الربيع والفضل بن مهمل . او بكلمة اخرى اصبح النزاع بين العرب والفرس . فاعرب
اخذوا بالاصر الاميين . والفرس اتخذوا جانب المأمون . وكان الظفر اخيراً بطريقهم .

السبب الثاني . — أخذ الفضل بن الربيع بلج على اثليفة الاميين بعزله اخويه المأمون والقاسم ،
وتولية ابنه موسى من بعده . وذلك خوفاً على نفسه فيما اذا انقضت الخلافة الى المأمون يوماً ان
ينتقم منه . إلا ان الاميين لم يضع اليه في بادي الامر ، لانه كان عازماً على الوفاء لاخويه ، وانجراً
قبل بتأثير الفضل بن الربيع ان يكتب الى الولاة في الامصار كلها بالدعاء لابنه موسى بالامرة بعد
الدعاء له والمأمون والقاسم . فما كان من المأمون عندما بلغه هذا الامر وعرف بعزل اخيه القاسم
عن ولاية الجزيرة ورميها للذين كان ابوه قد ولاه لها ، إلا ان قطع البريد عن اخيه الاميين .
واسقط اسمه من القراز . على أن ذلك طلب الاميين من اخيه المأمون ان يعطيه بعض اقسام خراسان
ليولي عايلها عمالاً من قبله يوافقوه بأخبار تلك الجهات ، فرفض المأمون ذلك ، بعد استشارة اهل
الرأي عنده وتأثير الفضل بن مهمل .

أرسل الاميين وفد من كبار رجال دولته الى اخيه المأمون يطلبون اليه تقديم موسى بن الاميين
الذي لقبه « الناطق بالحق » على نفسه بولاية العهد ، فرفض المأمون ذلك . عندها ألج الفضل بن
الربيع على الاميين في خلع اخيه فأجاب الى ذلك . وأرسل الفضل الى الدول في جميع البلدان ينهاهم
عن ذكر المأمون والقاسم على المنابر ، ويحظرهم الدعاء لها بعد اثليفة والاكتفاء بالدعاء للاميين
وابنه موسى . ووجه الى الاميين كتاباً مع احد حويزة البيت المأثية بالكتابين اللذين كان الرشيد
كتبهما للمأمون وجمعتهما بالكمية ، فلما احضرا الى بغداد مزقهما وأعطاهما .

وضع الفضل بن مهمل بأمر المأمون ، حرساً على حدود خراسان لكي لا يترك الفرصة لاحد
من شيعة الاميين من الاتصال برجل خراسان وإسنادهم على المأمون . وشمر العيون والجزائيس
في كل مكان ليوافقوه بالأخبار ويدعوا المأمون بالخلافة .

جرت مكاتبات بين الاخوين طالب فيها الاميين ما فضل من مال الخراج عند المأمون وبين حقه
في هذه الاموال . واقترح على اخيه ان يقبل تعيين شخص من قبله ليراقب ماليه ويوافيه بمخبرها .
فكان جواب المأمون بأنه هو يقوم بإبلاغه عما يريد ، ويطلب اليه ان لا يخرج في الخروج عليه

وكان الجاسوسية في هذه الخصومة اثر كبير في اوصول الاخبار ، وما يجري من المؤامرات والاحداث
عند الطرفين ، ولعل من اسباب نجاح المأمون في هذا النزاع يعود لتتوفى فن الجاسوسية عنده ،
وتحفظه في ايجاد دعاة الأمن رعيته من انصار شيعته وحزبه .

وبعد ان فشلت الطرق السياسية والدبلوماسية في التوفيق بين الاطراف اجمع من المظفر وقوى
النزاع الدموي بينهما .
وقوع الحرب :

جيش الأمن جيشاً كبيراً مؤلفاً من ثوبين الف من العرب ، مجهزين بأحدث سلاح ، مروحين
بالاوراق الكثيرة ، ودين عليهم قائداً علي بن عيسى بن ماضان الذي كان والياً على خراسان في زمن
الرشيد ، والذي شاء معاملة اهالي تلك البلاد . فكان تعيينه قائداً لهذا الجيش فحكمة امر على الأمن ،
لانه اذا حمية اهل خراسان الكرههم ومقتهم علي بن عيسى . وبذلك اشتد سرب المأمون وقوي
الانحياز اكثر اهل خراسان حوله ونصرته له . وزاد الامر شراً غرور علي بن عيسى بنفسه ،
وعدم اكثرائه بمذوه . وقد اثنوا المأمون خير فواده لخاربه جيش ابيه ، نعمين طاهر بن الحسين
علي جيش مؤلف من (٨٠٠٠) مقاتل من خيرة المحاربين . فلما عرف علي بن عيسى بخبر هذا الجيش
اخذ يضحك منه ويختر من قائده قائلاً : وما طاهر فوائده ما هو الا شوكة من انفسائي ، او
شراوة من ناري ، وما مثل طاهر يتولى على الجيوش . وبقي الحروب . ثم التفت الى اصحابه فقال :
« والله ما بينكم وبين ان ينقصف اقصاف الشجر من الریح اعادف الا ان يبلغه عبورنا عقبة محمدان ،
فلن السجل لا تقوى على التطلع » . والتمالب لا جبر لها على لقاء الاسد . وعندما بلغ جيش الأمن
اول بلاد الري جاء قائده المقدمة الى امير الجيش وقال له : « لو كنت - أي الله الامير - اراك
العيون وبغث الضالعين وارادت معي منكم تسكر فهدم » . وتخذ خدماً لا تمجلك بأمنون به كان ذلك
أبلغ في الرأي وأكس لايحسد . . فكان جواب علي بن عيسى : « ليس مثل طاهر يستعد له بالمكيد
والتحفظ ، ان حال طاهر نزول الى احد امرين : إما ان يحصن بالري فيرتفع اعلاه ، فيكفوا مؤوقته
او يخليها ويدبر راجعاً لو قرنت خيولنا وجسركا منه . وبينما كان علي بن عيسى يسير في خيلاته ،
وتحبه بقدرته ، ويستصغر امر عدوه ، كان طاهر بن الحسين يدبر أمراً مع فواده ، ونظيره تسكره ،
ويحشد مائة على مقربة من مدينة الري . وعندما التحم الطرفان كثر جيش الأمن ، وقتل
قائده المفور ، واصبحت أمواله غنيماً ، وسلاحه متناً بأيدي اعدائه ، وكتب طاهر بن الحسين الى
الفضل بن سهل يشره بنتيجة المعركة قائلاً : « كتبت اليك ورثس علي بن عيسى في سجري ، وخطه
في يدي والحمد لله رب العالمين ، فيسر الفضل المأمون بالمظفر ، وندى به « أمير المؤمنين » ففرح

المأمون بذلك وأطلق على الفضل بن سهل وذا النورين وصاحب جبل النور .

وسل خير الخزيمة إلى بغداد ، فقامت القوضى بين الناس ، وتشكر الجند على الإامين وطلبوا منه الزيادة في أرزاقهم وعطائهم ، فلان لهم واعطاهم ما شاؤوا وجيزهم بقيادة عبد الرحمن بن جبلة الألباري لقتال طاهر ومن معه . وعندما التقى الجمان عند مدينة همدان ، أقتتل الفريقان قتالاً شديداً ، وتراجع جيش الإامين إلى همدان وحاصر فيها . وعندما نفذت ذخيرة طلب الأمان واستدعى إلى طاهر بن الحسين . ولما وصل الخبر إلى الإامين ارتاح وزيره الفضل بن الربيع . وشعر زوال الدولة وأهل نهمه ، ودعا أسد بن يزيد بن مزيد ، وهو من كبار قواد الدولة بخارية بطاهر بن الحسين ، فطلب مطالب كثيرة . جعلت الإامين بمقتضى ما به وبجسه . واثبجا الإامين إلى أهل بفس عن قائد فدير بأمن له وبركن إليه . فثاروا عليه بأحمد بن مزيد فاستدعاه الخليفة ، وسيره على رأس جيش كبير عدته عشرون ألفاً وأتبعه بمشركين ألف أخرى بقيادة عبد الله بن حميد بن قحطبة ، وأمرها أن يتزلا جلوان ، ويدفعا طاهراً عنها . ولما بلغ طاهر بن الحسين الخبر ، جندف حول همدان ، وأخذ يفرق بين جيشي الإامين ، ويختال في إيقاع الخلاف بين قائديه حتى تم له الأمر ، فاختطف القائدان ونحوهما ، ورجعا دون أن يلقيا طاهراً . فتقدم طاهر إلى جلوان واحتلها وسامها منه من قبل المأمون بقيادة هزيمة بن أعين ومعه كتاب من المأمون يأمره في السير نحو بغداد من جهة الأهواز ، ليكون الهجوم على عاصمة الخلافة من جهتين .

وفد حاول الإامين أن يرمي آخر سهم في كنياته ، فاستعان بأهل الشام والجزيرة ، وولى عليهم عبد الملك بن صالح الذي استنجد أمراء العرب ورؤساء الجند ، فجاؤوا إليه من كل فج وسوب ، واجتمعوا عنده . وأمره حفظ الإامين اختلاف جندي عربي مع آخر خراساني ، فقتل الطرفان ونفروا العرب راجعين إلى ديارهم . فذاكرين ما فعله ذو الجواس ميم . وآثار أهل خراسان عليهم وخيل بعض زعماء كلب في قبائله قتلا لهم : وياؤس كلب : إنها الزانية الدوداء ، وافته مأواه ولا عدل . ولا تل ذبيحها ، ولا ضئف ولها ، وإنكم تعرفون مواقع سيوف أهل خراسان في رقابكم ، وآثار أسنهم في صدوركم اعتزلوا الشر قبل أن يعظم ، ونحفظوه قبل أن يضطرم ، شأنكم داركم داركم ! الموت الفليسطي خير من العيش الجزري : ألا واني راجع فمن أراد الانصراف فليصرف مي . فلفحه جميع أهل الشام . أما جند خراسان فصاروا إلى بغداد بقيادة الحسين بن علي بن عيسى وخلصوا الإامين ، وقيوده وسجنوه في سنة ١٩٦ هـ . إلا أن ذوي الرأي في بغداد خلصوا الإامين من قيوده وسجنه ، وثاروا على الحسين بن علي وأسروده ، وجاؤوا به إلى الخليفة . فلامه الإامين على فعلته ، وعاتبه بقوله : « ألم أقدم إليك على الناس وأوله أمة الخليل ، وأملأ يده من

الاموال ، واشترى اقداركم في اهل خراسان وارفع مشاركم على غيركم من القواد . فقال له
ابي : قل : « فما الذي استحدثت به منك ان تخلع طاعتي ، وتؤلب الناس علي ، وتناهبهم الى قتالي .
قل الفئة بعفو امير المؤمنين وحسن الظن بصفحة ونفسه . قل : « فان امير المؤمنين قد فعل ذلك
بك ، وولاه الطلب بشرك ومن قاتل من اهل بيتك ا ، ثم دعا له بخلة فخلعها عليه ، وحمله على
مراكب . وامره بالمسير الى حوان ، وولاه تلك الجهات ، الا انه لم يكن اهلاً لهذا الانعام ، فقد
حاول ان يتور مرة اخرى على الامين فقتل .

هذه الحادثة تدلنا على مبلغ الاضطرابات في بغداد ، ونعنف الخليفة الامين عن قضاها ، وإلى أي
درجة قلت هبة الخليفة عند الناس حتى نجروا على خلعهم وسجنه . ولا شك ان المأمون والفضل
ابن سبل بدأ في إثارة هذه الاضطرابات بواسطة اعوانهم من الفرس . ولعله كان لهذه الدسائس
والمؤامرات الاثر الكبير في انتصار المأمون على اخيه وشوقه عليه .

حصار بغداد ومقتل الامين :

فتح طاهر بن الحسين الاهواز وخراسان ، وسقطت معظم المدن الرئيسية في العراق بيده . وكان
عمال الامين يقدمون خضوعهم للقائد المظفر دون قتال ، او يتركون ولايتهم ويهربون من وجهه
كما فعل عامل مدينة واسط الذي قال : « انه طاهر ولا عار في الحرب منه : » وتمت البيعة للمأمون
في الحجاز والبحرين واليمامة وعمان ومعظم مدن العراق ، وتقدم طاهر بحيشه نحو بغداد ، كما اتى
هرثمة بن اعين ، والمديب بن زهير وطوقوا بغداد من جهات الشمال . ونصب المديب بن
زهير المخانيق والعرادات وطرب بهم بغداد . واستمر الحصار عدة اشهر أغلق الامين جميع اموال
الدولة في سبيل الدفاع ، حتى انه باع ما عنده من الامثلة ، وضرب آنية الذهب والفضة نقوداً وزعها
على الجند . وقامت بغداد من هذا الحصار مصائب جسيمة ، من تهديم القصور ، وحرق الدور ،
وتغريب المنازل ونهب الخوانيت ، حتى حل القرب بفسف المدينة تقريباً . ومات كثير من السكان
فاخذ الاشراف ينقضون من حول الامين ، إلا ان العامة ثابروا في كفاحهم ، واستمات الامين
بالمبارين والشعائر واهل السجون في الدفاع عن المدينة . وعندما استنفذ جيوده في الدفاع ، وانقن
بالهلاك ، طلب الامان من هرثمة بن اعين ، فجابيه اليه ، إلا ان طاهر آتى إلا ان يسلم الامين نفسه
اليه ، ولم يكن الامين يثق به ، واخيراً تم الاتفاق على ان يسلم الامين نفسه الى هرثمة بن اعين
ويسلم شاركت الخلافة : من خاتم وقضيب ، ووردة إلى طاهر بن الحسين . وجاء هرثمة بحراقة ليقسم
الخليفة ، فركب الامين معه ، وسارت بها الحراسة حتى اتت سفك النهر ، وعندما رأوها جتود طاهر
رموها بالحجارة والسهام ، حتى اغرقوها ، فسمح الامين الى الشاطي ، فقبض عليه جنود طاهر

وأمر به فأمر به هذا بقتله فقتلوه في ٢٣ محرم سنة ١٩٨ هـ . أما هرثمة بن أعين فقد أركه أصحابه
وانقادوا له من الغرق . وتمت بذلك هذه القاجعة المؤلمة . وموت الأمين قوي النفوذ القارس في الدولة
وكان تصادراً للفرس على العرب ، وتلقوا حزب الفضل بن سهل على حزب الفضل بن الربيع .

أخلاق الأميين

أمر في الرواة في ذكر سوء أخلاق الأميين ، ووردوا لنا بصورة رجل مستر ، مسرف ،
عديم الأخلاق ، قليل التمسك في عواقب الأمور وذلك أمر طبيعي لأن الأميين قد خلت
حظته وعثر تدمه ، وفشل في نزاعه مع أخيه ، فساهم الناس إلى ذمه وسقطوا عليه ألسنتهم بكى
سوء ، ووصفوه لنا بأشنع الصفات كما هي حالة كل فاشل في معترك هذه الحياة . . .
لذلك سنحتز في ذكر ما قيل عن الأميين ، ولا نقبل كل ما روي عن أخلاقه . نشأ
الأميين في حجر الفضل بن يحيى البرمكي ، واعتنى الرشيد كثيراً بتربيته ، فبين له كبار علماء عصره
ليتعرفوه ويعلموه ، حتى جمع من الثقافة ما لا يتيسر لقابل من أبناء عصره مثلاً ، فكان أديباً شاعراً ،
سريع البديهة طريف السكينة ، حلو القنار رفيق الدعة والفكاهة . وقد أجمع الرواة على سجن
الأميين إلى درجة الامراف ، ووردوا لنا قصصاً كثيرة من عطاياهم لشعراء والمغنيين التي الكثير .
كما اتفقوا أيضاً على كثرة طموه ولحمه وتقربه للخصيان وقد قل عنه ابن جرير الطبري : « لم يملك
محمد وجه إلى جميع البلدان في طلب الملوك وضميم اليه ، وأجرى لهم الأرواق ، وتنافس في ابتياعه
أفرد الدواب ، وأحد الوحوش والطيور وغير ذلك ، واحتجب عن أخوته وأهل بيته وفؤاده
واستخف بهم ، وقسم ما في بيوت الأموال . وما تحضره من الجوهر في خديانه وجلسائه وعبدنيه
وأحد إلى ما كان في الرقة من الجوهر والخزائن والصلح ، وأمر ببناء مجلس للترغاة ومواسع
خلوته ولهو ولحمه وأمر بمل خمس حرافت في دجلة على خلفه الأسد والذيل والعقاب
والخنزير والفرس وانفق في عملها مالا عظيماً » .

كان الأميين يذب القلب سديم الطوية ، ظهر السجية . نبيل الأمل إلا أنه ضعيف الإرادة ،
استكان إلى مشيئة لا سيما الفضل بن الربيع فقتله . وحاذ به عن الصواب ، وقاده إلى الهلاك وكانت
مدة خلافته أربع سنوات وثمانية أشهر . كانت بهامره في الأندلس الحكم بن هشام ، وفي فرانس
شارلمان . وفي بلاد الروم نفقور الذي قتل في حروبه مع البلغار خليفة ابنه استبرق ، ثم تولى من
بعده ميخائيل بن جرجس الذي تزوج من أخته استبرق . وتنازل عن العرش إلى القائد ليون
الارمني .

عبد الله المأمون

١٩٨ - ٢١٨ هـ أو ٨١٣ - ٨٣٣ م

ولد عبد الله المأمون سنة ١٧٠ هـ في اليوم الذي ولي فيه أبوه الخلافة ، وأمه أم ولد فارسية تسمى مراجل ، ولي الخلافة بعد مقتل أخيه الأمين سنة ١٩٨ هـ وبقي في خراسان إلى سنة ٢٠٤ هـ ثم انتقل منها إلى بغداد ، وبقي في الخلافة ما يزيد على العشرين سنة .

سياسة المأمون الرشيد

كانت مقابلة الحكم في أول خلافة المأمون بيد الفضل بن سهل وحزبه ، حتى أن المأمون آنثر البقاء في مرو في يادي الأمر من الذهاب إلى بغداد ليكون قريباً من الفرس الذين توصل إلى الحاكم بمساعدتهم . وقد علا شأن الفرس كثيراً في زمن المأمون ، وزداد نفوذ الفضل بن سهل الذي أراد أن يبعد كل منافس له حتى يستأثر بالحكم . فأصدر أمرين على لسان المأمون : أولهما تولية أخيه الحسن بن سهل على جميع البلاد التي فتحها ظاهر بن الحسين وهرثمة بن أعين . والثاني استدعى فيه هرثمة بن أعين إلى خراسان وألفظ ظاهر بن الحسين إلى الرقة لحزبه نصر بن سبث الذي ثار مع العرب على المأمون في شمالي حلب انصاراً للأمين وحزبه العربي ، وانتقاماً من المأمون لضموعه لتأثير الفرس . وكان ثلث العراق من القائدين العظماء الذي تم فتحه بواسطتها ، وما شاع بالعراق من أن الفضل بن سهل استأثر بالحكم في خراسان وأزل المأمون في قصر ، وحببه فيه عن أهل بيته ووجوه قواده ، وأن المأمون أصبح آله بيد الفرس يحركونه كما يشاؤون . وما أصاب أهل بغداد من الضرر بانتقال مركز الخلافة إلى مرو ، أن ثاروا على المأمون . وأول هذه الثورات هي : ثورة العلويين :

خرج محمد بن إبراهيم^(١) والمعروف بابن طياملية ، وهو من أبناء الإمام علي من الفرع الحسيني بالكوفة ، وساعده في ثورته هذه أبو السرايا وهو أحد رجال هرثمة بن أعين ، فأرسل إلى العراق الحسن بن سهل عدد جيوش ردها أبو السرايا خسارة على أعتابها ، وعظم أمر الشيعة في البلاد حتى أن أيا السرايا ضرب قعوداً في الكوفة ونقش عليها : (يا أيها الله يحب الذين يقاتلون في سبيلك مدافعاً عنهم) فبلغ مرصوصاً عند ذلك المنهج الحسن بن سهل إلى هرثمة بن أعين بالتمس منه إخماد هذه الفتنة فيمدد بجمع الردد أجابه إلى ذلك ، وتمكن من الانتصار على جماعة أبي السرايا وإخماد هذه الفتنة .

(١) محمد بن إبراهيم بن إسحاق بن إبراهيم بن الحسن بن الحسن بن علي .

توكان لهذه الفضة أثرها السي في تزيين القوضى في أكثر مدن العراق والحجاز ، لما ظلم به العلويون
ومضيتهم من حرق الدور في البصرة ونهب الاموال من خزائن الكعبة ، وشكب شيعة بني العباس
ومصادرة اموالهم في الحجاز ، وتضييقهم في دار العذاب ، وانفساد ما على أعمدة
المسجد الحرام من الذهب وقلع الحديد من شبايك زمزم وغير ذلك من الاعمال ، وبعدها بلغ من
في الحجاز من العلويين من مثل أبي السرايا واشتت اصحابه بايعوا محمداً بن جعفر الصادق وسماه أمير
المؤمنين ، إلا ان هرثة بن اعين ارسل من قضى على نوورهم وشقت شملهم .

وبعد ان انتهى هرثة بن اعين من اداء تلك المهمة عينه المأمون لولاية الشام والحجاز ، إلا ان
هرثة اراد ان يطلع المأمون على حقيقة الحالة التي وصلت اليها دولته بسبب استبداد الفضل بن سهل
بالامر قبل تسليمه منصبه الجديد ، فظال الفضل بن سهل دون ذلك ، بأن اوغر صدر المأمون عاينه
وقوى اليه بأنه كان متآمراً مع أبي السرايا ، وان الفتى التي حصلت كانت بسببه ، لذلك لم يسمع
المأمون قول هرثة عندما اجتمع به ، وامر بسجنه ، فذهب له الفضل من قفله في السجن ، ودفع
هذا القائد الخلفى ضحية الدساس والمؤامرات .

ثورة أهل بغداد :

عرف أهل بغداد بموت هرثة بن اعين وان ذلك كان بتدبير الفضل بن سهل فتجمعوا من ان
المأمون مسير في عمله من قبل الفضل ، فطردوا اخاه واسطه الحسن بن سهل - الجوسي ابن
الجوسي - كما كانوا يلقبونه في بغداد ، وقاتل القوضى والفق في تلك المدينة ، ونشط الموصي
والصالح في النهب والسلب ، فطلب وجهاً للمدينة من التصور بن المهدي ان يبايعوه بالخلافة :
فأبى ذلك ، إلا انه قبل ان يكون أمير الخليفة المأمون . ومع ذلك لم تبدأ الاضطرابات في بغداد .
وكانت مدة رات المدينة بأيدي الشقاق والاضرام ، فاتفق أهل كل حي على حماية منطقتهم ، فناد
الانظام واستتب الامن في المارقات ، إلا انه حدث حادث أباد القوضى الى اشد ما كانت عاينه ، وهو
ان المأمون اختار لولاية عهده علي الرضا (١) من العلويين ، ولقبه « الرضا من آل محمد » وأمر جنده
ب طرح السواد شعار العباسيين ، وليس ثياب الخضرة التي اختارها شعار الدولة الجديدة ، وكتب
بذلك الى جميع الآفاق . وكان هذا العمل تحريض الفضل بن سهل الماشي للعلويين ، فقال العلويون
ان حركات العلويين لا تهدأ إلا باعطائهم حجتهم في الخلافة ، فوافق ذلك ما في نفس المأمون الذي
كان يقتل الامام علي على غيره من الخلفاء الراشدين .

(١) علي الرضا بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي بن الحسين بن

إلا أن البيت العباسي غضب من ذلك، وانضموا هذه المرة إلى الثائرين من أهل بغداد وناصروهم في خلع المأمون، خوفاً أن يذهب الخلافة منهم، واتفقوا على مبايعة إبراهيم بن المهدي عم المأمون بالخلافة سنة ٢٠٣ هـ وظل خليفة مدة سنتين.

عودة المأمون لبغداد:

أخبر علي الرضا المأمون بما كان يجري في الدولة، وأطلعته على حقيقة الفضل بن سهل، الذي كان يكتم الأخبار عنه ويحجز الناس عن مقابلاته، وأن أهل بيته ينفقون عليه، وأهل بغداد يابسوا إبراهيم بن المهدي خليفة عليهم، وخطبوه من الخلافة. ولما عرف المأمون صحة هذه الأخبار، وانحلت له الأمور، أمر جنده وحاشيته بالرحيل إلى بغداد، وفي الطريق دبر قتل الفضل بن سهل. كما أن علي الرضا مات في الطريق أيضاً، وبموت المأمون بتدبير موته، ويستبعد كثير من المؤرخين ذلك، وعلى كل فقد تخلف المأمون من شخصيتين كان يكرها أهل بغداد وكان كلاهما أقرب من عاصمة الخلافة، اضطرب أمر إبراهيم بن المهدي، وما لبث أن قام عليه الجند وخطبوه، وأعادوا الحسن بن سهل - والي المأمون - مكانه، وأظهروا طاعتهم للمأمون، وخرج العباسيون والنواد والشراف ببغداد يستقبلون الخليفة، الذي استدعى طاهر بن الحسين من الرقة، ودخل معه بغداد سنة ٢٠٤ هـ، وبذلك بدأ عصر جديد في حياة المأمون، قضى فيه على نهاية الحاكم بدقوة فيها الحزم والنشاط والتسامح، وعاد إلى لبس السواد بتأثير قواده وأهل بيته، وعفا عن خصومه الذين ساعدوا إخاء الأميين. وبدأ بقمع الفتن والثورات القائمة في الدولة. وجعل طاهر بن الحسين على شرطة بغداد، ثم أرسله يطلب منه إلى ولاية خراسان خوفاً على نفسه من الخليفة أن ينتقم منه لقتله الأميين. وما لبث أن عظم نفوذه بخراسان، وأسس دولة مستقلة، دعيت الدولة الطاهرية نسبة إليه وأسقط اسم الخليفة المأمون من خطبة الجمعة، وأعلن انفصاله عن العباسيين. إلا أن المأمون دس له من سمه، فقام بعد موته ابنه طلحة، فوافق الخليفة على ولايته وبقيت الدولة الطاهرية إمارة مستقلة تحكم بلاد خراسان وماوراءها نحو نصف قرن إلى أن قضت عليها الدولة الصفارية سنة ٢٥٩ هـ (١).

(١) تولى طاهر بن الحسين إمارة خراسان سنة ٢٠٥ هـ وبقي والياً عليها مدة سنتين تقريباً. وتمام عدة حكام من أسرته في حكم تلك البلاد، وكانت عاصمتهم نيسابور، وكانوا خاضعين اسمياً للخلافة العباسية، بمعنى أن الخليفة يوافق على تعيين الحاكم منهم بعد موت من تقدمه. وقد توسعت هذه الدولة كثيراً في زمن عبد الله بن طاهر، وأصبحت سلطانها على خراسان، والري، وكرمان والمقاطعات الشرقية حتى حدود الهند. وكان آخر حكامها محمد بن طاهر الذي خضع إلى سيطرة يعقوب الصفاري مؤسس الدولة الصفارية والذي كانت نهاية الدولة الطاهرية على يده سنة ٢٥٩ هـ.

وعين المأمون على ولاية الرقة عبد الله بن طاهر الذي ورث أباه في محاربة نصر بن سيث، وشبهه عليه حتى اضطره الى التسليم، وارسله الى بغداد، فعنا عنه الخليفة. وقد أمر المأمون عبد الله بن طاهر بالذهاب الى مصر لقمع الفتن القائمة فيها، فسار اليها وقمع ثورة عبد الله بن السري. كما حارب جماعة الموالدين الذين جاؤوا من الاندلس بمر اكبرهم وزلوا في ميناء الاسكندرية وعاثوا فيه فساداً، فانظرهم الى الخروج من مصر، فرحلوا الى جزيرة افرطش (كريت) سنة ٢١٠ هـ وأقاموا فيها وبذلك عدلت الثورات واقفت في حية الغرب.

ثورة الرط :

أر الرط (النور) في زمن المأمون في جبة البصرة. وهم اخلاط من الناس من هتود آسيا اتهموا قيام الفتنة بين الامين والمأمون، واستولوا على طريق البصرة، وعاثوا في البلاد فساداً، ولما عاد المأمون الى بغداد، ندب عدة فراد لمحاربتهم، الا انهم لم يتمكنوا من اخضاعهم، لانهم كانوا يهربون اذا تخرج موفقيهم، وشعروا بقوة خصمهم. وقد غير نصر بن سيث المأمون بهم فقال : انه لم يقو على اربعةائة ضفدع تحت جناحه، واستمرت ثورتهم قائمة الى زمن المعتصم الذي تمكن من القضاء عليهم سنة ٢١٩ هـ.

ثورة العلويين في اليمن :

قام العلويون في اليمن بثورة على المأمون، بالرغم من حسن معاملته لهم. ومباينة احد أئمتهم بالخلافة وتزعمه احد بنائه من ابنه وهو محمد بن علي الرضا المعروف بالجواد، لذلك ارسل الى اليمن جيشاً كبيراً ومعه امان الى الثائرين فاستسلموا دون قتال فولى المأمون محمد بن ابراهيم الزياتي ولاية اليمن، فذهب اليها سنة ٢٠٣ هـ وفتح تهامة وبنى مدينة زبيدة وجعلها حاضرتة واستقل عن العباسيين واصبحت الدولة الزيدية دولة مستقلة خاضعة بالاسم الى الخلافة العباسية. فكان حكامها يخطبون في المساجد لبني العباس، ويحملون لهم في كل سنة هدايا واموالاً عوضاً عن الخراج، ويتوارثون الحكم فيما بينهم بموافقة الخليفة واستمرت هذه الدولة قائمة في اليمن نحو قرنين من الزمن الى سنة ٤٠٩ هـ عندما انقسمت على نفسها وقام على انقاضها دولات صغيرة.

ثورة بابك الخرمي :

من الفرق الفارسية التي كان لها اثر كبير في الدين والسياسة في العصر العباسي فرقة الخرمية التي تنسب الى بابك الخرمي، وبابك هذا من اصل وضيع، اقصل بجاويدان بن سهرك ملك جبال البند وخدمه، فأحبته زوجة جاويدان، وساعدته بعد موت زوجها في حكم جماعته. وقد جمعت اصحاب

جاويدان بعد موته ، وقالت لهم : ان جاويدان قال : اني اموت في ليلتي هذه ، وان روحي تخرج من جسدي وتدخل بدن هذا التلام خادمي وقد رأيت ان املكه على اسجاني ، فادمت فاعلمهم ذلك وان لادين لمن خالفني فيه ، وانما انفسه خلاف اختياري . فقبلوا ذلك منها وتزوجت بابكا .

كان اتباع بابك الخرمي على دين المجوس القديم يقومون بتطعيم مزدك (١) خرجوا على المأمون ، وكان لا يزال في مرو سنة ٢٠٦ هـ . فلما ذهب الى بغداد ارسل عدة قواد لمحاربتهم ، ولكن لمناعة بلادهم ، ومساعدة البيزنطيين لهم ، لم يتمكنوا من القضاء عليهم ، واستمر امرهم مستقربا في بلاد أرمينية واذر بجان حتى زمن المعتصم . وقد اوصاه المأمون بحاربهم قبل وفاته . فنفذ الوصية وارسل لهم قائده الافشين ، فحاربهم مدة طويلة حتى تمكن من القضاء عليهم سنة (٢٢٦) هـ وقبض على بابك الخرمي وارسله الى المعتصم الذي سلبه في مدينة سامراء ، وبذلك انتهى امر الخرمية بعد حروب دامت نحو عشرين سنة زعقت ارواح كثيرة في سبيل القضاء عاليا .

زواج المأمون

تزوج المأمون من خديجة الملقبة بـ « بوران » وهي بنت الوزير الحسن بن سهل ، خطيبا من ايها سنة ٢١٠ هـ وهو غائب في طريقه الى بغداد ، يسترضي الحسن بعد مقتل اخيه الفضل بن سهل . وكانت بوران من جميلات عصرها ، واكثرهن ذكاة وأدبا . اقيمت حفلات عرسها في قصر ايها وفم الصلح (٢) حيث كان القصر مزينا اجمل زينة وأنهاها . واشتركت السيدة زبيدة في حفلة (١) - يقول ابن القيم في كتابه الفهرست عن الخرمي ما يلي : « الخرمية منفقان : الخرمية الاوثون ، ويسمون - المحمورة - وهم بنو احي الجبال فيما بين أذربيجان وأرمينية ، وبلاد الديلم ، وهمذان ودينور ، منتشرون . وفيها بين أصفهان وبلاد الاهواز ، وهوؤلاء اهل مجوس في الاصل ، ثم حدث مذهبهم . وصاحبهم مزدك القديم . أمرهم بتناول اللذات ، والانكاف على بلوغ الشهوات والاكل والشرب والمواصلة والاختلاط ، وترك الاستعداد بمشيم على بعض ، ولهم مشاركة في الحرم والاهل . لا يمنع الواحد منهم من حرمة الآخر ولا يمنعه . ومع هذه الحال فيرون افعال الخير ، وترك القتل وإدخال الآلام على النفوس . ولهم مذهب في الضيافات ليس هو الاحد من الامم : اذا اضافوا الانسان لم يمنعوه من شيء بلتمسه كأنما ما كان . وعلى هذا المذهب مزدك الاخير ...

واما الخرمية البابية : فان صاحبهم بابك الخرمي . وكان يقول ان استغوا: إنه إله ، وحدث في مذاهب الخرمية القتل والغضب والحروب . . . ولم يكن الخرمية يعرفون ذلك . »

(٢) الصلح : اسم نهر تصيب في الدجلة على بضعة أميال من واسط . وقصر فم الصلح . قصر واقع عند مصب هذا النهر بدجلة .

تقدم العلوم في عصر المأمون

كان عصر المأمون أروع عصور الحضارة العربية ، فسمي بحق العصر الإسلامي الذهبي ، ولاغرو فإن العشرين سنة التي قضاه المأمون في الحكم تركت كنوزاً زاخرة من الثروة الفكرية ، ولم تقتصر هذه النهضة على ناحية مدينة من العلوم أو الآداب ، بل شملت جميع نواحي التفكير والثقافة ، فانتعشت في زمنه حركة النقل والترجمة ، وازدهرت العلوم الفلسفية ، وارتقت العلوم الرياضية ، والفلك والطب وغيرهما من العلوم الدينية والدنيوية. وانتقل تراسل هذه العلوم إلى الأندلس والقسطانيية ومنها انتشرت إلى أوروبا ، وكان لها التأثير المباشر في الحضارة الأوروبية الحديثة ، التي نعش في كنفها في هذه الأيام . والتي كان لعرب الفضل الأكبر في إحيائها ، وسند كرم ما قام به المأمون ومن عايش في كنفه من العلماء في هذا السبيل .

أخذت الحياة العلمية تتقدم تقدماً محسوساً عند العرب منذ العصر الأموي ، ثم استمرت في تقدمها في العصر العباسي . فترى أبو جعفر المنصور علماء عصره على اختلاف أجناسهم وتحليهم إليه ، فترجموا له الكتب المختلفة من الهندية والفارسية واليونانية . يقول ابن ساعد : « أن أول علم اعنى به من علوم الفلسفة : علم الخلق والنجوم . فلما اتصل لأول من اشتهر به في هذه الدولة عبد الله بن المقفع الخطيب الفارسي . كتب أبي جعفر المنصور ، فإنه ترجم كتب أرسطاطاليس المنطقية الثلاثة التي في سورة المنطق وعثر عما ترجم من ذلك عبارة سهلة قريبة المأخذ ، وترجم مع ذلك الكتاب الهندسي المعروف بكيلة ودمنة ، وهو أول ما ترجم من اللغة الفارسية إلى اللغة العربية وأما علم النجوم فقد قدم على الخليفة المنصور في سنة ١٥٦ هـ رجل من الهند عالم بالحساب المعروف بالسند هندي في حركات النجوم في كتاب يحتوي على ألفي عشر باباً فأمر المنصور بترجمة ذلك الكتاب إلى اللغة العربية . وأن يؤلف منه كتاب تحفه العرب أسلاف في حركات الكواكب ، فتولى ذلك محمد بن إسماعيل الفزاري ، وعمل منه كتاباً يسميه المنجسون بالسند هند الكبير ، وتفسير السند هند باللغة الهندية : لمصر الداهر وترجم الطائفة حور حسن بن جبرائيل عدة كتب طبية للمنصور من اللغة اليونانية إلى اللغة العربية . وكذلك قام بحج بن البطريق بترجمة كتاب المجسطي في الهندسة لبطليموس وترجمت كتب كثيرة أخرى في زمن المنصور .

وقويت الترجمة في زمن هارون الرشيد ، لما جاء به من الكتب من بلاد الروم . ولمسا كان لأبرامكا من غناية في الترجمة وبذل المضاء المترجمين . فترجمت كتب كثيرة من اليونانية والفارسية والهندية والقبطية والعبرانية والآرامية والسبطية في شتى المواضيع لأسما في الفلسفة والطب والرياضيات والنجوم .

ولما جاء المأمون بلغت حركة النقل والترجمة أوجها ، لانه كان من اعلم رجال عصره ،
 ففتح بيت الحكمة ، وانفق الاموال المطائلة في سبيل جلب الكتب وتقريب المترجمين والعلماء ،
 فأرسل الى حاكم سقلية المسيحي وطلب منه ان يرسل ما في مكتبة سقلية من الكتب الفلسفية
 والعلمية ، فبادر بعد تردد الى إرسالها ، وكذلك راسل امبراطور البيزنطيين يسأله الاذن في انقاذ
 ما عنده من مختار الكتب الخزونة عنده ، فأجاب الى ذلك بعد امتناع . وبعث المأمون جماعة من
 قبله منهم الحجاج بن مطر ، وابن البطريق ، ويوحنا بن ماسويه ، لتسلم هذه الكتب ، ثم عمل على
 ترجمتها ونشرها ، وحض الناس على قراتها وتعليمها ، وقد اعد يوم الثلاثاء المناقشات العلمية ،
 والمناظرات الادبية في قصره ، فكان العلماء والفلاسفة والادباء يؤمون القصر في الصباح ، ويقدم لهم
 الطعام ، ثم يجلسون للمناقشة والمناظرة في حضرة الخليفة الذي كثيراً ما كان يشاركونهم في الحديث ،
 ويرأس الجلسة بنفسه ، وتستمر الابحاث العلمية طول النهار وهم بضيافة الخليفة ، ورعايته . وكانت
 غاية المأمون من مجالس المناظرة هذه إزالة الخلاف بين العلماء فيما اختلفوا فيه ، فترك العلماء الخوض
 في جميع الابحاث . وقد روي عن القاضي يحيى بن أكثم انه قال : « امرني المأمون عند دخوله بغداد
 ان اجمع له وجوه الفقهاء ، واهل العلم من اهل بغداد ، فاخترت له من اعلامهم اربعين رجلاً ،
 واحضرتهم ، وجلس المأمون ، فسأل عن مسائل ، أفاض في قنون الحديث والعلم . فلما انقضى ذلك
 المجلس الذي جعلناه للنظر في امر الدين قال المأمون : يا ابا محمد . . . إني لا ارجو ان يكون مجلسنا
 هذا يشوقني الله وتأييده على اتمامه سيباً لاجتماع هذه الطوائف على ما هو ارضى واصلاح للدين . إما
 شاك فيدين ويثبت فينقاد طوعاً ، وإما معاند فيرد بالعدل كرها . »

وقد اشتهر كثير من المترجمين في عهد المأمون أهمهم يوحنا بن البطريق ، وحنين بن اسحق ،
 وثابت بن قرة ، وموسى بن شاكر وشوه محمداً وحامد والحسن من منجمي المأمون وغيرهم كثير .
 ومن التحقيقات العلمية التي جرت في زمن المأمون قياس طول محيط الارض ، فقد اوفد المأمون
 بعثة علمية الى سهل سنجان ، وقد اختاره لاستواء ارضه ، فذهبت الى ذلك المكان ، وقامت ارتفاع
 نجم القطب الشمالي من مكان في هذا السهل بواسطة آلات كانت معهم ، وضربوا في ذلك الموضع ونداً
 وربطوا فيه جبلاً طويلاً ، ومشوا الى الجهة الشمالية على استواء الارض ، من غير انحراف الى اليمين
 واليسار حسب الامكان ، فلما فرغ الجبل نصبوا في الارض ونداً آخر ، وربطوا فيه جبلاً طويلاً ،
 ومشوا الى الجهة الشمالية ايضاً كفعلهم الاول ، ولم يزل ذلك دأبهم حتى انتهوا الى موضع أخذوا فيه
 ارتفاع القطب المذكور فوجدوه قد زاد على الارتفاع الاول درجة ، ففاسوا المسافة التي مشوها

فبلغت $٦٦\frac{2}{3}$ ميلا ، فملعوا ان هذا هو طول درجة من سطح الارض . ثم عادوا الى الموضع الذي ضربوا فيه الرصد الاول ، وشدوا فيه حبلا وتوجهوا الى جهة الجنوب ، ومشوا على الاستقامة ، وعملوا كما عملوا في جهة الشمال من نصب الاوتاد وشد الحبال ، حتى فرغت الحبال التي استعملوها في جهة الشمال . ثم أخذوا الارتفاع فوجدوا القطب الشمالي قد نقص عن ارتفاعه الاول درجة ، فصح حسابهم . وضربوا ٣٦٠ درجة في $٦٦\frac{2}{3}$ فكانت الجلة ٢٤٠٠٠ ميل وهو طول محيط الارض ، وهذا ما يعادل تقريباً تخفيفات الفلكيين في الوقت الحاضر . ولكي يتأكد المأمون من صحة هذا العمل أرسل بعثة ثانية الى سهل الكوفة قامت بنفس العمل وحصلت على نفس النتيجة .

وقد عني المأمون بعلم الفلك كثيراً ، وتمت في زمنه أرصاد فلكية عظيمة : كاعتدال الشمس ، والخسوف والكسوف ، ورصد النجوم المذنبية ، وقد اخترع أحد علماء ذلك العصر المنظار المعروف اليوم — بالتلسكوب — ووصفه بأنه أنبوب في طرفيه عدسات لانعكاس الضوء . وبني المأمون مرصداً فلكياً في سهل تدمر ، وبني مراصد أخرى في جهات متعددة .

وتمت أعمال علمية كثيرة غير ما تقدم في زمن المأمون ، وصنفت كتب في الرياضيات والهندسة ، والفلسفة ، وعلم البصريات ، والميكانيك ، ولا سيما في الطب ، الذي بلغ الى درجة عالية في زمن المأمون . وفتح كثير من الاطباء اشهرهم : جبرائيل بن يحيى شوع السطوري .

وكانت العناية بالثقافة عامة عند أهل ذلك العصر ، فكثرت العلماء والفقهاء ، والأدباء من جميع الاجناس والطبقات . حتى أصبح عصر المأمون عصر علم ونور ، وفاق العرب في هذا العصر جميع الأمم والشعوب حتى قال أحد المؤرخين : « بينما كان شارلمان يتعلم القراءة مكباً على مطالعة رسائله أثرابه في مدرسة القصر ، كان المأمون يبالغ الفاسفة ، ومناقشة قضاياها في بغداد » . وكان من نتيجة هذا التوسع العلمي ان انتشر مذهب المعتزلة في الدولة العباسية ، وهذا المذهب الذي يجدد العقل ، ويجعله حكماً في كل شيء . وستكلم عنه .

المعتزلة :

سمي المعتزلة بذلك نسبة الى الاعتزال ، وهو الاجتناب ؛ وذلك لان واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد خلفاً استأذنها الحسن البصري في بعض المسائل الدينية ، فاعتزل واصل مجلس استاذهم الحسن ، وجلس عند سارية من سوارى مسجد البصرة ، وانضم اليه صديقه عمرو بن عبيد ، فقال النلس يومئذ فيها : إنها قد اعتزلا قول الامة ، وسمي اتباعها بالمعتزلة . ولم يكن كثير من المعتزلة راضين عن هذه التسمية ، وانما كانوا يسمون انفسهم بأهل العدل والتموجيد .

أول ما ظهرت هذه الفرقة في أواخر العصر الأموي ، وقد اضطهد الخلفاء الأمويون لا سيما هشام بن عبد الملك رؤساء هذه الفرقة ، ونكل ببعضهم ، إلا أنهم تآبوا على نشر أفكارهم في جميع الأمصار ، لا سيما بعد قيام الدولة العباسية .

واقسم المعتزلة إلى فرق عديدة لها مبادئها الخاصة بها ، إلا أنهم اشتركوا جميعاً في الأمور الخمسة الآتية : (١) القول بالوحد ، وهو أن الله واحد لا شريك له . (٢) القول بالعدل ، وهو أن الله لا يحب الشر والفساد . (٣) القول بالوجد والموت ، وهو أن الله صادق في وعده ووعدده ، لا يغفر لمرتكب الكبيرة إلا بعد اثبتة . (٤) القول بالمعزلة بين الميزانيين ، وهو أن صاحب الكبيرة ليس بمؤمن ولا كافر ، لكنه فاسق . (٥) القول بالامر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وهو تكليف المؤمنين بالمهاد واقامة حكم الله على كل من خالف أمره أو نهيه سواء أكان كافراً أم مسلماً . وكان الخلاف المعتزلة مع الفقهاء من أهل السنة في مسألتين : الأولى مسألة القضاء والقدر ، والثانية مسألة صفات الله .

أما مسألة القضاء والقدر : فكان المعتزلة يقولون أن الإنسان يخلق أفعاله ، ومن أجل ذلك يستحق عليها الثواب والعقاب ، وأما عامة المسلمين فيقولون أن أفعال العباد مخلوقة لله ، ليس للعباد منها إلا جريانها على أيديهم .

وأما مسألة صفات الله : فقد زعم المعتزلة قدم الصفات : من قدرة ، وإرادة ، وسمع ، وبصر ، وكلام . . . وقالوا إن الله قديم نطق . أما العامة فيجعلوا هذه الصفات قديمة أيضاً وإنما فائمة بذاته تعالى . ونشأ عن ذلك : القول : بخلق القرآن . لأن القرآن كلام الله ، فيل هو قديم أم مخلوق ؟

أخذ المسلمون برأي المعتزلة ، وقال بخلق القرآن ، وإراد أن يحير الفقهاء وعلماء الأمة الإسلامية على القول بذلك ، فامتنع كثيرون منهم ، وأصابهم من الخليفة وعماله الشر الكبير . وكان من أصحابه الحنة الإمام أحمد بن حنبل الذي ضرب وعذب وسجن ، ومع ذلك لم يقل بخلق القرآن . وكانت تقع فتنة داخلية ، لكن الإزعة التي حجب موت الخليفة المسلمون الذي أوصى الخاء المعتصم الذي خلفه من بعده أن يحير الناس على القول بخلق القرآن ، ولكن المعتصم لم يكن له في ميدان العلم كبير جولة ، وبقيت هذه الحنة قائمة في زمنه وزمن ابنه الواثق وأهملت في زمن المتوكل .

ومن رجال المعتزلة المشهورين : العلاف ، والنظام ، والجاسط ، والرخدري . وغيرهم . . .

أخصر المأمون

عرف المأمون بالعقور وكبره الانتقام ، فعفا عن الشد خصومه وهو الفضل بن الربيع ، وعف عن إبراهيم بن المهدي الذي ادعى الخلافة لنفسه ، وأسا قدر عليه المأمون قال له : يا إبراهيم لقد حجب

الى العفو ، حتى خفت ألا أؤجر عليه . اما لو علم الناس ما لنا في العفو من اللذة ، لتفربوا اليها بالجنائيات الا تريب عليك ، يعفو الله عنك . وكان المأمون اكثر خلفاء العباسيين جوداً وابسطهم يداً ، واستحاج نفسه ، وكتب التاريخ والادب مقصداً بما كان له من حوادث غريبة في السخا ، والجودة ، تذكر منها واحدة فقط : لما فتح المأمون حصن قرية من بلاد الروم وغنم ما فيه ، اشترى السبي كله بستة وخمسين ألف دينار ، ثم خلا بهيليم واعطاهم ديناراً ديناراً .

وكان المأمون عالماً أدبياً فلهذا في حباه على شيوخ الادب واللغة والفقهاء والدين . انشده احمد الشراء قصيدة مئة بيت ، وكان الشاعر يشي بصدور البيت ، فيأخذ المأمون الى إتمامه ، دون ان يكون قد سمع بالقصيدة من قبل .

وكان المأمون سياسياً فذاً موفياً في اختيار بطاقته ومشيريه ، وظهر بحبائه السياسي بصورة خاصة بعد عودته الى بغداد . فقد كان عازماً بما يجري في دولته ، وما تطوي عليه سيرة كل فقيه او فائد او رجل ذو مكانة وخطر في الدولة . وكان المأمون يميل الى الاقتاع في الجدل والمناقشة ، واحتمل آراء المتناظرين حتى اذا لم تنفق مع آرائه وميوله . وكان يعمل على قطع دابر الرياء والتفاني في رجال قصره وقواك جندته .

وفاة المأمون

توفي المأمون عندما كان غزياً في بلاد الروم . وقد حارب الروم في عدة معارك انتصر فيها عليهم ، وفتح كثير من حصونهم ، اشتهر بها حصن ماجنة وحصن قرية . وكان مركز حركاته العسكرية في قرطرسوس ، الذي توفي فيه . وكان يخرج منه للغزو والفتوح ثم يعود اليه ، وذهب الى دمشق ومصر وقمع الثورة التي كانت قائمة فيها ثم عاد الى محاربة الروم ، وعندما كانت بدلي طرطوس ، أصابته حمى شديدة قضت عليه ، فأوصى الى اخيه المعتصم بالخلافة ، وطلب منه ان يتبع خطته العلمية والقول بخلق القرآن ، وحثه على احكام العدل بالناس . وكانت وفاته في ١٨ رجب سنة ٢١٨ هـ . وحمل الى طرطوس ودفن بحمامها . وكان يعاصره في بلاد الاندلس الحكم بن هشام وابنه عبدالرحمن الثاني . وفي فرنسا شارلمان ثم لويس الاول الملقب بالابن . وفي القسطنطينية ليون الارمني ثم ميخائيل الثاني الملقب بالتمتاع ، ثم ابنه توفيل . وفي زمانه فتح زيادة الله من بني الأغلب الذين كانوا يحكمون في افريقية جزيرة سقاية .

المعتصم

٢١٨ - ٢٢٧ هـ أو ٨٣٣ - ٨٤٢ م

ولد أبو إسحق محمد المعتصم بالله سنة ١٧٧ هـ ، أبوه هارون الرشيد ، وأمه أم ولد تركية ؛

تدعى ماردة . وكان في عهد الخليفة المأمون والياً على بلاد الشام ومصر ، وعهد المأمون له بولاية العهد ، وآثره على ابنه العباس الذي كان يتمتع بشهرة واسعة بين جند العرب ، ولعله فضله عليه لأنه حتى ان يعجز ابنه عن تنفيذ السياسة التي رسمها لدولته . فرأى من شدة المعتصم ، وقوة شكيمته ، ومثانة خلقه ، ما يضمن له تنفيذ تلك السياسة . إلا أن الجند رفض مبايعة المعتصم في بادئ الامر ، وأراد مبايعة العباس الذي أسرع الى مبايعة عمه بالخلافة ، محترماً بذلك وصية أبيه ، فحذا الجيش حذوه ، وابعوا المعتصم فذهب الى بغداد ، وتمت له البيعة .

اعمال المعتصم الراحل

تعليم الجيش :

استعان المعتصم بجند الأتراك ، وقربهم اليه بسبب ان أمه تركية ، ولأنه أراد التخلص من جند العرب والفرس ، اعلمهم تقوهم في الدولة ، ورأى ما للاتراك من شدة وبأس . فاستكثر منهم ، وكرّمهم جيشاً استغنى به عن جيوش العرب ، وأسقط اسماء العرب من ديوان الجند ، واستبدلهم بجند الاجانب الذين أتى بهم من جهات مختلفة ، فبعضهم من فرغانة ، وآخرون على أشروسنة من بلاد ما وراء النهر ، وهؤلاء جند الاتراك ، وفسم منهم من مصر واليمن وهؤلاء جند المغاربة . وكانوا جميعاً عجباً جفاة قساة ، ألبسهم الخليفة انظر اللباس من ديباج ، ومناطق مذهبة ، حتى اختلف زهيم عن سائر جنود الدولة ، وأجزل لهم انعطاء والهدايا دون غيرهم . وكان يفود هؤلاء الجند الساميون منهم تحت امره الخليفة . واشتهر من قوادهم : الافشين ، وابتاح ، وانشاس ، ووصف ، وبغا الكبير . ولم يخلصوا الدولة ولا للخليفة ، بل كانوا يطعمون في انزع السلطة منه وتأسيس دولة مستقلة لهم . فقد حاول الافشين وهو تركي من اشروسنة أن يقيم دولة مستقلة في بلاده . فكان يرسل الاموال والهدايا الى اشروسنة ، وشجع مازيار والي طبرستان بالخروج على الخليفة ، فحاربه عبد الله بن طاهر امير خراسان ، وأسرّه وأرسله الى المعتصم بامراء ، واعترف مازيار بما كان بينه وبين الافشين من مراسلات ، فقبض المعتصم على الافشين الذي حاول الهرب ، وحاكمه ، فثبت بعد التحقيق بأنه لا يزال على كفره ، وأنه كان يكيد المكائد للوصول الى ملك بلاده ، وأن اهل اشروسنة كانوا يخاطبونه بإله الآلهة . فقتله المعتصم وصلبه ثم احرقه .

شعر الخليفة بخفائه بتقريب الاتراك اليه ، إلا أنهم غلبوا عليه ، ولم يستطع التخلص منهم . وهو الذي تحمل تبعاً ما حل بالخلفاء العباسيين من بعده ، من اضطراب في حكمهم ، وضعف بسلطتهم ،

واستعداد الأتراك بدولتهم ، وخلع ونولية من أرادوا من الخلفاء ، واستشارهم بالعامه . فجزر المعتصم على أسرته وعلى الامة الغربية كافة ، أسوأ المواقف وأوخها .

بناء مدينة سامرا (سر من رأي) :

كان سبب بناء سامرا ، وخروج المعتصم من بغداد : دائن المساكين وانطرق ضاقت على الناس ببغداد لكثرة العساكر التي تجتمعت مع المعتصم ، وذلك ان جميع عساكر النعمان وعسكر ابنه العباس ، انضافت الى المعتصم ، وكثر غلمانه الأتراك ، وكان لا يزال يوجد الواحد بعد الواحد قبلا في الارياض والدروب ، وذلك انهم كانوا يركبون الدواب ويتركون في طرفي بغداد وشوارعها ، فيصدمون الرجل والمرأة ، ويدوسون الصبيان ، فيأخذهم الشبان ، فينكسرونهم عن دوابهم ، ويخرجون بعضهم ويقتلونهم سرراً ، فتأذى الأتراك بالعوام . والعوام بالأتراك ، حتى شكت الأتراك الى المعتصم . وحكي ان المعتصم ركب يوم عيد الى المصلى ، فقام اليه شيخ فقال : يا أبا إسحق ! فابتدره الجند ليضربوه ، فأشار اليهم المعتصم بالكف عنه ، وقال لشيخ ما الذي تريد ؟ فقال له الشيخ : لا جزاك الله عن الجوار خيراً ! جاورتنا وأتيت هؤلاء العلوج فأسكتتهم بين أظهرنا ، فأبست صبياننا ، وأرملت بهم نساءنا ، وقتلت بهم رجالنا ، والمعتصم يسمع ذلك جميعه . وحكي أيضاً انه قام الى المعتصم رجل فقال : يا أبا إسحق ! اخرج عن مدينتنا ، وإلا جاريناك بما لا طاقة لنا به ، فتقدم بحمل هذا الرجل الى داره ، فلما صار بين يديه قال : ويحك بمن نحاربني ، ومن هذا الذي لا طاقة لي به ؟ قال نحاربك يا سيدنا اذا هدأت الأصوات — يعني الدماء — فقال المعتصم لا طاقة لي به هذا وخرج فبنى سر من رأي .

وقال المعتصم لأحد كتابه : إني اتخوف ان يصيب الجند صبيحة واحدة فيذبحوا غلماني ، فذا ابتعت لي موضع سامرا ، كنت فوقهم ، فإن رأيي رائب انهم في البر والهر حتى آتي عليهم ، فقصده كتابه موضع سامرا وهو على دجلة فوق بغداد بـ (١٥٠) كيلو متراً ، فابتاع ديراً كان هناك بخمسة مائة الف درهم ، وابتاع بيتان كان في جانبه بخمسة آلاف درهم . وبنى المعتصم سنة ٢٢٦ هـ قصره ، وشيد الشكبات العسكرية لمسكره ، وبنى مسجداً جامعاً في طرف السوق ، وانقطع بهض الاراضي الى رؤساء الأتراك ، فبنوا فيها دورهم ، وما زال البنيان يجمع فيها حتى صارت مدينته من أعظم الحواضر الاسلامية ، وبقيت عاصمة الخلافة نحو ستين سنة في ايام سبعة خلفاء آخرهم المعتصم ، واتسعت بصوره خاصة في زمن المتوكل حتى صارت تضاهي بغداد في العمران . وآثارها اليوم احسن دليل على عظمتها الماضية . وتقع آثارها في بقعة طولها نحو عشرة اميال ، وعرضها نحو خمسة اميال على شاطئ الدجلة الايسر ، وفيها جامع المتوكل ، وشيدت في حائطه الشمالي المأذنة الكبرى المخرومية الشكل

المعروفة بالحرية ، ارتفاعها نحو (٥٥) متراً وحولها من الخارج درج منحدر لولبي . وتوجد أيضاً عدة قصور منها : قصر الجوسق الذي ابتناه المتعمم ، والقصر الهاروي الذي ابتناه الوائق ، وبها بركة كبيرة بناها المتوكل ووصفها البحتري بقوله :

| | |
|--------------------------------|----------------------------|
| يا من رأى البركة الحسنة رؤيتها | والآناس إذا لاحت منابها |
| كان جن سليمان الذين ولّوا | إيعابها قد قوا في مبابها |
| تنصب فيه : فوه الماء معجولة | كالليل مخرجة من حبل مجربها |
| كأنها القضة البيضاء سائلة | من السائل تجري من مجاربها |
| إذا النجوم تراءت في جوانبها | أبلا حسبت سماء ركبت فيها |
| لا يبلغ السمك المحصور غايها | أبعد ما بين قاضيها ودانها |
| محفوظة يرش لا تزال ترى | ريش الطواويس يحكيه ويحكها |

ويخترق الأبناس شارع مستقيم طويل كان يمر في المدينة ، وتضمب منه شوارع أخرى ، وفي نهايته شمالاً جامع أبي دلف وله ملوكة صغيرة . وكان خراب هذه المدينة حوالي القرن العاشر ميلادي .
حالة العلويين :

توفي محمد الجواد بن علي الرضا في بغداد سنة ٢١٩ هـ وكان المأمون قد زوجه ابنته أم الفضل التي اتهمت فيما بعد بفساد السم له ، وقد يكون ذلك بأية من الخليفة المتعمم الذي كان يحنى محمد الجواد أن يطالب بالخلافة ، وذلك لأن زوجته بنت المأمون ، وهو ابن علي الرضا الذي كان المأمون بأبيه بولاية العهد ، وقد اتى المتعمم بأبنة أخيه إلى قصره بعد وفاة زوجها .

وخرج محمد بن القاسم (١) من أولاد الإمام علي في الكوفة ، ثم ارتحل منها إلى خراسان خوفاً من بغش الخليفة به ، وانضم إليه كثير من أهل خراسان ، وحارب جيوش الخليفة العباسي وردّها مراراً ، إلا أن عبيد الله بن طاهر أمير خراسان قبض عليه وأرسله إلى المتعمم ، فحبسه في - أمرا سنة ٢١٩ هـ وقد اختلف الناس في وفاته ، فمنهم من قال : إنه مات مسموماً ، ومنهم من قال : أن بعض شيعته أخرجوه من مكانه وذهبوا به إلى مكان ما ومنهم من زعم أنه حي لم يمت ، وأنه المهدي المنتظر ، وأكثر هؤلاء بناحية الكوفة ، وبلاد طبرستان ، وبلاد الديلم .

إخضاع الرط (النور) :

قمت ثورة الرط في زمن المتعمم ، وكانوا - كما قلنا سابقاً - قد استولوا على طريق البصرة

(١) محمد بن القاسم بن علي بن عمر بن علي بن الحسين بن علي .

وهم يبيعون المكوس الخائرة على السفن ، ومنعوا وصول الاقوات والذخيرة الى بغداد ، فارتحل المعتصم
 ليخفف من حدة القحط العربي اليهم ، فأحاط بهم من كل جانب ، وسد الانهار عليهم ، وقطع
 شجرة النهر ، حتى أخرجهم على طاب الامان . وكان عندهم سبعة عشر ألفاً بين رجل ونساء واطفال .
 وحملهم في السفن ، ومر بهم على بغداد سنة ٢٢٠ هـ فخرج الخليفة ورجال دولته واشتد المدح
 فبشعروا هؤلاء اللطيفين بالاسم الزركشة . وهبأهم الفرية ، وبعد ان عرطوا حتى المعتصم أمر
 بنفهم الى آسية الصغرى ، فأمرهم البيزنطيون وقبلاً عدداً كبيراً منهم ، وتغلبوا بالقوت في البلاد .
 ويعرفون في أوروبا باسم Cypses .

قورة أهل الشام :

كان لأسلاف المعتصم على الاراضى اثر اى في نفوس العرب ، فلبوا في بلاد الشام تحت زعامة
 أبي حرب المبرقع الخاني الذي شهد ابر الحمة في فلسطين بسبب دخول احد الجند الى داره ، وهو
 غائب عنه وضربه احد حريمه بسوط على دراعها ، فلما عاد ودر بالخبر قتل هذا المندى ، وبس راعاً
 حتى لا يعرف ، وحرب الى بلاد الاردن . وتوثر بها وانضم اليه بعض الخرائين من أهل انت النواحي
 والقرى . ثم اتهم حوثة رؤساء النهاية النافون على الخليفة . فكثر احتجاجه حتى بلغ عنده رجاء من
 انك من الخرائين والى اراضى ، فأرسل اليه المعتصم رجاء بن ثوب الحفاري في رجاء انك
 رجل من الجند ، ولم يرأى كثرة ما معه تربت في مشائره ، وعندك بحداته . وطالبه حتى جاء
 موسم حراره واسداح الاراضى . ولم يبق معه الا نفر قليل فحاربوه رجاء ، ووقع قورة وجاء به
 اسيراً الى سامراء .

اعمال المعتصم الخارجية

فتح عمورية

كان البيزنطيون يغيرون على حدود البلاد الاسلامية من وقت الى آخر ، وحدثوا في سنة ٢٢٠ هـ
 او ٢٢١ هـ غزواً من الخلفاء الباسيين . فكان اكلا الدولتين جيون ومراقبون متعاونين الاجار ويعتون
 بها الى دولتهم . ولما كان المعتصم يحارب بامت الخرمي كتب اليك الى نوفيل ملك الروم يستعين به
 قتلاً : ان ملك العرب وجه معظم عساكره الي . ولم يبق على يده احد فان اردت الخروج اليه .
 فليس في وجهك احد يملكه . فأراد ملك الروم ان يهيئ لهذه الفرصة ليتخلص من يد الخليفة
 للعرب وينضم منهم ، فاجم نفر وجنود مستعد رأس المعتصم ثمة الف مقاتل ، واعمل الشريف في اهلبا
 فقتل من قوماً من الرجال ، ومثل بهم الشجعان من عساكر النساء والاطفال ، وأسرق المدينة . ثم توجه

الى دلتية وغيرها من حصون المسلمين وسبي أكثر من ألف امرأة .

بلغت تلك الاخبار المتصم وهو في مدينة سامرا فشد غضبه وأعلن النفير في جنده ، وسار نحو بلاد الروم ، وسأل أي بلاد الروم صنع وأحسن ؟ ف قيل له عمورية ^(١) وهي مسقط رأس توفيل امبراطور البيزنطيين ، فتوجه نحوها بعد أن سبأ جيشه المجرى احمد بن حيار تعبلة حسنة ، واجتمع جميع حرسه على مدينة عمورية فحاصرها خمسين يوماً ، وطربها بالمجنين وفتحها عنوة سنة ٢٢٣ هـ وسب ما فيها ودمرها وقتل كثير من أهلها انتقاماً لقتلى المسلمين ، وأرسل من بقي منهم امرى الى بغداد . وبعد ذلك المتصم سبى نفسه الرخف نحو القسطنطينية ليفتحها وإذا بمؤامرة تحدث له في ذلك . اكتشفها قبل أن يغادرها ، فقد اتفق العباس بن المأمون مع بعض قواد العرب الساجين على الاثراك وعلى الطليعة الذي أساء معاملتهم بتفريده بجند الغرباء . وحاولوا اغتياله وسبوا ابن أخيه بدلاً عنه . ولكن لحسن حظ المتصم اكتشف المؤامرة فأخذ جميع أولئك القواد وقتلهم وحسن العباس حتى مات . وعند معاهدة صلح مع امبراطور الروم ، وعاد الى سامرا ، ودخلها باستقبال حشم وصده ابو تمام بآداب الصبورة التي مطلعها :

الربيع احسن ايام من الكتب في حده الخلد بين الجند والعب

صفات المتصم ووفاته

عرف المتصم بالشجاعة والافئدة ، وشدة الزم ، حتى انه كان يميل ألف رطل في يدها خطوات . كما انه عرف بالنجدة وعمل الخير ، فمره رأى شيخاً ضعيفاً في يوم مطير قد غاس حماره في الوجل ، وسقط ما عليه من الثوب ، فخرل عن جواده وأخرج الحمار من الجبل وحمل الثوب بيديه ووضع على الحمار ، فتكوث ردأؤه وبيداه وأمر بعض خاصته ان يمطي هذا الشيخ أربعة آلاف درهم ، واستوى على دابته ولحق به حرسه يخيلهم . وكان المتصم محباً لعمران وميلاً لتحسين الزراعة ، وأهتم كثيراً باستثمار موارد البلاد الزراعية ، فكان يقول لوزيره : « اذا وجدت موضعاً ، متى انفتت فيه عشرة دراهم جاني بعد سنة احد عشر درهماً فلا تؤامرني فيه » .

اصيب المتصم في آخر ايامه بمرض شديد قضى عليه في سامرا في شهر ربيع الاول سنة ٢٢٧ هـ وتولى بولاية العهد لابنه هارون من بعده . وكانت مدة خلافته ثمانين وثمانية اشهر . وكان يعاشره في الاندلس عبد الرحمن الثاني وفي فرنسا لويس الاول ثم شارل الاصلح . وفي بلاد الروم توفيل بن ميخائيل .

(١) عمورية تسمى اليوم - نرى حصار بتركيا .

الوائق

٢٢٧ - ٢٣٢ هـ أو ٨٢٢ - ٨٢٧ م

ولد أبو جعفر هارون الخنبر بالوائق سنة ١٨٦ هـ أبوه المعتصم وأمه أم ولد رومية. قال لها فرطاس ، تولى الخلافة مباشرة بعد وفاة أبيه ، ونجح نهجته في كسب الأرباح ، واعتكفه عليهم في الخدمة العسكرية حتى كثرت عددهم وشغلوا المناسبات العالية في الدولة لاسيما المناسبات التي كان يحضرها سلطاناً وتوجه شاح مريض بالجوهر وقدمه على سائر قواد حنبل .

سياسة الواائق الداخلية

لما قرب الحجاز من بني سليم ، وعلال ، وبني مرة ، وجزارة وغيرهم من القبائل على الواائق ، دعوا في بلاد الحجاز فساداً . ونهبوا الأسواق ، وامتد اذاغ الى كثير من الناس ، وطمعوا الخارق ، وارتفعوا بجند والى المدينة المنورة فأرسل إليهم الواائق سنة ٢٣٠ هـ - سنة قيامها هذا الكبير أحد قواد الأرباك ، فذهب مع جيش الى الحجاز ، وأضجع تلك القبائل الدرة وقتل كثيراً من العصابة . ثم من الواائق سنة ٢٣٢ هـ لخربة بني غير في الرمة فأحضرهم ، إلا أنه لم يصبهم بمعية كبيرة في أحضر بني تميم الذين ثاروا لمخول الأرباك الأعاجم الأندلس ، ورأوا أن لا يذهب طينتهم وليجوزة العربية التي حصلت على كل شيء . وكانت خطبة كبيرة من تميم أن يستعصم بالخرج التزم في إخضاع قبائل العرب ، وأنت تلك الخطبة الى ضياع . مطرة الخلافة لم تدل لاستمرار الأرباك بالفساد وعدم احترامهم لهم .

كشده الواائق دماً في عرض آراء المعتزلة على الناس ، مما أثار أذى بغداد عليهم ، وأمرهم على حلقه إلا أن المؤامرة كشفت قبل أن يستفحل أمرها ، وقتل الواائق بن أحمد أحمد بن نصر لأنه لم يقل بخلاف القرآن ، وصار رأسه في بغداد ليعتبر بذلك أهلياً .

ونكس الواائق كتاب دولته تقليداً لما فعله الرشيد بالبرامكة ، وأحد منهم ما ينفذ عن المليون ونصف دينار تأديباً لهم على ما تقاضوه من الرشوة في معاملاتهم .

وكان المتغلب على الواائق في إدارة دولته فضيلة أحمد بن أبي دؤاد العملي ووزيره محمد بن عبد الملك الزيات ، فسكان لا يصدرو أمراً إلا عن رأيها ، وفقدوا الأمر وموضع اليها الحكم .

سياسة الواائق الخارجية

جري فداء في زمن الواائق بين العرب والروم سنة ٢٣١ هـ - سنة ٨٤٦ م ملك الروم رسلاً يسألون

الوائق أن ينادى بمن في يده من أسرى المسلمين ، فحاجب الواائق إلى ذلك ، واخذب القداء ، فحدث
الخادم ، وتقابل القرعان على نهر الكاوس ، فوقع القداء كل نفس عن نفس صغيراً لم كبيراً ، وقد
تعد المسلمون جسراً على النهر ، وحشد الروم جسراً آخر فمكّن المسلمون رسولون الروم على
جسرهم ، ورسّل الروم السد على جسرهم ، وكان لا يندى من المسلمين إلا من قال بخلق القرآن .
وذلك بأمر من القاضي أحمد بن أبي دؤاد .

صفات الواائق

كان الواائق واسع الذكاء ، الادب حتى سمي به ، سمعوا الأصغر ، وقد قرب إليه العلماء والفقهاء
والشعراء ، واحزول لهم العطاء ، وجعل لهم مجالس المناظرة في قصره مقنناً في ذلك الرسلون .
وكان يميل إلى الاطلاع على علوم وآراء من تقدمه من العلماء والفلاسفة والمتكلمين ، وكان يميل إلى
الموسيقى ، فقال : انه وضع بعض الألحان الجديدة . وكان لا يرى في البلاد الإسلامية متسرك الكثرة
إحسانه وعظائه .

توفي الواائق يومه ورثه شبيب في سامراء في شهر ذي الحجة سنة ٤٣٣ هـ ولم يمهّد بالخلافة لاحد
من بعده . وعندما مات الواائق لم يبق له من خلفه : لا الحمل امرئ حياً وميناً له دامت
خلافته خمس سنين وتسعة أشهر . وكان يماصره في القسطنطينية ميخائيل الثالث النبط بالسكبر .
وكان مثقالاً ، لذلك تمت أمه مقامه في إدارة المملكة . لما في بنية البلاد فكان يماصره من كان
يعصر إليه .

تمت الواائق بتمهي الدور الأول من العصر العباسي وهو العصر الذهبي للخلفاء العباسيين . لأن
الخلفاء كانوا يؤجدهم القبايل على ناحية الحكم والسلطة . وتستصبح الدولة من بعدهم نهياً
للأقوى من القواد والمسلمين الأعاجم .



الفصل الثاني

٢ - دور النفوذ التركي

٢٣٧ - ٣٣٤ هـ أو ٨٤٧ - ٩٤٥ م

حكم في هذا الدور ثلاث عشرة خليفة وهم: المتوكل، والمنتصر، والمستعين، والمعز، والمهدي، والمعتد، والمعتز، والمكفي، والقاهر، والراضي، والمتقي، والستكي، وهذه الامتياز هي القاب الخلفاء يتلقون بها عند تولي منصب الخلافة. وكلها ترجع الى - الله - أي: المتوكل على الله، والمنتصر بالله... وأول من تسمى بذلك من الخلفاء هو المعتصم بالله ثم اقتدى به بقية الخلفاء.

صفات هذا الدور العامة

ضمف مركز الخلفاء في هذا الدور وأصبحت سلطتهم اسمية فقط، وكان الحكم الحقيقي بيد قواد الترك (١)، الذين غلبوا على أمور الدولة، وساروا يوازيون الخلفاء ويمنزلونهم أو يقللونهم كما يشاؤون. وكثيراً ما كانوا يحجرون على بعضهم قبل توليهم الخلافة، ويحبسونهم في القصور ليزيدوهم ضعفاً، وكان الخلفاء من جهة أخرى يميلون الى حبس أولادهم وأقربهم خوفاً من توابعهم مع بعض الأتراك على حلهم أو قتالهم. فكان المحجور منهم يعاشر الخدم والحصيان، حتى ألفوا أخلاقهم، وتحققوا بالاختيار أن حياتهم تنوق بالأكثر على أمانة توارث الخدم ما أسوء من غيرتهم عليهم، وخصوصاً الحصيان، إذ لا عصرية فيهم تمنعهم من التفاني في خدمة سيادهم لعدم وجود أولاد لهم.

(١) الترك امة قديمة جداً مؤلفة من قبائل و بطون وأقباد تعيش عيشة قبلية اتخذت موطنها في اواسط آسيا بين الهند والصين وسيريا. وقد استولى السامون على بلادهم في زمن الامويين ونشروا الاسلام فيها. وقد نصر الاتراك السنة في جميع ادوار حياتهم كما كان الفرس ينصرون الشيعة على الاغلب. وكان الاتراك قلبي العناية بالعلوم والفلسفة ويكرهون الجد والمناقشة وانما اشتهروا بالشجاعة وقوة البدن والصبر على الاسفار لذلك اتخذهم الخلفاء العباسيون جنداً محارباً وخدماً في قصورهم وقد ازداد عددهم عندما علا شأنهم في الدولة العباسية فآخذوا يتسلطون بالثقات والاثوف من بلاد ما وراء النهر يظليون الاتراك بالجندي حتى أصبح الجيش والفود يديهم

فأصبح ولاية العهد إذا اقتضت الخلافة إليهم بالنزول في تقريب الخدم بالعطايا والأكرام الخاصة لحائهم
إذا أراد الأتراك الفتك بهم ، فعدوا إلى الاستئثار من الخدم ، وكانوا يقدمونهم ، بكرمهم
ويستعبرونهم في أمورهم . فلزاد الخدم نفوذاً وسلطاناً ، حتى أصبح الأتراك يخافونهم . وقد ارتقى
كثيرون منهم من الخدمة في المنازل إلى قيادة الجند أو الأمان على الأقاليم . مما دعى بعض المؤرخين
أن يسمى هذا الدور « بدور نفوذ الترك والخدم » . وقد جاءهم الخلفاء طبقات ورفقاً تعرف باسماء
خاصة كغرفى القفطان الأصغر ، والقفطان الحجري ، والرجال المصافية ، والركابية . . . وكانوا من
اجناس مختلفة : فهم الرومي ، والتركي ، الحبشي ، والأرميني والسندي ، والهندي والصقالي . وكان
الخلفاء يدفعون إليهم أجورهم ، ويوفقون عليهم من أموالهم الخاصة لانهم جندهم وحرسهم .
وفي هذا الدور قوي نفوذ النساء لا سيما في زمن المقتدر ، وقد اشتهر منهن أم المقتدر ، وأم
موسى الهاشمية القهرمانية ، وكن يرتشين بالاشتراك مع موسى الخادم ونصر الحاجب ويسيرن الأمور
كما يريدن . وهذا ما أدى إلى تقلص نفوذ الخلفاء عن معظم أراضي الدولة الإسلامية
وقيام الأمراء في المقاطعات وتشكيلهم دويلات مستقلة ، وتلقبهم بالملوك والاملاطين ، وتنازعهم على
منصب أمير الأمراء الذي أحدثته الخليفة الراضي ، حتى أصبحوا أشبه بأصحاب الأقطاع الذين ظهروا
في أوروبا في القرون الوسطى منهم بالملوك الذين يأترون بأوامر الخليفة . وفي هذا الدور تدهورت
سلطة الخلافة ولم تعد تحتفظ لنفسها بنير الاسم .
وسأنتكم باختصار عن أهم الحوادث التي جرت في عهد كل خليفة من خلفاء هذا الدور .

التوكل

٢٣٢ - ٢٤٧ هـ ٨٤٧ - ٨٦١ م

ولد التوكل على الله سنة ٢٠٦ هـ بضم الفصح ، وأمه جعفر ، أبوه المعتصم بن الرشيد ، وأمه أم
ولد خوارزمية يقال لها شجاع . ولم يكن بالمرضي عنه في حياة أخيه الواثق ، فكان شديد المراقبة
له . كثير التشبیر عليه ، حتى كان على رجال الدولة أمثال الوزير محمد بن عبد الملك الزيات محاسب
انتقام التوكل ومصادرة جميع أمواله بعد توليته الخلافة .
لم يمهّد الواثق بالخلافة لأحد من بعده ، ولما توفي اجتمع كبار الدولة ، وناطروا فيمن
يولونه الخلافة . فإشار محمد بن عبد الملك الزيات : بمحمد بن الواثق وكاد الأمر يتم لولم يكن الواثق صغير
السن فعندما جاؤا به والبسوه دراعة سوداء وقاسوه مصافية قل لهم وسيف القائد التركي : « لما
تتقون الله يولون مثل هذا الخلافة ، وهو لا يجوز معه الصلاة » وانفق رأيهم على مبايعة جعفر بن
المعتصم ولقب بالتوكل على الله وتمت له البيعة .

سياسة المتوكل الداخلية

انتقم المتوكل ممن أساقوا معاملته قبل توليه الخلافة ، فسجنهم وصادر أموالهم ، كما صادر أموال كثيرين من عماله وكبار موظفيه . وأساء معاملته العلويين ، وكانت شديدة الكره لهم ، حتى أنه أمر في سنة ٢٣٧ هـ بهدم قبر الحسين بن علي بكربلاء وهدم ما حوله من المنازل والدور ، وأمر أن يحرق ويدمر ويسقى موضع القبر . ومنع الناس من زيارة ذلك المكان ، وهدد من يخالف ذلك بالسجن .

شعر المتوكل بازدياد نفوذ الأتراك في الدولة واستبدادهم بأموال الخلافة ، وإدارتها وجيشها فأحب أن يصف شوكتهم ويقلل من نفوذهم ، فاستال على ابنه الذي كان قائداً أعلى على جيش الأتراك والمقاربة والموالي ، وبهذه أمر البريد والحجابة ، ودار الخلافة ، فصجته في بغداد مع ولديه وبعض أعوانه وأساء معاملته حتى توفي سنة ٢٣٥ هـ .

أراد المتوكل أن يخلص من نفوذ الأتراك ، فنقل عاصمته من سامرا إلى دمشق سنة ٢٤٣ هـ لبسطين بالعرب عليهم ، إلا أن الأتراك شنوا عليه واضطروه إلى الرجوع بعد أن أقام بدمشق أياماً ، فأظهر أنه استولاً البلد لأن الهواء بارد قدي ، والماء قليل . والريح فيها تهب مع العصر فلا تزال تشد حتى يمضي ثلث الليل ، وغلت فيها الأسعار ، وحال الحاج بين السابلة والميرة فأخرجها عائداً إلى سامراء . ولو نجح المتوكل بفكرته لافقت نفسه ومن أتى بعده من الخلفاء من استبداد الأتراك وظلمهم ، وخلع الخلافة من أولئك العلوج الذين أساقوا للدولة وسعوا لخرابها .

وفي سنة ٢٤٥ هـ أمر المتوكل ببناء مدينته المتوكلية بقرب سامراء وجعل إليها الماء ، وأنفق مبالغ كبيرة من أجلها ، وما لبثت أن حُرقت بعد مقللة . وفي آخر عهد المتوكل ابتدأت الدولة اليعقوبية إضعاف اليمن (١)

سياسة المتوكل الخارجية

كانت الحروب في زمن المتوكل قائمة بين المسلمين واليزيديين برأ وبحراً ، وفي سنة ٢٣٨ هـ انتهز الروم غياب حامية دمياط — وقد استنصم أمير مصر إلى القسطنطينية جعل بهم — فغلبوا على البلد ، فلبوا الأموال ، وأحرقوا الدور والمسجد ، وغنوا في الأرض فساداً وغاندوا سالمين .

(١) الدولة اليعقوبية (٢٤٧-٣٨٧ هـ) مؤسس هذه الدولة يعفر بن عبد الرحمن الخواري . استقل عن الدولة الزيدية في زيد باليمن وظل يدفع لها خراجاً في كل سنة . واستمر ملك صنعاء في نقابيه حتى سنة ٣٨٧ وكان آخر من حكم من سلالته عبد الله بن قحطان .

وكذلك غزا الروم كلبيكا وأسروا منها عشرين ألف وذبحوا منهم نحو اثني عشر ألف بعد أن ذلوا بهم وكان المسلمون يفترون الصائفة والثانية ، ويتوغلون في أرض الروم ، ويدافعون عن البلاد الإسلامية وقد حصل فدائيين في زمن المتوكل ، اقتدى فيها عدد كبير من المسلمين .

صفات المتوكل

لم يكن المتوكل يحب الظفر والجذل ، بل كان ميالاً إلى التقليد والرجوع إلى السنة ولذلك أمر الشيوخ والمحدثين بإحياء السنة ، ومنع المناقشات التي كانت تدور في زمن أسلافه حول تعاليم المعتزلة . وأقصى أحرار الفكر عن وظائف الدولة . وكان يفر من استعمال أهل الذمة في الدواوين ويكره أن يظهروا في الطرق بظهور المسلمين . لذلك أصدر أمره سنة ٢٣٥ هـ أن يابسوا زياً خاصاً بهم وهو الطيالة المساية والرنانير ، وأن تكون لهم مروج خاصة بهم لو كويهم ، ونهى أن يتعلم أولادهم في كتابات المسلمين ، ولا يعلمهم مسلم . وكتب بذلك منشوراً أرسله إلى عماله في جميع أنحاء المملكة .

كان المتوكل كثير القهر والمهون يحب الشراب والطرب . أدخل إلى مجلسه اللعب والمضاحك والمزل ، ولم يكن من سبقه من بني العباس يميز ذلك . وقد سماه السج أمير علي ه فيرون العرب ، أظلمه وخلعته .

مقتل المتوكل

عبد المتوكل لأولاده الثلاثة وهم : محمد المنتصر ، ومحمد المعتز ، وإبراهيم المؤيد ، لولاية العهد وقسم البلاد بينهم ، على أن يحكم كل منهم نفسه منفرداً عن أخيه دون أن يتدخل بعضهم ببعض . وجعل لاكيم هم المنتصر التقدم بولاية العهد وعينه على بلاد إفريقية والمغرب كله . وبأني بعده المعتز وعينه على خراسان وما حولها . وجعل لأبيه الثالث جند دمشق ، وحصن ، والأردن وفلسطين وكتب بينهم كتاباً نسخ منه أربع نسخ حفظ إحداها في خزائنه ، وأعطى كل من أولياء العهد نسخة احتفظ بها لنفسه . وفي آخر عهده اختصم المتوكل مع ابنه المنتصر وهم بوزله عن ولاية العهد شعريش من وزيره عبيد الله بن خاقان ، والتقى مع الفتاح على الفتح على المنتصر ووصيف ومفا وغيرهما من قواد الأتراك فلما علم هؤلاء بذلك تأمروا مع ابنه المنتصر على قتله ، ونفذوا المكيدة قبل أن يتمكن منهم الخليفة ، فقتلوه وتبرع وهو على حالة الشراب ليلة الخميس رابع شوال سنة ٢٤٧ هـ . ودام حكمه نحو خمس عشرة سنة . وكان قتله فحشة جرأتهم على الخلفاء العباسيين .

سادوا الخلافة من بعده إلى المنتصر (٢٤٧ - ٢٤٨ هـ) وأصيب الترتل أظفارهم في جسم الدولة . ولم يكن المنتصر حيلة للتخلص منهم ، لما دب في قلبه من الحمية لهم ورعاية جانبهم ، ولم تطأ مديته

أكثر من بضعة أشهر ، مات وضيمه بوجنه لاشترأكه في قتل أبيه ، وكان كثيراً ما يقول إناسئل
عن حاله : ذهبت - والله - من الدنيا والآخرة .

ولي الأتراك بعده المستعين (٢٤٨-٢٥٢) واستأثروا بالحكم وضيقوا الخليفة في سامرا
حتى هرب إلى بغداد ، فالتمسوا إليه الرجوع ، فأتوا المعز بالخلافة وأصبح في بغداد خليفة ،
وفي سامرا آخر . وحاصر الأتراك بغداد وضيقوا عليها نحو سنة حتى اضطر الخليفة المستعين بالتنازل
عن الخلافة ، على شرط أن يضعوا له الجيش بأخمينان في المدينة المنورة . غير أن أحد رجال
الخليفة المعز اختاله في واسط وهو في طريقه إلى الحجاز . وقد مثل أحد الشعراء صعب الخليفة
المستعين بقوله :

خليفة في ففص بين وديف وبفا
يقول ما قالأ له كما تقول البيفا

وفي زمنه ظهرت الدولة الزيدية بطنبرستان . (١)

وفي زمن المعز (٢٥٢-٢٥٥ هـ) استفحل أمر الأتراك استفحالاً عظيماً . وثما يحكى عن
استبدادهم فيه أنه لما تولى الخلافة جلس قواده واحضروا المجنحين وقالوا لهم : « انذرواكم بعض الخليفة
وكم يبق في الخلافة ؟ » وكان في المجلس بعض الطرفاء فقال : « أأأأأأ من هؤلاء بمقدار عمره

(١) الدولة الزيدية (٢٥٠-٣٥٥ هـ) وهي دولة علوية تسمى الحسن بن زيد في طبرستان .
وقد استعده جماعة من الدلم عندما كان بقم في الري . وتولوا على عمال الدولة الطاهرية التي كانت
تحكم في خراسان ، فزحف الحسن ومن معه على مدينة آمل خضرة طبرستان . واستولى عليها
وعلى جميع بلاد بلاد طبرستان ، وظل يحكم تلك المنطقة نحو عشرين سنة . خلفه بعد موته أخوه
محمد بن زيد سنة ٢٧٠ هـ وفي أواخر عهده وقعت تلك المنطقة تحت حكم السامانيين سنة ٢٧٩ هـ
وظلت اثني وعشرين سنة تحكم تلك المنطقة حتى سنة ٣٠٩ هـ إلى أن قام علوي آخر من غير سلالة
الحسن بن زيد يدعى الحسن الأطروش واسترد طبرستان من آل سامان وظل شكل ثلاث سنوات ،
وقتل في حروبه مع السامانيين سنة ٣٠٩ هـ فقام من بعده علوي آخر يدعى الحسن بن القاسم
وبارح أولاد الأطروش الملك إلى سنة ٣٥٥ هـ عندما انتهى أمر هذه الدولة . ولم تحكم هذه الدولة
أسرها واحدة . وإنما كان يحكمها ثمة علويون من أسر مختلفة تجمعهم رابطة واحدة هي : القاسميين
إلى الإمام علي بن أبي طالب .

وخلافته ، فقالوا له : : ه فكم تقول انه يعيش ويمتلك ؟ ، قال : : ه منها أراد الامتراك : ه قم يبق في المجلس
الا من ضحك . وعندما تأخر المعتز عن تقديم المال والعطاء للامتراك قتلوه شر قتله . تجمعوا عند
باب منزله ، وطلبوا اليه ان يخرج اليهم فاعتذر بسبب مرضه فدخل اليه القوم فجروا برجله الى باب
الحجرة ، وضربوه بالدايس ، فخرج وقبضه ففرق في مواضع وآثر الدم على منكبيه ، فلقموه في
الشعس في الدار في وقت شديد الحر ، فصار يرفع قدمه ويضع الاخرى من حرارة الوضع ،
وبعضهم يلقطه بيده . ثم امنوا الى قاضي القضاة مخفى ، ومهر المعتز ان ينهي على كتاب خالعه ،
فمضى ونهد عليه الحاضرون . وغال أنه بعد الخلع دفع الى من يمثله ومنع عنه الطعام والشراب
مدة ثلاثة ايام ، فطلب حسوة من ماء البئر فنعوه حتى مات .

وهكذا كانت خاتمة من يستعين بالاجنبي لمساعدته في ادارة الدولة ، وينصرف على اهله . وتاريخ
العباسيين اكبر عبرة وموعظة في اظهار خطر الاجانب على الدولة ، لان الخلفاء كلما استعانوا على
شعبهم بقوة خارجية ، كانت هذه القوة الخارجية تتغلب عليهم وتحكم فيهم وتسلبهم سلعانهم .

وقد عرضت الخلافة على المرندي (٢٥٥ - ٢٥٦ هـ) فلم يقبلها ، حتى يرى المعتز ويسمع كلامه
بانه خلق نفسه ، فجاء به - وكان لا يزال حياً - وغليه قبض مدنس ، وعلى رأسه منديل . فلما
رآه المرندي وثب اليه فعانقه ، وجلس معه على السرير ، وسأله عن أمره واراد ان يتوسط له مع
الامتراك ويرجعه للخلافة . فقال المرندي : ه لا حاجة لي فيها ولا يرضوني لها : ه فقبل المرندي بالخلافة ،
وحاول ان يصلح حالة الدولة ، ويرفع الظلم عن الخاصة والعامة ، وبنى قبة لها أربعة ابواب وسميها
ه قبة المطالم ، وجلس فيها يسمع شكايات الناس ويبيد الحق لانه ، ويأمر بالمعروف وينهى عن
المنكر . وقد حرم الشراب ونهى عن القيان . وكان يحضر الجمعة إلى المسجد ويؤم الناس بنفسه .
وفي زمنه انقلب الجند على رؤسائهم ، وطلبوا اليه ان يرد الأمور مباشرة اليه ، وأن يصير الأموال
إليه ويوزعها عليهم كما يريد . وأن يكون أحد اخوته رئيس الجيش ، ولا يكون أحد الموالى وان يحارب
الرؤساء على ما عندهم من الأموال . فوافقهم على ذلك . وقد حاول التخلص من زعماء الامتراك
فألقوا غايه وقتلوه ، واضطروه الى التنازل عن الخلافة . وأودعوه السجن حيث توفي فيه بعد
أمد قصير .

تولى الخلافة بعد ذلك المظفر (٢٥٦ - ٢٧٩ هـ) دام حكمه ٢٣ سنة ، كان أخوه أبو أحمد
الموفق الخليفة الحقيقي ، وليس المعتمد شي من الساطان . سوى الناطبة والسكا والاسم . واماندا
ذلك فهو لاختيه . فكان الموفق قائد الجند ، ومدير شؤون الدولة ، يولي ويمزل الوزراء والكتاب

والمواطنين حسب ارادته . وقد أخضع كثير من التورات والذين التي قامت في زمن المتمد وأن
هذه التورات :

توراة الزنج (٢٥٥ - ٢٧٠ هـ)

وهي من أعظم الحوادث وأعربها في ذلك الزمن . قام بها جماعة كثيروا المدم من زنج افريقية .
حاء بهم سكان البصرة من شرقي افريقية ، واستخدموهم في كسح الأراضي الواقعة في القسم الأدنى
من نهر الفرات ، وهي أراضي مربة تغطيها سباح واقية متعددة ، صعبة الممالك وسيرة العمل .
وكان زعيم هذه الحركة يدعى « بالبيت صاحب الزنج » ادعى انه علي بن محمد ، من نسل
الأمام علي بن أبي طالب ، وأنه من أصل عربي من عبد القيس بن ربيعة . دعى لنفسه في البحرين ،
وبين قبائل العرب في البادية ، حتى عظم أمره عند أهل البحرين وأجلوه من انفسهم محل النبي ،
وجبوا له الخراج ، فاستغل بعد ذلك إلى البصرة ، فقاومه عاملها وقمع حركته . فاستعان علي بن
عمر بالبيد ، وودعهم باسترداد حريتهم من سيادهم إن ساعدوه فانضم اليه عدد كبير منهم ، وأعلن
عصيانته على الدولة سنة ٢٥٥ هـ وصار يبعث في تلك الجهات فساداً ، فاحرق الأيلة (على خليج
فلوس) واستولى على عبادان ، وأوقع بأهل الأهواز ، وقتل عدد كبير من سكان البصرة ، وخرب
كثيراً من مبانيها (١) وكان يقطع على المراكب الماخرة في دجلة طريقها ويأخذ مافيها ، ومما ساعد

(١) وصف ابن الرومي ما فعله الزنج بالبصرة وحض الناس على قتالهم بقوله :

| | |
|----------------------------|-----------------------------|
| زاد عن مقلتي لذيذ المنام | شغلها عنه بالدموع العجلم |
| أي نوم من بعد ما حل بالبصر | ة ، ما حل من هبات عظام |
| بينما اهلها بأحسن حال | إذ رمام عبيدكم بأعظام |
| أن ضواء ذلك الخلق فيها | أن أسواقها ذوات الرحام ؟ |
| أن فلك فيها وفلك اليرسا | منشآت في البحر كالأعلام |
| أن تلك القصور والدور فيها | أن ذلك البيان ذو الأحكام ؟ |
| بدأت تلك القصور ثلاثاً | من رمان ومن زراب ركام |
| وخلت من حولها في ففر | لا ترى العين بين تلك الأكام |
| غير آيد وأرجل بالثبات | نبذت بينين أفلاق همام |
| ووجوه قد رملتها دماء | بأي تلك الوجوه الدوامي |
| ومنت بالهوان والذل قرأ | بعد طول الترجيل والأعظام |
| خاضعات كأنها بأكيات | بأيات التفور لا لأجسام |
| انفروا إليها الكرام خفافاً | وثقالاً إلى العبيد الطغام |

على نجاح حركته انشغال الخليفة وأخيه الموفق بمحاربة الدولة الصفارية (١) وتغالي الزنوج بالدفاع عن حررتهم وصعوبة أراضهم الكثيرة المستنقعات والآنية ، ومعرفتهم لها جيداً ، وقد هزموا عدة جيوش أرسلها الخليفة لقمع حركتهم ، وقد أخذوا مذهب الزرافة من الخوارج ، فسكنوا بقلون كل من لا يحارب معهم ، أو من تقع أسيراً في يدهم ، فاضطر الموفق إلى أن يحاربهم بنفسه فجمع جيشاً كبيراً قسمه إلى فرق صغيرة ، وحاربهم بمثل طريقهم . وبني مدينة تقابل مدينتهم « الحشارة » وسمّاها « الوذبة » نسبة إليه ، ومنع عنهم الميرة والذخيرة حتى تمكن من اختطافهم والاستيلاء على مدينتهم « القرض » على زعيمهم وحشيته ، فقتلهم جميعاً وأرسل رؤوسهم إلى بغداد وبذلك قضى الموفق على ثورة قامت في قلب الدولة ودامت نحو ١٤ سنة كانت خطراً على الدولة العباسية .

(٢) الدولة الصفارية (٢٥٣-٢٨٩ هـ) قامت في سيجستان أسسها يعقوب بن الليث الصفار وازدهرت في عهد أخيه عمرو بن الليث الصفار . كان هذان الرجلان يعملان في حدادتهما عمل الصقر (النحاس) وترك يعقوب صنعة والتحق ببعض العصابات القائمة في سيجستان . واستفاد من الاضطرابات القائمة هناك ، وتغلب على سيجستان سنة ٢٥٣ هـ . واشتدت شوكرته حتى استولى على جميع بلاد فارس وكرمان وخراسان من آل طاهر ، وأرسل الخليفة يطلب منه أن يوليه على ما بيده من البلاد . استعين بذلك على تأييد مركزه ، وبث إليه بهدايا ثمينة ، فأقره الخليفة على ذلك ، ومنذ ذلك الوقت أخذت أملاك يعقوب تتوسع من ناحية الشرق ، فاستولى على السند ، وناحية كابوا في أفغانستان . وكان له فضل عظيم في توطيد اسلام هناك . وكان لاتصارات الباهرة التي حصل عليها يعقوب الرأ بالغ في نفسه زادت طمعاً وجراً ، فاستأذن الخليفة المعتمد بطلب أن يمثلي بين يديه ، وجاء بجيش كبير للاستيلاء على بغداد ، فعلم الخليفة بنواياه ، فخرج بخارسته بنفسه ، وتغلب عليه وتوفي يعقوب سنة ٢٥٩ هـ بالانهوار . وخلفه أخوه عمرو بن الليث بالحكم . وكان سياسياً مدبراً يعرف أن مناوأة الخليفة لا تجديه نفعاً ، لذلك بث إلى الخليفة وبعثاته بالهدايا والتخطف ، فجعله والياً على ما كان بيد أخيه من البلاد .

تعرض عمرو بن الليث في اواخر أيامه إلى أملاك السامانيين في بلاد ماوراء الهند ، وطلب من الخليفة المتضد أن يوليه إيها ، فوافق الخليفة على ذلك ، وكان خراب الدولة الصفارية على يد اسماعيل بن محمد الساماني ، الذي حارب عمرو بن الليث وأسرّه ، وبث به إلى الخليفة المتضد في بغداد فقتله سنة ٢٧٧ هـ وانتهى امر هذه الدولة .

وفي زمن المتمد ظهرت الدولة السامانية في بلاد ما وراء النهر (١) والدولة الطولونية بمصر والشام وسيأتي الكلام عليهما .

بولى الخلافة بعد ذلك المنصور (٢٧٩ - ٢٨٩ هـ) وكان شجاعاً جريئاً حازماً . إلا أنه كان سفاكاً للدماء قليل الرحمة حتى لقبه بالسفاح الثاني ، كسلفه الخليفة العباسي الأول . نشط المتصدد لقمع الاضطرابات ، حتى أُرهب الناس ، وأطفأ نار الفتن ، وضرب على أيدي القاصوص وقطاع الطرق واسترد عدة مدن وقلاع من البيزنطيين في حروبه الخارجية . كما استرجع مصر سلماً إلى احضان

(١) الدولة السامانية (٢٦١ - ٣٨٩ هـ) وهي دولة فارسية حكمتها أسرة تنسب إلى سامان خدا من اشراق الفرس . وقد لعب ابنه اسد بن سامان مع أولاده دوراً هاماً في الولايات الشرقية في زمن الرشيد والمأمون . وأشهر منهم أحمد بن أسد الذي احدثت منه السلالة السامانية . كان الساميون في زمنه خاضعين للدولة الطاهرية وقد استقلوا عنها ونصبوا خليفة مباشراً في زمن ابنه نصر بن أحمد سنة ٢٦٩ هـ الذي يعتبر مؤسس هذه الدولة . اتخذ نصر مركزه في نيسابور ، ووسع هو وأولاده من بعده ملكهم في سجستان وكرمان ، وجرجان ، والري ، وطبرستان ، بالإضافة إلى بلادهم الأصلية فيما وراء النهر . وكان اسماعيل بن أحمد يخضع أخاه نصرأ أولاده بخاري سنة ٢٦٩ وقام بين الاخوين فيما بعد منازعات شديدة بسبب سعادة السوء بينهما ، واشتبكا في حروب كثيرة . وفي سنة ٢٧٥ هـ انتصر اسماعيل على أخيه : ولم يقتله أويهي إليه بل تركه على قيد الحياة ووجهه إلى مخرقة وظل فيها حتى توفي سنة ٢٧٩ هـ فقام اسماعيل من بعده على الحكم واتخذ مركزه بخاري ، واستولى على خراسان . وصار له دولة عظيمة أورشها أولاده واستمرت فيهم نحو ١٧٠ سنة . واتت هذه الدولة على أيدي الغزنويين الذين هاجموا من ناحية الجنوب وعلى أيدي قبائل الترك الذين هاجموا من جهة الشمال . وكان لامراء هذه الدولة فضل كبير في خدمة الثقافة . فقد نشطت العلوم والفلسفة في زمانهم وبلغوا نفوذهم على الأدباء سواء منهم الفرس أو العرب . فقد اشتهر من رجال هذه الدولة : الرازي ، الذي قدم كتابه - المنصورى - في الطب إلى أبي صالح منصور بن اسحاق أحد أمراء هذه الدولة . وظاهر ابن سينا ، الذي بدأت شهرته بعد ما درس في مكتبة نوح بن منصور الساماني . ويقال ان ابن سينا أحرق هذه المكتبة حتى لا يضايقه أحد بعلمه . ونبغ البلخي وزير المنصور بن نوح ، وقد ترجم تاريخ الطبري إلى اللغة الفارسية . وقد كتب الفردوسي ، الشاعر الفارسي أول اشعاره في مدح السامانيين . وكانت مخرقة بخاري تنافسان بغداد في الحضارة والعمران في زمن هذه الدولة .

الخلافة بزواجه من « قطر الندى » ابنه خوارزميه بن احمد بن طولون، وجعل حكم مصر له ولاسراة
من بعده . وقد رجع المعتضد الى بغداد وترك سامرا بعد ان بقيت نحو نصف قرن عاصمة الخلافة
العباسية . فخرت بعد ذلك ونقلت اتقاضها الى بغداد وفي ذلك يقول ابن المعتز :

| | |
|------------------|----------------|
| قد افقرت سامرا | وما لشيء دوام |
| فالنقض يحمل منها | كأنها آجام |
| ماتت كما مات فيل | نسل منه العظام |

تولى الخلافة بعد ذلك المكتفي (٢٨٩ - ٢٩٥ هـ) وفي زمنه تأخرت حالة البلاد بعد ان ابتدأت
تنعش في زمن الموفق وابنه المعتضد . وبمؤد سبب التأخر الى ظهور المناقشات بين ذوي النفوذ من
وزراء وقواد الدولة . واشتداد أمر القرامطة . الا ان المكتفي حاول ان يترب الى قلوب الشعب
بهدم السجون التي شيدت في عهده ، وبناء مساجد مكاتبها . كما انه رد الاراضي والبساتين التي
كان سلفه قد اغتصبها ليشيد عليها قصره . فاكسب محبة الناس ومساعدتهم وفي عهده اقرخت
الدولة الطولونية ، واصبحت مصر تابعة مباشرة بالخلافة العباسية ، كما انتهى حكم الاموية في
افريقية على يد ابي عبد الله الشيبى داعية الفاطميين .

كانت علاقة المكتفي في بادى الامر حسنة مع البيزنطيين ، ونبذات الهدايا والرسائل بين الطرفين
وحصل فدائين في زمنه ، ثم توترت العلاقات بين الطرفين واستولى المسلمون على انطاكية بالقوة
وعظموا من البيزنطيين منافع عظيمة .

تولى الخلافة بعد ذلك المقتدر (٢٩٥ - ٣٢٠ هـ) وعمره ثلاث عشرة سنة ، فلم يرق ذلك
للناس لصغر سنه ، فاجتمع القواد والقضاة والكتاب مع الوزير العباس بن الحسن وانفقوا على خلع
المقتدر ، وتولية عبد الله بن المعتز ، فاجابهم الوزير الى ذلك على آت لا يكون فيه سفك دماء ولا
حرب ، الا ان الوزير انفصل عنهم لحسن حاله مع المقتدر ، وبايعوا لابن المعتز ، وكتبوا الكتب بذلك
الى العمال ، وطلب الى المقتدر بالارتحال من دار الخلافة ، فأجاب بالسمع والطاعة . وسأل الامهال
الى الليل ، الا أن مؤنس الخادم ، ومؤنس الخازن وحشية الخليفة صعب عليهم الأمر وانفقوا على
ان يصعدوا في المساء الى دار ابن المعتز وبقابله وساعدهم المقتدر بالراح وكان عددهم كبيراً . فلما
راهم من عند ابن المعتز . تفرقوا عنه وحرب ابن المعتز الى الصحراء ، وانتشرت القوضى في بغداد
فخرج المقتدر بالعسكر وقبض على كل من له يد في خلعه ، وعثر على ابن المعتز فذبحه وعذبه حتى
مات . فذهب هذا السامر ضحية السياسة ، ولم تطل خلافته اكثر من يوم واحد . وفي مدة

الحس وعشرين سنة التي حكم فيها المقتدر توالى على منصب الوزارة (١٢) وزيراً ، ومنهم من تقلد الوزارة مرتين وثلاثة . وكانت الوزارة تنال بالرشوة ، ويدخل في تعيين الوزراء النساء والقواد والخدم والحاشية ، ولم يكن الصالح من الوزراء يبق في العمل كثيراً لأن حاشية الخليفة ونساءه لا يرضون به إلا إذا أعذق عليهم المال ، وأفرغ بيت مال الدولة . لذلك كثيراً ما كان ينكب الوزراء ويسجنون ويستبدل بهم غيرهم . واشتهرت بعض الأسر في الوزارة في هذا الدور كما كانت أسرة البرامكة ، وبنو سهل في الدور السابق وهذه الأسرة هي : بنو الفرات ، وبنو خاقان ، وبنو وهب ، كان أكثر أفرادها من أجل الناس فضلاً وكرماً وحذقاً في الكتابة . واشتهر من الوزراء في زمنه .

أبو الحسن علي بن الفرات : وكان وزيراً كريماً ذا رياسة وكفاية في عملة ، حسن السؤال والجواب هذا الأحوال بعد فتنة ابن المنذر .

علي بن عيسى : وكان رجلاً عاقلاً متديناً ، متعففاً غارفاً بالأعمال حافظاً للأموال كثير الوقار والجد بعيداً من البذل والهزل ، على شح غالب في طباعه ، وجفاء ظاهر في أخلاقه . فكثرت السعاية عليه والوقعة فيه حتى عزلته المقتدر وأرجعه بعد ذلك للوزارة .

وأبو القاسم عبيد الله بن خاقان وكان مهملًا للأمور ، ترك الأعمال وتلون في الأفعال . وكان إذا قلد عامل أنبئه عن بعزله قبل وصوله إلى عمله ، حتى اجتمع مرة سبعة أنفس لمنصب واحد ، كان ابن خاقان قد أخذ من كل منهم مالاً مقابل تعيينه . وكان إذا سئل حاجة دق صدره بيده ، وقال : نعم وكرامة : حتى أقب : دق صدره .

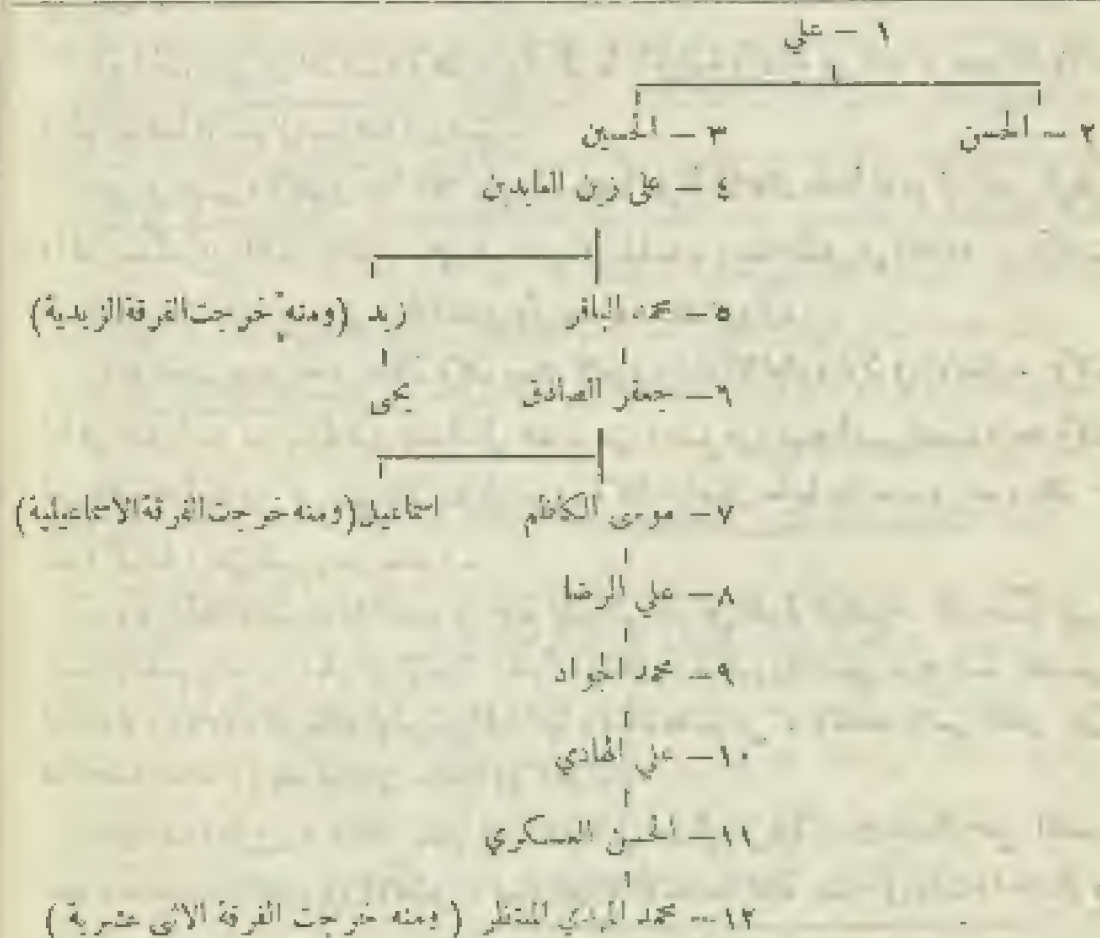
وعلى الجلة كانت خلافة المقتدر في جميع أيامها شر أيام على الدولة العباسية ، لانه حكم فيها النساء والخدم والجند ، وبذر في الأموال تبذيراً ، وكان يعزل الوزراء ويولي غيرهم بما يقدم من الرشاء له ، ولأمنه وقهرماته أم موسى الحاشمية ، ولخادمه مؤنس ، ولقائمه مؤنس المظفر حتى قلت هيئة الخلافة ولم يعد لها أدنى سلطان ولا احترام .

وفي زمنه أعلن عبيد الله المهدي نفسه خليفة في شمالي أفريقيا كما أن عبد الرحمن الناصر لقب نفسه بهذا اللقب في الأندلس . فصار للدولة الإسلامية ثلاثة خلفاء في وقت واحد ينازع بعضهم بعضاً .

وقد استبد مؤنس المظفر قائد الجند العام بالخليفة المقتدر أشد استبداد وسير الأمور حسب رغباته ، وأخيراً عمل على قتله عندما تأخر عن تقديم الأموال له ونهب الجند ثيابه ، وتركوا جثته مكشوفة إلى أن مر به رجل من الأكراد فستره بحشيش ، ثم حفر له قبراً ودفنه فيه . وانتهت

بذلك حياة هذا الخليفة النعس ، وكانت مدة حكمه ذات تخطيط كثير لاستيلاء امه ، وصغر سنه ، واستعداد الخدم فيه وهو متلبى بخلافه عن شؤون رعيته حتى خربت الدولة في زمنه . وفي عهده ظهرت دولة آل حمدان في الموصل وعظم أمر القرامطة :

هي حركة دينية سياسية قامت بها فرقة الاسماعيلية من فرق الشيعة (١) قام بهذه الحركة عبد الله بن ميمون القداح ، وهو من أصل فارسي على الأكثر . كان ابو ميمون يشتغل كحلالاً (طبيب عيون) في الأهواز ، وسلم ابنه عبد الله الحركة الاسماعيلية ونظمها تنظيمًا هائلًا .



(١) انقسمت الشيعة الى عدة فرق منها الزيدية المنسوبة الى زيد ، والاسماعيلية وتدعى أيضاً والبيعية ، لا تعترفوا بسمه آئمة فقط أو لهم الامام علي وآخرهم اسماعيل . وهي والامامية تقول بأنه لا بد للناس من امام معصوم يبلغهم الشريعة عن رسول الله (ص) لان الشريعة لا تؤخذ بالرأي -

ومزجها بالعلوم القديمة والفلسفة اليونانية ، وجعل منها حركة فكرية دينية سياسية ، خرج منها قرامطة البحرين والعراق والشام ، والدولة الفاطمية في شمالي افريقية ومصر ، والحشاشون في فارس والشام . ويقال ان جمعية اخوان الصفا تنسب الى تلك الحركة .

ادعى عبد الله انه نبي مدة طويلة ، وكان يظهر الشعابيد ، ويذكر انب الأرض تطوى له ، فيمضي اينما أحب في أقرب وقت . وكان يخبر بالأحداث في البلدان المختلفة بواسطة مساعديه واعوانه ، الذين يرسلون اليه الاخبار بواسطة طيور ، يطلقونها من المواضع المتفرقة إلى الموضع الذي فيه يتبع فيخبر من حضره بما يكون فيعود ذلك عليهم ، وكان مركزه أولاً في البصرة فعرف واليه امره وأراد الفتك به فاستعمل إلى السليمانية في سورية . وقد استفاد عبد الله من النزاع القائم بين العرب والفرس ، ومن الفوضى السائدة في جميع اقسام المملكة الاسلامية ليهدم الخلافة العباسية ويقم دولة جديدة على أنقاضها يكون هو وتولاده من بعده على رأسها . وقد نجح في نشر دعايته وأسس نظامها واحسن ارتباط الدعاة بعضهم ببعض حتى أصبحت حركته في دقة نظامها وسرعة انتشارها من أعظم الحركات التي عرفت في التاريخ .

وقبيل وفاة عبد الله تسلم الحركة لتلميذه حمدان الملقب بقرمط ، وإليه نسب القرامطة وهو من فلاحي العراق ، اعتنق المذهب الباطني ، وجماعة هذا المذهب يفسرون القرآن الكريم تفسيراً يختلف عن معانيه الظاهرة ، أي ان لكل ظاهر باطلاً ، ولكل تعزيل تأويل .

وكان حمدان يظهر الزهد والتقشف ، ويكثر من الصلاة حتى عظم في أعين الناس وأسلمهم أنه يدعو إلى إمام من أهل البيت ، فكثر أشياعه في الكوفة . واتخذ مركزاً في شرفي الكوفة دعاها « دار الهجرة » ونظم أموره على أحسن وجه . وعرض على من أحب من أصحابه ضريبة سماها « الباقعة » لهذه الدار وهي خمس ما يملكون أو يكتسبون ، فكانت المرأة تقدم الداعي خمس غزلها والفاعل خمس اجرتة ، فكانت هذه الضريبة قسطاً يدفعه الشخص إلى صندوق الأخوة ، كمنظور فيها ، وهذا ما يشبه النقابات في زماننا الحاضر .

وقد أخذت الاسماعيلية بالمذهب الباطني ، والامامية وتسمى أيضاً « الاثني عشرية » لاعتقادها بانى عشر اماماً المذكورين في الاعلى آخرهم محمد الملقب بالمهدي المنتظر . دخل مرة سرداباً في مدينة سامرا ليبحث عن أبيه ولم يخرج منه فكان أصحابه يغفون في كل ليلة بعد صلاة المغرب ياب هذا السرداب ، ويهتفون باسمه ، ويدعونه للخروج حتى ساعة متأخرة من الليل . وعند ما يأسون من خروجه يرجعون الأمر إلى الآلة الآتية . ويعتقدون انه سيجوع إلى الحياة الدنيا مرة ثانية ويهلي الدنيا عدلاً كما ملئت جوراً .

ولم يكف حمدان بذلك بل طالب من أشياعه أن يشركوا فيما غلبوا .

وأن تكون أموالهم مشاعاً فيما بينهم يودعونها في بيت الجماعة ، ويوزعها عليهم رجل ذو ثقة
عندهم ، حتى لم يعد أحد يملك نفسه إلا سيفه وسلاحه . وكانوا يحترمون المرأة ويبحون لها
حضور مجتمعاتهم ، واختصروا الصلاة وحملوها فرضين في اليوم . وأباحوا الاقطار للبدو في شهر
رمضان . وحلوا شرب الخمر ، ويقولون إن الإمامة ليست وراثية خاصة في أسرة معينة بل تكون
في أي شخص يتصف بالصفات الحسنة في الإمام رباني .

وقد توسعت حركة القرامطة في سواد الكوفة بسبب انشغال الخليفة المعتمد وأخيه الموفق
عنهم بشورة الرنج ، وقد اتبعه الخليفة المعتمد طاعونهم وأرسل جيوشاً عديدة للقضاء عليهم ، إلا أن
حركتهم توسعت واقتشرت في أكثر البلاد الإسلامية :

فقد استطاع أحد دعاة القرامطة وهو زكريويه بن مبرويه في استنواء بعض قبائل العرب من
كلب وخرج بهم إلى بلاد الشام وعثوا فيها فساداً ما بين سنة ٢٨٩ - ٢٩٤ هـ فقباهم الطولونيون
مرات عديدة وانهمزموا أمامهم . فكتب أهل الشام إلى الخليفة المكتفي يشكون إليه أمر القرامطة
وما فعلوه بهم من قتل وسبي وتخريب . فجاء بنفسه بجيش كبير لمحاربتهم وقضى عليهم ، وقد اشتد
أمر القرامطة في البحرين على الخليفة الفارسي فقد قام أبو سعيد الحسن الجنابي في زمن المعتذر
بأسس دولة جعل عاصمتها الحسا واستولى على جميع بلاد البحرين . ثم قام إليه أبو طاهر سليمان الجنابي
من بعده ، وغزا البصرة سنة ٣١١ هـ ودخلها وقتل حاميةا ، ووضع اليف في أهلها ، وأقام بها
سبعة عشر يوماً يحصل منها ما يقدر عليه من المال والامانة والسياسة والعبيات ، ثم عاد إلى بلده
وأخذ يهاجم قوافل الحاجج الذاهبة إلى مكة وينهب ما معها من الأموال والجمال والأزواد ويحصد
ما يريد من النساء والأولاد . وكان كلما أرسل المعتذر إليهم جيشاً هزموه حتى أنهم هددوا بغداد
نفسها ، وصار الناس إذا أرادوا أن يخفوا بعضهم بعضاً كانوا يقولون : « القرمطي على الأبواب »
حتى تم بعض الخاصة إلى تولد بغداد والحرب إلى همدان وغيرها من المدن النائية .

وفي سنة ٣١٧ هـ سار أبو طاهر بجنده إلى مكة ، فنهب هو وأصحابه أموال الحاجج ، وقتلهم
وطرحوا أجسام بعضهم في بئر زمزم ودفن الباقين في المسجد الحرام ، وقطع الحاجر الأسود وورثه
إلى البحرين ، وكذلك قلع باب البيت الحرام . وأخذ كموة الكعبة وقسمها بين أصحابه
ونهب دور أهل مكة ، ونفى الحاجر الأسود نحو عشرين سنة في البحرين ، ولم يرجعه القرامطة إلا
بواسطة الخليفة الأسود القاسمي . واستمر أمرهم مستغلاً إلى زمن الخليفة الراضي . ثم انقسموا على
أنفسهم وأخذت قوتهم بالتلاشي بعد أن جردوا على أهل البلاد الخراب والعذاب .

ثم جاء الخليفة **القاهر** (٣٢٠ - ٣٢٢ هـ) وكان شريراً، خبيث النية، أشتغل في أول خلافته بالبحث عن استتر من أولاد **المقتدر** وحرمه، لا سيما أم **المقتدر** وكانت مريضة وزاد مرضها بقتل ابنها، ولا سمحت أنه بقي مكشوفاً جزعت جزءاً شديداً، وأمنت من الأكل والشرب، حتى كانت تهلك فوعظها النساء حتى أكلت شيئاً يسيراً من الخبز والملح، احضرها **القاهر** عنده وسألها عن مالها فأعترفت له بما عندها من المصوغ والذهب ولم تعترف بشيء من المال والجوهر، فضرها أشد ما يكون من الضرب، وعلقها برجلها، فحلفت أنها لا تملك غير ما أطلعته عليه، وقالت: لو كان عندي مال لما أسلمت ولدي للقتل، فباع أملاكها وصادر جميع أولاد **المقتدر** وحاشيته وفي عمله هذا قتل من هبة **العباسيين** عند الناس وزال احترامهم لهم.

وفي زمن **القاهر** اختلف رجال الدولة من فواد ووزراء وحجاب وكتاب فيما بينهم، فاستفاد **القاهر** من اختلافهم وبرز قتلهم بالخيلة والمكيدة، فقتل القائد مؤنس وأحمد بن زبرك صاحب الشرطة وغيرهم كثيرين، فخاف من قتل على حياتهم بعدما رأوا من شدة **القاهر** وغدره، لا سيما الوزير بن مقلة الذي كان يجتمع بالفواد ليلاً تلوة في ذي أعمى وتلوة في ذي امرأة، وغيرهم به حتى ملا صدورهم، فافتقوا على خلعه، وزحفوا إلى الدار وهجموا عليها من سائر الأبواب، فلهذا سمع **القاهر** الأصوات والجلبة، استعظ مخوراً، وطلب باباً يهرب منه فلم يجد، فقبضوا عليه وحبسوه ثم سلبوا عينيه، وبذلك انتهت مدته، وكانت جامعة العجايب والقبائح، وقد شوهد في آخر حياته يطلب الصدقة في شوارع بغداد.

تولى الخلافة بعده **الراضي** (٣٢٢ - ٣٢٩ هـ) وفي زمنه انشجحت عظمة الخلافة العباسية وأفل نجمها وقضي على نفوذها الذي كانت تمتع به إلى ذلك الحين، فكان رجال الدولة يقتلون ويتنافسون على النفوذ في الدولة، واستغل محمد بن رائق في البصرة وواسط، ووقلم البريدي والي الأهواز (وقسمي اليوم خوزستان) ما كان يحصله من الأموال إلى بغداد. وتغلب ابن بوبه على فارس وأعمالها، ولم يعد للخليفة من سلطان إلا على بغداد وضواحيها. فواصل الخليفة **الراضي** محمد بن رائق وهو بواسط يعرض عليه الولاية ببغداد، فحضر مسرعاً، فلبى **الراضي** لقب أمير الأمراء ووضع تحت تصرفه خراج البلاد، وأعمال الدواوين، وأمر بالتحلب على جميع المنابر، وأنفذ إليه الخلع، وأصبح هو صاحب السلطان، فكانت الأموال تحمل إلى خزائنه فيتم صرفها فيما كان يريد ويعطي الخليفة ما يريد، وبطلت الدواوين والوزارة، ولم يبق للخليفة ولا لأحد من رجاله أي سلطة. وقد استغوى منصب أمير الأمراء رجال الدولة وأصحاب الولايات، فاحذو ويتنافسون للوصول

اليه ، ويزاحمون ابن رائق عليه ، وقد تصدى لهذا المنصب البريدي صاحب الامهواز ولم يظفر به
وبحكم الديلمي قائد جيوش العباسيين الذي خلع ابن رائق وتولى مكانه ، وناصر الدولة الجنداني
صاحب الموصل وغيرهم من القواد والمتنفذين .

وهكذا انقضت مدة الراضي بالنازعات السياسية بين هؤلاء المتغلبين على الدولة ، وكل منهم يود
أن تكون له إمارة الامراء بغداد ، مما قلل هيبة الدولة في أعين العامة ، فقام الخليفة بتنازعات
دينية مع أصحاب المذاهب الاخرى ، واشتد امرهم على الناس ، فكانوا يكسبون بيوت القواد والعامة ،
فمن وجدوا عنده نبيذاً أراقوه ، ومن وجدوا عنده مغنية ضربوها وكسروا آلة الغناء التي تعزف
عليها ، وتدخلوا في كل كبيرة وصغيرة ، حتى أصدر الراضي بياناً قرى عليهم وأتكر فعلهم ومنعهم
من التدخل وهدد الخالف بالعقاب الشديد .

وفي عهد الراضي ظبرت الدولة الاخشيدة بتصرف وسيأتي الكلام عنها .
وانتهى بوفاة الراضي أمور كثيرة كانت عند الخلفاء العباسيين منها : أنه آخر خليفة دون له
شعر ، وآخر خليفة انفراد بتدبير الملك ، وآخر خليفة خطب على منبر يوم الجمعة ، وآخر خليفة
جائس التمداء ووصل اليه العلماء ، وآخر خليفة كانت مراتبه وجوائزه وخدمه ونجابه تجري على
قواعد الخلفاء المتقدمين . وفي زمنه حدث منصب أمير الامراء في بغداد الذي يشبه منصب حاجب
القصر ، عند ملوك الدولة المبروقية .

تولى الخلافة بعده المتقي (٣٣٠ - ٣٣٣ هـ) وليس في زمنه ما يستحق الذكر سوى
تخاصم المتنفذين في الحكم على منصب أمير الامراء . فبعد أن قتل بحكم الديلمي دخل البريدي
بغداد سنة ٣٣٩ هـ وحاول الاستيلاء على منصب أمير الامراء الا ان الجند نكروا عليه وولى الخليفة
كورتكين الديلمي هذا المنصب فتأذى العامة من الديلم فخلع المتقي كورتكين والتجأ الى ناصر
الدولة الجنداني ليحميه من البريدي الذي استولى على بغداد وفعل هو وانصاره فيها افعالاً قبيحة
وقتلوا من وجدوا في دار الخلافة من الحاشية ، ونهبوا دور حرم الخليفة ، وساد الاضطراب
والنهب في المدينة ، وغلت الاسعار ، ومر على أهالي بغداد فترة لم يروا مثلاً من قبل . فتمكن
ناصر الدولة بمساعدة أخيه سيف الدولة الجنداني من طرد البريدي عن بغداد ولاحقه سيف الدولة
الى واسط فاستولى عليها إلا انه لم يتمكن من القضاء على البريدي فآله المال عنده وثورة جند الترك
عليه فعاد الى بغداد واعتزل ناصر الدولة منصب أمير الامراء ، وعاد الى الموصل ، فاختار المتقي
أكبر قواد الديلم نوزون لهذا المنصب فاستبد بالامر وخلع المتقي من الخلافة وحمل عهده وولى
مكانه المستفي . وفي خلافة المستفي بدأ الدور الثالث وهو سلطة آل بويه .

الفصل الثالث

٣ - دور النصف من البويهيين

٣٣٤ - ٤٤٧ هـ أو ٩٤٥ - ١٠٥٥ م

حكم في هذا الدور أربعة خلفاء عباسيين وهم : الطائع ، والقادر ، والقائم ، واستمرت الخلافة في انحطاطها كما في الدور السابق ، ولم يبق للخلفاء سوى السطة الروحية ، وانتقلت السلطة الحقيقية إلى البويهيين . واكتفى الخلفاء بكتاب يدرون أمور أملاكهم وأراضيهم ، ويمنحون مقدار خمسة آلاف درهم في اليوم . وانتقلت إدارة الدولة وماليتها إلى البويهيين الذين خلعوا المستنكفي وصلوا عفيفه ، وأجبروا الخليفة الطائع على النزول عن الخلافة بعد أن حكم أربعة سنوات . ولأقوى الخليفة الطائع نفس المصير عندما ضعف وأصابه الضل .

وبالرغم من أن الخليفين القادر والقائم حكما ما يوف عن المائتين سنة ، واستمروا شيئا من رونق الخلافة إلا أن سلطة الخلفاء العباسيين قد ذهبت من أيديهم وانتقلت نهائياً إلى المتعاقبين على الدولة .

لم يحصل في هذا الدور منازعات شديدة بين الخلفاء والبويهيين كما حدث في الدور السابق بينهم وبين الاشراف ، وإنما النزاع كانت قائماً بين البويهيين أنفسهم على السطة . وبين البويهيين والاشراة الذين سلبت منهم السلطة وقراءة الخلفاء . وسأذكر فيما يلي من الدور الذي له البويهيون .

البويهيون

البويهيون جنس من الدابة يسكنوا في الجنوب الغربي من بحر الخزر ينتسبون إلى أبي شجاع بويه ، وعندما أصبح لحؤلوا البويهيين المراكز الوهمة ورأت السلطة بأيديهم أخذوا الساباً لظلم الملوك الفرس الساسانيين . وكان أبو شجاع بويه رفيق الحال فتعلم أولاده علي ، والحسن ، ومحمد في الجندية لأنها كانت باباً من أبواب الرقي ، وقدموا على مرداوش بن زيار مؤسس الدولة الزيرية (١)

(١) الدولة الزيرية (٣١٩ - ٤٣٤ هـ) قامت في حرجان وطبرستان مؤسسها مرداوش بن زيار قام في زمن الخليفة المتعذر واستولى على همدان واسفهان حتى وصل إلى الاموال وسكتب الخليفة يطلب منه ان يوليه على ما بيده من البلاد ، وأرسل إليه الهدايا والاموال فافرقه على ذلك .

ففتح عليهم وولى علي بن يويه إقليم النكراج الواقع غربي بحر الخزر فأحسن إلى أهله وأصدق عليهم
الأموال وساس البلاد بأداره حازمة مشاع ذكره وفصده الناس وأحبوه ، وانتج أصبهان وشيراز
فبلغ ذلك مرداوخ فخاف على نفسه وما بيده من البلاد ، وانغم لذلك غمماً شديداً ووقعت الوحشة
بين الطرفين ، ولحسن حظ ابن يويه قتل مرداوخ من قبل جنده ، فأزداد نفوذ علي بن يويه وأرسل
إلى الخليفة الراضي بطلبه أنه على طاعته ، وبطلب منه أن يوليّه على ما بيده من البلاد قال بحمله إلى
دار الخلافة فاجيب إلى ذلك ، وبعث إليه بالخليفة والواء .

التحق علي بن يويه عاصمته في شيراز ، وسير أخاه الحسن بفتح بلاد الميجم ، فاستولى على الجبل
وهمدان والري وقزوین وغيرها ، وسير أخاه الصغير أحمد إلى الأهواز ، فافتتحها واستولى على
واسط ، وكان النزاع قائماً في بغداد على منصب أمير الأمراء . فاستدعاه الخليفة المستنصر في بغداد سنة ٤٣٣ هـ
وهذه السنة تمير به النفوذ البويهی في بغداد واحتفى الخليفة به وبأبيه أحمد
وحلف كل منيه لصالحه هذا بالخلافة وذلك بالسلطنة .

وشرف الخليفة بني يويه بالإنابة : فلقب علياً صاحب بلاد قرس عماد الدولة ، وهو أكبرهم
وقب الحسن صاحب الري والجبل ، ركن الدولة ، ولقب أحمد صاحب العراق ، معز الدولة .
وأمر أن تضرب ألقابهم وكناهم على النقود ، وإن يذكر اسم معز الدولة في خطبة الجمعة بعد اسم
الخليفة . ولما اشتد نفوذ معز الدولة في بغداد حاول أن يزيل اسم الخلافة عن بني العباس
ويوليها سلخياً ، لأن البويهيين كانوا شيعنة زيدية ، وحمل اليهم الذين الحنيف عن طريق
الدولة الزيدية العلوية وبمجهود الحسن بن الأضرش أحد أمراء هذه الدولة ، الذي بقي بينهم ثلاث
عشرة سنة يدعوهم فيها إلى الإسلام ويدفع عنهم عدوم ويوفي المساجد في بلادهم . وكان البويهيون
يمتدحون أن بني العباس قد غصبوا الخلافة وأخذوها من مستحقها ولكن بعض خواص معز الدولة
أشار عليه ألا يفعل وقال له : « أنك اليوم مع خليفة تعتقد أنت وأصحابك أنه ليس من أهل الخلافة
ولو أمرتهم بقتله لقتلوه مستحليين دمه ، وهى اجلسات بعض العلويين خليفة كان معك من تعتقد

و خلفه أخوه وشريكه حكم ملوكاً من سنة (٣٢٣ - ٣٥٦ هـ) وازدهرت الدولة في أيامه ، وكان
في نزاع مستمر مع السامانيين ، والبويهيين ، خلفه بعد موته قابوس بن وشمكير الملقب بشمس المعالي
وكان أدبياً له أشعار باللغة الفارسية والعربية ، بسط رعايته على الشعراء والأدباء ، ونفع في بلاطه
« البروني » وقدم له كتاب الآثار الباقية عن القرون الخالية . وانتقل به أيضاً الشيخ الخطيب الرئيس
« ابن سينا » : وكانت لهذه الدولة فضل كبير في رعاية الأدب والعلم وانتهى أمرها في زمن
أنوشروان بن قابوس سنة ٤٤٨ هـ على يد الدولة الغزنوية .

أنت وأصحابك مدحة سلاقتكم في أمرهم قتلتكم لعلكم . فتمرض عما كان قد عزم عليه (أي) اسم الخلافة أبي العباس . ولا تريد التوسع في الكلام عن البويهيين الذين حكموا في بغداد أو في غيرها من المناطق ، ونكتفي بوصف حالة الدولة العباسية في زمانهم بصورة عامة (١) .

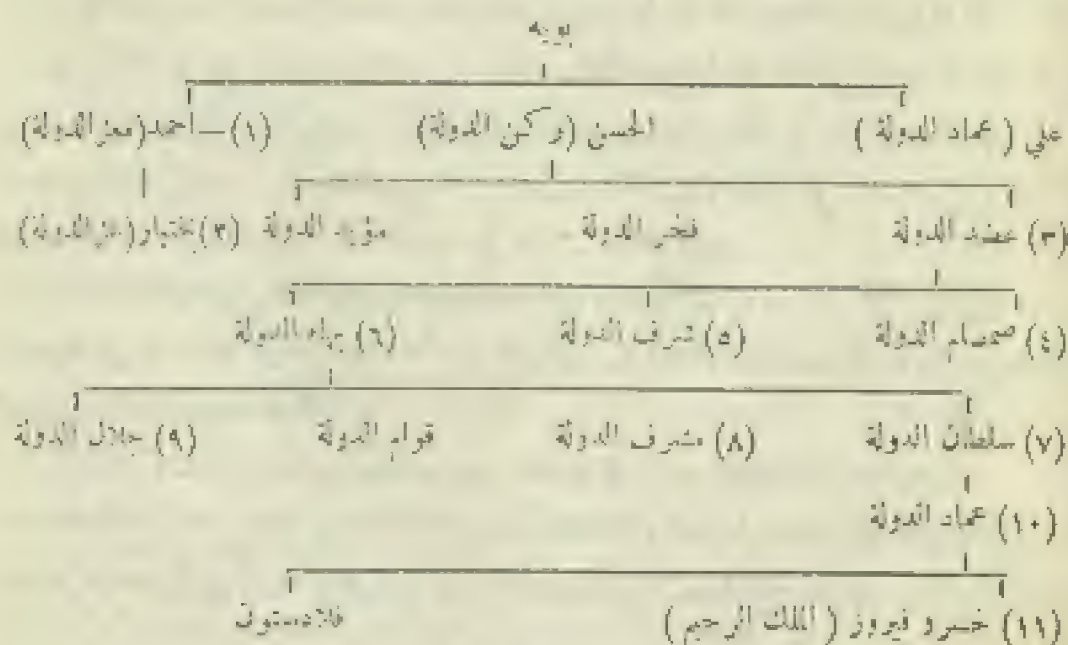
الحالة الداخلية

انحطت الدولة من الناحية السياسية بصورة عامة في زمن البويهيين ، وتأخرت عن المراقبات السياسية بغداد بسبب الغلاء والفوضى والذوب الذي ساد فيه ولم تزدهر الدولة وتوسع إلا في زمن عند الدولة البويهية ويرجع ذلك الاضطراب الى الاسباب الآتية :

أولاً النزاع بين جند الأبرار والديلم : طمع جند الديلم الذين دخلوا بغداد بالبرغم معز الدولة البويهية ، وشغبوا عليه ، فحرب معز الدولة جند الترك ، وأقطعهم القرى والأراضي ليجعلهم من قومه ، فقام النزاع والتحاسد بين الجندتين .

ثانياً تأخر الحياة الاقتصادية : انحطت الزراعة في أراضي الدولة العباسية بسبب نظام القلصاع الأراضي للجنود ، فأهلها لا مشاؤونها وتسروها لغيرها وأصلاح اقلية الري فيها ، مما أضعف حمة الفلاحين

(١) تظهر التقاسم السلالة البويهية ، والارقم تدل على أسماء البويهيين الذين حكموا في بغداد .



الذين يقومون بزراعتها وإصلاحها ويطلق كثير منها . وتوقفت التجارة في البلاد لخوف الناس على ما يبدون من الأموال بسبب اضطراب الأسواق ، وكذلك تأخرت الصناعة ، حتى أنهت البلاد في البلاد وأكل الناس الميتة والقطط والكلاب وحروب الشوك ، وكانوا يساقون جبه ويأكلونه ، فلحق بهم اسراس وأرواح في أسسائهم . وكثير فيهم الموت حتى عجز الناس عن دفن الموتى ، فكانت الكلاب تأكل جثثهم ، وانحاز كثير من أهل بغداد إلى البصرة ، فبات أكثرهم في الطريق ، وبيعت الدور والمعارات بالخير .

تعلق النزاع بين أمراء الدين أنفسهم : قام النزاع بين أمراء الدين على السلطة فقد كانت من الدولة بختيار حاكماً في بغداد . وكان ضعيف السلطة فيها ، فشعب عليه جند الترك بزعامة قائدهم سبكتكين فاستنجد ابن عمه عضد الدولة الذي كان بطبع في أن يحمل محله ويستولي على منصبه فأسرع بجنده إلى بغداد ودخلها سنة ٣٦٤ هـ وتغلب على عساكر الأتراك ، ثم أخذ يبدد الدسائس على بختيار ووسوس إلى جنده أن يثوروا عليه ، وبطلابوه بالأموال ، حتى تمكن من خلعهم وقبض عليه وجمع الناس وأعلمهم استعفاءه من الأمانة وعجزه عنها . ألا أن ركن الدولة استاء من عمل ابنه عضد الدولة وساعد بختيار للرجوع إلى ملكه ، ولما توفي ركن الدولة سنة ٣٦٦ هـ ورثه ابنه عضد الدولة في الملك وتجهز إلى بغداد وأرسل إلى بختيار يطلب منه الطاعة فاجاب إلى ذلك . وقد حدث مثل هذه الخصومات بين البويهيين فيها بعد فقد قام شرف الدولة صاحب فارس على أخيه مصطام الدولة واستولى على الأهواز والبصرة وواسط ودخل بغداد سنة ٣٧٦ هـ واستولى على الحكم مكان أخيه . وحصل مثل هذه الخصومات في زمن بهاء الدولة وغيره من البويهيين .

رأياً للنزاع بين البويهيين والأمراء السعديين : كان ناصر الدولة الحمداني مستقلاً في الموصل في السنة الأولى من حكم البويهيين استولى ناصر الدولة على الخائب السعدي من بغداد ، وكان يتم له الأمر ، ويقضي على معز الدولة البويهي فلم يستعمل هذا الخليفة وتغلب على الحمدانيين ، وكانت الحروب لا تهدأ بين الطرفين ، واشتغلا بها عن الاهتمام بمصالح الدولة .

وكذلك كان النزاع قائماً بين معز الدولة والبريدي صاحب البصرة ، وكان كل منهما يطمع في الاستيلاء على ما بيد الآخر ، فيحصل قتال بين الطرفين ، ويزيد الأمر اضطراباً تدخل قرامطة البحرين بالأمر ومساعدتهم البريدي .

وكذلك كان النزاع مشتعلاً بين البويهيين والغزنويين الذين سنكلم عنهم فيما بعد .

خامساً المنازعات الدينية بين السنة والشيعة : كان النزاع الديني في بغداد وما جاورها من بلاد العراق محتدماً بين السنة والشيعة ، فقد تأججت نار البغضاء بين الطرفين بسبب مساعدة

اليوميين للشيمة ، فقد أمر معز الدولة الناس سنة ٥٥٢ هـ في العاشر من محرم يوم عاشوراء ، أن
يغلقوا دكاكينهم ويغلقوا الأسواق والبيع والشراء ، وأن يظهروا الشياحة ، وأن يخرج النساء
منشورات الشعور مسودات الوجوه ، قد شققن ثيابهن ، يردن في الدار بالنواقيع ، ويلطحن وجوههن
على الحسن بن علي رضي الله عنها ، ففعل الناس ذلك ، ولم يكن لأهل السنة قدرة على المنع لكثرة
الشيمة ولأن السلطان معوي .

وفي ثامن عشر ذي الحجة أمر معز الدولة بإظهار الرينة في بغداد واشتملت الدبران بمجلس
الشرطة ، وأظهر القريح ، وفتحت الأسواق بالليل كما يفعل ليالي الأعياد ، ففعل ذلك احتفالاً بعيد
القدوس يعني « غدير خنم » وهو النوضع الذي يروي أن رسول الله (ص) قل فيه عن علي : من كنت
مولاه فعلي مولاهم والامن والاد . وعدم من فاداه . وحسبت الدباب والوقت وكون يوماً مشهوداً .
وما كانت هذه المواسم ثم دائماً يهدو . وسكينة فكثيراً ما كان السنة والشيمة بالتصوف بممارس
دائمة ويستغلون في شوارع المدن لاسيما في بغداد حيث كان السنة ياجعون الكرج (حي الشيمة)
وبحرفونه وكانت هذه المنازعات الدينية تجر أوجع المواقف على الدولة العباسية .

ازدهار الدولة في زمن عضد الدولة

بلغت الدولة أوج عظمتها في زمن عضد الدولة (٣٦٩ - ٣٧٧ هـ) فقد توحدت العراق
والجزيرة والاهواز ، وفارس ، والحبال والري ، وجرجان تحت سيطرة واحدة وأصبحت البلاد التي
يحكمها تغارب في حوزها الدولة العباسية في زمن هارون الرشيد . وهو أول من خطب له في بغداد
على المنابر ، ولم يكن يخطب فيها سوى الخليفة . وأول من صرحت الطبول على أبوابه عند الصلاة
وأول من لقب « شاعشاه » وهو لقب فارسي معناه ملك الملوك . تزوج الخليفة الطالع ابنته كما تزوج
هو ابنة الخليفة ، مؤملاً أن تكون الخلافة في عقبه . وبالرغم من أن بلاطه ظل في شيراز
فقد أمتنى في تجهيل بغداد . فبنى فيها مسنق كبير على نهر الدجلة سماه « الإبرستان العسدي »
نظم فيه أطباء تفقده كل يوم ، يطالعون أحوال المرضى ، ويعين بعضهم قوم يتناولون عمل الادوية
وعمر طريح الامام علي رضي الله عنه في النجف . وأسس مدارس كثيرة . ومساعد متعددة في
غرائب أنحاء الدولة . كما أصلح الآلة التي طمرت بالظني من جراء إعمالها وعمر كثير من غيرها
وبى سوراً على مدينة الرسول (ص) ولا نجد اميراً صالحاً معروفاً من بني بويه مثل عضد الدولة
« فكان عاقلاً قاضياً ، حسن السياسة كثير الاصابة شديد الحجة ، ثاقب الرأي ، محباً لفضائل ، واهباً
بأدلاً في موضع المعطاء ، مانعاً في مواضع الحزم ، ناضراً في عواقب الامور ... ومن فضله انه كان
لا يعمل في اموره الا على الكفاة ولا يجعل للشغاعات سبيلاً اليه . وكان يخرج في ابتداء كل سنة شيئاً

كثيراً من الأموال للصدقة والبر في سائر بلاده. وقد ازدهر عصره بالعلم والثقافة، وكان هو وبعض أفراد عائلته من المشجعين على حب العلم، ولغت الحياة العقلية في زمنه أزهى ما وصلت إليه في جميع العصور واشتهر المثني في زمنه ومدحه بقصائد خلدة، وكذلك اشتهر أبو علي الفارسي النحوي الذي قدم له كتاب الايضاح والطبيب علي بن عباس صاحب كتاب «الكامل في الصناعة الطبية» ونجح بعض البويهيين نجاحاً عظيماً في خدمة الدولة في خدمتهم لهم، وتشجيعهم لعلومهم شرف الدولة بن عضد الدولة فقد عمر مرسلها للكتاب منها في ذلك خطة الخليفة المأمون، وعمر شاهر بن اردشير وزير بهاء الدولة داراً للعلم في بغداد فيها مكتبة تحوي عشرة آلاف مجلد، استفاد منها الشاعر الفيلسوف أبو الغلاء المغربي عندما كان تلميذاً في بغداد. وهذا العصر زها بأدباء أمثال الوزير ابن العبد، والصاحب بن عباد، وديع الرمان الحمذاني وغيرهم كثيرون، وبلغوا بين أمثال أبو الفرج الأصفهاني صاحب كتاب الاغانى، وياقوتى صاحب «شجرة الدر»، ومؤرخين اشتهروا بالسعودي صاحب كتاب «مرآة الذهب ومعدن الجواهر»، وجغرافيين اشتهروا بالأصطخري صاحب كتاب «مسالك الممالك» واشتهر في هذا العصر شيخ الأطباء الرئيس ابن سينا وكتابه «القانون» في الطب أشهر من أن يعرف.

وبعد الفترة اللاحقة التي حكم فيها عضد الدولة قامت المنازعات بين أولاده على الحكم، فحاول اخوة بهاء الدولة اختلاس السلطة من أيديهم إلا أنهم أخفقوا لما شجع حشد الدين والأمراء الثورة على السلاطين الذين حذوا من بهاء الدولة طالين مرتباتهم التي لم تكن تزيد لهم في ثوابها قليلة الموارد، ولم تلب سنة ٤٣٦ هـ إلا وأخذ أمر الخلافة والسلطنة معاً في بغداد. ونظم أمر القصور والديار، وساروا بأسدود الأموال ليلاً ونهاراً، ولا مانع لهم، وانتشر العرب في البلاد يهبون النواحي والقرى وغضوبون الطرق حتى بلغوا أعراف بغداد. وقد حاول البويهيون في آخر أيامهم أن يوضحوا بالانكباب العظيمة ما خسروه من سلطة. فطلب جلال الدولة البويهي من الخليفة القائم سنة ٤٣٣ هـ أن يثبته وملك الخوكة، فاستمع الخليفة أولاً ثم قبل بعد ذلك، وكذلك طلب آخر البويهيين خسرو فيروز من الخليفة القائم أن يثبته وملك الرحيم، فكان له ما أراد. وفي زمن هذا السلطان دخل طغرل بك الساجق في بغداد وأزاله عن ملكه سنة ٤٤٧ هـ وانتهى بذلك حكم البويهيين.

الحالة الخارجية

كانت علاقة المسلمين مع البيزنطيين في هذا الدور سيئة، وكانت كلمة البيزنطيين هي الراجحة على الأتراك، وذلك لانضمام المسلمين على أنفسهم، وانتال الدفاع عن حدود الدولة الإسلامية.

إلى الولايات المستقلة ، لا سيما الجماداتين . فقد أخذ سيف الدولة أمير الجذانيين على نفسه حماية
ثغور المسلمين من الروم ، إلا أنه لم يكن موفقاً كل التوفيق ، لأنه عندما كان المسلمون جهة واحدة
وجدوا صعوبة في إخضاع الروم ، وألقوا عليهم ، فكيف وقد تجزأت قواهم ، وأخذ بعضهم يقاتل
بعضاً ، حتى ويستعين بالروم على إخوانه المسلمين ؟ ومن جهة أخرى كان يحكم بلاد الروم أباطرة
أقوياء من الأسرة المقدونية أشهر منهم بنسفور ، وكلاس ، وبازيل الثاني وغيرهما ، الذين تولوا
في بلاد المسلمين حتى وصلوا إلى شيراز بقرب حماد من ناحية الداخل ، وبلغوا طرابلس من جهة
الساحل إلا أنهم لم يتمكنوا من فتحها ، واستولوا على طرابلس وأغلاكية وهما من أهم ثغور
المسلمين . وظلت الحالة كذلك إلى أن جاء السلاجقة ، فطردوا البيزنطيين من بلاد المسلمين ،
واستولوا على جزء كبير من بلاد الروم ، وأسسوا دولة فيها دعت « دولة سلاجقة الروم » كانت
سبباً في قيام الحروب الصليبية .



الفصل الرابع

{ دور النقوز السلاجقة في المقتدي

٥٥٧ - ٦٥٦ هـ أو ١٢٥٥ - ١٢٥٨ م

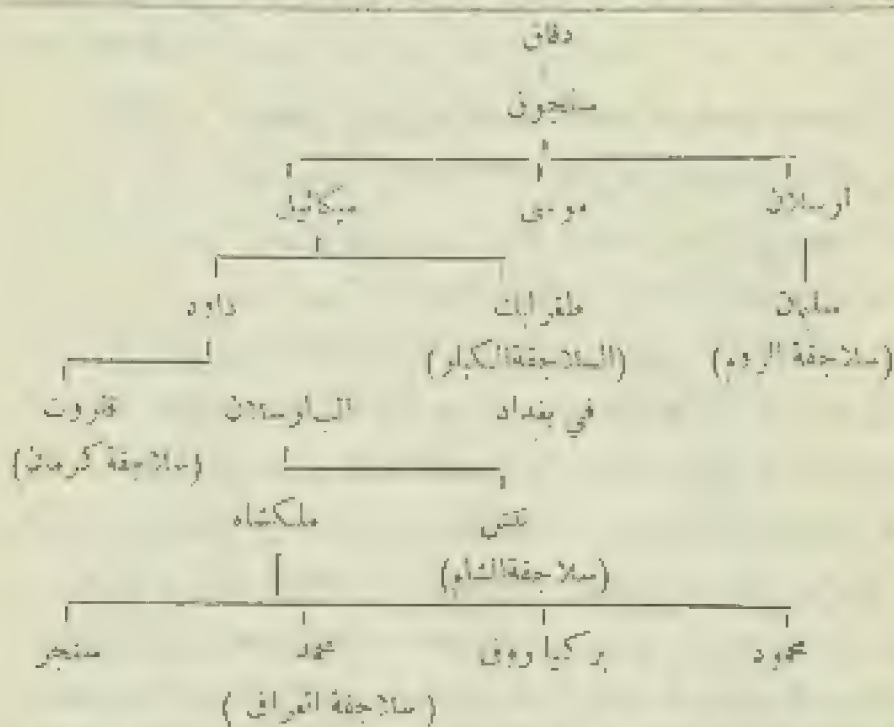
حكم في هذا الدور إحدى عشر خليفة وهم : المقتدي ، والمستظهر ، والمسترشد ، والراشد ، والمفتي ،
والمستجد ، والسعدي ، والناصر ، والطاهر ، والمستنصر ، والمستعصم ، ثمانية منهم تولوا الملاجفة
في الدور السلجوقي الثلاثة والآخرين في الزمن المقتدي .
كان بمضى هؤلاء الخلفاء أمثال المسترشد والمفتي أقوياء ، حاولوا أخذ الحكم من السلاجقة
وإدارة شؤون البلاد الإسلامية بأنفسهم ، وأن شعروا السلطة الروحية التي كانت لهم إلى السلطة
الحقيقية . فحاولوا السلاجقة في بغداد وخارجها ، وفي القصور ، وفي ميادين الحرب ، وكانت الغلبة
في النهاية للسلاجقة . وقد تمكن المفتي بعد أن حارب دولته بني مزيد القائمة في الحلة في قلب العراق
وأخضعها أن يجد سلطاناً لا على بغداد فحسب ، بل على العراق بكامله . إلا أن قوة هؤلاء الخلفاء
الذين أطروا بعض الشاغل لم تكن مستعدة من الداخل أي من مساعدة شعبيهم لهم ونصرة أيامهم ، وإنما
كانت مستعدة من الخارج أي من الاستعانة بقوى أجنبية هذه القوى كانت قضاء الدولة العباسية على
يدها . فعندما حاول الخليفة الناصر مثلاً التخلص من السلاجقة ، وأخذ السلطة منهم ، استعان بالمغول
فلبوا دعونه كالباب المغترب ، وجاءوا بثلاثة موجات جرفت الدولة العباسية وقضت عليها . وفي هذا
الدور كانت دفة الحكم والعمل الحقيقي بين السلاجقة لذلك شككهم عنهم .

الملاحقة

السلاجقة جماعة من عشائر الغز إحدى القبائل التركية ، تنسب إلى مقدمها سلجوق بن

دقاق (١) الذي كان مقبلاً مع قبيلته في بلاد تركستان في خدمة ملك الترك ، ولما كثرت انصاره خرج مع قبيلته الى بخارى ، واعتنق الدين الحنيف ، ودخل في خدمة السامانيين واستفاد اولاده : ارسلان وميكائيل ، وموسى من المنازعات القائمة في البلاد الشرقية بين القوى المختلفة من يويين وسامانيين وغزنويين وغيرهما ، وزادوا في الاضطراب والفوضى بما قاموا به من النهب والصلب وتقييد الانفس ، حتى تمكن ابنه ميكائيل : طغريلك ، وداوود بعد حروب طويلة مع السلطان محمود الغزنوي ان يستوليا على مرو ، وبلخ ، وبخارى ، وبلاد الري وبؤلقا دولة واسعة ، وداع اسم طغريلك في البلاد واخذ امراء البلاد المجاورة يبدلون الطاعة والخداية اليه ، وانضمت اليه ديار بكر ، واسهات ، واندريجان ، وقسم من ارمينية .

وفي سنة ٤٦٦ هـ تغلب القائد التركي ابي الخاوند ارسلان المعروف بالساسجى ، وهو من مماليك بهاء الدولة البويهى على بغداد ، وازاح الملك الرحيم آخر سلاطين البويهيين عن ملكه ، واستبد السطلة منه ، وحاول ان ينقل الخلافة من بني العباس الى الخليفة الفاطمى في مصر . وبذلك في طاعته . فاستنجد الخليفة العباسى القائم بالسلاجقة ، فجاء طغريلك لبغداد ودخلها في الخامس والعشرين من محرم سنة ٤٥٧ هـ وبذلك بدأ الدور الساسجى ، وخطب الساسجى على منابر بغداد



تظهر هذه التقاسيم الفروع التي انقسم اليها السلاجقة ، والدول التي شكلوها في بغداد ، وكرمان ، والعراق ، والشام ، وبلاد الروم .

وقبض على الملك الرحيم وقضى على دولة البويهيين ، وهرب البساسيري الى الموصل . واما الخليفة العباسي سنة ٢٤٩ هـ حفلة رائعة في بغداد لطفلك جلس فيها على كرسي مرتفع وعليه البردة النبوية ، ودخل عليه لطفلك مع بعض جماعته ، وكان اتيان بغداد حاضرين ، فقبل لطفلك الأرض ويد الخليفة ثم جلس على كرسي نصب له وخلع عليه سبع جبات سود بزيق واحد ، وعمامة سوداء ، وطوق بملوك من ذهب ، وسور بسوارين من ذهب ، وألحى سيفاً بفلان من ذهب ، وتوجه بتاجين برمران إلى سلعائه على العرب والمسلمين ، وخلفه بذلك المشرق والمغرب .

واضطر لطفلك ان يفاخر بغداد ليقمع الثورة التي قام بها ابراهيم بن احمد اقربائه من السلاجقة ، فكتب البساسيري الفرس ، وعاد الى بغداد سنة ٤٥٠ هـ واستولى عليها مدة سنة واحدة خضاع فيها للخليفة الفاطمي المستنصر بالله . اما الخليفة العباسي فقد لجأ الى أحد رؤسائه العرب واستنصر به ، وبقي في مدينة طائفة حتى عودته لطفلك الذي حارب البساسيري وقتله .

وأرفع مقام السلاجقة عند الخليفة حتى تزوج بخديجة بنت داود اخي لطفلك كما زهى مقام لطفلك حتى تطاول خطبة ابنة الخليفة سنة ٤٥٣ هـ وتزوجا بالرغم من مخالفة الخليفة في البدء وقوله أخيراً بهذه المصاهرة التي لم تحير المادة بمثابها . توفي لطفلك في دار ملكه في الري سنة ٤٥٥ هـ .

وخلفه ابن اخيه **أب ارسلان** وكان بعيد الهمة ، ثاقب العزم ، ميمون الذنبة إلى بربرية وازادته خيبر ، وكان إذا امر ببناء أو عز بأن يكون اسمي بيان ويقول : آثار هذه تدل على علو عرشنا ووفور نعمتنا . وقد ثار عليه قلعه من السلاجقة في بلاد الري وحاول أخذ الساطعة لنفسه فقتل في سبيلها . وبعد أن هدا أب ارسلان الحالة الفدائية التي كانت تحاربها أعدائه الخارجيين ، وكان ملك الروم هاجم سنة ٤٦٢ هـ منبج واستباحها وسبي حايثها ، فساء ذلك أب ارسلان فجهز جيشاً كبيراً سار به الى اذربيجان واستولى قسم من جيشه على قلعة ملاد كورد (١) وأرسل الى ملك الروم يقول : « ان كنت ترغب في الهدنة فاعطنا ما نريد وإلا انقمنا وعلى الله اعتمادنا » فظن ملك الروم ان هذه الرسالة تدل على خوف أب ارسلان فقال للرسول : « سوف أجيب عن هذا بالري » فالتفت نفس أب ارسلان نارا وحمل بجيشه على الروم وهزمهم ثم هزمتهم وأسر ما كانهم رومانوس دايوجانس Romaine Diogenes واستولى على سلاحهم وعتادهم وضم مقامهم عظيمة . وبعد مقاومات طويلة تم الصلح بين الطرفين على ان زوج امبراطور الروم بناته من اولاد أب

(١) ملاد كورد حصن مهم واقع في منتصف الطريق بين مدينتي اوضروم وبهيرة وان في ارمينية .

أرسلان ، ويقتدي نفسه وجميع الأسرى بملبوس ديزلر ويدفع حزية سنوية قدرها ١٠٠ ألف دينار .
وبارجع رومانوس إلى القسطنطينية خلع شعبه وصلىوا دينيه وتلقوه . وولى ابن أرسلان ابن عمه
سليمان بن قطانيس ولاية آسيا الصغرى وكان جندياً شجاعاً وحكيماً مديراً ألف دولة في بلاد الروم . دامت
وسلاجقة الروم . جعل عاصمتها مدينة قوية ، وفرض على ملوك الروم الجزية ، فصار لهم سبي واستجدوا
بأهل القرب لحايتهم ونشأت على أثر ذلك الحروب الصليبية .

وقد اتخذ الب أرسلان نظام الملك وزيراً له واستند إليه تدبير المملكة . فقام بهذه المهمة
أحسن قيام وبني سنة ٥٥٨ هـ المدرسة النظامية في بغداد التي درس بها الأئمة الغزالي . وقد
جعل الب أرسلان مقر حكمه في أرمغان ، ووضع عنه نائباً في بغداد كما هي عادة السلاجقة .
وتوفي سنة ٥٦٥ هـ في طريقه لمحاربة الترك فيها وراء نهر جيحون .

وتخلعه ابنه ملكشاه الملقب بجلال الدولة ، وقضى على الشرقات التي قام بها أقربيه من السلاجقة
لا سيما عمه قابورت الذي ثار في كرميان ، يريد أخذ السلطة لنفسه . وفي زمن ملكشاه بادت الدولة
السلجوقية أوجهاً ، واتسعت أملاكه اتساعاً عظيماً . فكانت تمتد من كاشغر على حدود الصين إلى
بيت المقدس في بلاد الشام ، ومن القسطنطينية إلى آخر بلاد اليمن ، وحمل إليه ملوك الروم الجزية
ولم ينته مطلب وانقضت إقامه على أمن تام وسكون شاذل ، وعدل مطرد ، استقر الحكم ، والمؤمن
في جميع البلاد ، وعمر الطارق والقناطر والمرايط في المدايز ، وحفر الأنهار ، وعمر الجامع ببغداد .
وبني المصانع بطريق مكة الحجاز ، وأقام المستشفيات ، وأتمت الطارق في زمنه ، فكانت القافلة تدير
من بلاد ما وراء النهر إلى سورية دون أن يشدي أحد عليها .

وقد استمر نظام الملك وزيراً في زمن ملكشاه ، وقام في أثناء ذلك بأعمال جليلة فقد كان هذا
الوزير الفارسي من كبار العلماء وكان يعتقد على أهل العلم ، فكان يجلسه معسوراً بالقرآن والعقائد
وأئمة المسلمين . أمر ببناء المدارس النظامية في سائر أنحاء البلاد ، وأجرى فيها الجرائد العظيمة .
وكان ينظر في الأوقاف والمصانع ، ويرتب عليها الأمان ، وفي زمنه اطلع الفقه الفارسي من قبل
هيئة من الفلكيين على رأسها الفلكي المشهور عمر الخيام ودعي « المنصور الجلال » نسبة إلى السلطان
جلال الدولة ملكشاه ، الذي بنى لعمري الخيام مرصداً وجيزه بأحسن الآلات ، وأجرى عليه
الأموال الكثيرة مما شجع على تقديم بعضي الفلك والرياضيات . وقد كتب نظام الملك رسالة في أرواح
الدولة اسمها « سيااسة نامه » تعتبر من أعظم ما كتب في هذا الموضوع . وفي آخر أيام نظام الملك
وشى به أعداؤه إلى السلطان ، وما زالوا في سبابهم حتى كتب إليه السلطان رسالة بعاتبه فيها ويقول

« تلك استوليت على ملكي وقسمت ممالك على أولادك وأصحابك ، أتريد أن أمر برفع دوائك الوزارة من بين يدك ، وأخلص الناس من استغلالك ؟ » فكان جواب نظام الخاك « قولوا للسلطان إن دوائى مفترقة بناجك ، فنى رفعها ورفع ، ومتى سلبها سلب . » وحق إن السلطان أو بعض أموانه دبروا قتله ، ففضى نحوه بطعنة خنجر من بعض الفدائيين الاستعمارية ، فمضت الدولة بقتله مصباحاً عظيماً ومديراً حكماً .

وقد تزوج الخليفة المقتدى ابنه السلطان ملكشاه المتأول هذا لت يولي ابن الخليفة مكانه في الخلافة ويضم إليه السلطنة ، ليكمل الخلافة والسلطنة في لسانه ، وحاول خلق الخليفة ، ثم طالب إليه أن يخرج من بغداد ، فاستجاب بضمه أيام ، مات في خلافة ملكشاه سنة ١٢٥٥ هـ فأخرج عن الخليفة ، وذهبت أحلام ملكشاه أدراج الرياح .

وبعث ملكشاه انتهى دور السلطنة والنفوذ عند السلاجقة ، وبدأ دور الانحطاط بسبب الممارعات التي قامت بين السلاجقة أنفسهم ، فقد ملكت « توكان خان » أرملة ملكشاه من الخليفة المقتدى أن يولي طفلاً صغيراً عمود على السلطنة ، فولى طفلاً ، وفيه « ناصر الدين » والدين ، فقام أخوه الأكبر « ركيارون » بنارعه السلطنة ، وسلبها منه ، فقام نفس عمر « ركيارون » في دمشق مطالباً بالسلطنة لنفسه ، وقتل في مسماه . وكذلك قام أخوه محمد ونارعه السلطنة ، وكانت بين الاثنين مواقع هائلة .

وبما كان السلاجقة يمارح بعضهم بعضاً على السلطنة كان الصليبيون يغزون بلاد الشام ، وهؤلاء عنهم لاهون . وانقسموا إلى دول تفرقت في أماكن مختلفة ، وليس من برنامجنا دراسة كل فرع من هؤلاء السلاجقة على حدة ، لذلك اكتفينا بذكر أهم السلاجقة العظام في بغداد وحسبنا أن نعدد أسماء بقية دول السلاجقة ومكان حكمهم وزمنه .

السلاجقة العظام : حكموا في بغداد ، وملكوا خراسان والرى والخراب والمراق والجزيرة فرس والاهواز وأمتد حكمهم ٩٣ سنة . من ٤٩٢ - ٥٢٢ هـ أو ١٠٣٩ - ١١٢٧ م .

سلاجقة العراق : حكموا في العراق وكرديستان وأمتد حكمهم ٧٩ سنة من ٥١١ - ٥٩٠ هـ أو ١١١٧ - ١١٩٤ م .

سلاجقة كرمان : حكموا في كرمان وأمتد حكمهم ١٥٠ سنة من ٤٣٢ - ٥٨٣ هـ أو ١٠٤١ - ١١٨٨ م .

سلاجقة الشام : حكموا في سورية وأمتد حكمهم ٢٤ سنة . من سنة ٤٨٧ - ٥١١ هـ أو ١٠٩٤ - ١١١٧ م .

سلاجقة الروم : حكموا في آسيا الصغرى وأمتد حكمهم ٢٣٠ سنة من ٤٧٠ - ٧٠٠ هـ أو ١٠٧٧ - ١٣٠٠ م .

كانت السلاجقة في ايام ساطعهم يؤثرون الاعمال والولايات فواداً من مطالبهم يسعونهم «الانابكة» واحدهم «الملك» وهو لفظ تركي معناه : «أمير آب» والوراديه ابو الامراء استعملوه اولاً بمعنى الوزير ثم صار بمعنى الملك . واتخذ الانابكة يستقلون شيئاً فشيئاً حتى انفسوا المراسكة الساجونية فيما بينهم ، الا الفرع الرومي في آسية الصغرى ، فانه ظل في حوزة السلاجقة حتى الى العثمانيون في أواخر القرن السابع هجري اي حوالي سنة (١٣٠٠) ميلادية وهم فرع آخر من فرائد التتراتي تخرج منها السلاجقة واستولوا على آسية الصغرى وشكلوا دولة عظيمة . وأشهر دول الانابكة :

الدولة البورية حكمت في سنة ٥٩٧ - ٥٤٩ هـ

الدولة الرقكية حكمت في الجزيرة والشام من سنة ٥٢١ - ٦٦٠ هـ

الدولة الأرتقية حكمت في ديار بكر ومardin من سنة ٤٩٥ - ٨١١ هـ

الدولة الخوارزمية حكمت في خوارزم من سنة ٤٧٠ - ٦٢٨ هـ

وغيرها كثير من الدول التي ظلت قائمة الى ان جاء المغول ، فاكسحوها كلها واستولوا عليها . وفي هذا الدور ظهرت حركة الاسماعيلية او الباطنية .

الاسماعيلية :

الاسماعيلية وتعرف أيضاً بالباطنية وبالحشاشين ^(١) مؤسس هذه الحركة :

الحسن بن الصباح ، وأمه من اصل فارسي من مدينة طوس ، وقد ادعى ان نبيه يرجع الى ملوك الحيريين القدماء الذين كانوا يحكمون في جنوب الجزيرة العربية ، وقد كان صديق نظام الملك في المدرسة ، وعندما قدمت به الهممة عن الوصول الى مرتبة عالية في الدولة الساجونية آلى على نفسه ان يعمل على تقويض دعائم الدولة العباسية . فالتحق بالخليفة الفاطمي المستنصر ، واشتق المذهب الباطني وتلقى بمصر اصول الدعوة الباطنية ، وذهب الى بلاد المغرب رسولاً من الفاطميين لنشر الدعوة الاسماعيلية ، وكان اول ما فعله ان استولى على قلعة الموت Alamut ، وتحصن بها وهي واقعة في شمالي غربي بحر قزوين على جبل البورز Alburz في موقع مرتفع جداً ، ثم نشر دعوته ومنه أخذت دعوته وينشر دعوته الذين كانوا على مراتب ودرجات :

اعلاها مرتبة : شيخ الجبل ، وهو الرئيس الاعلى وكانت كتبه بيضاء وتلفذ وكانت اشارة منه تكفي لقتل من يريد وكان معظم اتباعه من الهندائيين . وباليه «داني» الدعاة ، وهم ثلاثة رؤسوفروع الجمعية في بلاد الجبل ، وكوهستان ، والشام . وباليه «الداني» ، كتب ينتج لمن سبق ان تدرج في مراتب الجمعية السرية ، وكان عمله بث الدعوة وقبول المدعوين . وباليه «الرفيق» وهو الذي

(١) سمو بالحشاشين لاستعمالهم الخشب الحذر .

يتفق : رجبياً مبادئ الدعوة السرية ، ومن هذا القسم تألف أكثر أعضاء الجمعية . واخيراً الفدائية ، الذين يربون تربية خاصة ليغذوا أوامر شيخ الجبل ، ويقاتلون بخناجرهم من يريده ، وقد قتل من قبل هؤلاء الفدائيين كثير من السلاجقة وانصارهم . وكانت التعاليم تصدر بالتدريج وتبع ادق المراسيم ، والجميع مازمون بالطاعة العمياء الى من فوقهم .

وقد حاولت السلاجقة منذ زمن ملككاه القضاء على هذه الحركة الخطيرة وحاربوهم في قلاعهم إلا أنهم لم يتمكنوا من استئصال شأفتهم ، وظلوا يعيشون في الأرض فساداً إلى ان قصي عليهم هلاكهم فاجتاح قلاعهم وقتل أكثرهم ومن بقي منهم نشرق في سورية ، وثمان ، وزنجبار ، والهند . ولا يزال عديم في الهند عظيماً ، ويختصمون زعيمهم آغا خان ، الذي يدعي انه من سلالة الحسن بن الصباح ويدفعون اليه سرية من اموالهم بتفقيها على حياته الخاصة في أوروبا .

اغارة التتر وسقوط بغداد

التتر والمغول

يتنسب التتر والمغول الى أصل واحد وهو الشعب التركي ، وكانوا يسكنون اصقاع منغوليا الشاسعة الفاحشة ، في وسط آسيا ، ويعيشون حياة قبايلة الشجاعة وحب الغزو والغروسة والصيد ، وبالرغم من جهلهم القراءة والكتابة فقد حفظوا انسابهم ، وتوارثوا عاداتهم ، وتناقلوا اخبار أبطالهم وسيرة كبار رجالهم ، وتناقلوها جيلاً بعد جيل ، واشتهر من قبائلهم تيرودن Niroun التي انحدر منها جنكيز خان ، وكانت هذه القبائل بالنسبة الى المغول كاللؤلؤة بالنسبة لصدفها ، وكالشمرة بالنسبة الى الشجرة . وتزايد عدد هذه القبائل ، وتكاثر أفرادها حتى ملأت السهول والبطاح ، وتفوقت على غيرها من القبائل الثرية . واشتهر منهم أبطال اشداء منهم كوهلاي خان Kouhlay عم جنكيز خان وتبائع الروايات عن شجاعته وقوة يده ، وبهادور خان Bahadour والد جنكيز خان وكان ذا مكانة كبيرة في قومه ، ورئيس قبيلة من اشهر القبائل المغولية ، وبنا كان عالماً من احدى غزواته في سنة ١٢٠٩ هـ هجر خلفه الغنائم والاموال اذا بالبشير يرف اليه ولادة غلام ملوكة يده اليمنى بالدم ، وفسر ذلك المفسرون بان هذه علامة الفخر والتمجيد ، وانه سيكون من اعظم القواد ، فسموه « تيموجين » باسم رئيس القبيلة التي انتصر عليها ، واشتهر فيما بعد « جنكيز خان »

جنكيز خان (تيموجين) :

تعلم تيموجين في حداثته أمور السياسة والحرب على امير المؤمنين ، الا انه فجع بوفاة والده وهو لا يزال باماً في سن الثالثة عشرة ، فلم تظمه قبائل أبيه ، وخرجت عن طاعته وانضمت الى

قبيلة مغولية أخرى تدعى « نايد جوت » ، وأحسن حفظ توحجين مات رئيس تلك القبيلة من غير دأوت
فتمكنت والده توحجين « ثم الغيوم Oulun Eke » ، بغالها من نفوذ شديد أن تستبدل بعض هذه
القبائل ، وزعم ولدها عليهم ، وتمكن توحجين بماله من التملك الرجوع والارادة القوة أن يستفيد
من خصوصيات القبائل بعضها مع بعض ، وأن يجمع كثير منها تحت سلطته .

وقد وصف أحمد بن عريضة توحجين بقوله : « وكان جنكيز خان ممتازاً على أقرانه بفور عقله ،
وحسن بانه ، فكر مصيب ، ورأي سائب ، وحزم عجيب ، وعزم ثاقب ، وحمة نباري الأعداء ،
ونبات بحاربي الهالك ، وكان أمياً لا يقرأ ولا يكتب ، أنجبياً أنجز بالانحسب ولا ينسب ، لا طالع الاخبار
ولا اقنى في سياسة الممالك الآثار بل فرغ ما قرعه من القواعد من صيغة تفكيره ، وأتقن ما ابتدعه
في تدبير الممالك من مطالعة هواجس ضميره ، فأسس قواعد وشيد مباني ، وركب تجهيز المرايا
والجنود ، وربط عقود الجيوش والبنود ... »

وانتقم توحجين من قبيلة نايدجوت التي أسرت في صفراء وأذاقته مشرف العذاب ، فحاربها
وتغلب عليها ورمى سبعمين من رجالها في الماء التالي وهم أحياء ، حتى هابت بقية القبائل المغولية
وخشيه زعماءها . وأخذ اسمه ينتشر في مشارق الارض ومنازلها ، ولقب أثر انتصاره على إحدى
قبائل التتر بجنكيز خان « أي الملك الأعظم » .

فتوحاته الشرقية

انضم الى جنكيز خان حوالي سنة ٥٥٩ هـ قبائل مغولية متعددة ، بعضها بالسلم وأخرى بالحرب
وكثر أتباعه فخرج بهم لفتح العالم فسار أولاً جهة الشرق الى مملكة الصين ، وكان لامرطوورها
جزيرة على المنول يؤدونها في كل سنة ، فقطعا عنه جنكيز خان ، وزحف اليه بجيش بعداد الزوال
وتغلب عليه سنة ٦٠٩ هـ ودخل باكين عاصمة مملكته ، واستولى على الأقسام الشمالية ودمر ما يتوف
على ستة وأسمين مدينة بعد أن تمها وأخذ كل ما يمكن حمله وأحرق القصبات والقرى التي مر بها
وسى النساء وقتل الرجال ، واستخلف ابنه في باكين وقتل راجعاً نحو الغرب ، بعد أن وطد
حكمه في تلك البلاد وخضع له سائر امرائها وملوكها .

تنظيمه الدولة :

اتخذ جنكيز خان عاصمة مملكة مدينة « قراقروم » وبدأ في تنظيم مملكته وفي نشر الأمن والسلام
في البلاد ، ففرض على اللصوص وقطاع الطرق ، ومنع التهب والغارات ، وأمر رؤساء الولايات والممالك
بالحكم بالعدل بين أفراد الرعية والقضاء على المفسدين ، ووضع المشارات والملائم والاشارات في الطرق
فأصبح الأمن والسكون يحيم على مملكته ، قلده الغناء والكتاب والادباء ، وأصبح له حاشية من

أكابر الرجال وأدكياه رؤساء القبائل وغفلا الملك . ولم يكن المغول خطا ، ولم يصفوا
 يعرفون القراءة ولا الكتابة ، فامر علماء ملكته أن يصفوا خطا سماه « الخط المغولي »
 نسبة الى قبيلته ، ومن لهم قانونا في كتاب سماه « السياسة الكبيرة » وكتب موادة واحكامه بالخط
 المغولي ، وجعل احكامه مؤسسة على الاعتقاد بالله واحد وسلطة خان واحد تنتخبه الامة من العائلة
 الحاكمة ، وكان قومه سابقا على الخيرية ، فتركهم على ما هم عليه ، ولم يتعصب لدين من الاديان
 ولا لمة من الممال وترك حرية الاعتقاد للجميع . وجعل الامراء والاشراف امتيازات عظيمة ، وأمر
 بقتل من زنى ومن اعمى الكذب أو سحر أو تخسيس ، وأمرهم أن لا يخرج احد بالكس على اصحابه
 وأن مرقوم وهم يأكلون فله أن يترك ويأكل معهم من غير إيدئهم ، وليس لأحد منهم منعه .
 ومنعهم من تفخيم الالفاظ ووضع الانقلاب ، وأما الخاطب السلطان ومن دونه وبدعى باسمه فقط .
 وألزم القائم بعده بعرض العساكر واسلحتها اذا اراد الخروج الى القتال . وحث قومه على الزواج
 وامرهم بالاعتناء بتربية الاولاد ، وتعليمهم ركوب الخيل ورمي المشاب ، وضرب السيف والبهاجة
 وغيرها من مقومات الحرب ... ومنذ ذلك الزمن بدأ المغول يدخلون في طور الحضارة ، ويتعمدون
 عن حالة البداوة التي كانوا عليها .

خروج المغول الى البلاد الاسلامية

إن الاسباب التي دعت جنكيز خان وقومه بالخروج الى البلاد الاسلامية كثيرة منها : أن
 السلطان علاء الدين محمد شاه خوارزم اتبع ملكه كثيرا بعد أن قضى على السلاجقة ، وأصبح
 يحكم على البلاد الممتدة من ما وراء النهر شرقا الى الري غربا ، وسقطت في قبضة يده بلاد سجنستان
 وكرمان ، وطبرستان ، وخرجان ، وبلاد الجبل ، وخراسان وفارس وما وراء النهر ، وقسم من
 افغانستان وبعض الهند وبعض العراق . وطمع خوارزمشاه ، وهو أقب السلطان علاء الدين
 في أن يتصرف بذكر اسمه على منار بغداد ، فيخطب له بذلك السلاجقة عليها فهي الخليفة الناصر ذلك
 الناصر ذلك ، وكانت العلاقات متوترة بين الزخاين لطبع الخليفة في بعض بلاد خوارزمشاه
 وردم هذا سببا . لما كان من السلطان علاء الدين إلا أن قطع خطبة الخليفة الناصر في بلاده ، وأبغ
 مكانا احد اراد البيت العلوي ، وسار بجيوشه نحو بغداد ليؤزل الناصر ويولي مكانه هذا العلوي
 عندئذ بدأ الناصر يسترضي خوارزمشاه ويستعطفه ، فم يجده ذلك نقما ، ولولا زيادة الجو وكثرة
 التلوج التي اضطرته للوقوف لتدخل بغداد .

شعر الخليفة بالخطر الذي قد استجد بالمغول ، كما هي عادة الملوك العباسيين بالاستعانة بالقوى
 الأجنبية عندما يضعف سلطانهم في بلادهم ، فامر جنكيز خان بجيوشه مديا طلب الخليفة ، واجتاح

ويقول ان السبب الذي دفع جنكيز خان لمطرح من بلاده هو انه امر جملة من اكابر وجهه
وامراءه في سنة ٦١٥ هـ ان يخرجوا فدية تجارية الى بلاد المسلمين ، ليرتبط القطاران بملاقات تجارية ،
و اني فتح المسالك والسبل وتبادل البضائع بين الطرفين ، وتكثر المبادلات والاعمال بين الولايات
فارتبوا الامور ، وجيزوا فدية مؤلفة من ٥٠٠ نفس ومعهم الكثير من الاموال والفضة والاشعة
وكتب لهم جنكيز من رسم وجوارات باكرام ليرحم في القربى ، والتسوية لهم ، ولقد ابرم المسلمون
والغرفات وان تسبل منهم ، سارت الفاقة جوارزة فداد ما وراء النهر وسمرقند ونخجوان وسفط
الى مدينة من بلاد الترك تسمى ارار ، وهي متقى حدود خوارزم شاه ، وكان له غالباً فيها يدعى
و غارستان ، فحبسهم عنده ، وارسل الى خوارزم شاه يطلبه بغيرهم ، ولم يعبر عن الاموال الكثيرة
والخارج الحثيثة ، فامرهم ان يذللهم ويأخذ منهم من الاموال والبضائع وينفذها اليه ، فعمل ما امره
به ، فوزع سلاء الدين محمد البشايخ على تجار نخجوان وسمرقند وأخذ منهم فدية .

بلغ الخبر جنكيز خان غضباً شديداً ، وفكرت ثورته ، واستشار قواده وامراءه فترأبهم
على ان يرسل رسالة الى السلطان خوارزم شاه يتهدده بها ويطلبه على عمله ، ويطلبه بالثوب اذا لم
يرسل له حاكم ارار . لما كان من خوارزم شاه الا ان قبل الرسول وحلق لما الحاقة الذي كانوا
معه ، وطلبت وجوههم بالسواد ، واعدهم الى جنكيز خان ليضروه بما عمل برسولته وليعلموا انه سائر
اليه ولو كان في آخر الدنيا لينتقم منه وليقاتله . وكان هذا العمل مبرراً لجنكيز خذونه دليلاً لوجه
لخارجه خوارزم شاه .

كان من الطبيعي لجنكيز خان وقومه ان يخرجوا من دجراة مناوليا القاسية ويذهبوا الى
الاسلام المصلحة البامرة بعد ان تكاثروا عددهم لدرجة ان شافت اراضيهم بهم وخرجت عن اطماعهم
وسد حاجاتهم لا سيما وقد دنا خليفة بغداد والارم خوارزم شاه ، فخرج يقوم يصنع لبيت
الامير في كتابة الكامل باتهم ، لا يحتاجون الى ميرة ومدة بالجرم ، فانهم معهم الاغنام والبقر وغير
ذلك من الدواب باكلوت طومها لا غير . ولما عاينهم التي بركونها فلما تخفر الارض نحو المرحا
وتاكل عروق الزاوت ولا تعرف الصبر .

وكان جيش جنكيز خان يمدد الرسل كثيرة وجنده من اشجع الناس وامرهم على القتال ولا
يعرفون هزيمة ، ويمسكون ما يحتاجون اليه من السلاح بالعبهم .

استمد خوارزم شاه قوامر وجيش جيشاً غزاه اطراف تركستان وذهب بعض بيوت النتر ،
وحمل ما فيها من النساء والصبيان ، فلقعه جموع النتر وجرت موقعة شديدة بين الطرفين كانت
جنكيز خان غالباً عنها استمرت ثلاثة ايام بلبايتها خسرها الطرفان خسائر فادحة والمحب

الفرخان بعد هذه الحركة ورجع خوارزمشاه متعزاً بقوة خمسة إلى بخارى وشرع مشققة حدود
بلاده وزاد في تحصينها . ورجع إلى أهلي بخارى وشرع في السلاح والاستعداد لطلبه إلى سمرقند وعسكر
بجندة يقرب بلخ .

عمر جنكيز خان بعد هذا خوارزمشاه على أرضه منار نحو الغرب وأخذ يفتح المدن والأماكن
ويفتح القلاع ويقتل الرجال ويسبي النساء والأولاد وسب ما صادفه في طريقه من الأموال والأمتعة
استولى على بخارى سنة ٦١٦ هـ وهدم قاشها ونهب ما فيها وأخذ الرجال أسرى بعد ما وهدم
الأمان وسبي النساء وترك المدينة طعمة للجنات . وسافر من معه من الأسرى معه على أجمع حساب
ونوجه نحو سمرقند . وكانت قضية ما وراء النهر فيها من المدة خسوف الماء محاصرون في القلاع
فخرج إليه من أهلي سمرقند ذوو المال والثروة والدين وحاربوا عسكر جنكيز خان فبلغ هؤلاء المأبدة
بأن تفرروا أمتهم حتى أبعدهم من معتقهم وكان المغول قد أخذوا أكيناً بأقربهم من أسلمهم فلما
جاوزوا الكمين خرج عليهم وحال بينهم بين البلد وكثر عليهم الباقون من الأسرى وخلفوا السيف في
رقابهم من كل جانب وقتل معظمهم . ولا رثى ذلك الباقون بالبلد من المند والمند ضعفت قوتهم
وايقنوا بالهلاك . فقال الجند نحن من جنس هؤلاء ولا يقتلوننا لأننا أزالنا عنهم . فطلبوا الأمان
فأمنهم . وفتح البلد . فخرجوا إلى المغول بأعينهم وأموالهم فطلبوا منهم نزع سلاحهم
فزعوها . فوضعوا السيف في رقابهم وقتلهم من آخرهم . واستولى جنكيز خان على سمرقند سنة
٦١٧ هـ وفعل جنده ما فعلوه بخارى فدوى اسم المغول في البلاد فطاف منهم الناس وماتت قلوبهم
رعياً وحذراً ولم يعد أحد يستطيع مقابلتهم .

فترك جنكيز خان في سمرقند وقسم جنده بين أولاده . وأخذهم لفتح البلاد وسير جنده سميت
« النهر الغربية » فلاحقة السامكان خوارزمشاه الذي انهزم أمامهم لا يري على شيء باركاً بلاده
طاعة للمغول . والتجأ إلى جزيرة في بحر قزوين وتوفي فيها سنة ٦١٨ هـ .

كانت البلاد تسقط بيد المغول دون حرب ولا قتال فاستولوا على خراسان وأري واندخشان
وبلاذ النكرج وخضع لهم الروس والقفجاق . وأرأوا البقاء في أن مدة أخرى من التفرستات
على بلغ سنداً سنة ٦١٧ هـ كما استولوا على طوس ومرود وسابور وهرات . وكانوا يستخدمون
أهالي البلاد في حروبهم . ومن المتع قتلهم . وجاورهم جلال الدين بن خوارزمشاه ودافع عن
غزاه وانصر عليهم . عندها نفس الملاحون المصدرون وقويت قوتهم وسلموا أن التفرستات
يتلبوا . إلا أن خلافاً نشب بين جلال الدين وبعض قرائه من أجل الغنائم انقسم بها جيشه وذهب
عن صد المغول عن بلاده وانهزم إلى الهند فأرأى من وجه جنكيز خان .

وتم لجنگیز خان تأليف مملكة عظيمة واسعة مترامية الأطراف تمتد شرقاً من بلاد الصين
وتمتد غرباً إلى بلاد العراق وتمتد شمالاً إلى بحر قزوين وبلاد الروس وتمتد جنوباً إلى بلاد الهند .
ولما شعر جنكيز خان بشرب أخيه تيمو تاتاي من ابيه اربعة وثمانين سنة : وجي ، وجده طاي ،
وتولي ، وابوكداي . واشتد عليه المرض وتوفي سنة ١٢٢٧ م .
هولاكو وسقوط بغداد

هولاكو حفيد جنكيز خان توفي بلاد خراسان وما وراءها من البلاد بعد وفاة ابيه - تولي
خان - سنة ٦٥٥ هـ ، وكان يحكم الدولة العباسية في ذلك الزمان الخليفة المستعصم (٦٥٦ - ٦٥٦ هـ)
الذي كان ضعيف الرأي ، لين الجانب سهل الانقياد ، قليل الخبرة بالأمور المملوكية ، مطعوناً بغير
مبب في النفوس ، ولا مطلع على حقائق الأمور ، وكان يقضي اوقاته بمتاع الاغنياء ، والتفرج على
المساحرة ، وعرف عهده بنشوب الفتن والاضطرابات لاسباب بين السنة والثيمة . وقد حدث في آخر
عده أن ثار أهل السنة على الكرخ (وهو حي الثيمة في بغداد) فطعنوا أخيه واسرفوا في قتلهم
ونهب دورهم . وكان ذلك عام أبي بكر أحد اولاد الخليفة المستعصم ، فاستاء وزيره مؤيد الدين
محمد بن الملقني - وكان من الثيمة - من هذه المدة . وكان هولاكو يحرسه على الشخص
إلى بغداد وطاعة فيها ، فصار يجهز جملته بما يشاء ، وفي طريقه قضى على الاسماعيليين وهدم
قلاعهم . وفي منتصف محرم سنة ٦٥٦ هـ ركب على بغداد ونصب آلات الحصار حولها ، وانظرها
برأيل من الحجازة والقطا المشعل ، حتى احدثت دجاجة في اسوارها ، فطلب الخليفة المستعصم
الصلح على شرط أن يفي على حياته ، ويترك سكان المدينة ، واستأذنه يخرج بعض من وزراءه وابن الملقني
في الخروج إلى معسكره . فان له بسجبة أخوه وولده وحاشيته الموالين كثير القضاة والاشراف
واخذت حبيوس هولاكو بغداد ، وحملت فيها النهب والنيل ، وظلت شوارع المدينة تملأ فيها
الدماء ملوثة بدماء طين ، حتى اضطر ما دخله لدمه أميال بالون الاحمر ، وظلت ريح التعريب
والدم تصطب بالمدينة ستة اشهر حتى انهارت القصور البنية وتفرقت الخواص المقدسة ،
والسرايا الفضة اما بالنار او بالعاول من أهل قضاها الذهبية . وانتهت النيران على قرائع العلماء
والأدباء ، والكتب التي فيها كتبها الدين بالار او بتلغرافها دجلة وهكذا فندت الانسانية
كثير حيلة قرون ، وسيت زهرة الامة هاهنا . وقد عبر السكاتب الانكليزي برابون عن
هذا الحادث بقوله : ان تسليق النمل على بغداد كان طريقة قاضية على الإقامة العربية ، فان ثار
دجلة الذي ثار في بغداد طرد بقية الامم السود اللون من حيز الحضارات التي اقيمت فيها ، وبقول
ابن الاثير في ذكر هذا الحادث : ان النار التي في الحادثة المصيبة ، والاصيبة الكبرى ، التي

عفت الايام والليالي من مملكتها ، وحدث المسلمين ، فلو قال قائل ان العالم منذ خالق الله سبحانه وتعالى ، من آدم الى الآن لم يمتلأ بخلقها لكان صادقا ، فان التواريخ لم تقتض من ما يقاربها ولا ما يدانيها ، ويقول ابن خلدون : ان ١٠٠٠ ، ٦٠٠ ، ١٠٠ هلكوا في تلك المذبحة خلال ستة اشهر .

وقتل من لاكو الطينة المستعصم وام لاه وكثير من افراد أسر تدوين حاشيته ، وانقضى على الدولة العباسية التي ظلت قائمة نحو ٥٢٥ سنة .

وحسب هؤلاء كما يحسنه لهم بلاد الشام ، وحرب المدن التي مر بها لاسيا حاشا الى قتل (٥٠) الف من اهلها ، واستطاعوا لاكو ان يمرؤ الى بلاد فارس عند مسلم بن هود أسيد ، وقيل لاسيا من جيشه ليم فتح سورية ، الا انه هذا الجيش هزم قرب قرية دعين جلوت ، على مسيرة من الحاصرية فاستطاع من قبل السلطان ، يبرس ، من سلاطين المايك في مصر ولاحق بيجرس المنول وطرد من خارج بلاد الشام ، واتخذ البلاد من تدمر .

استدعى بيجرس احمد بن ابراهيم البنت العباسي ، الذي كان قد لجأ من مدينة المنول الى مصر ، واستقبله استقبالاً عظيماً ، وبعد ان اجريت المراسيم الرسمية بأثبات نسبه أمام قاضي النظام ، بوجع بالخلافة ولقب بالمتنصر بالله ، واول من اياه بوجرس ثم قاضي القضاة ومن بعده كبار العلماء الاشراف حسب درجاتهم وكان ذلك في ٢٣ رجب سنة ٦٥٩ هـ ، ونقش اسم الخليفة على العملة ودي له في الخطبة ، والذهبت الخلافة العباسية من حيد في تلك المايك مصر ، وأصبح مركزها القاهرة وقد بقيت الخلافة مقسمة بينا محض ، وتركت السلطة الفعلية لسلطين المايك ، وبقي الأمر كذلك حتى دخول السلطان اسم العباسي الى مصر وعرضه على دولة المايك ، ونقله الخلافة الى الانوار العباسيين ، وفقدت الخلافة ايها من العباسيين بعد الكسور في الحرب المملوكية واعلانهم النظام الجمهوري سنة ١٩٢٣م .

الاسباب وراء الخلافة العباسية :

ربح اسباب سقوط الخلافة العباسية الى عدة امور منها :

- ١ - ضعف السلطة المركزية وقهرت العناصر الاجتماعية من فارس ، و ترك ، وشرك ، ومول .
- ٢ - اختلاف رجال الدولة على السلطة والزعامة السياسية لاسبغ الوزراء ، والمجاهدين ، والنازدة مما سبب انحراف عمل الأمن وإقليم النوص في جميع انحاء المملكة .
- ٣ - اختلاف البيت العباسي وانحياز بعض المملوك لاهل كالتاهر مثلا ، مما قلل هيبة العباسيين في أعين الناس ، وسبب عدم احترامهم لهم .
- ٤ - كثرة المذابح التي يرضون عنها الشيعة ، وبني الحنابلة وغيرهم من أصحاب المذاهب الاخرى .

وبين المسلمين وأهل الذمة كل ذلك مما أوجد هوة سحيقة بين أفراد الدولة العباسية .

٥ — قيام الحركات الدينية من قبل الخوارج ، والمعتزلة ، والرافضة ، والقراءطة والاسماعيلية ، والشيعة الذين كانوا يطالبون بالخلافة مماثلت في عضد الدولة وجعلها في وضع تسبب فيه عن المقاومة .
٦ — استمرار الحروب الخارجية مع البيزنطيين والمسلمين والترك ، مما أهلك قري الدولة وأخذ كثير من مائتها .

٧ — احتلال الإدارة بسبب فساد نظام ولاية العهد ، وتوليته لأكثر من شخص واحد ، وتدخل الخدم في شؤون الدولة ، ومصادرة العيال والوزراء ، وسعة المراكمة العباسية .

٨ — قيام الدويلات المستقلة في مختلف نواحي الدولة ، وانحلالها عن الخلافة المركزية في بغداد ، وسازعها مع السلطة المركزية فيها .

٩ — تأخر الحياة الاقتصادية بسبب النظام الاقطاعي الذي انتشر في الدولة ، وكثرة الضرائب ، وتطيل أقبية الماء ، وانقطاع سبل التجارة بسبب الاضطراب وعدم الأمن في البلاد ، وانتشار الأوبئة والأمراض في كثير من المئين .

١٠ — تفاقم الفساد الاجتماعي من تسري ذواتهم من ذوي وخصيان ، وتدخل الخدم في شؤون العائلة ، واستئثار كثير من الخلفاء ، وانفاسهم في البذر والحزن . . .

خلاصة الدولة العباسية :

تولى العباسيون الخلافة الإسلامية سنة ١٣٣ هـ حيث يروج لأتوهم ابن العباس عبد الله المذبح بالكرمة ، واستمرت خلافتهم الى سنة ٤٥٦ هـ حيث سقطت بيد الله المستعصر قتيلا بعد مدي هو لا كمو المغول من السائب جيتكم خندا ، حيث رايات السوء من الشرق فتمدت به العباس على مدي في أمية ، وحيات رايات التتر من الشرق بثت مروهم من بغداد وهمة الشرق ورملة الدنيا ، فمن الشرق اشرف كوكب سعدم ومن الشرق ظهر نجم لهم ، استمرت خلافتهم ٥٢٤ سنة استقطعت فيها منهم ٣٧ خليفة متوسطت تلك الخلافة منهم نحو ١٤ سنة ولا كبير مدة كانت مدة الفاضل كانت خلافتهم ٤ سنة وأخيرا خلافة ابن المعتز وكانت يوماً واحداً . وكان من انظام اسباب التلال دولهم ضعف العصبية العربية ونهك الامم لهم وفساد الاخلاق .

الباب الخامس

الدويلات المستقلة

لا يمكن أن نذكر جميع الدويلات التي استقلت عن المسلمين لأن ذلك خارج من نطاق هذا بحث . وقد أحاطت سابقاً بصورة موجزة إلى بعض هذه الدويلات وتبين لنا مآلها بالامانة السياسية . وسنذكر فيما يلي بعض الدويلات المستقلة مبعوثين من تربي الدولة العباسية ويستقيم نحو الغرب بحسب الترتيب الجغرافي .

١ - الدولة الفزنوية

٣٥١ - ٥٨٢ هـ أو ٩٦٢ - ١١٨٩ م

الدولة الفزنوية من أمم تركي مركزها مدينة غزنة التي افتتحها بنو سراسان والحند مؤسسها ندي تركي كان يحكم عند السامانيين يدعى الفتك بدأ سياحه العسكرية في المشرق كبلية لمعان الأتراك ثم ارتقت وبعته إلى قيادة فرقة الخرس . وبين سنة ٣٥٠ هـ حاكماً على سراسان ، وما لبث أن خرج على الدولة السامانية وانتقل إلى المناطق الشرقية ، واستولى على غزنة في أقاليمها وجعلها مركزاً لحركته ، واعتصم بها من جيوش السامانيين . توفي سنة ٣٥٢ هـ .

خلفه ابنه المستطير ولم يكن كأبيه قوة وإنداداً ، فاستولى على السلطنة : سيفك و أحمد لمعان الفتك وصهره . وهو المؤسس الحقيقي للدولة الفزنوية . كان له سكر ، وسنة ، ودين ، وحربته رأي ، وحزم ، اكتسب حمة الناس وجعل نفسه كأحد في الحال . وكان يدبر من إقامته ما يعمل منه طاماً لهم في كل أسبوع مرتين ، وكان جنده يلبسونه ثياباً ملونة ، فغزا بهم ما جاوره من بلاد الهند حتى وصل إلى البنجاب ، وخلفه ملوك تلك البلاد وهو إلى الغزاة .

وفي سنة ٣٨٤ استنجد الأمير نوح بن منصور الساماني لمضع الفتن في بلاد سراسان ، فجهاد إليه بعض كبير دقج القضاة واستولى على سراسان فكمأه الأمير نوح بالثانية وبالسراة لانه وافق ابنه محمود ولاية سراسان ونهاد . سبب الدولة ، واستغف الخليفة العباسي القصر بـ سيفك و يدونه وترسل له الخلع والراية . توفي سيفك سنة ٣٨٧ هـ وبه لابنه الصغير أحمد بالملك ، فلما عهده محمود على السلطنة وكتب إليه من أحمد يقول : إن أنت إنا عهد إليك بعضي سنة ، وذكره ما يضمن من تعزيم الكبير على الصغير . وطلب منه الوصل والمهاد ما يحسن من تركه إليه .

هو يمثل ذلك المثل - منسوب القتال من الأسرى - انكسر فيه الجود واستولى على سرته ، وطلب
أسنة مملوكة سنة ١٠١٠ هـ إلى بلخ ، وأرسله إلى في سرستان من السامانيين ، وحلب
التي في القادر سنة ١٠١٠ هـ نطلع عليه الخليفة لقبه من الدولة ولحقه الله ، وفتح له أمراء البلاد
المجاورة ، ودخلوا في طاعته .

أحمد محمود الغزنوي الفارسي

توجه محمود نحو الشرق ، وغزا بلاد الهند ، وقام بما ينفذ من (١٧) حملة إلى تلك البلاد ،
ووصل في أثنائها إلى نهر الغانج واستولى على البنجاب ، ولاهور ، والكتان ، وقسم من بلاد الهند
وكان لهذه الغزوات أثر عظيم في نشر الإسلام في تلك الجهات وقسم من هذه السنة فيها . وخرب
محمود كثير من معاقل الهند ، وطمع الاستيلاء على بلاد الهند ، وطمع الاستيلاء على (بالاشكان)
والهند أيضاً ، وكان في ذلك من قبل من المسلمين بهذا القب وطمع من تلك البلاد والبلاد
عظيمة ، انشأ في سبيل كسرى ، وطمع الاستيلاء عليها . وطمع من بلاد الهند ، وطمع من بلاد الهند ،
التي في جهة الغرب ، واستولى على الري والجلال ، وطمع من الري ، وفتح له الحرك طبرستان ،
وجرجان ، وأصبح بذلك ملكاً واسعاً .

أعمال محمود الثقافية

أهتم محمود في استباح مملكته ونسجها لا سيما غزوة التي كانت تنافس بغداد وقرطبة والبلخ
بجمال مبانيها وتيام الحركة الثقافية فيها بجانب البراءة والافتاء من غرب وفرنس وهنود ، وفتح
بلاطه الرجال العلم والادب فقصده الشعراء أمثال الشاعر الفارسي الفردوسي ، صاحب الشاهنام
وهو ملحمة مؤلفة من سبعين ألف بيت شعر ، فيها مدح لسلطان محمود ، ومكافأة عليها بسبعين ألف
درهم فاستقل الشاعر المبلغ وخرج من عنده طامعاً ، عاصياً إلى بلاد بعيدة شديدة . والشاعر أيضاً في
بلاطه المؤرخ - أبو الرخمان البيروني - صاحب كتاب « الآثار الباقية في التواريخ الخالية » ، ومؤرخ
الهند هو شمس الدين المؤرخ ، الذي كتب تاريخ السلطان محمود وضم إليه تاريخه البيهقي ، والشاعر
غير هؤلاء ، كثيرون من شعراء وأدباء زهادهم بالخط السلطاني محمود الغزنوي .

القراس الدابة الغزنوية

توفي السلطان محمود سنة ٤٢١ هـ وبه بالملك من بعده لابنه محمد ، وكان أصغر من أخيه مسعود
فتنازع الأسوان على الملك ، وأتصر مسعود في هذا النزاع وأخذ الحكم من أخيه ، كان مسعود
شجاعاً قوياً جارك أن يجمع خطوات أبيه في فتح بلاد الهند ، ولما وراء النهر ، إلا أنه اصطدم
بالسلاجقة ، وجرت معركة بين الطرفين بقرب مدينة هراة سنة ٤٣١ هـ دارت الدائرة فيهما على

الغزنويين ، ومنذ ذلك الوقت بدأ الضعف يسرب الى قلب الدولة الغزنوية ، وأخذ أفراد البيت الغزنوي يتنازعون على السلطة ، فانفصلت عنهم بعض المناطق الهندية ، وتشكلت فيها إمارات مستقلة . وكان قيام الدولة السلجوقية في الشمال والدولة الغورية من الجنوب الغربية الفارسية على الدولة الغزنوية ، قادت أملاً كبيراً لتفكك وتقسيم هاتين الدولتين حتى لم يبق لها إلا بعض المراكز في الهند التي سررتها نهائياً في زمن تاج الدولة وخسرو ملك سنة ٥٨٢ هـ حتى يد الدولة الغورية .

إن أهمية هذه الدولة ترجع الى ثلاث نواحي :

أولاً : الى الفترات التي قامت بها في بلاد الهند

ثانياً : الى نشرها الاسلام والثقافة الاسلامية في تلك البلاد ، وأصبح يوجد أكثر من مئتين مليون مسلم في بلاد الهند والسند في الوقت الحاضر

ثالثاً : الى الحركة الثقافية التي ازدهرت في عهده وتوكلت لنا تركة عظيمة وعلمية قيمة .

٣ - الدولة الحمدانية

٣١٧ - ٣٩٩ هـ - أو ٩٢٩ - ١٠٠٣ م

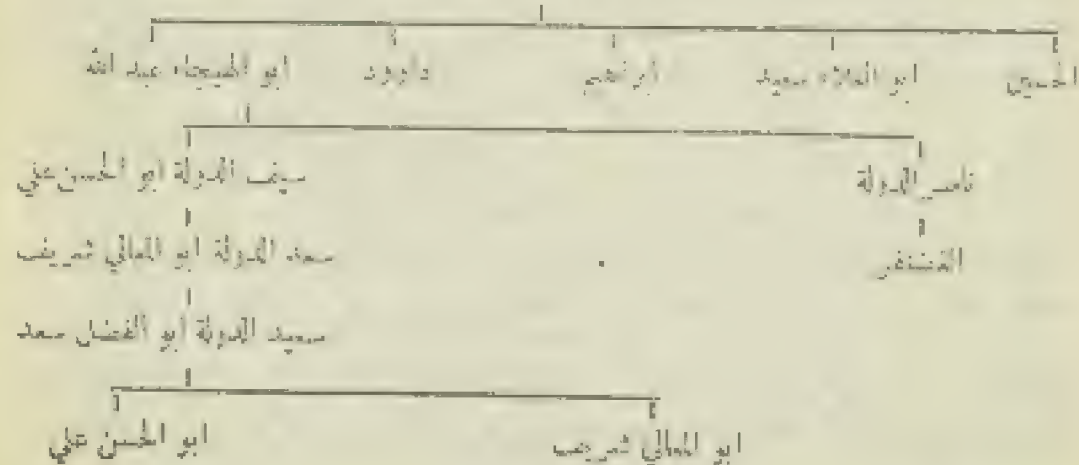
الدولة الحمدانية من أصل عربي ، قامت في الموصل وحلب (١) وحسبكام أولاً عن حكم الحمدانيين في الموصل ، ثانياً عن قيام دولتهم في حلب .

الحمدانيون في الموصل

نسب هذه الدولة الى رستم خرفي ، من قبيلة تغلب أحد حمدان بن حمرون أسقل في سنة

(١) الأسرة الحمدانية في الموصل وحلب :

حمدان



في سنة ٢٨١ هـ في قلعة ماردين على حدود أرمينية . وكحصن بها ، وكان ذلك في خلافة المتضد
فلما علم الخليفة العباسي بخبره جهز جيشاً كبيراً سار به إلى ماردين ، واقصد الخبير بمحمد بن طاهر
في حرف الليل وترك القاعة لابنه الحسين ، الذي دافع عنها دفاع الأبطال . فلم يستطع الخليفة أن
يستولي عليها ، ورجع بجيشه إلى الموصل ، وكتب إلى حمدان يطلب إليه الخضوع . فنهضت
جيشه المرة الثانية ، وانطلق امره بغير واحد من كبار قواد الترك ، وسار هو على رأس الجيش إلى
ماردين ، وأخضع ابن حمدان واضطره لأن يفتح باب القلعة للخليفة الذي لم تكده تطلأ خيوله
لرؤسها حتى أمر بهدمها ، بعد أن قتل كل ما فيها من ذخائر ونفائس إلى بغداد . وأرسل من يعقب
حمدان . وقبض عليه ، ووجه في السجن .

وفي هذه الفترة ظهر في الجزيرة الفراتية خارجي يدعي هارون الشاري ، كان رجلاً منامراً
ولديه قوة كبيرة ، ورجال أشداء ، وكان كما أرسل إليه الخليفة جيشاً هزمه . قرأ الخليفة المتضد أن
يستعين بالحمدانيين ، وأن يضرب الحديد بالحديد . فندب الحسين بن حمدان لهذه المهمة ، وقال له الحسين
إن أنا جئت به فلي ثلاث حاجات عند أمير المؤمنين إحداهما إطلاق أبي ، وحاجتان أكرها بعد
مجيئي . فأجابته المتضد إلى ذلك . فمضى مع جند اختاره حتى أتاه ، فجاربه وهزمه . ثم هازم
حتى ظهر به ، فأخذه أسيراً وأحضره للمتضد ، فخلع الخليفة عليه وطوقه وخلع على إخوته ، وأمر
بفك أبيه والتوسعة عليه والاحسان إليه ، وبدأ منذ ذلك الوقت يتألق بحجم الحمدانيين ويزداد نفوذهم .
توفي المتضد سنة ٢٨٩ هـ وخلفه ابنه المكتفي ، وسار على خطى أبيه من الثقة بالحمدان ،
فولى أبا الهيثم عبد الله بن حمدان ولاية الموصل وأعمالها ويعتبر أبو الهيثم المؤسس الحقيقي للدولة
الحمدانية . استعان الخليفة به لأخضاع الأكراد ، فقام بالمهمة أحسن قيام ، وأجسبرهم على
الخضوع والاستسلام . وكان أفراد البيت الحمداني قارة بثورون على الخلفاء وأحياناً يتفقون معهم
لأسماء الحسين بن حمدان الذي كان يطلع دائماً في ولاية من العباسيين ولما فشل في مساعده أخذ يدس
الدسائس ضدهم ويتآمر عليهم ، حتى علم المقنن بأمره فقتله . أما أبو الهيثم فقد مرل مرات عديدة
عن ولاية الموصل ثم أسيد إليها إلى أن توفي سنة ٣١٩ هـ وتولى مكانه ابنه ناصر الدولة ، وكان شديد
المهية ، صلب الخوادم ، أخضع نورات كثيرة واستقل في الموصل ، وحبس عن الخليفة الراضي
الأموال وانفصل عنه . فجهز الخليفة جيشاً بقيادة أبي الغلاء سميد بن حمدان ليحارب أخيه في الموصل
ولما اتقى الجمعان قتل أبي الغلاء سميد وفرق جيشه . فسير الخليفة الراضي وزيره ابن مقله بجيش
كبير استولى به على الموصل وحرق خراجها ، وهرب ناصر الدولة متوغللاً في الجبال ، وما أن عاد ابن
مقله إلى بغداد حتى رجع ناصر الدولة إلى الموصل ، وطرد طرد الخليفة وأعلن ولايته من جديد .

سكنت الخلة في هذه الفترة في بغداد ، وقام العرب والوزراء يتنازعون على منصب أمير الامراء ، فأولى ناصر الدولة ملوك بني الدلاء ، وغرب من الخليفة النقي ، وزوج ابنته من ابن الخليفة ، وعند ما طلع البردي في الاستقلال على مشارق السيف الدولة النقي ناصر الدولة الحمداني ، وأرسل اليه أخاه علي على رأس جيش كبير لم يكد يصل به الى تكريت ، حتى انتهى بالخليفة وابن رائق فقادهما الى الموصل ، وهناك دبر ناصر الدولة قتل ابن رائق وخلع الخليفة على ناصر الدولة لقب أمير الامراء ولقب أخاه غالباً بديف الدولة ، وعاد الخليفة برافقه ناصر الدولة وسيف الدولة الى بغداد ، ومكثا بخليفة متظاهرين في راحة بغداد ، وحاربوا البردي الذي نزع الى واسط ثم الى البصرة ، وبعد حكم دام سنة في بغداد حين فهد ناصر الدولة عن القيام بهمة أمير الامراء اعتزل هذا المنصب ورجع الى الموصل ، فاستأجر الخليفة النقي أكبر قواد القرام ووزون ، لهذا المنصب ، ثم استوحش منه بمرور بغداد ملجأ الى ناصر الدولة ، فاجتج به وزون واستولى على الموصل بعد معركة دامية ، وحرب الخليفة وناصر الدولة الى نصيرين ، وجرت مساطات الصلح بين الطرفين ، انتهت بأن يدفع ناصر الدولة في كل سنة مبلغ ثلاثة ملايين وسبعة آلاف درهم الى وزون . وتوفي ناصر الدولة سنة ٣٥٨ هـ بعد حكم دام (٤٠) سنة ، استولى غلالها على الموصل ، وبنار بكر ، وبنار ربيعة ، وتولى منصب أمير الامراء ، ويمتد زمن حكمه لأربع مائة سنة اليه الدولة الحمدانية في الموصل .

خلفه ابنه المنذر الذي حكم حتى سنة ٣٦٩ هـ ودخل في طاعة البويهيين الذين تقبلوا على بغداد ، واستمع من جاء بعده من الحمدانيين عمالاً عند الدولة البويهية حتى سنة ٤٦٥ هـ .

الحمدانيين في حلب

إن أهمية الحمدانيين ترجع الى الدور الذي لعبوه أيام حكمهم في حلب ، وليس الى زمن حكمهم في الموصل ، وذلك لسببين أولاً : لما قام به سيف الدولة في الدفاع عن البلاد الإسلامية في وجه البيزنطيين . ثانياً : لشخصية سيف الدولة الفذة ، وعظمته على الانبياء والعلماء ، ورجائه واستقبالهم في بلاطه لحلب ، والحنان الاموال عليهم . وللمسذين الذين اشتهر سيف الدولة وحده اسمه في سجل التاريخ .

سيف الدولة :

ولد سيف الدولة أبو الحسن علي بن عبد الله بن حمدان الثغلي سنة ٣٣٣ هـ في ميافارقين أشهر مدن ديار بكر ، واستولى على حلب سنة ٣٣٣ هـ ودخلها فقام بعد ان انزعجها من أحد قواد الاخشيد سيد مصر ، وأرسل له الاخشيد حملة كبيرة بقيادة أكبر رجالة كافور ، فالتقى الجمعان بالقرب من

محض ، فانهزم كافور وتبعه سيف الدولة الى دمشق وجرت معركة انكسر فيها سيف الدولة. وجرى صلح بين الطرفين على ان تبقى دمشق وما في جنوبها بيد الاخشيديين ، وبأخذ سيف الدولة حلب وحماة وانطاكية . وبعد ان ولد سيف الدولة مركزه في الداخل التفت لقتال اعدائه البرناتيين في الخارج .

حروبه مع البرناتيين :

قاد سيف الدولة الجيوش بنفسه لقتال الروم ، ولم تكن تحظى سنة ذن ان يجري قتال بين الطرفين . ولم يكن في جميع حروبه موقفاً ، فكثيراً ما كان منهم امام عداوه بالياً بنفسه من الموت إلا انه قام بواجبه كأمير عربي حاول الدفاع عن بلاده . وكان يقابل الثغور مع الروم ، حصراً لثغرها بدمه ، واخرى ينزاعونها منه . فكثرت مرسى ، وطرابلس ، وحرشة ، ومانلي ، ومدينة ، والحديث ، وعين زربة وغيرها تداني أشد البلاد من هذا النزاع . ولا يعني ان تنكلم عن كل هجوم قام به البرناتيون ، او كل معركة خاضها الأمير الحارثي ، وإنما أكتفي بالذكر حادثتين الأولى انصر بها سيف الدولة على اعدائه ، والثانية اجتاح بها الروم مدينة حلب ، الذين الاترو الذي كانت تجرده تلك المعارك على كلا الطرفين . ففي سنة ٣٥٣ هـ غزا سيف الدولة البلاد الرومية . وكان له بها نصر عظيم . وقتل في تلك الواقعة قسطنطين بن الدمستق ، وقد عظم مقتله على ابيه ، فجمع سائر مدائن الروم ، والروم ، والبلغار وغيرهم . وقصد الثغور ، فدار اليه سيف الدولة ، فانفروا عند الحدث في شعبان ، فاشتد القتال ومير الفريغان ، وكانت العاقبة للمسلمين . فانهزم الروم وقتل منهم ومن معهم خاق عظيم ، وأمر صهر الدمستق وابن ابنته ، وكثير من بلارقه . والدمستق عند الروم الرئيس الأكبر للجيش . والبطارقة فواده . والحادث الثاني الذي يظهر عليه الروم على سيف الدولة هو انه : في سنة ٣٥٦ هـ استولى ملك الروم على مدينة حلب حاضرة سيف الدولة ، فخرج عنها سيف الدولة مهزوماً بعد ان قتل أكثر اهل بيته ، وبلغ الدمستق بأموال سيف الدولة واستعته وكنوزها ، وحرب داره التي كانت بظاهر حلب . وسبى من حلب وحدها بضعة عشر ألف صبي وصبية . وقتل أكثر من ذلك . ولما رأى مع الروم ما يتسلون عليه غناهم أمر الدمستق بإحراق الباني ، وأحرق المساجد واقام بحلب تسعة ايام . ثم أراد الانصراف منها فانصرف خروماً على العوده وظهر بذلك غلبة الروم على المسلمين سنة . وسب رجلاً كفة البرناتيين على المسلمين . وادلى ان الروم كان يحكمهم أباطرة من الأسرة المقدونية كما مر معنا التي سكنت ما بين سنة (٨٦٨ - ١٠٥٧) م واشهر منهم كسفور فوكاس ، وباعيل الثاني وغيرها من الاباطرة الذين كان لهم الأثر في توطيد الحكم في بلادهم والتوسيع في خراجها . مما جعل سيف الدولة واولاده من بعده يجرى من رده لمرور الروم عن بلاد الشام .

مات سيف الدولة سنة ٣٥٦ هـ في حلب وأوصى أن يوضع تحت رأسه في قبره بقبة من تراب
جمعه من الغبار الذي لحق ثيابه في أيام غزواته في أرض الروم . وعنه تراثت الدولة الحمدانية .
المخطاط الدولة الحمدانية :

قامت المنازعات بين أبي فراس الحمداني وبين سعد الدولة بن سيف الدولة على السلطة وأراد أبو
فراس الذي كان والياً على حمص استخلاص حلب لنفسه من سعد الدولة وجرت معركة بين الطرفين
قتل فيها أبو فراس وهزم جيشه . واستبد كارغوب القائد التركي بالامر بعد ذلك واستعان
بالبغليين على سبيل سعد الدولة وهم تركي آخر يدعى بكجور وحاول أخذ السلطة لنفسه واستجد
بالباطنيين . وفي زمن سعيد الدولة بن سعد الدولة استبد القائد الأول بالسلطة وحكم في زمن الولاد
سعيد الدولة حكماً مستقلاً وكان يرسلهم إلى القاهرة ليخضعوا له . ثم قام ابنه منصور من بعده
وحكم باسم الباطنيين مباشرة ، وما لبث أن سحق عليهم واستجد بالاعراب من بني كلاب فقال
الباطنيين واتصر عليهم فثار بنو كلاب عليه يطالبونه بالمال والفتنة وحاربوه وقاموا في حلب دولة
عربية سميت الدولة مرداسية .

الحياة الثقافية في بصرط - سيف الدولة

جمع سيف الدولة في قصر الخلية ، الذي بناه بظاهر حلب نخبة رجال الثقافة في زمانه . فقد
اجتمع في بلاطه الأدباء والشعراء والفقهاء والنحويون والمؤرخون . وكان سيف الدولة يساهم في
مناقشتهم ، ويشارك في أبحاثهم ، ويتم على المجيدين منهم أحسن القام . وكانت هذه الاجتماعات تشبه
ما كان يجري في زمن هارون الرشيد وابنه المأمون . وقد اجتمع باب سيف الدولة عالم يجتمع قط
باب أحد من الملوك بعد الخلفاء . قصده القتي سنة ٣٣٧ هـ ومدحه بقصائد خلقت ، صكراه مدى
الدهر ذكر فيها حروبه مع الروم ، وشجاعته ، وأخلاقه ، وكرمه . ثم هجره على أن تدخل الوشاة
بيتها وإفساد سيف الدولة عليه ، وقصد بلاط كافور الأحمدي في مصر .

وأشهر من الشعراء ابن عم سيف الدولة أبو فراس الحمداني ، والشاعر النامي ، واللامي ، وابن
تينة السعدي وغيرهم كثيرون . وأشهر من مؤرخي الأدب أبو الفرج الأصبهاني الذي كتب لسيف
الدولة كتاب الأغاني وقدمه له فكافأه سيف الدولة عليه بألف دينار واعتذر إليه بغير حله . وأشهر
من النحويين ابن خالويه ، وابن جني ، كبير نحوي زمانهم . وأشهر الفارابي الفيلسوف الموسيقي الذي
كان يعيش بأربع دراهم في اليوم بأحد من خزنة سيف الدولة . وهناك كثيرون غير هؤلاء
قصدهوا سيف الدولة ونموا بأعالياته ، وعاشوا في الجو العلمي والأدبي الذي أوجده سيف الدولة
في بلاطه .

٣ - الدولة الطولونية

٢٥٤ - ٢٩٢ هـ أو ٨٦٨ - ٩٠٥ م

الدولة الطولونية من اصل تركي ، حكمت مصر والشام . أسسها احمد بن طولون وكانت أبوه ملكاً تركياً من نواحي فرغانة ، اُخذ له نوح بن أسد الساماني الى الخليفة المأمون حين ما كان في مرو سنة ٢٠٠ هـ ، وولد ابنه احمد بناسرا سنة ٢٢٠ هـ ، تقرب مع حند القزلي وتعلم العربية وخط القرآن الكريم ، وكان ذا خلق قويم . ولما بلغت سنة العشرين توفي أبوه طولون ، فعم الى زوج امه القائد بابك ، وكانت ولاية مصر مضافة اليه . وهو الذي يختار أميرها ، فاختار احمد بن طولون سنة ٢٥٤ لما رأى من كفايته وشجاعته ، وعقد له عليها .

وفي خلافة المتيقن قتل بابك وحل محله أماجور قائد تركي آخر . وكان صديقاً لـ احمد بن طولون ، فأقره على ولاية مصر ، وزاده الاعمال الخارجية عنها ، عطلت لذلك منزله واتسع ملكه وكان يدعي على منابر مصر للخليفة أولاً ثم لـ أماجور ثم لـ احمد بن طولون الى ان مات أماجور سنة ٢٥٨ هـ فاستقل احمد بمصر ودعى نفسه بها وحده بعد الدماء للخليفة ، وضبط بلاد مصر واهل شوكة الثاربين .

وفي سنة ٢٦٢ هـ حصل بين الموفق الحلي الخليفة المعتمد وبين احمد بن طولون خلاف فأخرج ابن طولون عن دفع الاموال التي ترسلها مصر عادة للخلافة العباسية فتجارب الحارثي . وكانت انظر لابن طولون . واكتسب ابن طولون فرصة انشغال الموفق بتجارة الزنج . واستولى على بلاد الشام والقفور وامتدت دولته الى نهر الفرات . وكان ابن طولون يعلم ما بين الخليفة المعتمد وبين نفسه من الخلاف . وصادف ان كتب المعتمد اليه يشكو له بما هو فيه من استبداد اخيه بالسلطة ، وأن ليس له من الخلافة إلا الاسم ، فدعا يأتي الى مصر . إلا ان الموفق اتيه الى ذلك ومنع أحاد من الوصول الى مصر .

قام احمد بن طولون بأعمال اصلاحية طيبة . بنى مدينة الفطاح بجانب القضاة ، واستضافه ملكه وبنى فيها القصور الجميلة والمسجد المشهور باسمه . جامع ابن طولون . وعمر الديرين الذي كلنه ستين ألف دينار . وسفر بعض الانبياء وأصلاح الترع المهدمة واهتم بالجنين حتى بلغ عدده مئة اثنى جندى فيهم التركي والرومي والزنجي والمصري ، ووافق كثيراً من الاموال في إنشاء الاسطول واتخذ ميناء عكا قاعدته البحرية .

توفي ابن طولون سنة ٢٧٠ هـ وخلفه ابنه خوارويه من بعده .

خمارويه (٢٧٠ - ٢٨٢) هـ

كان خمارويه صغير السن عند وفاة أبيه عمره عشرون سنة . وكان الموفق يطلع في استرجاع بلاد الشام ومصر ونصبها لسلطة العباسيين فإرسل حاشه الى الشام لفتحها فخرج اليه خمارويه سنة ٢٧٠ والنقي الحماني في معركة شهيدته قرب طاعنات به الطولانيين ه انهزم فيها خمارويه بنفسه وترك جيشه الذي اكمل الفتح . واستقر الموفق بسلطة خمارويه على مصر والشام والنجف مقابل مبلغ قدره (٣٠٠) الف دينار بدعته في كل سنة .

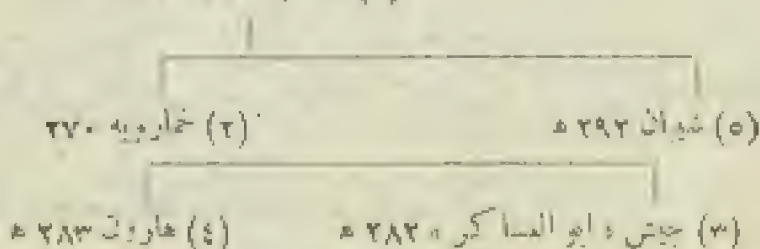
نوفي المعتمد خلفه ابن أخيه المعتضد بن الموفق في منصب الخلافة وحسنت العلاقة بينه وبين خمارويه وأراد ان يتقرب الى الخليفة بالظاهره ، فعرض عليه ان يزوج ابنته قطر الندى من ابن الخليفة ، وأمر الخليفة نفسه ونزوحه . واستغل خمارويه بجهلها أهم احتفال ، فبنى لها على كل مرحلة قصرًا فيها بين مصر وبغداد . وسار وبعثها سير الطفل في المهد ، فكانت أدأ وافت القتل وجدت قصرًا قد فرش فيه جميع ما يحتاج اليه ، وعلقت فيه الستور ، وأعدت فيه كل ما يصلح الى مثلها في حال الإقامة . فكانت في سبورها من مصر الى بغداد على بعد الشقة ، كأنها في قصر ايها تنتقل من مجلس الى مجلس .

وكان قصر ايها في مصر من أعظم الابنية الاسلامية يتألف من « القاعة الذهبية » المطاية جدرانها الأربعة بالذهب ، والمنقوش عليها منورة ومصورة زوجاته ومنبئاته ، وفي ساحة القصر بركة ثلثة بارئق . وضع على جنبها فرائش من جلد ينم عليه الخليفة . وكان القصر قائمًا في وسط حديقة جميلة مزروعة بأنواع الازهار التي صفت بأشكال كتابات عربية . وفي الحديقة مكان للعبور وآخر للحيوانات .

إن هذا الترف الذي نظره خمارويه لضعف مالية الدولة ، مما أثبت أن تفرق أمرها بعد ما قتله احد خدامه في سنة ٢٨٢ هـ ، لاسيما وأنه من جاء بعده من الحكام الطولونيين كانوا ضعفاء ، فرجعت مصر والشام الى حكم العباسيين (١)

(١) هذه لأئحة تبين أسماء الحكام الذين حكموا الدولة الطولونية :

(١) احمد بن طولون ٢٥٤ هـ



لم يطل - حكم الدولة الطولونية كثيراً ، وذلك لأنها كانت تعتمد كثيراً من الدولات المستقلة على شخصية مؤسسها القوية ، وتبقى هذه الدولات على الأقل أكثر ما بقي على رأسها حكام اقوياء ، فإذا مازال هؤلاء زالت معهم . لأنها لا تستند إلى حق شرعي في وجودها يعترف لها به عامة الشعب وإنما تستند على جندها المأجورين على الأغلب الذين يدعمون سلطانها ، فإذا ما قامت الأموال عن هؤلاء الجند تفرقوا عنها وأنضموا إلى قوة أخرى تكون أكثر مالا . ولذلك فإنا نجد أن أكثر الدولات المستقلة تزدهر قليلاً ثم لا تلبث أن تنقرض .

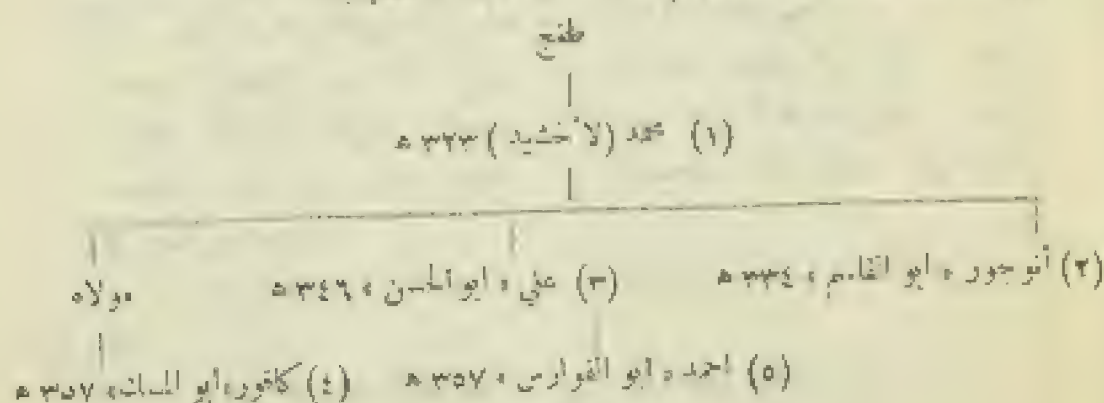
٤ - الدولة الأخشيدية

٣٢٣ - ٨٠٣٣ = ٩٣٥ - ٩٦٩ م

الدولة الأخشيدية من أصل تركي ، حكمت في مصر والشام والحجاز ، أسسها محمد بن طنج الملقب بالأخشيد^(١) وهو لقب حكام قرغانة ، منحه هذا لقب الخليفة الراعي سنة ٣٢٧ هـ كان محمد بن طنج كبقية الأتراك يحكم في بلاط الملقاء العباسيين ، إلى أن توصل لأمير يكون والياً على الشام ، واستولى على مصر ، وحكمها باسم العباسيين .

كانت الخلافة العباسية تمر في مأزق حرج بسبب تنازع المتغذين على منصب أمير الأمراء ولما استولى ابن رائق على هذا المنصب حاول تزع بلاد الشام من يد الأخشيديين فلم ينجح وبقيت يدهم . وكانت علاقة مصر بالشام مرتبطة أشد ارتباط ، فإما من دولة قامت في أحد القطرين إلا وحاولت ضم القطر الآخر لسلطانها . وذلك لشدة العلاقات السياسية ، والحربية والاقتصادية فيما بينهما ولم تهدأ الحرب بين العباسيين والأخشيديين - حتى قامت من جديد بينهم وبين الحمدانيين وأخيراً اتفق الطرفان على تقسيم سورية فيما بينهما كما ذكرنا سابقاً .

(١) هذه لأئحة تلي اسماء الحكام الذين حكموا الدولة الأخشيدية :



توفي الإخشيد سنة ٣٥٣ هـ ودفن في بيت المقدس وترك الحكم من بعده لأولاده ،
كافور الإخشيدى :

خلف الإخشيد ولده أبو حور وعلي . ولم يكن لأحدهما أي سلطة ، لا سيما علي أصغر سنة
والتضييق كافور عليه . ومنع الناس من الدخول عليه . وكان علي مكثفياً كما كان أخوه من قبله
بلغ اربعمائة ألف دينار في السنة . ترك كافور كلها بيد كافور .
كان كافور الإخشيدى عبداً حبشياً خصباً ، لقب « بابي المسك » و « بالاستاذ » وكان قبيح
الخلق ، مديناً قتيلاً ، ورجلاً مشوهتان ، وكان ملوكاً لأحد تجار مصر ، فاشتراه الإخشيد
سنة ٣٩٢ هـ وجعله من رؤساء جنده . ترقى كافور في مناصب الجيش وتسلم زمام الأمور بعد وفاة
الإخشيد فحارب الجذائين ، وقع ثورة أهل مصر وانتهى إليه الحكم بعد وفاة علي بن الإخشيد
سنة ٣٩٦ هـ ودعي له على المنابر بعد الخليفة ، جاء إليه المتني ومدحه مدحاً جميلاً وكان يأمل أن
يقطعه بعض الأرازمي أو يؤمره على بعض الولايات ، فلما خاب أمه هجاه هجلاً مرأً وارتحل عنه (١)
بقي كافور يحكم البلاد حكماً مستقلاً نحو سنتين (٣٥٥ - ٣٥٧ هـ) انتشر في أثنائها القحط
والوباء ، بسبب انخفاض ماء النيل ، وكثر الموت حتى غير الناس عن تكفين الموتى وعن دفنهم ،
فضطروا إلى إلقاء جثث موتاهم في النيل . وأغار الأشرار على المزارع والحقول ، وعم السلب
والنهب ، وبما زاد في هذا البلاد غير كافور عن مد القرامطة الذين أغاروا على الشام سنة ٣٥٣ هـ
وعدم قدرته على الدفاع عن مصر حين غزاها ملتان النوبة . وهجز كافور عن دفع روانب جنده ،
فأغاروا عليه .

توفي كافور سنة ٣٥٧ هـ وترك البلاد إلى أبي الفوارس أحمد حفيد الإخشيد وكان طفلاً
في الحادية عشرة من عمره . ساءت الحالة كثيراً في زمنه ، فغاض جوهر الصقلي قائم الخليفة المعز
الفاطمي ، واستولى على مصر سنة ٣٥٨ هـ وأخذ الحكم من الإخشيديين ونقله إلى الفاطميين

(١) دخل المتني على كافور ، فرأى شقواً برجليه وقبحاً فقال بهجوه :
تعجيني رجالك في العمل أنتي رأيتك ذائلاً إذا كنت حافياً
وانك لا تدري الموت أسود من الخيل ثم قد صار أبيض صافياً
ومثلك يؤتى من بلاد بعيدة تبضحك ربات الحداد الواكياً
وقال أيضاً في هجوه :

وأسود مشعره نصفه يقال له أنت بدر الدجى

وقال :

لا تشتر العبد الا وانصا معه ان العبد لا تنجس منا كريد

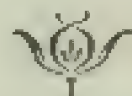
القسم الثالث

الخطافة الفاطمية

1860

الخلفاء الفاطميون

- ١ - الهادي ٢٩٧ هـ
- ٢ - القائم ٣٢٢ هـ
- ٣ - المنصور ٣٣٤ هـ
- ٤ - العزيز ٣٤١ هـ
- ٥ - العزيز ٣٦٥ هـ
- ٦ - الحاكم ٣٨٦ هـ
- ٧ - الظاهر ٤١١ هـ
- ٨ - المستنصر ٤٢٧ هـ
- ٩ - المستعلي ٤٨٧ هـ
- ١٠ - الأمر ٤٩٥ هـ محمد
- ١١ - الخافض ٥٢٤ هـ
- ١٢ - الظاهر ٥٤٤ هـ يوسف
- ١٣ - القائم ٥٤٩ هـ (٥٥٥ - ٥٥٦ هـ) ١٣ - القائم ٥٤٩ هـ



الباب السادس

الخلافة الفاطمية

٢٩٧ - ٥٦٧ هـ أو ٩٠٩ - ١١٧١ م

نشأتها : يرجع أصل الخلافة الفاطمية إلى الحركة الإسلامية التي كان مركزها في مدينة سفيية ما بين حمص وحماة ، وكان من جملة الدعاة الكثيرين الذين كانوا يخرجون فيها إلى مختلف البلاد الإسلامية ، لا سيما العراق ، وفارس واليمن ، وشمالي إفريقية ، والذين أمادوا نجاحاً عظيماً هو : أبو عبد الله الذي عرف فيما بعد « بالشيعي » .

توجه عبد الله سنة ٢٨٨ هـ إلى المغرب ، فتولى نفوذه بين البربر من قبيلة كنانة ، واستطاع بالتدريج أن يفرض على دولة الأغالبة (١) واستيلاء البربر ، وهيام لاستقبال الامام عبد الله المهدي . وبات

(١) دولة الأغالبة (٢٨٤ - ٢٩٧) هـ أو (٨٠٠ - ٩٠٩) م دولة قامت في إفريقية (تونس) أسسها إبراهيم بن الأعلب يادن من هارون الرشيد ، واستقل فيما منحه من بعده لقب أمير ، وجعل عاصمتها مدينة - القيروان - تولى بعده وفاته ابنه عبد الله فاستقامت له الأمور ، وتفتح الناس في ظله بتعمد الطمأنينة والمدى . وفي سنة ٢٠١ هـ توفي ، خلفه أخوه زيادة الله وفي زمنه تم لهذه الدولة الاستيلاء على جزيرة صقلية . وكان العرب منذ فتحهم لإفريقية يتطلعون لغزو هذه الجزيرة والاستيلاء عليها ، فقام بها المناز ما بين شرقي البحر المتوسط وغربه . وفي سنة ٢١١ هـ أرسل زيادة الله أسطولاً قوياً وانزع هذه الجزيرة من يد البرنطيين . واتخذ الأغالبة هذه الجزيرة قاعدة لهم ، وغزوا منها شواطئ إيطاليا ، وفرنسا ، وكورسيكا ، وساردينيا . واستولوا على جزيرة مالطة ، ووقعت - أودينيا بقبضة يدهم . وازلت جيوشهم في الأرض الكبرى (إيطاليا) وفتحوا فيها ما يتوف عن (١٥٠) مدينة . كما أن أسطولهم دخل نهر التبر وحاصر مدينة رومانية ٢٣٥ وقد انقذت مدينة البابا من استيلاء العرب عليها بمساعدة زوجة شديدة هبت على الأسطول العربي وحطمت سفنه . وقد استولى بحارة العرب على أكثر جزر البحر المتوسط وصحران البحر لاسيما جزيرة كريت التي كانوا يغزون منها سواحل اليونان ، وقد عثر في الوقت الحاضر على بعض نقوش كوفية في مدينة أتينيا يرجع عهدها إلى القرن العاشر ميلادي وفي عهد زيادة الله بدأ بعمارة مسجد القيروان - الشهير الذي لا يزال قائماً بمئذنته العجيبة حتى وقتنا الحاضر . وقد حكم إحدى عشر أميراً من هذه الأسرة ، وكانت خاتمهم على يد الفاطميين .

بالرسول إليه ليخبروه بما فتح الله عليه ، وبأن الناس ينتظرون قدومه ، فخرج عبيد الله مع ابنه أبي القاسم وبعض خاصته ومواليه من سلمية متسكرين يزي تبحر إلى مصر ، فوصلوها سنة ٢٨٩ وساروا منها نحو الغرب حتى وصلوا سنة ٢٩٦ إلى سجلماسة الواقعة على سفح جبل الأطلس ، إذ غلب أمير سجلماسة : السبع بن مداور على عبيد الله ورجه في السجن ، إلا أن أبا عبد الله الشامي قد نجس من الحرير وحارب أمير سجلماسة واستولى على المدينة وأخرج عبيد الله من سجنه ، وبايعه بالخلافة سنة ٢٩٧ وبادى به العرب والبربر سامير المؤمنين . -

اختلف المؤرخون في نسب الفاطميين فمنهم من ينسبهم إلى فاطمة بنت النبي محمد (س) وروج الامام علي رضي الله عنه ، وآخرون ينسبهم إلى عبد الله بن ميمون القذافي أحد مدعي الفرس ، الذي استنق المذهب الشيعي الاثنى عشرية ، والتقدم وسيلة لتنفيذ المراسم الفارسية ليجتمع حوله جميع الساخطين على الخلافة العباسية . وقد دعى الخلفاء العباسيون الرائي الثاني ليطعنوا في حق الفاطميين بالخلافة ، ولم يفلحوا من شأنهم .

وقسموا لا بحث قسم المدة التي حكم بها الخلفاء الفاطميون إلى ثلاثة ادوار .

الدور الأول . دور التأسيس : ٢٩٧ - ٣٥٨ هـ أو ٩٠٩ - ٩٦٩ م وهو يمتد نحواً من سبعين سنة أي منذ إعلان خلافتهم في افرقية - حتى فتح مصر .

الدور الثاني . دور القوة : ٣٥٨ - ٤١١ هـ أو ٩٦٩ - ١٠٢٠ م وهو يمتد نحواً من خمين سنة أي منذ فتح مصر حتى انتهاء حكم الخليفة الحاكم .

الدور الثالث . دور الانحطاط : ٤١١ - ٥٦٧ هـ أو ١٠٢٠ - ١١٧١ م وهو يمتد نحواً من قرن ونصف أي من مقتل الحاكم إلى الغرض الخلافة الفاطمية على يد الأيوبيين . وتتكم عن كل دور من هذه الأدوار باختصار .

١ - دور التأسيس

٢٩٧ - ٣٥٨ هـ أو ٩٠٩ - ٩٦٩ م .

- حكم في هذا الدور ثلاثة خلفاء وهم : المهدي ، والقاسم ، والمعتز . وكانت جهودهم مخصصة لتوطيد مركزهم في شمالي افرقية ومحاولتهم الاستيلاء على مصر - وتتكم فيما يلي عن كل خليفة على حدة :

عبيد الله المهدي

٢٩٧ - ٣٢٢ هـ أو ٩٠٩ - ٩٣٤ م

أنشأ المهدي بالحزم والتهبات والدماء . وفيه أعمال افرقية على رؤساء قبيلة كتامة منذ توليه

الخلافة ، ودون الدواوين وجبى الأموال ، وحفض الضرائب ، وأمن السبل ، وسار بالناس سيرة عدل وزهد ، فطاعوه واحبوه وأخذت القبائل تفتد عليه وتقدم له الطاعة ، وتقدم الى صفوفه وعندما أصبحت لديه القدرة السكانية قضى على بني مدراف في سجلماسة ، وعلى بني رستم في ناهرت وعلى الأغالبة في تونس ، وعلى الأندلس في مراكنش . وقد أدى على ثورة داعية ابو عبد الله الشيعي وأخيه أبي العباس الذين تقامرا مع بعض رؤسائه فبطل كثرته على حكمه وحاولا اغتياله لسلب السلطة منه . الا ان المهدي تمكن بدعائه وحذره من المرض عليها كما فعل قبله ابو جعفر المنصور بأبي مسلم الخراساني ، ولافتى المهدي دعوة شديدة في اخضاع البربر وكبح شكيتهم الا انه تمكن احيراً من تهدئة الحالة ، ونشأ عنه له في البحر دغلاً باسمه المهدي ، وشهد حوله جوراً قوياً وجعل له ابواباً حديدية ، وبني بداخلها القصور ذات السرايب النسيجة التي اختزن فيها كنوز عظيمة من المؤنة ، وبعد ان أتم بناءها خاطب نفسه قائلاً : « اني لاشعر الآن بأطمع ان عظيم على الدولة الفاطمية الناشئة » وحاول المهدي فتح مصر ، فجز جيشاً كبيراً بقيادة ابنه محمد وأمدّه بأسطول صغير استولى به على الاسكندرية ، فأرسل الخليفة العباسي الذي كان يخشى على نفسه من مزاحمة الخليفة الفاطمي جيشاً بقيادة مؤنس الحاجب فالتصّر على الفاطميين وأرجعهم من حيث أتوا وبذلك قضى على حلم المهدي الذي كان يأمل ان يملك مصر وترك ابن سيأتي بعده من اولاده لتحقيق هذه الفكرة وتوفي سنة ٣٢٢ بعد ان دام ٢٤ سنة .

القائم

٣٢٢ - ٣٣٤ هـ أو ٩٣٤ - ٩٤٥ م

كان القائم شجاعاً حازماً ، ومندياً بسلاً تولى قيادة الجيوش بنفسه ، واهتم بتوسيع ملكه ، وانشأ أسطولاً قوياً استولى به على زمامة البحر المتوسط ومصر . وفتح الاسكندرية التي كانت الاضيء رده عنها . وحارب عائلته في المغرب (ابن أبي العافية) الذي حاول الاغتيال الى الأندلس في الأندلس فأغادر إلى الطاعة ، ثم حوّل بمصره سطر أوروبا فاعتزل جنوبي إيطاليا ، واستولى بأسطوله على جنوة وساردنيا ، وبسط حكمه في صقلية ولوقا أروبا . وفيما هو منصرف الى الفتوحات الخارجية فاجأه ثورة داخلية أوقفت حركته . قام بهذه الثورة « ابو يزيد الخارجي » سنة ٣٣٢ هـ الذي بدأ حياته معلماً لأصفيان ، فجمع حوله عدداً كبيراً من البربر ، واقام مبادئه التي تقضي بتكفير أهل الدين من غير مذهبه ، وإسباحة الأموال ، والخروج من طاعة السلاطين . ولقبه أتباعه « إشيج المسلمين » وخرج بهم من المغرب قاصداً المهدية ، والتوقع بالجيش الفاطمي هزائم منكورة ، واستولى

على حماية الزروان وغيره من المدن ، وحاصر المدينة حامية الخلافة الفاطمية ومنع عنها المدد وساقها أشد ذيق ، وفي أثناء الحصار توفي الخليفة القائم ، فقام ابنه السامع من بعده وأبى موت أبيه ، واستعان بقبائل البربر وانتصر على الخارجي سنة ٣٣٩ هـ وقضى عليه ، وأعلن وفاة أبيه فبايعه الناس بالخلافة وألقب بالنصور ، وكان كاتبه شجاعاً شديداً الفطش ، قضى مدة خلافته بإعادة تنظيم بلاده بعد أن خربتها فتنة أبي زيد ، وتمكن بعد جهوده العظيمة أن يعيد للخلافة الفاطمية رونقها وقوتها وركب لابنه المنصور تحقيق فكرة الاستيلاء على مصر والوصول بالخلافة إلى أوج عزها .

٢ - دور القوة

٣٥٨ - ٤١١ هـ أو ٩٦٩ - ١٠٢٠ م

حكم في هذا الدور ثلاثة خلفاء وهم : المنصور ، والمريز ، والحاكم ، وفي زمنهم بلغت الدولة الفاطمية أوج عظمتها ، فتوسعت رقعتها وشملت بلاد مصر والشام والجزيرة بالإضافة إلى أملاكهم في شمالي أفريقيا . وأصبحت القاهرة عاصمة الخلافة الفاطمية ومركز حضارتهم ، وستكلم فيما يلي عن كل خليفة على حدة :

المنصور

٣٤١ - ٣٦٥ هـ أو ٩٥٢ - ٩٧٥ م

كان المنصور شجاعاً نبلاً ، عظيم الهمة ، له ولع بالحلم ، ودراية بالأمم مكرماً للأهل ، ومحباً للادباء ، وتمكن أن يحميه بنامون ، المغرب ، وفي عهده بلغت شمالي أفريقيا درجة عالية في الحضارة والتقدم . فقد اهتم بشؤون الرعية وورد النظام إلى أهلها ، وقمع الفتن بيد من حديد ، ونظم شؤون الإدارة ، وسن القوانين ، وقسم الولايات إلى مناطق ، وعهد بإدارتها إلى الأوكفاء ، وجيزهم بالجنود والشرطة لحفظ الأمن والنظام ، وأعاد تنظيم الجيش والأسطول ، وشجع التجارة والصناعة ، وقرب زعماء البربر ، واكتسب صداقتهم ، وبعد أن وطد حكمه من جهة المغرب ، واسترجع ما أخذه الخليفة عبيد الرحمن الناصر الأموي من المغرب الأقصى وجه جهوده لفتح مصر .

فتح مصر :

كانت مصر أمل الفاطميين المنشود منذ أن وطئت قدمهم شمالي أفريقيا ، وكانوا يعلمون في الاستيلاء عليها منذ زمن أول خلفائهم عبد الله الميدي ، وقد حاولوا ذلك مراراً كالقدم معناه ، إلا أن العباسيين والاشعديين ردوهم عنها ، ولم يسعفهم الحظ ولم تساعد الظروف على فتح مصر إلا في زمن المنصور لدين الله الخليفة الرابع ، وكان ذلك بسبب استيلاء المصريين من تحكم كافور الاشعدي بهم ، واضطراب الحالة في آخر عهد الاشعديين بسبب تمرد الجند عليهم لانتقاص إعطائهم وأرزاقهم . فكتب بعض

فواد الجند الى المعز بدعوه لتفتح مصر ، واشترك في هذه الدعوة بعض رجال الدولة مثل يعقوب بن
كافس الذي ذهب بنفسه الى المعز ووصف له حالة مصر وما هي عليه من الضعف والاضطراب ،
وحضه على فتحها .

وفي الواقع كانت مصر تعاني أشد الالتزامات في حياتها الاقتصادية والاجتماعية بسبب غلاء المعيشة
والاكتلة مانجرة معها من امراض حسية وحلقية ، حتى حشرت مصر قواها الدفاعية وحيويتها في
النضال والمقاومة في وجه الفاطميين .

وقد أرسل الفاطميون جيوشاً من الدقة قبل أن يدخلوا جيش الغزو ، وجيروهم بالمال والعلم ،
لبثوا الدعوة المذهب الاسلامي والامكار الشيعية واهبوا الجيوش الفاتح حتى يدخل مصر
بسهولة . وبطبل المؤرخون في وصف استعداد المعز في تجهيز الجيش (١) الذي أرسله بقيادة أعظم
قواده و جوهر الصقلي .

بدأ منذ سنة ٣٥٦ في إنشاء الطرق ، وحفر الآبار ، وإقامة المنازل ما بين القبروان ومصر
للاستراحة في فترات منظمة ، وأنفق الأموال على قبيلة كنانة وغيرها من قبائل البربر ليمدوه بمجند
منهم ، حتى تجمع لديه جيش يزيد عدد فرسانه على مائة ألف فارس عدا المشاة استولوا في ١٥ شعبان
سنة ٣٥٨ على مصر دون عناء . وبعد أن استتب الأمر لجوهر أمر بقطع الخطبة للعباسيين عن منابر
مصر والشام ، واستبدلها بالدعوة للخلفاء الفاطميين ، وحرم لبس الأسود واستبدله بلبس الخضار شعار
الفاطميين . وأمر أن يؤذنه بحمي على خير العمل وإيتاء مدينة القاهرة ، وجعلها بقرب القضاة
التي بنيت منذ زمن محمدين العاص . وقد دعاها جوهر بالقاهرة المعزية رمزاً لقهر عدوه ونسبه الى
المعز وبني في وسطها القصر الفاطمي ، والجامع الازهر الذي كان مركزاً للدعوة الشيعية يخرج منه
الدعاة لنشر المذهب الاسلامي ، وبعد أن وثقت حكمه في مصر انفتحت لفتح الشام لانه بدونها لا يستقر
له قرار استبدل اشتداد أمر القرامطية ، ومحاوئهم الاستيلاء على مصر ، فحاربهم سنة ٣٦١ بقرب
القاهرة وحرت معركة شديدة بين الطرفين انتهت بهزيمتهم وإرغامهم من مصر .

(١) وصف بن هاني الاندلسي (متي الغرب) جيش المعز بقوله :

| | |
|-----------------------------|------------------------------|
| وأبته بعيني فوق ما كنت أسمع | وقد رايتني يوم من الخضر أروع |
| غداة كأن الأفق سد به | فما غروب الشمس من حيث تطلع |
| الا إن هذا حشد من لم يذق له | غزار الكرى جفن ولا بات يجمع |
| إذا حل في أرض بناها مدائن | وإن سار عن أرض غدت وهي برفع |
| تحمل بيوت المساك حيث يحل | وحم العطابا والرواق المرفع |

وفي سنة ٣٦٢ ارتحل المعز الى القاهرة ، ونقل دواوينه اليها على اثر دعوة فئدة جوهر ، وعندما وصل الى قصره ، خرج ساجداً في مجلسه شكراً لله ثم سلى ركعتين وحلى بصلاته كل من دخل ، واخذ الحكم من جوهر الذي ظل ياتوب عن اربع سنوات حاكم مصر ، والثقت لحاربة القرامطة الذين اشتد أمرهم كثيراً بالشام حتى أنهم زحفوا للمرة الثانية للاستيلاء على مصر ، فخرج اليهم المعز سنة ٣٦٣ وأوقع بهم هزيمة فادحة ، والثقت الى الرنطين الذين استفادوا من الاضطرابات القائمة في الشام ، واستولوا على انطاكية وهزموا جيش الفاطميين بقرب طرابلس سنة ٣٦٤ هـ وتمكن والي هذه المدينة ان يردم عينيا ، ووصلت ابناء هذا النصر الى المعز وهو على فراش الموت فتوفي في ١٤ ربيع الثاني سنة ٣٦٥ هـ بعد ان حقق حلم الفاطميين وبسط سلطانه على المغرب ومصر والشام والحجاز .

العزير

٣٦٥ - ٣٨٦ هـ او ٩٧٥ - ٩٩٦ م

كان المعز كرمياً شجاعاً ، محباً للعلم والأدب ، ميالاً لتسامح مع أهل الذمة ، استوزر في اول حكمه يعقوب بن كلس وكان يهودياً اسلم في عهد كافور الاخشيدي ، وبقي في الوزارة في زمن المعز وابنه العزيز زهاء اثني عشر عاماً ، ثم استوزر « عيسى بن نسطورس » النصراني ومن بعده « منشا » اليهودي . وكان طبيباً نصرانياً يدعى « ابا الفتح منصور بن مقسر المصري » وكانت له منزلة سامية في الدولة . وكانت زوجته نصرانية رقت اخوها الى أعلى المناصب الكندية فكانت أحدها (اريسطيس) بطريركاً لبית المقدس وكان الآخر (ارسانيوس) مطراناً للقاهرة عيناً في سنة (٣٧٥) وكانت بنته « سبث الملك » (١) تساعد النصارى كثيراً ، حتى بلغ نفوذ النصارى واليهود الى الذروة في زمنه ، واستولوا على معظم اعمال الدولة ، واستاثروا بأكثر السلطات ، مما أدى الى سخط المسلمين فيقال وان العزيز بالله رأى ذات يوم في طريق الموكب الخلفي امرأة تعد يدها

(١) بنت الملك بنت العزيز ولدت بالمغرب سنة ٣٥٩ هـ وكانت حازمة عاقلة ، قوية العزم بصيرة بالأمور ، وكان والدها العزيز يحبها ، ويستمع الى نصحتها في كثير من الأمور ، وكان لها اثر ظاهر في توجيه سياسته نحو النصارى ، فكانت هت بادرة من السخط عليهم او الميل الى اضطهادهم تدخلت لتلطيفها والعود الى سياسة التسامح وكانت في السادسة والعشرين من عمرها عند وفاة ابيها وكانت اكبر من اخيها الحاكم نحو خمسة عشر عاماً لذلك استبدت بالحكم مكانه واخذت تدبر الأمور في بادىء حكمه ويقال ان لها يد طولى في تدبير المؤامرة التي اودت بحياته .

برقعة كأنها ظلامه ، فتناولها فادا بالمرأة هيكل من الجريد قد البس ازاراً ، واذا في الرقعة ما يأتي
بالذي اعز اليهود بمشاً ، والنصارى بوعى بن نسطورس واذل المسلمين بك الا ما كشفت ظلامي
فادرك العزيز ما انتهت اليه نفسية الشعب من تحمك الاقلية الذمية في شؤونهم وعدل قليلا في سياسته
وكان جيش الفاطميين منذ نشأتهم حتى زمن العزيز بذات من المغاربة الذين قامت على سواعدهم
الدولة الفاطمية ، ولما شعر العزيز بزيادة سلطانهم قرب الموالي من الترك والصقالية ، فوقع بالتعطلة
التي ارتكبها من قبله الخلفاء العباسيون فمالبت هؤلاء ان يستأثروا بالأمر وكانوا عامل فساد في
الدولة بسبب منازعاتهم مع المغاربة .

نوسع ملك الفاطميين كثيراً في بلاد الشام في زمن العزيز وحاولت جيوشه الاستيلاء على حلب
الا ان أميرها ابا الفضل ، ووزره لؤلؤ استنجدا بالبيزنطيين على اخوانهم المسلمين ، وكان ذلك
سبباً اقرب لمعارك شديدة جرت بين الطرفين على ضفاف العاصي وكانت نتيجة ان رد البيزنطيون
على اعقابهم الى انطاكية سنة ٣٨١ هـ ، ثم اعدوا الكرة بقيادة امبراطورهم باسيل الثاني في سنة
٣٨٥ واستولوا على شيزر وحمص ، وقسم كبير من ساحل الشام . ونوفي العزيز وهو في طريقه الى
الشام لقتال البيزنطيين ، ولم يترك الا حبيباً واحداً انتقلت اليه الخلافة .

الحاكم

٣٨٦ — ٤١١ هـ او ٩٩٦ — ١٠٢٠ م

تولى الحاكم بأمر الله الخلافة حدثاً دون اثنائية عشرة من عمره ، وأوصى به العزيز الى ثلاثة
من رجال دولته وهم : برجوان الصقلي خادمه وخازنه ، والحسن بن عمار زعيم قبيلة كتامة وتصور
الخلافة الفاطمية منذ تأسيسها ، ومحمد بن النعمان قاضي القضاة . فقام النزاع بين برجوان وابن عمار
على السلطة ، واشتدت المنافسة بينهما ، فاستبد ابن عمار في بادى الأمر وظهر عظام الطاغية ، وكان
يدخل القصر ويناديه راعياً ، والزم جميع الناس بالترجل له ، واغلق باباً الى على الخاصة ، واغلق
الاموال على جماعته من كتامة ، واستولى احدثات المغاربة في عهده على وظائف الدولة واقسموا
سلطانها ، وعاشوا في شؤونها ومرافقها ، وكثر اعتداؤهم على الناس وعلى اموالهم حتى اختلعت امور
مصر والشام . وكان برجوان والصقالية جماعته يترقبون الفرصة للقضاء على ابن عمار ، ويدسون
الدسائس عليه ، ويؤلبون زعماء الجند الناقين على حكمه ، واخيراً نجح برجوان في اخذ السلطة
لنفسه وتواري ابن عمار عن الانظار ، وترك الميدان حراً لمنافسه الذي بقي نحو سنين ونصف قابضاً
على زمام الامور تقع في اثناءها الثورات التي قامت في الشام والمغرب ، وحارب الروم في عدة معارك

وهزمهم ووردهم الى الشمال ، ثم نهادن معهم . كما انه ألزم الحاكم ان يقيم معه في القصر ، وجميعه عن الاتصال برجال الدولة ودفع به ما استطاع الى مجاتي الابو واللعب . ولما بلغ الطفل الخامسة عشر من عمره ، شعر بنفوذ وصيه عليه ، واستنثاره بالسلطة دونه ، واخذ يتطلع الى الخلاص منه ، وودر مع بعض حاشيته اغتياله ، ونجحت المؤامرة في ربيع الثاني سنة ٣٩٠ هـ وتسلم الحاكم السلطة بنفسه واظم مجلساً ليلياً يحضره أكابر الخاسية ورجال الدولة لينذا كبروا بالشؤون العامة .

صفات الحاكم :

كان الحاكم وافر الذكاء والجراءة والعزم ، وكان منظره مثل الأسد وعينه واسعين شمل ، وإذا نظر الى الانسان برمد لعظم هيئته ، وكان صوته جهوراً غليفاً ، وكان مضطرب النفس والالهواء متناقض الرأي والعصاف ، كثير التنقل من حال الى حال ، يأمر بالشيء ويألغ فيه ثم يرجع عنه ويألغ في نقضه ، وكانت خلافته متضادة بين شجاعة واقدام ، وحسن واحجام ، ومحبية للعلم والانتقام من العلماء ، وميل الى الصلاح ، وقتل الصالحاء ، وكان الغالب عليه الصلاح ، وربما يخل بعام يخل به احد قط . وكان جواداً سمحاً خيلاً ما كركاً ، ردى الاعتقاد ، سفاكاً الدماء ، قتل عدداً كبيراً من كبراء دولته صبراً ، وكان عجيب الشيرة بخرع كل وقت اموراً واحكاماً يجعل الرعية عليها . وقد قتل عدداً كبيراً من كبراء الدولة ورغبة في التخلص من نفوذهم الا انه أسرف في القتل ، فكان يقتل ورواه وعلمانه تبعاً من غير سبب ، ودون حكمة ظاهرة ، حتى هابه الخواص والعوام ، وخنقوا على أنفسهم منه .

وكان الحاكم الى جانب ما كركنا جواداً وافر الهدى عادلاً محب للعلم ، شديد عدة جوامع وكليات ومراسد ومستشفيات في مصر والشام ، وانشأ جامعة دار الحكمة ، سنة ٣٩٥ هـ ووقف عليها كثير من الصباغ والاموال . وعرف عن الحاكم زهده وتقشفه وتواضعه واحتقاره للرسوم والاقاب الفخمة ، وكان في أول حكمه منع الناس من مخاطبة بعضهم او مكائبتهم « يسيدنا » « مولانا » الا أمير المؤمنين وحده . ثم أصدر أمراً بان لا يقبل أحد له الأرض ، ولا يقبل أحد ركابه ، ولا يده عند السلام عليه . وكان أغلب طوافه بالقاهرة على الخير دون موكب ولا ضحية ، ولا يصحبه من الحشم والجند سوى بضعة من الركابية (١) وفي أواخر أيامه أطلق الحاكم شعره حتى تمل على كتفيه وأطلق أظفاره ، واستعاض عن الثياب البيضاء بثياب سوداء ، وكان يرتدي جبة من الصوف الاسود المادي ولا يغيرها مدى حين حتى يملوها العرق والرائحة . وقد يرتدي أحياناً جبة مرقعة من سائر الالوان ...

(١) الركابية : جماعة من الجند يصحبون من الخليفة ويعتنون بركوبه . وبالرداء التي يرتديها .

تصرفات الحاكم :

شفف الحاكم بالليل حوالي سنة ٣٩١ هـ فكان يعقد مجلسه ليلاً ويواصل الركوب في كل ليلة بحبب الشوارع والأزقة ، وصدرت اوامره بتعليق المصابيح على جميع الحوائط وأبواب الدور ، وفي جميع طرقات القاهرة ، فكانت المدينة تبدو في هذه الفترة بالليل كأنها شعلة مضيئة ولازم الحاكم الركوب في المدينة المظلمة ، وكان يزور كل ليلة حياً معيناً ويشق طائفة من الشوارع والدروب ، ويقب الحسبة بنفسه أحياناً ، ويستطلع أحوال الشعب وأخباره ، وأصبحت جميع الأعمال والمعاملات تجري بالليل ، وتزدهر مواطن السمر وتختلط حياة الجد بحياة اللهو ، فتقطع الميادين بالوقود والزيت ، وتنقص بصروف اللهو والمرح ، وتنفق الأموال الوفيرة في المآكل والمشرب والسباع . وكان الحاكم يشق جموع الشعب المحتشدة في بساطة ورقة ، ولا يمنع احد من الدنو منه او مخاطبته . واستمر الحال على ذلك أشهراً ، وظهر النساء في الميادين بكثرة واشتد تيار الجيوش والغواصة ، فلما خرج الناس في ذلك عن الحد ، وبالنو في اللهو ، والاسراف والزينة منع الحاكم النساء من الخروج ليلاً منذ العشاء لكي تحفظ عوامل الفتنة والغواية ، وعوقب الخائفات بشدة ، ثم منع الرجال من ارتياد الحوائط والمقاهي ، وأبطلت بعد ذلك جميع الأعمال والمعاملات ليلاً وعاد الظلام يحيم على القاهرة بالليل سنة ٣٩٤ هـ . والحوادث والأخبار عن شغفه بالظلام والهربان كثيرة .

أصدر الحاكم حملة من الاوامر والقوانين القوية ، وكان مما يزيد في غرائبها وعموس بواعثها انها كانت تصدر ثم تنحى بعد قليل ، وتبطل بمكسها ، ثم يباد بدورها .

من هذه الاوامر منعه الناس في سنة ٣٩٥ هـ وما بعدها من أكل الخوخية والقرمس ، وحرم دبح الأبقار السليمة الا في عيد الانبياء ، وحرم دخول الخام بلا منكر وحرم على النساء أن يكتفن وجوههن في الطريق وحرم عليهن القرن والبرج كما حرم البكاء والمويل والمصباح وراء الموي ، وزيادة القبور ، وحرم شرب الخمر من نبيذ وغيره وكسرت اواني الخمر ، وأريق في كل مكان وشدد على التجارين ، وبدد كل ما في بيوتهم ومخلائهم . وهوجت امساكن البغاء ، والقصف بشدة ، وأزيلت دورهم وأوكارهم ، وظهرت منهم أحياء المدينة ، وأمر بتنع الكلاب وقتلها أينما وجدت ، إلا كلاب الصيد ، وأمر بقتل جميع الخنازير في مصر فقتلت عن آخرها .

ومنع الحاكم الناس من التظاهر بالغناء ، ومن الركوب في النيل بسبب نقص مائه ومن الخروج قبل الفجر ، وبعث العشاء ، وأمر بحريم صناعة النجوم والكلام فيها وأمر أن ينفي النجومون من سائر المملكة ثم أبطل قرار نفيم .

وفي سنة ٤٠٢ هـ تشدد الحاكم في معاملة النساء كثيراً ، فأصدر مرسومه الشهير بمنعهن من

منادرة دورهن ، والخروج الى الطرقات بالليل او النهار ، ولم يستثن من ذلك سوى النساء المظلمات للشرع ، والتخارجات الى الحج أو المسافرات الثلاثي تضطرن ظروف القاهرة الى السفر ، والاماء الثلاثي برسم البيع ، والقابات ، وغاسلات الموتي ، والازامل الثلاثي ييمن الغزل وأن يكون خروج هؤلاء لتزاوله شؤونهن برفاع خاصة ترفع الى القصر ، وتصدر بها تصاريح يقوم بتنفيذها صاحب الشرطة ، ومنع النساء من دخول الحمامات العامة ، ومنع الامساك كفية من عمل أخفافهن ، فاختفى النساء من المجتمع المصري ، وساده الانقباض والوحشة ، واغلقت المتاجر التي تباع السلع السورية ، وساد الذعر بين النساء ، ولزم من دورهن في روعة وخشوع . وحاول النساء التظلم من هذا القرار ، وذهب الكثيرات منهن الى القصر داعيات مفظلمات فلم يقفن بهائل ، وعوقب كثير من الخالفات بالموت . واشتد الامر بنساء الكافة الثلاثي ايس لمن يقوم بأمرهن ، واستثنى بأولي الامر ، فأمر الباعة ان يحملوا السلع والاطعمة وكل ما يباع في الاسواق الى الدروب ، ويبيعونه للنساء في منازلهن ، وان يحمل الباءة اداة كالثورة لخدمة طربل يمد الى المرأة وهي من وراء الباب وفيها ما تشتره ، فتناولته ونضع مكانه الخن ، ولا يسمح لها مطلقاً ان تدوم من وراء الباب وعلى النساء هذه الشدة زهاء سبعة أعوام حتى وفاته الحاكم .

تشدد الحاكم مع أهل الذمة . ففي سنة ٣٩٥ هـ أصدر أمره للنصارى واليهود بلبس الغيار وتشدد الزنار ، ولبس العمام السود . وفي سنة ٣٩٩ هـ أمر بهدم بعض كنائس القاهرة ونهب ما فيها ، وصدر مرسوم خاص بهدم كنيسة القيامة (قامة) في بيت المقدس ، ودينغ هذا المرسوم بالمعجزة الموحدة الآية ، خرج أمر الامامة بهدم قامة ، فأجعل سماها ارضاً وطولها عرضاً ، وأعيد بناؤها في عهد المستنصر بالله الفاطمي . وأمر الحاكم بإلغاء الاعياد النصرانية ، كعيد الصليب والغطاس وعيد الشرب ، وابطلت رسومها واحتفالانها في جميع أنحاء المملكة . وألغيت جميع الاوقاف المردودة على الكنائس والامديار بأعمال مصر ، وحنيت الى الديوان ، وحرم ضرب التواقيس في جميع أعمال مصر وأمر بترغ الصليبان الظاهرة في أراج الكنائس ، وأن يعطي النصارى الصليب من أيديهم وسواعدهم .

وحرم على النصارى واليهود ركوب الخيل ، وأن يكون ركوبهم الخيل والبغال يبرج من الخشب ، وسيور سود تاطلة من كل حلية ، وإلا يستخدموا مسلماً أو يقتلوا عبداً مسلماً أو جارية مسلمة ، وأفردت لهم حمامات خاصة ، علقت الصليبان على حمامات النصارى ، وقرامي الخشب على حمامات اليهود . وأنشئ لليهود حي خاص حتى لا يختلطوا بالمسلمين . وزرع سائر المتصرفين والكتاب الدمين من وظائفهم ، وكانوا جمهرة كبيرة ، وعانى أهل الذمة في عصر الحاكم أشد الخن مما لم يجر مثله في أي عصر من العصور الإسلامية .

واضطهد الحاكم أهل السنة من المسلمين وأمر بسب السلف من الصحابة (أبي بكر ، وعمر ،

وعثمان ، وعائشة ، ومعاوية وغيرهم) ثم تراجع عن أمره سنة ٣٧ هـ بسبب قيام الفتنة عليه ، وصدر أمره جديد بالترحم على الدلائل واستمرت الحال على ذلك حتى اواخر الدولة الفاطمية .
وفي سنة ٤٠٠ هـ صدر سجل (مرسوم) بالقضاء الزكاة والنجوى ، وتنسب اليه تصرفات متناقضة في أمر الصلاة والحج والصوم ، وقيل انه شرع في إلغائها أو أنه إلغاه بالفعل . والفى صلاة الجمعة الرسمية في رمضان ، وصلاة العيدين ، والفى الحج وابطال الكسوة النبوية غير مرة . والروايات تحمل هذه التصرفات على أنها انحراف من الحاكم عن الاسلام وجنوح الى الدعوة الخلافية التي أدانها الدعاء السريون وبشروا فيها بالوهيته .

مفتاً الدرزي

ظهر بمدينة القاهرة في ابتداء سنة ٤٠٨ هـ رجل يدعى حمزة بن علي بن احمد الزوزني ، من بلاد فارس من مقاطعة زوزن ويعرف بالبلاد - لانه كان يشتغل بصنع القناديل . وانتظم بين الدعاء الذين كانت تغص بهم الماسحة الفاطمية يومئذ ، ودعا الى الوهية الحاكم وبوجوب عبادته ، وقال بالناسخ في الاماني وبالخلول ، وزعم أن الحاكم ليس بشراً ، وانما هو رمز حل فيه الاله ، وكان يجلس في مسجد ريدان في القاهرة ، فاجتمع اليه طائفة كبيرة من غلاة الشيعة الاسماعيلية ، وتلقب بهادي المستجيبين ولقب الحاكم « قائم الزمان » وكثر جمعه وداع أمره ، وكان الحاكم يشجعه ويرعاه ، وبعث اليه والى اتباعه الدلائل والمال ليدافعوا عن أنفسهم وقت الحاجة من أهل السنة ، وانتشر امر حمزة وقوي نفوذه ، واتخذ له بطانة قوية من الدعاء والرسول ، ومن جعلهم « محمد بن اسماعيل الدرزي » الذي انتسب اليه الدروز ، وكان يسير على طريقة حمزة في الدعوة الى الناسخ والخلول ، وزعم أن روح آدم قد انتقلت الى علي بن أبي طالب ، ثم انتقلت روح علي الى الحاكم مدفوعة سلالته ، وشرح الدرزي دعوته واسمونه مذهب في رسالة قدمها الى الحاكم ، فقربه وأغدى عليه عطفه ورعايته ، وارتفعت لديه منزلته واشدد نفوذه حتى غدا ملاك الكبراء وسفيرهم لديه في قضاء مطالبهم ورغباتهم . الا أن العامة والجند ثاروا عليه واحاطوا بداره ، فقال لهم أصحاب الدرزي من داخلها ثم فر الدرزي ناجياً بنفسه واتجأ الى قصر الحاكم ، وهدم العامة والجند داره ، ونهبوا ما فيها ، وقتلوا عدداً كبيراً من أصحابه ، وطالبوا الحاكم بتسليمه ووعدهم الحاكم بالاجابة الى مطالبهم ، ولما غادوا في اليوم الثاني قيل لهم أن الدرزي قد قتل ، والمرجح أن الدرزي لم يقتل ولكنه استتر في النهر أياماً حتى هدأت الفتنة ، وهرب الى الشام وشرع مذهب فيها .

زهبة الحاكم

زاد طفيان الحاكم وبلاؤه على الناس غفقت أخوته بنت الملك ضياع الخلافة من البيت الفاطمي ، وأمرت عليه مع سيف الدولة الحسين بن دواس زعيم قبيلة كتامة ، وبرزت مقتله ، وكان ذلك ليلة الاثنين في ٢٧ شوال سنة ٤١١ هـ . وعندما انتشر خبر اختفائه خرج الناس للبحث عنه ، فوجدوا في أعلى الجبل حماره معرقاً (مقطوع القوائم) وعثروا على مسافة قصيرة منه على ثيابه وفيها أثر طفيان ، فاقضوا بهلاكه ، وبذلك ختمت حياة الحاكم وختم معها دور مجد الخلافة الفاطمية .

٣ - دور الومخطاط

٤١١ - ٥٦٧ هـ أو ١٠٢٠ - ١١٧١ م

حكم في هذا الدور ثمانية خلفاء وهم : الظاهر ، والمستنصر ، والمستعلي ، والأمير ، والحافظ ، والطاهر ، والفائز ، والعاذر . ومنذ أواخر عهد الحاكم بدأت شمس الخلافة الفاطمية تميل نحو القروب وذلك بسبب تصرفاته الشاذة ونقمة الأهالي عليه ، وقيام المنازعات بين جنده من المغاربة والأتراك من جهة والنوذج من جهة أخرى . وانتقلت السلطة الفعلية في هذا الدور من الخلفاء إلى أعوانهم الوزراء والقواد أمثال بدر الجاني وابنه الملك الأفضل وطلائع بن زرباك وكاظم من أصل أرمني وغير هؤلاء كثيرين الذين استبدوا بالامر ، وصاروا يتلاعبون بمقدارات الدولة حسب أهوائهم . وتفاقم الخطب بحق الصليبيين لبلاد الشام ، وتطلعتهم للاستيلاء على مصر . وما سبب هذه الاضطرابات كلها من خلا ، وابنة بسبب الخنافس ماء النيل وسوء إدارة الخلفاء الاخيرين مما جعل الخلافة الفاطمية عاجزة عن أن تجابه هذه العوامل كلها فتقوضت أركانها وتهدم صرحها وقلم على أنقاضها الدولة الأيوبية .

القسم الرابع

أوروبا - والحروب الصليبية

30

مكتبة المجلد - المجلد

الباب السابع

حالة أوروبا في زمن الحضرة العباسية

بعد أن صورنا الحياة العربية في العصر العباسي تأتي على ذكر حياة أوروبا. يتجاوز في نفس هذا العصر ، ليكون لدى الطالب صورة واضحة عن حالة الشرق والغرب في زمن واحد ، فيستطيع أن يقاوم بنفسه ما كان عليه أجداده في الغابر من خطارة ومدنية ، وما كانت عليه أوروبا من اضطراب وجبل. ثم يبين بنفسه الأسباب التي قضت على المدنية العربية والإسلامية وذلك بسبب انقسامهم إلى دويلات وشيع وما وصلوا إليه من المحطاة الأخلاق والتفسيق وما وقع به خلفاؤهم من اخطاء وهناء في الوقت الذي كانت فيه شعوب أوروبا تستعد للخلاص من حياتها المظلمة وتنبؤ حياة متحضرة جديدة .

وسيكون هذا البحث مقدمة للتزاع الذي حصل بين الشرق والغرب فأطفا مصباح النور في آسيا ، وألهم مشعل الحضارة في أوروبا. هذا النزاع الذي ندعوه بالحروب الصليبية والذي لا يمكن أن يفهم ويدرس بدون الاطلاع على شروط الحياة التي كانت تحياها أوروبا ، والظروف التي خرجت منها الحملات الصليبية ، لذلك بالإضافة لما قدمناه عن حالة أوروبا في زمن الامويين تأتي على ذكر حالة أوروبا في زمن العباسيين لهذا الجو المناسب لدراسة الصليبيين .

الفصل الأول

الدولة الطارئة ونجدة وشارلمان

شارل مارتل والنجيبان القصير تُمر على الدولة الفرنجية حاكمي غيلان هما شارل مارتل الملقب بالمطرقة ، وابنه بيان القصير ، وهما اذان مبدأ الطريق لتأسيس امبراطورية شارلمان توسعة ، ان الصعوبات التي واجهها شارل مارتل في حكمه هي نفسها بالنسبة الى جميع حكام اوربا الغربية لمدة عدة قرون . وهي قدرتهم على فرض سلطتهم على جميع اقسام بلادهم بالرغم من الامراء الخلفاء من الاغنياء . ورجال الدين والكيان القوي يتوق ضعف الحكم او الشكوك ليمثلوا انفسهم في مقاطعاتهم أو مناطق نفوذهم فقد قدم شارل مارتل بعدة حملات موفقة حارب فيها امير اكيثانيا وبافاريا ، والمائرا الذين حاولوا الانفصال عن ملكه ، فتجسكن من الخضايع والطرقة على الاعتراف بسيادته عليهم .

لم يكن الكهنة وكيان رجال الدين أقل ازعاجاً لحاجب القصر شارل مارتل من الامراء والنبلاء الذين كانوا يحاولون الانفصال عنه ، بالرغم من انه احتفظ لنفسه بحق انتخاب الكهنة من الذين يملكون اية ، ومتع الناس ورجال الدين من انتخاب من يريدون كما تنص عليه قوانين الكنيسة ومع ذلك مايكاد لولا تلك الكهنة الذين يتخبطهم شارل مارتل من ان يشعروا براحتهم حتى يحاولوا الانفصال عن الدولة الفرنجية . لان ثبات الكهنة لم تمكن انهم لاسيما القرن ثم من أصل شريف من ان يتابعوا المحالهم الحزبية والصيد والاهو كما كانوا عليه سابقاً .

وقد حارب شارل مارتل العرب في شتور الواقعة على شفاف نهر اللوار في فرنسا سنة ٧٣٢م وتمكن من الانتصار عليهم .

وعين شارل مارتل قبل وفاته سنة ٧٤٦م ولديه بيان Hèppin وكارلمان Carloman في منصبه وهو حاجب القصر Mayor of the Palace فانتقلت السلطة اليهما وترك الملك على عرشه دون ان يكون له اي تدخل في الحكم . ويقول مؤرخو ذلك العصر : بان الملكا كني بلقب الملك ويشعره المسك ، ولحيته الطويلة ، وكان يجلس على العرش ويمثل دور الحاكم ، ويسمع الى السفراء الذين يأتون من جميع الخرات ، ويعطيهم الأجوبة التي كانت تلقها كأنها من عنده ، وبأرادته ، وبالخفية لم يكن له شيء سوى الاسم الملكي والرائب الذي يستجديه من حاجب القصر ، وهذا

ما يشبه حالة الخلفاء العباسيين في زمن ضعف دولهم . ولكن إذا شاول من القضاء على كل معارضة وقت لها السيادة . ومن قريب ما حصل لثقي كارل مان لا سيه من حقه بالحكم وإرثه لثبات الرعية وحملت المملكة الفرنكية كلها بيد بيدان الذي جعلها بحزم وقوة . وفقت المملكة الفرنكية مرتين غادتين وحما سنة ٧٥٩ و ٧٥٠ م .

البابا وبيان

وجد بيدان نفسه قوياً فأراد التخلص من الملك الشكلي الذي لم يكن بيده شيء من السيادة وأخذ لنفسه لقب الملكي . لذلك عزم على الاستعانة بالكنيسة . فوصل إلى البابا يداله : هل من المناسب أن يكون أفراد السيادة البرونجية ملوكاً . وأيس بيده من زعماء السيادة أي : فاجابه البابا : من الأفضل أن يسمى ملكاً من بيده السيادة . فعلم بيدان نفسه سنة ٧٥٩ أول ملك من ملوك الأسرة الكارولنجية . تلك الأسرة التي كانت تحكم الدولة الفرنكية باسم الملوك الميم وفنيجيين من أمدايبيد .

إن اشتراك البابا في تسمية بيدان ملكاً على الدولة الفرنكية بدلت نظرية : الحق الملكي . لأن البابا صرح : أن غضب الله وانتقامه يقع على كل من يحاول أن يحل محل سيادة بيدان المقدسة . فصبح نظرياً : على الأقل : واجب ديني إطاعة الملك . لأن الكنيسة أصبحت تتبوء محل الآله على الأرض . يستمد سلطته منه . فكان ثورة عليه هي خطيئة دينية . بينما كان الملك ولا يزال عند الحرم من معتبرا كقائه حربي منتخب من الشعب . أو على الأقل منتخب من الطبقة الأرستقراطية فيه . إن وجود بيدان على عرش المملكة الفرنكية بمصادقة البابا . حسن العلاقة بين قوتين كبيرتين في الغرب وهما : الكنيسة والدولة الفرنكية . ونج عنه التآلف بين الطرفين . وكان هذا حاداً عظيماً في تاريخ أوروبا .

وذلك لأن الباباوات كانوا سابقاً ينظرون إلى البطريرك القسطنطينية في الشرق ككامين لهم . لأنهم كانوا يساعدونهم في رد هجمات الفياردين الفاطميين في شمالي إيطاليا الكيلا يستولوا على روما . وفي سنة ٧٢٥ م نشر الإمبراطور ليو الثالث I. III مرسوماً حرم فيه وضع صور المسيح والتدوين في الكنائس وأمر بطمس ما كان مصوراً منها على جدران الكنائس في جميع أنحاء مملكته . لأن المسلمين حكّموا بالتدوين هذه الصور وعبرونها وحرقوا إلى الوثنية . فثار المعارضة في وجه الإمبراطور في كل مكان . وبصورة خاصة في الغرب . ومنع البابا إطاعة هذا المرسوم . لأنه ليس للإمبراطور التدخل في مقدسات الكنيسة . وهذا ما دعا إلى تقسام الكنيسة المسيحية إلى شرقية وغربية . وظلت الصور المقدسة محترمة في الكنائس الغربية .

وبالرغم من هذا الانقسام ظل البابوات يتأملون مساعدة امبراطور القسطنطينية ليصرم على
 المعباردين حتى هدد استولف Aistulf مدينة روما وحاول جعل ايطاليا مملكة واحدة عاصمتها روما.
 وان ينقل السياسة من البيزنطيين اليه. لكن البابا ابي أن يصبح تابعاً لملك المعباردين وان ينخر استقلاله
 وبذلك حرم ايطاليا من ان تصبح دولة موحدة ، كما انهم حرروا ايطاليا من توحيد هابعد ذلك أكثر
 من ألف سنة الى ان تم ذلك في زمن فيكتور عمانوئيل . وعلى اثر تهديد استولف لمدينة روما طلب
 البابا المعونة من البيزنطيين فغيروا مذهبهم ، فاجتاز جبال الالب ملتحجاً الى رومان ، فاستقبله استقبالاً
 عظيماً ، وعاد معه الى ايطاليا وانقذ روما من المعباردين سنة ٧٥٤ م . وما كاد يبان يقطع جبال
 الالب عائداً الى بلاده ، حتى عاد ملك المعباردين وحاصر روما من جديد ، فكتب البابا اليه يطلب
 معونته ، فعاد بحملة ثانية الى ايطاليا والخضع المعباردين وحاصر روما من جديد ، فكتب البابا اليه يطلب
 معونته ، فعاد بحملة ثانية الى ايطاليا والخضع المعباردين ، وضم املاكهم الى البابا فتوسعت مملكته
 في شبه الجزيرة ، وظلت هذه المملكة قائمة حتى منتصف القرن التاسع عشر وتدعى « بمملكة الكنيسة »
 ويمتاز عهد بومان بعدة امور وهي : اولاً قوى نفوذ الملك في الدولة الفرنكية ، مما ساعد على انتشار
 النظام الملكي في اوربا الغربية وهياً ظهور دولة فرنسا ولانانيا . ثانياً بدأ في زمنه تدخل امراء ائمهال
 في شؤون ايطاليا ، وأصبح هذا التدخل خيراً عثرة في وجه ملوك فرنسا ، والمانيافيا بعد . ثالثاً تشكك
 للباباوات مملكة خاضعة بهم ، وهذه المملكة بالرغم من صغر حجمها تعتبر من الدول المهمة في اوربا
 مات بومان سنة ٧٦٨ م بعد ان اعاد الى بلاد الفرنك وحدتها السياسية وترك لابنه شارلمان
 اكمل عمله .

شارلمان

٧٦٨ - ٨١٤ م

صفات شارلمان : يعتبر شارلمان اول شخصية تاريخية من بين الشعوب الجرمانية التي نعرف عنها
 معلومات كافية ، فقد وصفه امين سره بأنه كان : طويل القامة ، قوي البنية ، وجهه مدور وعينه
 واسمان وحادتان ، أنفه كبير وعباراته واضحة ومسررة ، وسواء اكان جللاً او واقعاً فلن
 شكه مريباً ، وخطواته ثابتة .

كان شارلمان نشيطاً ، ومهماً بالتهارين الجسمية ، يحسن ركوب الخيل والصيد ولا سيما السباحة
 وقد كانت محنته جيدة ، وجسمه قوياً ، وهذا ما يعبر عن سرعته العجيبة التي كان يتنقل بها في
 مملكته الواسعة . فكان يقود الحملات العديدة في مناطق واسعة وبصورة مستمرة .
 كان شارلمان يهتم بالتعليم ويعرف كيف يقدر ويشجع رجال العلم . فكان عند تناول الغذاء

يسمع قراءة الكتب لا سيما التاريخية منها ، فهو بذلك يشبه معاوية الخليفة الأموي الأول .
وكان يحسن قراءة اللغة اللاتينية ، وفهم اليونانية بسهولة . وحاول أن يتعلم الكتابة إلا أنه بدأ
متأخراً ، لذلك لم يحسن إلا كتابة اسمه .

استدعى شارلمان علماء عصره إلى قصره ، واستعاد من معارفهم لتأسيس نظام تعليمي عام في
مملكته ، واهتم أيضاً بالبناء ، والأعمال المعمارية الطاعة ، ليزين مملكته ويصلحها ، وقد وضع نفسه
خلفاً كاتدرائية أكسلاشايل ، وأظهر عبادة فائقة بفرشها ، وأبتدأ بعمارة قصرين أحدهما بقرب
مدينة ميتر Mainz والآخر في هولندا ، وبني جسراً كبيراً على نهر الرين عند مدينة ميتر .

إن الأثر الذي تركه شارلمان في عقول الناس ازداد بمرور الوقت ، فأصبح يعال عصره واستندت
إليه أعمال ومخاطر ليست من الحقيقة التاريخية بشيء ، وظلت قروناً عديدة معتبرة كحقائق ثابتة
فقد كانوا يعتقدون مثلاً أنه حكم ١٢٥ سنة ، واستندت إليه وإلى فرسانه أعظم الأعمال الخيرية ،
حتى قيل أنه قاد حملة صليبية ، وقبل في جميع ذلك قصائد وملاحم كلها خرافات لا تستند إلى التاريخ بشيء .
إن دراسة حكم شارلمان تبرهن على أنه كان ملئاً عقلاً ، ومن الشخصيات الملمعة في تاريخ
العالم ، فقد طبع القرون الوسطى بطابعه الخاص ، وبمصر من الرجال الأقلاء الذين أثروا تأثيراً عميقاً
في تأثير تقدم حضارة أوروبا ، وقبلها يلي سنذكر أولاً قنوساته ، ثم تنظيماته الإدارية وأخيراً تشجيعه
للعلم والثقافة .

صروب شارلمان الداخلية

اخضاع السكسون : نجح شارلمان في إخضاع الجرمن وجمعهم في دولة مسيحية واحدة ، وقد
تمكن والدانيان من إخضاع قسم صغير من بلاد الجرمن بالحرب ، كما أن الإرساليات الدينية
تمكنت بعد جهود عظيمة من تنصير قسم آخر وضمهم إلى المملكة الفرنكية . وبقيت الشعوب السكونية
على وثنيها واستقلالها كما كانت عليه في زمن الرومان قبل سبعة قرون .

كانت شعوب السكسون تحتل المناطق الواقعة شرق مدينة كولون Cologne ، وتمتد أراضيها
حتى نهر الإلب Elbe ، وفي الشمال تصل حتى الموقع الحالي لمدينتي برلين Bremen وهامبورغ
ولا شك أن تقع مملكة ساكسونيا الحالية ضمن حدودها . ولم يكن عند الشعوب السكونية طرق
معبدة ولا مدن معبرة ، وكان من الصعب إخضاعهم لأنهم كانوا يتقربون إلى أباكنهم في الغابات
والمستنقعات عند تقدم الكفافة بأنفسهم في مقابلة عدوهم في ساحة القتال . لذلك ظلوا يهددون
المملكة الفرنكية بصورة دائمة ، وكان إخضاعهم لساعاتهم الأمور الرئيسية وقد اهتم شارلمان في هذا

السبيل كثيرًا ، وسرفه جهولًا جيلة خلال عدة سنوات من أجل ذلك فاضع ثورتهم تسع
مرات متواليات ، وكان نجاحه الأخير بسبب الكنيسة لا بسبب قوته الحربية ، ولا نجد مثلاً أبرز من
هذا حتى تأخير الكنيسة في القرون الوسطى ، وكان شارلمان بعد انتصاح السكسون بفرض عليهم
احترام الكنيسة ، ويجبرهم على المدحول في دينها قبل أن يفرض عليهم خضوعهم لنفسه
ومواليتهم لسلطانه .

وكان بهم إنشاء كنائس وأديرة ، كما بهم بناء القلاع والحصون ، وكان القانون الذي يشرعونه
سنة ٧٧٥ و ٧٩٠ بعد فتحه بلاد الساكسون هو أن حكم الاعدام ينفذ في كل من لا يكون
موالياً له ملك ، وكل من بقي على وثليته ولا يتنصر .

وكان شارلمان يعتقد بأن نصير السكسون وحماية الكنيسة من أمر واجباته لذلك فشرع أمراً
قال فيه : أن من يدخل الكنيسة بالقوة أو يأخذ منها شيئاً يحكم عليه بالموت . ومن يعبد شجرة
أو نبع ماء أو لا يقدم ابنه للتمتع قبل أن يبلغ العلم من عمره يعاقب بدفع مبلغ كبير على المال .
وفرض على كل مقاطعة أن تقدم للكنيسة التي فيها ثلاثمائة فدان من الأرض ودار كهنة . وعلى
كل فرد في المقاطعة سواء كان حراً أو عبداً أن يقدم عشر ما يحصل عليه من عمله إلى الكنيسة
ورجلها ، وذلك ليرد إلى الله جزءاً مما أعطاه إياه . وعلى أزر هذه الأوامر التي أصدرها شارلمان
قويت العلاقات بين الكنيسة والدولة وخلقنا تعاوناً في حكم وإدارة الشعوب التي انضمها إلى القرون
الوسطى . وبالرغم من أن أمر الكنيسة كانت تتعارض أحياناً مع مصلحة الحكومة أو بالعكس
لم يدخل في عقل أي رجل من رجال الحكومة أو الكنيسة أمكان استغناء بعضهم عن بعض . ولم
يكن ليحكم الشعب بالمكن وجود أحدهما بدون الآخر .

وقبل غزو شارلمان لبلاد السكسون لم يكن فيها مدن . إلا أنه نشأ حول كل كنيسة بعض
البيوت التي أصبحت فيما بعد مدناً أو موانئ مهمة .

احضاع اللومباردين : قلنا سابقاً أن البابا من خصومه اللومباردين ، وعندما رأى ملك
اللومباردين الشغال شارلمان في الحضاع قبائل الجرمن اكتسب الفرصة للاستيلاء على روما فاستنجد
إليها بشارلمان الذي كان مستعداً لانتقام وعود إليه . فأمر ملك اللومباردين بإرجاع المدن التي أخذها
من البابا . وعندما رفض ذلك اجتاع شارلمان لبارديا سنة ٧٧٣ م بحيش كبير واستولى على عاصمتها
بافيا Ravenna بعد حصار طويل . وأجبر ملك اللومباردين أن يصبح كاهناً ، ووضع لرونة على جنده
وفي سنة ٧٧٤ أجبر شارلمان جميع أمراء لبارديا أن يعتبروه ملكاً عليهم .

إخضاع امبري اكينانيا وبافريا : لقد تم ضم مقاطعة اكينانيا إلى المملكة الفرنكية سنة ٧٦٩ م

كما انه اخضع امير بافاريا وسجنه في دير . وقدم مملكته بين رجاله ، وبذلك تم له تأمين حدود مملكته من جميع الجهات .

مروء شارلمان الخارجية

بعد ان وطد شارلمان حكمه في داخل امبراطوريته واخضع قبائل الجرمن بمساهماتهم القويمة لروم ادين بشي عليه ان يوسع مملكته ويخضع الصقالية Slavs في الشرق الذين كانوا يسكنون تلك بولونيا ، وبوهيميا ، وروسيا وان يحارب العرب في اسبانيا ليعفظ مملكته من طرفهم ويوسع نفوذه من جهة السلافين .

عاربة الصقالية : Lituans جهز شارلمان سنة ٧٨٩ م حملة على الصقالية واليوهميين واجبرهم على الاعتراف بسلطته ، وان يدفعوا ضريبة سنوية له ، كما انه بنى قلاعاً على الحدود الشرقية وضع فيها حاميات عسكرية لتحمي حدود مملكته من هجمات القبائل الغير جرمانية . ولتفتح هذه القبائل من التسرب لداخل مملكته . الا ان بعض قواد هذه الحاميات استقل فيما بعد في مناطقه ، وانفصل عن الدولة الفرنكية .

محاربة العرب في اسبانيا : كان يحكم بلاد الاندلس الامير الاموي عبد الرحمن الداخل ، تثار عليه بعض امراء العرب ، وفواد البربر ، منهم : سليمان بن يقطان العراقي أمير برشلونة ، وعبد الرحمن بن حبيب الفهري ، وأبو الاسود بن يوسف الذي كان عبد الرحمن قد حكم عليه بالسجن المؤبد ، وتمكن من الهرب . والتجأ هؤلاء الثلاثة الى شارلمان سنة ٧٧٧ م وكان مجتمعاً مع كبار رجاله بمجلسه الاعلى الذي كان يعقده في ربيع كل سنة للتداول في شؤون الدولة واتقوا معه بان يساعدهم بقوة كبيرة للقضاء على عبد الرحمن الداخل . وما لبث ان توار عبد الرحمن بن حبيب الفهري بقوة من البربر ، واحتل مدينة « نديمير » مظبراً الدعوة للعباسيين . وطلب من سليمان بن يقطان اعلان عصيانه في برشلونة ، الا ان سليمان وجد ان الوقت لم يحن بعد ، لان شارلمان لم يبرح جبال البيرنة بعد ، فاعتقد الفهري ان ابن يقطان قد عمد الى الحماية ، وسار اليه بحيوشه وحاربه ، وكان نصيبه الفشل . وفيها هو عائد الى نديمير اغتاله احد البرابرة الذين طعمهم عبد الرحمن الاموي بالمال ، وبذلك أخذت روح المقاومة .

عبر شارلمان مجاز البيرنة الى بلاد الاندلس واستولى على بلاد البشكنس وكثير من المدن في طريقه الى سرقسطة ، وما ان انتشر خبر قدومه فيها حتى تارث نفوس اهل تلك المدينة ، ومنعوه من الدخول اليها ، وفي اثناء حصارها وصله خبر انتفاض وتيسكند Wulkind زعيم الساكنون عليه

وعودته الى الثورة. فانظار شارلمان للمودة الى بلاده. وفي أثناء احتيازه ممالك البيزنطية العسيرة مرة
في مجازة رونسوفو، الضيق فقطع عليه رجال الشكس الطريق وكانوا قد كمنوا له في المناور
واشكوف، وبين الصخور والغابات. ولما بلغ مكاناً منخفضاً تحيط به الجبال انقضوا على مؤخرته،
وقضوا عليه. وكان من جملة من قتلوا في هذه الواقعة « رولان » أمير مقاطعة روتانيا وغيره من
كبار فواد شارلمان. وقد أثار هذه الحادثة نفوس كثير من الضعفاء. وكانت موضعاً « لأغنية
رولان » الشهيرة.

تنويع شارلمان الإمبراطور

بعد أن توسع مملكة شارلمان في أوروبا الغربية والوسطى، وبلغت أقصى حدودها سنة ٨٠٠
كانت لقب شارلمان وهو ملك الدولة الفرنكية وبلاد العبارد لا يدل على حقيقة سلطانه، وفي سنة
٨٠٠ ذهب شارلمان ليحل الخلاف القائم بين البابا ليو الثالث Leo III وخصومه، وحكم البابا
ولاشعار هذا الحكم عقد البابا في يوم عيد الميلاد احتفالاً دينياً في كنيسة القديس بطرس - عصره
شارلمان. وعندما ركع شارلمان أمام المذبح أثناء القداس اقترب البابا منه ووضع على رأسه التاج
وسلم عليه أمام الحاضرين، بإمبراطور الرومان، وكانت سبب هذا العمل الغريب الذي أدهش
شارلمان يعود الى الأمور التالية:

أولاً: إلى انقطاع لقب إمبراطور في الدولة الرومانية الغربية.
ثانياً: إلى أن الإمبراطورية الشرقية كان يحكمها امرأة ضعيفة تدعى إيريني Irene خلعت ابنها
الصغير قسطنطين السادس، وفقدت عينيها وأخذت منه الحكم.
ثالثاً: إلى أن الكنيسة الغربية كانت تعتبر الإمبراطور الشرقيين حراقة، لأنهم حرّموا وضع
صور القديسين في الكنيسة.

رابعاً: لم يكن تنويع شارلمان إمبراطوراً إلا ثباتاً لوضع سياسي حصل في بلاد الغرب بعد
فتوحات شارلمان الواسعة.

وقد اعتبر العالم المسيحي آنذاك أن مملكة شارلمان ما هي إلا تاج مملكة الإمبراطورية الرومانية
التي أسسها أغسطس. وأن شارلمان ما هو إلا خلف الإمبراطور قسطنطين السادس الذي خلعه
إيريني. ومع ذلك فلما نجد بين إمبراطورية شارلمان وبقية الإمبراطورية الرومان القروفي الثانية:
أولاً: ظل الإمبراطور الشرقيون يحكمون في القسطنطينية عدة قرون غير متعبرين بحكم
شارلمان ومن خلفه.

ثانياً: كان خلفاء شارلمان الذين أسسوا التاج الإمبراطوري همما لدرجة أنهم لم يتمكنوا من

حكم المساليا وشملي إيطاليا حكماً قوطياً ، عدى عن بقية المناطق في اوروبا الغربية .
ومع ذلك فقد ظلت المملكة الغربية التي سميت في القرن الثاني عشر « الامبراطورية الرومانية
القدسية » نحو المئتين سنة إلى ان تنازل آخر امبراطور سنة ١٨٠٦ عن لقبه الى نابليون بونابرت
الذي سمى نفسه خليفة شارلمان !
وقد اتعب لقب « امبراطور » حكماء الجرمن وجلب لهم مشاكل كبيرة ويعود ذلك الى
الاسباب الآتية :

اولاً : اضطرهم ان يحتفظوا بسلطتهم على ايطاليا التي كانت خارجة عن نطاق حدودهم الطبيعية .
ثانياً : ان الظروف التي توج فيها شارلمان حملت التباينات بدتتكون فيما بعد بأنهم هم الذين نقلوا
اللقب الامبراطوري الى العائلة السكاروبنجية ، واخذوه من سلالة الابطار الشرقية ، ولذا فلم
الحق ان يتصرفوا بالتاج كما يشاؤون ، مما اضطر كثير من الابطار ان يتخلوا عن مشارق السفر الى
روما . وسبب ذلك كثيراً من الخلافات بين رؤساء السلطة الروحية والزمنية .

ادارة شارلمان وتنظيماته

ان ادارة امبراطورية واسعة كامبراطورية شارلمان يعتبر من الاعمال الشاقة التي اتعبت شارلمان
واغبيوت خلقائه من بعده . فالمصوبات التي واجهها هي نفسها التي كانت تعرض من تقدمه ، وهي قلة
واردادات الدولة ، واتصال بعض الامراء الاقوياء والسلطان عند . الا ان كفاءة شارلمان في الحكم
تظهر في إخضاع جميع الامراء في مملكته الى سلطته ، واجبارهم على موالاته .

وكان دخله - كبقية حكم القرون الوسطى - يأتي خاصة من اراضيهِ . فلم يكن لديه نظام
فرض ضرائب عامة كما كانت عليه الدولة الرومانية . فكان همه ان يزرع جميع اراضيهِ وأن يستغلها
على ان لا يضع عليه من حاد الاثماً شيئاً .

وكان شارلمان يعتمد بصورة خاصة على الامراء الذين كانوا يدومون الملك ، وعند ما لا يمكنه
أن يكون موجوداً بنفسه . فكان عليهم حفظ النظام وتحريك العدل في مقاطعاتهم ، ونهضة الجند
لمساعدة الملك عند الزوم .

وليتحدثي شارلمان من امانة الامراء التابعين له كان يرسل « مفتشين » لجميع الجهات ليراقبوا
اوتتلك الامراء ويرسلوا تقارير الى « صحة الدولة » اكس لا شابل » عن حالة المقاطعات وكيف
تجري الامور فيها . وكان يرسل مفتشين معاً ، أحدهما من رجل الدين ، والآخر من الموظفين
المدينين ليراقب احدهما الآخر ، وكانت المفتشون يدلون جهاتهم في كل سنة لكيلا يتفقوا مع
الامراء الذين يغشونهم .

ان احياء الامبراطورية الرومانية في الغرب على يد شارلمان لم يغير في نظام الحكم شيئاً سوى أنه طلب من كل فرد بلغ الثانية عشرة من عمره أن يتقسم بين اولاد الامبراطور ، وكان بمقدار جماعات سنوية في كل ربيع او صيف يحضرها الاشراف ورجال الدين ليتذكروا في قضايا الدولة الرئيسية وقد نمر بمساعدة مستشارية مجموعة قوانين مهمة حفظ بعضها حتى الآن . وكان يتذكر مع رجال الدين عن حاجات الكنيسة ، وبصورة خاصة عن طريقة تحسين التعليم في المدارس ، ونشر المعارف بين رجال الدين والشعب على السواء . وكان له فضل كبير في نشر العلم في اوروبا . كانت الجندية إجبارية فكل فرد كان مجبر على الخدمة في الجيش ، وبالحقيقة لم يكن يشترك بصورة فعلية إلا النبلاء ، والاشراف أصحاب الاملاك الواسعة لان الخندي كان مجبراً على تقديم جميع ثقاته التي تلزمه في الحرب .

الانحطاط شارلمان بالتعليم

إن العصر الذي سبق مجي شارلمان يعتبر من أظلم العصور التي مرت على اوروبا ، بسبب افقار الجبل وفقدان الورق الذي كان يأتي من مصر . والقليل من الوثائق التي وصلتنا تظهر مقدار الجهل والامهال في تلك الايام . وكانت الكنيسة هي الامل الوحيد في إطفاء بعض المعارف النديمة . وذلك لان لغتها الرسمية التي تتواصل بها كانت اللغة اللاتينية . وكان الكهنة مصطربين لحفظ بعض المقاطع اللاتينية من الكتاب المقدس لتلاوتها أثناء الصلوات . ولذلك كان من الواجب عليهم تعلم اللغة اللاتينية مما كانت الجنسية التي ينسبون اليها ، فيقوموا بالخدمة المفروضة عليهم .

وعندما جاء شارلمان لاحظ إهمال التعليم حتى عند رجال الدين أنفسهم وقال : « ان التعليم قد تدهور تماماً وذلك بسبب إهمال اجدادنا . » وكان يرى أن من واجبات الكنيسة ان لا تنفك موظفيها حسب ، بل أن تنشر التعليم الابتدائي على الأقل بين جميع طبقات الشعب ، ولذلك نشر سنة ٧٨٩ برافاً إلى رجال الدين يطلب منهم ان يجتمعوا اولاد الاحرار والعبيد في مناطقهم وان يؤسسوا مدارس ، يعلمون فيها القراءة ، ومن الصعب معرفة عدد المدارس التي اسسها رجال الدين على اثر هذا البيان ، الا أنه من المؤكد أن كثيراً من مراكز التعليم نشأت في نور ، واورثان وغيرها من المدن . وقد شجع شارلمان التعليم بتأسيسه ومدرسة القصر ، الشهيرة لتعليم اولاده وأولاد النبلاء ، جلب اليها معلمين قديرين من ايطاليا وغيرها . كما أنه حرص على نقل الكتب . وحذر من الاخطار التي يترتبها التسامح ، وطلب أن لا يسل العمل الا لتساع قديرين . ولم يهتم شارلمان باحياء المعارف ، اليونانية والرومانية ولكنه اكنى بحض الناس على تعلم اللغة اللاتينية ليتسكنوا من قراءة الكتاب المقدس بدون خطأ . ان جهود شارلمان لنشر التعليم كانت فاشلة ، والنتائج التي حققها كانت ضئيلة ، لانه انقسام الامبراطورية بعد موته ، والتزاوج بين اولاده ، وهجوم قبائل بربرية على مملكته ، والفوضى التي

سببها الامراء الاقطاعيون جعل عمل شارلمان في نشر التمايم يتأخر على الاقل مئتين سنة ، ليعاين
من جديد بصورة ضئيلة في اواخر القرن العاشر وابتداء القرن الحادي عشر ، ومع ذلك فن انقضى
والجيل لم يظهر مرة ثانية بعد شارلمان مثلما كانا قبل مجيئه .

ازدهار الامبراطورية الفرنكية في عهد شارلمان

كان من نتائج حسن ادارة شارلمان أن بدأ الرقي يظهر في الامبراطورية الفرنكية ، فازدهرت
الصناعة ، والتجارة ، وانشئت مدن جديدة ، واصلحت المدن القديمة . واتصل بعضها ببعض بطرق
معبدة ، وحفرت أنفاقية مائية للحسين الزراعة وبنيت أسوار عالية حول المدن لتحصيها من الغارات عليها ،
وأحييت بخنادق عميقة ، إلا أن هذه الأسوار منعت المدن من التوسع ، لأنها كانت غير مسموح
بالبناء خارج المدن . ولما ازداد عدد السكان اخذت المنازل ترتفع وتعمد طبقاتها ، وحذفت الساحات
العامة وبني ابنية مكانها . وضائق الطرق ، وتكاثف البناء في المدن حتى تشوه شكلها .
فظم شارلمان العامل لتشجيع الصناعة ، وألغى الرسوم الغير مشروعة التي كان يجبرها الامراء
عند مرور البضائع في مناطق نفوذهم إما عند الجسور أو في الطرقات . كما وضع مراكب مسلحة عند
مصاب الانهار لتحمي الملاحة النهرية .

وقد ذكرنا سابقاً صلته بها رون الرشيد وما قيل عن الهدايا التي نبذت بين الطرفين . وقد
حاول شارلمان الزواج بأروبي ملكة البيرنطين ليضم نفسه تاج الامبراطورية الرومانية الشرقية ، بجميع
الناجين في شخصه ، إلا أن حلمه لم يحقق بسبب خلع نفور لأيريني وسلبيه الناتج منها وخضوعه لشارلمان .
مات شارلمان في عاصمة ملكه أكس لا شابل سنة ٨١٤ وعمره ٧٢ سنة بعد حكم دام ٤٦ سنة .
وقد قسم ملكه في حياته بين اولاده الذين ما نوا قبله وبقي أسفرهم « لويس » الذي ورث مملكة أيريه
الواسعة ، ولقب بالثاني لما كان عليه من الصلاح والتي بسبب تربيته الدينية ، ومعاشرته القديس وقضاء
أكثر اوقاته بالصلاة ، وهذا ما جعله غير صالح لادارة المملكة حتى ولا تدبير أمور نفسه .

قسم لويس التي ملكه بين اولاده في حياته ، وأختلف معهم . وبعد موته اختلفوا فيما بينهم ،
والخيراً انفقوا في عقد معاهدة فيردان Verdun سنة ٨٤٣ التي اكتسبت اسماً في التاريخ أكثر مما
تستحقه . لأنها كانت في الحقيقة عبارة عن « فاصلة ورق » بين الانقسام العام الذي آلت اليه
امبراطورية شارلمان . وكان هذا التقسيم الذي نصت عليه المعاهدة كما يلي :

اولاً : مملكة لويس الجرمانى : وتضم القسم الشرقي من الامبراطورية والذي أصبح فيما

بعد — المانيا .

ثانياً : مملكة شارل الاصلح : وتضم القسم الغربي من الامبراطورية والذي يمثل — فرنسا الحالية .

ثالثاً : مملكة لوتر : وهو القسم الاوسط بين المملكتين ، ويمتد من بحر الشمال الى مدينة روما

وكان مع لوثر أيضاً القبط الامبرطوري .

توفي لوثر سنة ١٥٥٠ ففقدت مملكته بين اولاده الثلاثة . وفي سنة ١٥٧٠ توفي اثنان من اولاده فتقسم اعمامها شاك الاملع ولويس الجرمانى املاكها بحسب معاهدة « Mersen » وتزكت ايطاليا إلى الولد الثالث الذي بقي حياً .

كانت النتيجة من هذا التقسيم انه لم تأت سنة ١٥٧٠ الا وانقسم غربي اوربا إلى ثلاثة مناطق أصبحت فيما بعد ثلاثة دول مهمة وهي ألمانيا وفرنسا وايطاليا .

وقد وجدت هذه الاقسام مره ثالثة في زمن شارل الضخم Charles the Fat حفيد شارلمان ولكنه خلع سنة ٨٨٧ بسبب غارة النورمان على بلاده وعادت التجزئة من جديد . واستقلت كل تحت حكم اميرها .

عصر الوسطى

لم يتمكن ائمة ملك بعد شارلمان أن يؤسس دولة قوية واسعة تشبه الدول الكبيرة في الوقت الحاضر ويعود ذلك إلى الاسباب الآتية .

اولاً : كان من المستحيل أن يصل الملك بجميع اقسام مملكته ، فالطرق الرومانية القديمة التي عمرها الرومان قد تخربت ، لعدم وجود مهندسين يشرفون على ترميمها ، وتدمير الجسور الخربة فيها . كما أن الاقسام التي فتحها شارلمان لم تكن الجيوش ولا المانية الرومانية قد دخلتها وكانت الخالة فيها الضعيف لانه لا يوجد حتى آثار الطرق الرومانية الخربة .

ثانياً : كانت العملة قليلة في القرون الوسطى ، وهذا ما منع الملك من استخدام موظفين دائمين يدفعون رواتب لهم ، ويستقيمون بهم على ادارة الدولة . كما كان من المستحيل عليهم تأليف جيش نظامي يستعينون به في إخضاع الامراء الذين كانوا يتفصلون عن الدولة ويحاربونها .

ثالثاً : كانت الامبرطورية تتجزأ بسبب استمرار سيل البرابرة الذين يفترونهم من كل جانب فمن الشمال كانت تأتي الشعوب السكندنافية الذين يدعون « Northmen » ويسمى العرب الجورس — وكانوا بحارة ماهرين يركبون سفناً صغيرة مهاجمون بها شواطئ البحر الشمال ، ويدخلون مصاب الأنهار إلى المدن الداخلية فينبونها ويحرقونها . ومن الشرق كان الجرمن في زراع مستمر مع السلافين ، ثم أتى الهونسلربون (وهم شعوب متوحشة قذفت بهم بلاد آسيا) لينهبوا ويخربوا أواسط ألمانيا وغالي ايطاليا . ومن الجنوب استولى العرب المسلمون على جزيرة صقلية سنة ٨٣٧ وأخذوا يهددون جنوب فرنسا وايطاليا ، حتى انهم حاصروا اوربا . ولم يكن هناك ملك قوي ولا جيش منظم يدفعون هذه الشعوب عن الامبرطورية الفرنكية ، بل كان على كل منطقة أن تحمي نفسها بنفسها . فكان يجمع حول كل أمير جماعة من المحاربين له ويطلبون حمايته وهذا ما يفسر لنا وجود الظلم الاقطاعي .

الفصل الثاني

النظام الإداري والفروسي

مبدأ الاقطاعية : لكي نفهم حالة الامراء الافطحيين في القرون الوسطى ، ونعرف مقدماً الاقطاعية يجب أن نشكك عن حالة الملاكين الكبار في ذلك الوقت . فكان القسم الأكبر من اوريا القريبة في زمن شارلمان مقسم إلى اقطاعات ، يزرعها العبيد المرتبطون بالأرض ، والخصيوت من قبل مالك الاقطاع . فكان العبيد يحرثون الأرض ، ويستخرجون ثمارها لصالح المالك ، ولما لهم دون حاجة إلى مشقة شيء من الخارج .

وعندما شكك عن مالك إقطاع في القرون الوسطى فني به الشخص الذي يملك اقطاعاً أو أكثر يعيش من غلاله دون حاجة لأن يعمل فيه بنفسه ، وإنما يفرغ لمخارة العجائب الاقطاعية الذين يعيشون على طريقته .

وجرت العادة حتى قبل زمن شارلمان أن تعطى الكنائس ، والاديرة وبعض الأشخاص امتيازات خاصة ، تعفى بها أراضيهم من زيارة موظفي الدولة ، فليس هؤلاء الموظفين حتى تتابع الشكاوي أو أخذ الضرائب ، أو النزول في أراضي هؤلاء الأشخاص إذا مروا بقربها ، وليس لهم أن يسألوا أي حاجة وقد حصل هؤلاء الملاك يخلص على هذه الميزات لا ليتصرفوا مع الدولة ، وإنما ليتخلصوا من سوء استغلال موظفيها ، فهم يقومون بشؤونهم الخاصة ككتاب عن الملك ، ويسوا كسفارين عنه ومن السهل أن ننسبك أن هذه الحقيقة كانت تستغل عن الدولة المركزية عندما تشعر بضعفها ، كما كان كابر من الامراء والملاكين غيرهم يفصلون عن الملك أو الاسياد القابضين لهم إذا أتيح لهم ذلك .

كان شارلمان قد اخذ الامراء والاسياد الذين حكموا اقطاعات في دولته من الإشراف والاعيان الذين انحدروا من أسر كبرى . وكان يكافئهم على خدماتهم له بقطاعات جديدة أو تقوية عتده ، مما سبب اشتداد غيبتهم ومحاولهم الأسياد الال عنه ، وكانوا ينقلون إلى مقلعاتهم كانوا ملك خاص لهم ، ويرثونها أبناءهم من بعدهم ، وبما أن شارلمان كان قوياً فقد تمكن من مراقبة هؤلاء الامراء بواسطة مفتشين . ولكن أصبحت هذه الطريقة غير مجدية بعد وفاته لأن أولئك الامراء والاسياد استغلوا عن الدولة .

كان النظام الاقطاعي أمراً طبيعياً في أوروبا الغربية في القرنين التاسع والعاشر ، وكان نتيجة
محنة الاوضاع التي مر ذكرها . ولم يخترع هذا النظام او تكتشف عناصره الرئيسية من أحد ،
ولما تجتمعت تلك العناصر اتت الامم مع ذلك الزمن . وقد حدث مثل هذه الحالة قبيل اجتياح الجوار
للدولة الرومانية ، فكان الفلاحون الصغار يرون مصالحهم ضم اراضيهم الى ملاك قوي يحولهم
ليحتمهم . فكان هذا الملاك الكبير يبق الفلاح الضعيف في أرضه يمدل بهامن غير أجر ، ويعيش فيها
دون أن يكون مالكها . ومثل ذلك كانت يجرى للفلاح الذي يلتجئ الى إحدى الاديرة المجاورة
لتحميه على أن يبقى في أرضه ، وهذه الطريقة كانت الخطوة الاولى في تكوين الاقطاعية .
وحدث نوع آخر من الاقطاعية في اواخر العهد الروماني وهو ان الرجل الحر الذي لم يكن
يملك أرضاً ، ولا يجد عملاً ، يلتجئ الى رجل غني وقوي ، فيقدم له طاعته على ان يطعمه ويحميه
ويصبح مولاه ، فيجب كالمحب سيده ، ويعرض عن كل مالا يريده ، وهذا يشبه ما يحدث بين السيد
والتابع في النظام الاقطاعي .

اذن كانت جذور النظام الاقطاعي قد وجدت قبل مجي شارلمان ، ونمت بالتدرج ، وبصورة
غير منتظمة ، وبدون أي خطة سابقة ، وكلما وجد هذا النظام الجو مساعداً يظهر فيسه لانه نتيجة
طبيعية للفوضى والاضطراب ، ووجود قوي وضعيف .

وقد وجد اصحاب الاملاك الكبيرة في زمن شارلمان من مصالحهم تقسيم اراضيهم بما فيها من
فلاحين وعبيد بين اتباع ضمن شروط معينة : كان يحاربوا معهم ايماً معدودة ، ويخدموا في قصورهم
ويحرسوا قلاعهم ، ويسعفونهم في حالة الضيق . وكان من حق التابع أن يمنح قسماً من حصته الى
تابع آخر بشروط تشبه الشروط التي عقدها مع سيده . كان الاتباع الصغار الذين لا يستطيعون حماية
انفسهم يعطون اراضيهم الى الاسياد الاقوياء المجاورين ، ثم يأخذونها منهم من جديد على انهم اتباع
لهم . وبذلك يكونون (اتباع لسيد) .

وما تقدم تبين أن الاقطاعية في القرون الوسطى كانت تسمى أماه من الأعلى الى الأسفل ،
او من الأسفل الى الأعلى او من الوسط ، وذلك بالمشاكل الآتية .

اولاً أن يقطع الاسياد اراضيهم لمن دونهم .

ثانياً أن يقدم الاتباع الصغار واصحاب الاراضي الصغيرة اراضيهم الى الاسياد الاقوياء المجاورين
او إلى إحدى الرهينات المجاورة ثم يسترجعونها منهم على انهم اتباع لهم .
ثالثاً ان يعطي قسماً من اقطاعهم الى تابع آخر ضمن شروط معينة .

وأصبحت القاعدة في فرنسا في القرن الثالث عشر أنه لا يوجد أرض بدون سيد عليها ، وهذه

في الحالة نفسها تقريباً في أوروبا الغربية في ذلك العصر .
والاقطاع يعني وراثياً في أسرة التابع ويرثه ابنه الأكبر من بعد موته . ولا يصح أن يورثه من بعده ان سار جمعوا الاقطاع بصورة شرعية طالما بقي التابع الوارثه محققين لهم ومنجزين
العود التي قطعوها على أنفسهم . ولا يمكننا ان نعلم الزمن الذي أصبح فيه الاقطاع وراثياً .
ولكن يمكننا ان نقول انه كان كذلك في القرن السادس ميلادي .

وقد عرف الفولك والاسباد الخطر الذي ينتج من توريث الاقطاع . الا ان كل محاولة من قبلهم
ذهبت دون جدوى . لان اولاد التابع عرفوا انهم سيقعون في الفقر المذقع اذا لم يرثوا حصة
أبيهم من الاقطاع . وكانت النتيجة ان لم يبق لدى الاسباد سوى الخدمات والواجبات التي قبلها
التابعون عندما أخذوا الاقطاع . او بمعنى آخر أصبح الاقطاع يخص التابع ولم يبق لسيده من ملكية
الأرض سوى ظلاله .

وفي الوقت الحاضر يمكن للفلاح أن يشتغل أرضه بنفسه أو يؤجرها لغيره معينة من الزمن بغير ربح
ولكن في القرون الوسطى كانت أكثر الأراضي مفضة من أجور أصحابها . كما ان أصحابها
الاسباد لا يستطيعون استخلاصها من التابعين .

وقد استغل التابع الكار الذين أخذوا اقطاعاتهم مباشرة من الملك أو حكامهم وفسدوا الواجب
بين التابع الآخرين . وهؤلاء التابع لا يخضعون أبداً لسلطة الملك . لانهم ليس له علاقة اقطاعية بهم .
لذلك كان ملك فرنسا والمانيما بين القرن التاسع والقرن الثالث عشر لا يحكم بلاداً واسعة
كما انه ليس لها سلطة على عدد كبير من التابعين مما جعل سلطته محدودة جداً .

المعروف بين الاسباد والتابع

أنت معنى الاقطاع Feud هو أرض يقطعها مالكها الى شخص آخر على شرط ان يبقى "تابعاً"
له والشخص الذي يوافق على ان يكون تابعاً Vassal يركع امام السيد Lord ويقدم له الطاعة
Homage وذلك بأن يضع يده بين يدي السيد ويمكن بأنه تامة على الاقطاعات الجديدة . وعندما
يقدم السيد ويرفعه عن الأرض . ويقدمه التابع بين الولاء على الكتاب المقدس بأنه سينجز ما وعد
به من الواجبات نحو سيده . وهذه المراسم المتقدمة كرهاندي والرابطة المقدسة Feudal bond
وادخالت التابع الشروط التي قدم الطاعة بموجبها يعتبر عمله قصداً للعهد . ونوره على السيد .
ويمكن لسيده تنديها ان يسترجع منه الاقطاع .

وتختلف واجبات التابع كثيراً . فتنحصر أحياناً على ان يحلب التابع إعانة سيده لومعاً كسرة
مصالحه . وان يشترك معه في الحملات العسكرية . وكانت القاعدة ان لا يحارب التابع أكثر من

أربعين يوماً على نفقته الخاصة مع سيده ، وكان يشترط منذ البداية على مقدار الأيام التي يجب على
التابع أن يحرص بها فامة السيد ، وهذه الأيام تختلف كثيراً بحسب الشروط ، ولما كانت الخدمة
العسكرية التي يقدمها التابع قليلة ، لذلك عهد الملك والأشراف المكبار في القرن الثالث عشر أن
يعطوا بعض الفرسان مالا ليحاربوا في أي وقت أرادوا .

وكان التابع يخدم في بلاط السيد عندما يستدعيه ليجتمع مع بقية الأتباع ليذاكروا في القضايا
المرونة عليهم ، وعليه أن يقدم النصائح إلى السيد في الأمور التي يستشير بها ، وأن يخدمه
في مناسبات الأعياد ، وعليه أن يقدم المساعدات المالية لسيده وأن يخدمه بنفسه في المناسبات لأتية
مثلاً عندما ينتقل الإقطاع إلى ابن التابع بعد موت أبيه أو على العكس ، وعند ما يموت الشريف
ويرثه من بعده ابنه في السيادة أو في الحفلة التي يصحب فيها ابن السيد فارساً ، أو عند زواج ابنه
الكبرى ، أو عند اقتدائه من الأشراف إذا وقع به . وعلى التابع أن يقدم للسيد هدية كل مرة عليه ،
وهناك تفاصيل مضحكة عن عدد الزيارات التي يشرف بها السيد تابعه ، وعدد الرجال الذين يصحبهم
معه ، ونوع الطعام الذي يجب أن يجب أن يقدم له . . .

وكان على السيد مقابل ذلك واجبات منها مثلاً : حماية التابع والدفاع عنه ، ورفع الحيف إذا ألم به . . .
ولا يجوز للسيد أن يسترد الإقطاع إلا إذا أخل التابع بالشروط المتفق عليها ، وعند ما يقوم التابع
بجميع واجباته تجاه السيد يصبح عندئذ الحاكم المطلق في إقطاعه وليس لأحد التدخل في شؤونه .
وبوجود أنواع كثيرة للإقطاع تندرج أهميتها من الدوق Duke أو الكونت Count إلى أن يأخذ
إقطاعها مباشرة من الملك ، ويقتصر فلان بها كأمراء مستقلين ، حتى درجة الفارس البسيط الذي يأخذ
قطعة صغيرة من الأرض من أحد الأسياد لإرضائه الفلاحون أو السيد تكفيه وحصانة مقابل
خدماته العسكرية نحو هذا السيد .

ولكن يعتبر الرجل شرفاً في مجتمع القرون الوسطى يجب عليه أن يكون حراً مالكاً لأرض ،
وعنده دخل على الأقل يكفيه وحصانه دون أن يقوم بأي عمل إلا الحرب . وللهذا بعض الامتيازات
التي تفصلهم عن الطبقات الغير نبيلة . وقد ظل قسم من هذه الامتيازات موجوداً في فرنسا حتى زمن
الثورة الفرنسية ، وبقيت هذه الامتيازات في ألمانيا وإيطاليا وكثير من الدول الأوروبية مستمرة
حتى القرن التاسع عشر ، وأهم هذه الامتيازات إعفاء النبلاء من قسم من الضرائب .

ولا يوجد تقسيم ثابت في طبقات الشرف قبل القرن الثالث عشر ، ولا نعلم مثلاً الفرق بين
الكونت والدوق والمركيز ، ولكن على العموم يمكن أن نقول بأن الدوق والكونت والسكابر
والراعي الذي أخذ إقطاعه مباشرة من الملك هو أعلى درجة في سلم الشرف من الذي يأخذ إقطاعه

من هؤلاء ، والتي في آخر درجات الشرق الفارسي البسيط الذي ليس لديه سوى ما يكفي وحضانه
كما تقدم ، ويجب ان تؤكد أنه لا يوجد سلسل طبقي مرتب يتقدم من الملك وينتهي بالفارس البسيط ،
وانما العلاقة بين الاسياد والاتباع على اختلاف أنواعهم هي على غاية من التعقيد ، فيمكن للسيد أن
يكون تابعاً ومتبوعاً ، وأن يكون هو وتابعه تابعين لسيد واحد .
وكان لأصحاب الاقطاعات الكبيرة الحق في محاكمة رعاياهم في محاكمهم الخاصة ، وأن يحكموا عليهم
بالموت اذا اقتضى الأمر ، ولهم حق اعلان الحرب ، وضرب النقود ، ولهم مجلس خاص وهو المجلس
الاقطاعي ، ولهم علم خاص وقصر خاص بهم .
وقد أظهر بعض الاقطاعيين كفاءة فائقة ودهاء عظيماً وشكروا إقطاعات كبيرة ضموها بعضهم الى
بعض أما عن طريق القوة أو بطريق الارث وأصبحت هذه الاقطاعات فيما بعد دولاً مهمة كما فعل
ذلك ملك فرنسا .

الحرب بين الاسياد والاتباع

كانت الفوضى هي الظاهر السائد في ظل النظام الاقطاعي ، لأن التابع لا ينفذ واجباته الاقطاعية
الا اذا كان سيده قوياً ، ولذلك فالروابط الاقطاعية والوفاء بالعهود التي هي اساس النظام الاقطاعي قد
حطمت من قبل الاسياد والاتباع على السواء ، وكثيراً ما يختلف التابع مع سيده فينتقل ولاءه الى
سيد آخر ويحدث ذلك مثلاً فيما إذا لم يرضى السيد بتابعه ، ولكن على الاكثر كان الاتباع يحاولون
التخلص من واجباتهم الاقطاعية فيلتجئون الى سيد آخر ليحصلوا على شروط أفضل ، وعندما يجد
التابع في نفسه الكفاءة كان يستقل عن سيده ، وكثيراً ما يحدث ذلك عندما يرث السيد ولد ضعيف
لذلك يمكننا أن نقول أن الحرب هو النظام السائد في عالم القرون الوسطى ، وكان الحرب على
الاسياد الرئيسي ، وكانت المعارك ونزف الدماء هي الشغل الشاغل لالاسياد ، لانهم كانوا يشاهون
بقتال بعضهم البعض ، وكان الاتباع الاقوياء يمكنهم أن يحاربوا : أولاً أسيادهم ، ثانياً اتباعهم ،
ثالثاً اتباع الاسياد الآخرين ، رابعاً الكهنة والرهبان المنسولين بهم والناقلين على إدارتهم .
وعوضاً عن أن تكون الروابط الاقطاعية سبباً لاسلم كانت على العكس مثيرة للنزاع والحرب .
فكان كل إقطاعي يكتسب ضعف جاره ليتطلب عليه - في أن الحرب كثيراً ما تحدث في المماثلة الواحدة
بين الاب وابنه ، والاب وأخيه ، والعم مع ابن أخيه من أجل اغتصاب حقوق بعضهم البعض .
وكانت المدة نظرياً يمكنه ان يحل الخلافات بين اتباعه في محكمة قصره ، الا انه عملياً لم يكن
ليستطيع ذلك ، لأن الاتباع كانوا يحاربون بعضهم البعض ، ويحدون قوة في هذه الحروب ، فكان

الحرب هو القانون الخفي . وكانو ثليون في أوقات السلم بالباروزة ، والناب الفردوسية . وكانت هذه الالام اشبه بمباركة حقيقية يتقاتل فيها عدد كبير من الالام اعضاء بعضهم مع بعض ، وقد حاول البابوات . والقسس منع هذه الالام . الا ان المولم انفسهم كثير كما يتخلون بهذا المنع . وقد قلت الحروب في القرن الحادي عشر بسبب تقدم التجارة والمعارف في المدين . وتدخل رجال الكنيسة في محاورهم نذر السلام ، محرموا الحروب في ايام معينة من الاسبوع وسنوها الهدنة الزمانية ، وهي تمتد من مساء الخميس حتى صباح الاثنين ، كما انهم محرموا القتل في ايام الاحاد . وفي بعض ايام العبادات .

وهذا ما يشبه الاثمة المحرم عند العرب الخلفاء . وقد اخذ رجال الكنيسة الايمان واليهود من الامم ياد بان يعملوا بموجب هذه الاوامر ، وكان من مخالفت ذلك يعرض نفسه لجزاء المحرمين من الكنيسة . وعندما بدأت الحروب الصليبية سنة ١٠٩٦ وجد رجال الكنيسة اهل القرب المتأصل في نفوسهم حب الحرب قتال المسلمين ، فطفروا على بلاد الشام وعملوا فيها الحراب والدمار .

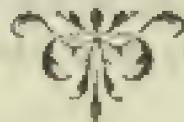
الفردوسية

لمؤسس الفردوسية في زمن معين ، فهي كالأقطاعية — إذ كانت مفصلة بها فاعلم الاتصال سلم بنسبها أهدأ . بل ظهرت من ثقافة نفسها في أوروبا الغربية لتلائم حاجات ورعات ذلك العصر . وقد كان الحر من قديماً يعتبرون ان الوقت الذي يحصل فيه الشاب صلاح الجندي هو من الاوقات المقدسة . لان ذلك معناه ان الشاب بلغ سن الرجولة ، وهذا انتهاء الشرف بالنسبة اليه . ومن المحتمل ان تكون فكرة الفردوسية هي احياء ذلك الشعور لان الشاب من الامر النبيلة عندما يتعد جيداً عند ذيل آخر ركوب الخيل واستعمال السلاح ، واستخدم الصقر في الصيد يعتبر فارساً — ويتلق هذا القرب باحتفال مريب تشترك فيه العائلة . مع ان هذا القرب منح للشباب من الفارس الذي قومت عنده .

وكان الفارس يعتبر حنبلاً مسيحياً ، وبشكل مع أقرانه منظمة خاصة ذات مال طلبة . ولم تكن الفردوسية حموية لها أعضاء وموظفون وقوتون مكنون ، وإنما كانت مجتمعاً خاصاً ينحدر من ينسب اليه حتى ولو كان ملكاً أو أميراً .

والفردوسية لا موثرت فالطفل الشرف لا يلد فارساً ، وإنما تحصل على هذا القرب بعد ان يقوم بالتمربات المتوجبة عليه ، فقد يكون شرفاً ولا يعتبر فارساً ، كما ان الشخص من غير طبقة النبلاء يمكن ان يصبح فارساً بعد ان يقدم بأعمال شريفة .

وعلى الفارس أن يهدف ببعض الصفات وهي : أن يكون مسيحياً معلماً ، وخادماً ومساعداً
لكنيسة في كل الاموال ، وأن يحمي الضعيف ويحرم الضعفاء ، وأن يحارب الكفار بدون راحة
أن ما وجدته ، وأن لا يبدل إلى عدوه . وأن يحين واجباته الاقطاعية ، وأن يكون صادقاً لبيده ،
وأن لا يكذب لو بخل بوعده ، وأن يكون كريماً فيعطي المحتاجين ويساعد المظلومين بدون أجر .
وأن يكون مخلصاً لزوجته ومحبيها ويصون شرفها . وكفه الامر . وعليه أن يكون نصير الحق دائماً ...
فالغرومية إذن انما هي وجد في القرون الوسطى . وهي تتلاءم مع حالة العصر وأهله . وقد
جاءت بواسطة عادة القتال والحرب بين الملأ ، إلى حماية الضعفاء ونصر المظلومين .



الفصل الثالث

حالة الفلاحين والعبير في ظل النظام الإقطاعي

كانت حياة المدن قليلة في أوروبا الغربية قبل القرن الثاني عشر. فقد قل عدد سكان المدن الرومانية قليل هجرات البرابرة. وعندما زاد الاضطراب عقب اجتياح البرابرة للإمبراطورية الرومانية تخرت هذه المدن، واتضح عدد كبير منها من عالم الوجود. وما بقي منها أو ظهر من جديد كان قليل الأهمية في مطلع القرون الوسطى لذلك كان القسم الأكبر من سكان أوروبا يعيشون في القرى ويقعون الأسباط الإقطاعيين سواء كانوا من الأشراف أو من رجال الدين. فقد كان الأسباط يحتفظون بقسم من أراضيهم لاستعمالهم الخاص، ويوزعون بقية الأراضي على الفلاحين. فكان لكل فلاح قطعة أو أكثر من الأرض. وكان الفلاحون على الأكثر اقناناً لا يملكون حقوقهم. كما أنهم لا يطردون منها طالما هم يشتغلون بنشاط لاسيادهم ويدفعون ما عليهم من الضرائب. وكان الاتقاف مفصلين بالأرض يباعون مبيعاً، وكانوا يزرعونها ويديمون حاصلاتها إلى السيد، ولا يمكنهم الزواج بدون إذن السيد. وكانت نساؤهم وأولادهم يساعدونهم في العمل، فكانت المرأة تفرل وتخبط وتخبز، وكان الفلاح يقدم إلى السيد ثيابه وملعاه وجميع ما يحتاج إليه.

وهناك جماعة من العبيد لا يشتغلون بالزراعة، بل ينسبون لأحد الحرف، كان يكون طابعاً يدفع ضريبة إلى السيد، أو جداداً أو غير ذلك. وعلى العموم كانت حالتهم أحسن من الاتقاف المتقدم الذكر.

ومن أبرز صفات الاقطاع استقلاله عن العالم الخارجي، فهو ينتج تقريباً كل شيء يحتاج إليه أفراداً، ويمكن أن يكون متمزلاً عن مجاوريه. وكانت قليل من النقد ضرورياً، لأن الفلاحين يدفعون ما عليهم إلى السيد من انتاج الحبوب، ويساعد بعضهم البعض، ويجدون قليل من المناسبات للبيع والشراء.

ولا يوجد تقريباً فرس ليحسن الفرد شروط حياته وحالته، فالحياة على غطاء واحد وتقال مستمرة في سلاله إلى الأخرى. وهي دائماً بالسة. فكان الطعام مقلطاً وقليل التنوع، لأنه ما كان الفلاح يكلف نفسه عناء زراعة الخضروات.

وكان يسكن الفلاح مع أسرته في غرفة واحدة مظلمة لا يأتها النور إلا من كوة صغيرة ليس فيها زجاج. كما أن الغرفة ليس فيها مدخنة مما يجعل الجو الغرفة مملوء بالدخان.

وكان الفلاحون في الاقطاع الواحد يعيشون حياة مشتركة ، ويساعد بعضهم البعض ويتعاون بعضهم لان اراضيهم متصلة ، ولأنهم يتعبدون في كنيسة واحدة وهم مسؤولون امام ملاك واحد ، وكان الابن يحضرون لقصر السيد ويتداولون في شؤون الاقطاع ، وكان السيد يحصل في خلافاتهم ويغرض العقوبة على المذنب منهم ، وأحياناً كان يعيد توزيع الاقطاع عليهم .

المخطاط الرق

كان الاقطاع عادة مزارعين وعمالاً سي . المعيشة ، فكانوا يزرعون الارض بطريقة ابتدائية ، وكانت حاصلاتهم قليلة وردية . والرق يوجد عادة عندما يكون عدد السكان قليل والاراضي كثيرة . الا انه في القرن الثاني عشر والثالث عشر ازداد عدد السكان في اوروبا الغربية ، وكان من الطبيعي أن يتناقص عدد الرقيق لانت الاراضي المجهل ذراعها ، والحقول المزروعة بصورة غير متقدمة لم تعد تفي لغذاء السكان .

كما ان استعمال النقد ازداد في القرن الثاني عشر والثالث عشر بسبب انتشار التجارة والصناعة مما ساعد على افول نجم الاقطاعية ، وقد اختفت عادة المقايضة في التجارة بسبب وجود النقد ، وكان كلما تقدم الزمن زادت الحاجات ولم يعد الاسياد ولا الامراء يقتنعون بالتطبيقات الابتدائية التي كانت تسد حاجتهم في عصر شانان ، فقد أخذ الاقطاع ليكون قد أصبح حاصلاتهم في أسواق المدن المجاورة ، ووجدوا من مصلحتهم دفع واجباتهم الاقطاعية بمبالغ من النقد عوضاً عن أن يشتغلوا مهابلها عند السيد ، وبذلك تفرغوا لادارتهم مزارعهم الخاصة ، كما أن الملاكين من جهة اخرى وجدوا من مصلحتهم أن يأخذوا قدراً من اتباعهم عوضاً عن خدماتهم . لأنهم يستأجرون بهذه النقود عمالاً يزرعون لهم حقولهم ، ويشترون بما يبقئ منها السلع الفاخرة التي كان التجار الايطاليون يأتون بها من الشرق . وأخذ الاقطاع يستردون حريتهم بأن يهربوا الى المدن التي انتشرت أكثر من ذي قبل . وإذا بقي العبد مدة سنة ويوم واحد بعيداً عن متناول يده سيده يعتبر حراً ، ودأبت محاولة الحرب أكثر من ذي قبل .

كل هذه الاعتبارات المتقدمة جعلت الرق يتدرج نحو الانحلال ، وأخذ يخل محله المزارع والمستأجر الحالي . وما تلى القرن التاسع عشر إلا وزال الرق من اوروبا .

الحمية صباه المدن

إن كثيراً من مدن القرون الوسطى ظهرت حوالي سنة (١٠٠٠) م بجانب قصر السيد

الاقطاعي أو حول كنيسة أو دير أو قلعة ، ولعل سبب ظهور المدن هو اجتماعها بها السكان المجاورون
سدد هجوم عدو عليهم ، فباتت بني حوطها الأسوار والأبراج وحفر السخانات ، وكانت تلك المدن
صغيرة ومكتظة بالسكان ، ولا يوجد فيها ساحة عامة سوى ساحة السوق ، والطرق فيها ضيقة ،
والبيوت ملاصقة ومؤلفة من عدة طوابق ، وتكاد تغطي بوزها الطرقات التي فصلها ، وكانت
الأسوار المحيطة بالمدينة تمنع من توسعها .

كانت التجارة في هذه المدن في القرن الحادي عشر والثاني عشر قابلة ماعدى المدن الإيطالية وذلك
لأنه انصالحا بالعالم الخارجي ، وكانت تصنع جميع ما يحتاج اليه سكانها ، أما الحاصلات الزراعية فكانت تأتيها
من المزارع المجاورة ، ولم يكن سكان المدن أحسن حالاً بكثير من الأقباط ، بالرغم من أنهم يعيشون
بين جدران المدينة ، يشتغلون بالصناعة بدلاً من الزراعة ، لأنهم كانوا يخشون من أن يدفع سرية الأسياد
ولم تحسن حياة المدن إلا بعد أن تحررت من سلطة الأسياد وشركات حكومات نفسها ، ولم يحصل
ذلك إلا بعد أن ازدادت التجارة مع الشرق ، فأخذ سكان المدن ينتجون بضائع ليبيعوها مع حاصلات
البلاد الشرقية ، إلا أن المائق الكبير الذي كان يمنعهم من متابعة عملهم وإيضاحهم بالعالم الخارجي
هو عبوديتهم للأسياد ، ولذلك ناضلوا في سبيل التحرر خلال القرن الثاني عشر من سلطة الأسياد
وحصلوا على اتفاقات Charters حددت فيها حقوق كلا الطرفين .

وهذه الاتفاقات هي عبارة عن عقود مكتوبة ما بين الأسياد ونقابة التجار المدينة ويحتوي على وعد
من قبل السيد أو الملك بأن يعترف النقابة ويحدد حقوق الأسياد في محاسبة التجار وتغريمهم بالمال ،
وبعدد أنواع الضرائب التي يمكن أن يأخذها من أهل المدينة ، أما الخدمات والواجبات القديمة فقد
اتاحت أو تحولت إلى عدد من النفود .

وكان في كثير من المدن يوجد برج مرتفع يدل على تحرر المدينة ويقف عليه حارس في الليل والنهار
يفرق الناقوس في حالة حدوث خطر ، وفي المدينة أيضاً قاعة يعقد فيها مجلس عموم المدينة لاحتجائه
وفيها سجن أيضاً ، ولا تزال هذه القاعات من أبرز ما يشاهده السافر من الأبنية عندما يمر بالمدينة
التجارية القديمة في أوروبا .



الفصل الرابع

١ - أسرة آل طابت

قامت الأسرة السكاسبية على انقاض الدولة السكارولنجية سنة ٩٨٧ م . ومن هذه الأسرة جاء ملوك فرنسا . وأهم الحوادث التي جرت في عهد هؤلاء الملوك : الحروب الصليبية التي اشترك فيها بعضهم . وأشهرهم :
فيليب الاول (١٠٦٠ - ١١٠٨ م) وفي زمنه دعا البابا في مجموع كليرمنت بفرنسا للحملة الصليبية الاولى .

ولويس السابع (١١٣٧ - ١١٨٠ م) الذي اشترك في قيادة الحملة الصليبية الثانية .
وفيليب أغسطس (١١٨٠ - ١٢٢٣ م) الذي اشترك بالحملة الصليبية الثالثة .
ولويس التاسع (١٢٢٦ - ١٢٧٠ م) ويدهى أيضاً لشديته بالقدوس لويس . قاد حملة صليبية الى مصر ، وأخرى الى تونس مات في أثناءها .

وفي عهد هذه الأسرة قامت حروب ثلثة سنة (١٢٣٧ - ١٤٥٣ م) ما بين فرنسا وانكلترا ، سببها أن الانكليز ورثوا نصف فرنسا الغربي تقريباً بسبب الزواج مع أميرات من فرنسا . فقام الفرنسيون بمحاولون استرداد بلادهم وتوحيدها . فجرت الحرب بين الدولتين مدة (١١٦) سنة تخللها فترات طويلة من السلم والمبادئات ، وأخيراً تم الوك فرنسا توحيد بلادهم ، إما عن طريق الزواج أو الحرب . وكان لهذه الحروب نتائج باهرة الامة الفرنسية منيا : (١) فضي على النظام الاقطاعي (٢) توطدت سلطة الملكية (٣) قويت الروح القومية والماطفة الوطنية عند الفرنسيين . ومن أشهر أبطال هذه الحروب : جاندارك : وهي فتاة قروية ، رأت ما وصلت اليه حالة بلادها من الضعف والانشقاق ، وترامى لها أنها سمعت هتافاً سماوياً يناديها بأن تقوم لفصرة وطنها ، والحاربة الانكليز الذين كانوا محاصرين لمدينة اورلئان . ولطردهم خارج بلادها ، وأن تأخذ بيد ولي العهد الفرنسي وتوجهه ملكاً على فرنسا . ذهبت الى باريس ، وقابلت ولي العهد ، وعرضت عليه رسالتها ، فأمددها بجيش الهبت الخاس في قلوب أفرادهم ، وتقدمت على رأسه بمتطوعة صهوة جوادها وحاربت الانكليز وأثناءت مدينة اورلئان التي كانوا يحاصرونها وهزمتهم شر هزيمة في سنة ١٤٢٩ م . فذب الحسد والغيرة في نفوس قواد الجيش الفرنسي ، غفلوها في إحدى المعارك مع البورغنديين ، الذين أسروها وابعوها الى حلفائهم الانكليز لخالها هؤلاء وأتهموها بالسحر والاحاد ، خشكت عليها المحكمة الدينية بالحرق ونفذ الحكم بها .

في مدينة « روان » - إلا أن المصلحة الوطنية ، والجناس الشديد الذي تركته جاتدارك في نفوس الجيش الفرنسي جعله ينتصر على الجيش الانكليزي ويخرجهم من البلاد الفرنسية . واعتبرت جاتدارك في عداد الابطال الخائضين .

لويس الحادي عشر (١٤٦١ - ١٤٨٣ م) وهو آخر ملوك العصور الوسطى في فرنسا . كان ذا دهاء عظيم ، ومعرفة بأمور السياسة . تمكن من التغلب على معظم امراء فرنسا ووجد البلاد تحت سلطته ماعدي شبه جزيرة برتالية وقد استطاع تخضع جديده وهو شارل الجسور أمير منطقة بورغونيا . ولكن تمكن بدعائه أن يثير عليه أهالي سويسرة والولايات المجاورة لها ، وأن يقضي عليه . اهتم لويس بتحسين اقتصاديات البلاد فأدخل صناعة الحرير الى ليون ، وتور ، بواسطه بعض الطليان . ونشط الصناعات الاخرى ، والتجارة البحرية . ونظم المسالية والجيش فكانت بذلك من أعظم ملوك عصره .

٢ - تطور تاريخ اسكتلرا حتى نهاية الفتح النورمندي

اسكتلرا قبل الفتح النورمندي :

كانت تسكن اسكتلرا بين القرن الثالث والرابع قبل الميلاد شعوب من العنصر (الاييري) الذي يظن ان أصلهم من اسبانيا ، ثم جاء من بعدهم شعوب من العنصر الساني الذين كانوا يسكنون وادي الدانوب وغاليا قبل وصولهم الى اسكتلرا . وأشهر الاقوام السلتية : الاسكتلاتيون الذين قومنتوا في الشمال . والبريطانيون الذين سكنوا في الجنوب وسببت البلاد بأسمهم ، وفي منتصف القرن الاول قبل الميلاد احتل (الرومان) اسكتلرا في عهد يوليوس قيصر ، وادخلوا الديانة المسيحية والحضارة الرومانية ، فعمروا المدن وعبدوا الطرق ، إلا أنهم لم يتوغلوا في الداخل . وعندما سقطت الدولة الرومانية في القرن الخامس ميلادي تحرر البريطانيون . إلا ان القبائل الجرمانية مالبقت ان هاجمت البلاد واستقرت فيها . وأشهر هذه القبائل (الانكلي) و (السكسون) و (الجوت) . وقد أتى معظمها من المناطق الشمالية في المانية . قاوم السكان الاصليون هذه القبائل البربرية ، إلا أنهم انهزموا أمامهم ، فبرز قسم منهم الى الجبال الغربية وزح بعضهم الى فرنسا ونزلوا في شبه جزيرة برتانية ، التي سميت بأسمهم . إلا ان العنصر الانكلوسكسوني سيطر على البلاد ، وشكلوا سبع دويلات رئيسية اعتنقت الديانة المسيحية في القرن السابع على يد مبشرين ارسلهم البابا غريغوريوس .

غارات النورمنديون على اسكتلرا :

كان الدانباركليون من أهل الشمال يديرون على سواحل اوربا الغربية ، فقد أغاروا على فرنسا

في عهد المملكة الكارولنجية ، وكذلك زلوا سواحل انكلترا في سنة ٨٧٠ م وتوطنوا في شمالي نهر
التيهيس Thames الا ان الملك القوييد الكبير (٨٧١-٩٠١ م) هزمهم وحرقة منكرة ، وأجبرهم على
اعتراف النصرانية . ورسم الحدود بينهم وبين مملكته .

وكان (القوييد) كشارلمان يهتم بتدريس الثقافة والتعليم في بلاده ، فجلب رجالاً متعلمين من القارة
ليعلموا في بلاده ، وطلب من كل رجل حر في انكلترا ان يتقن اللغة الانكليزية . وأجبر الكهان ان
يتعلموا اللغة اللاتينية وزيادة عن اللغة الانكليزية .

وفي القرن العاشر أثار أهل الشمال على انكلترا من جديد ، وتمكن ملك الدانمارك كنوت Cnut
سنة ١٠١٧ م ان يعلن نفسه ملكاً على انكلترا وحكمها نحو عشرين سنة ، فالتجأ ملك انكلترا الى فرنسا
واحتضى بأمر النورمنديين الذي كان يحكم في شبه جزيرة نورمانديا في فرنسا ، وتزوج بابنته . وبعد موت
« كنوت » استرجع ملك انكلترا عرشه ، وحكم آخر ملك ساكسوني ادوارد المعترف Edward
the Confessor . وكان ضعيفاً تربى في نورمانديا في فرنسا واستدعى كثيراً من النورمانديين الى بلاطه
ومنحهم اكبر وظائف الدولة . وبعد موته أعلن غليوم William أمير نورمانديا نفسه ملكاً على
انكلترا ، ولقب « بـ غليوم الفاتح » . وبذلك انتهى حكم السكسون الذي تشكلت في اثنتائه
الامة الانكليزية .

غليوم الفاتح :

بعد ان أعلن غليوم نفسه ملكاً على عرش انكلترا ، اعتبر كل من يخالف حكمه خائناً . وادعى
انه عندما زار انكلترا في عهده ادوارد المعترف ، قبل ان يكون نائبه بشرط ان يخلفه على عرش انكلترا
إذا مات بدون ولد . الا ان هارولد أحد كبار الاقطاعيين في انكلترا أعلن نفسه ملكاً بعد وفات
« ادوارد المعترف » . ولم يعترف بحق غليوم ، كما انه طرد رؤساء الاساقفة التابعين لسلطنته البابا .
لذلك استعان غليوم بالبابا ، ووعد ان يجعل رجال الدين في انكلترا تابعين لسلطة البابا إذا ساعده في
الاستيلاء على انكلترا ، فخرس البابا الكسندر الثاني شعوب أوروبا لمساعدة غليوم ، واعتبر ان كل حملة
تساعد في القضاء على هارولد مقدسة . فكانت هذه الحروب تشبه بحروب صليبية . وتمكن غليوم
بقوة خياله ورمائه ان يقهر عدوه في معركة هاستنكز Hastings الفادلة ، وأن يفلت منافسه هارولد
ولقب بعد هذه الموقعة بغليوم الفاتح ، وقد اعترف بسلطنته بعد بضعة أسابيع كثير من النبلاء ورجال
الدين ، وفُتحت له أبواب لندن . وتوج في يوم عيد الميلاد في وستمنستر Westminster
سنة ١٠٦٦ م .

أدخل غليوم النظام الاقطاعي الى انكلترا ، فقسم أراضي الامراء الذين ثاروا على سلطته بين أتباعه من النورمان والآنكيز . وأعلن أنه لا يريد تغيير العادات القديمة ، وأنه يحكم كخلف ملوكهم السابقين . إدوارد المعترف ، وحاول ان يعلم اللغة الانكليزية ، وحكم البلاد بقوة وحزم . وكان يراقب رؤساء الاقطاع بواسطة موظفين من قبله ذوي الواحد منهم : شريف Sheriff . ولم يعط احداً اقطاعاً واسعة في منطقة واحدة حتى لا يفصل احد عنه . كما أنه طالب من جميع اصحاب الاقطاعات الصغيرة ان يتبعوا له مباشرة . ويقسموا له عشرين الولا ، حتى يساعدوه من جهة ويمنعوا ثقتهم لو اتحدوا مع اصحاب الاقطاعات الكبيرة من جهة اخرى .

وكان للفتح النورمندي تأثير كبير على حياة انكلترا لأن عنصرًا جديدًا امتزج مع السكان الاصليين وكان هو العنصر الحاكم المنتخب على البلاد . ولما كان غليوم اميراً على مقاطعة نورمندي التابعة للملك فرنسا لذلك كان يعتبر تابعاً لهم ، الا انه بعد استيلائه على انكلترا امار اقوي منهم ، وهذا مما سبب وقوع التنافس بين الطرفين ، وانفق انه حصل تزواج بين امراء انكلترا وبين بعض اصحاب الاقطاعات الكبرى في فرنسا فكانت النتيجة ان نصف فرنسا الغربي أصبح تابعاً للملك انكلترا . ما بين القرن الحادي عشر والثالث عشر ، محاسب النزاع بين الدولتين كما تقدم معنا . واشتهر من ملوك انكلترا بعد زمن غليوم ، ريكاردوس قلب الأسد الذي اشترك بالحملة الصليبية الثالثة سنة

١١٨٧ م .

٣ — نشأة الامبراطورية الرومانية المقدسة

على اثر تنوع شارلمان امبراطوراً رومانياً في يوم عيد الميلاد سنة ٨٠٠ م قسماك وتداخل تاريخ ألمانيا مع تاريخ إيطاليا لمدة عدة قرون ، بالرغم من وجود جبال الالب ، هذا الحاجز الطبيعي الفاصل بينها . وقد كانت الخصومة مستحكمة بين ألمانيا والبابوات وذلك (١) لما بذله ملوك ألمانيا من القوى في سبيل حكم البلاد الإيطالية بما فيها مملكة البابا (٢) ولما كان بمحاوله البابوات من فرض سلطتهم الدينية على جميع ملوك اوروبا . وقد كان البابوات زمن العصور الوسطى يحاولون التدخل في جميع شؤون اوروبا ، وتدخل ذلك بصورة خاصة في تاريخ ألمانيا في تلك العصور . ولا يمكن لاحد أن يفهم حوادث القرن التاسع عشر دون أن يفهم بعض الافكار عن القرن التاسع وبالرغم من أن الحوادث طويلة ومعقدة فسنعرضها بصورة موجزة .

ان تاريخ القسم الشرقي من امبراطورية شارلمان والذي نسميه ألمانيا يختلف تماماً عن تاريخ القسم الغربي اي — فرنسا — فبعد أن مرّ تاريخ ألمانيا بحروب ومنازعات مدة (٤٠٠)

سنة سار من الواضح في القرن الثالث عشر بأن خلفاء لويس الجرمانى (حفيد شارلمان) لم يتمكنوا
أن يبنوا من ألمانيا دولة كما بنى القديس لويس لاولاده مملكة فرنسا ، فبعد القرن الثالث عشر حتى
عصر نابليون يونابرت لم يكن يوجد ألمانيا بالملئى السياسى وانما كان يوجد عدد من الولايات
المستقلة بعضها كبيرة والاخرى صغيرة .

وقد اتحدت هذه الولايات سنة ١٨٧١م تحت زعامة بروسيا - وهى دولة لم تشتهر الا بعد زمن
شارلمان بعدة عصور - وشكلت اتحاداً سمي « المملكة الألمانية » .

وقد كان مصور القسم الشرقى من مملكة شارلمان بعد قرن من وفاته يظهر بان هذا القسم قد انجزاً
الى ولايات يحكمها أمراء ، ما عدى مقاطعة ساكسونيا ، وبافاريا اللتين كان يحكمها ملوك ليس لهم من
السلطة الا الاسم . ولا نعلم كيف تشكلت هذه الولايات ، وانما الذي نعرفه بان خلفاء لويس
الجرمانى كانوا ضعفاء لم يتمكنوا من فرض سلطتهم على أصحاب تلك الولايات كما فعل شارلمان من قبل
كما أن هذه الولايات اضطرت أن تدافع عن نفسها في وجه الهجمات الخارجية التي كانت تأتياها من
أهل الشمال ومن الهونناريين الذين كانوا يدخلون البلاد ويعيثون فيها فساداً . وبما أنه لا يوجد قوة
مركزية تدافع عن اعالي الولايات لذلك تجمعوا تحت زعامة رؤسائهم المحليين ، واستقلوا لانفسهم .
وقد كان زعماء هذه الولايات يتمتعون بملوك ألمانيا من ضم مقاطعاتهم لسلطتهم ، ولذلك كان احسن
طريقة يتبعها ملوك ألمانيا هي أن يجمعوا هذه الولايات بشكل « اتحادى » كما فعل هنري الاول
(٩١٩ - ٩٣٦) ملك ساكسونيا ، الذي لم يحاول أن يطرد حكام الولايات من ولاياتهم ، وانما
استعان بهم في ايقاف الغارات الخارجية التي كانت تضغط على البلاد من جميع الجهات . وترك لابنه
أوتون الاول Otto I أن يقضي على هذه الشعوب الغيرة ، وأن يؤسس مملكة قوية .

أوتون الكبير (٩٣٦ - ٩٧٣ م) .

ان زمن حكم أوتون الاول الذي سمي « بالكبير » يعتبر من اعظم صفحات تاريخ ألمانيا ، فلم يحاول
« أوتون » ان يوحد الولايات الألمانية ، وانما جعلها تحت حكم اولاده وأخوته وأقاربه ، وقلل من سلطة
جميع الامراء الالمان ، وبعد ان وطد حكمه في داخل بلاده ألغت الحسابة الاقوام المجاورة له التي
كانت لاقتناهاجه من ناحية الشرق والشمال .

وقد كانت الشعوب السلافية لا تزال على وقتئذها تهاجم حدود ساكسونيا وقد عمل أوتون الكبير
زيادة على محاربتها ان اسس كنائس ما بين نهر الاودر Oder والالب Elbe وجعلها مراكز دينية
للعلم المسيحية بين الوثنيين ، واصبحت هذه المراكز مثل براندنبورغ مثلاً موطن الحركة السياسية في
ألمانيا الحالية ، كما انه حارب الهونناريين وهزمهم في معركة عظيمة قرب اكسبورغ Angsburg سنة

٩٥٥ م وخرجوا على أثرها من حدود ألمانيا ، وتوطنوا نهائياً في بلادهم ، وعملوا على تشكيل قوميتهم في شرقي أوروبا .

الآن أعظم أعمال اتون الكبير هو تدخله في شؤون إيطاليا التي نال على أثرها نجاح الامبراطورية الذي ليسه شارلمان من قبله .

فقد كانت إيطاليا في فوضى صغيرة ، وذلك بسبب منازعات امراء البلاد على السلطة ، ولا سيطرة المسلمين على جنوبي إيطاليا وجزيرة صقلية .

فاجتاز اتون الكبير جبال الألب لأول مرة سنة ٩٥٦ م وتزوج أرملة احدى ملوك إيطاليا ، فاعترف به ملكاً لإيطاليا بالرغم من انه لم يتوج بصورة رسمية . وعندما سمع بتورة احد ابنائه عاد الى ألمانيا . ولم يلبث طويلاً حتى استدعاه البابا لمساعدته ، فأسرع حلاً لاجابته ، واتقدم من أعدائه فكافاه البابا على ذلك بأن توجه امبراطوراً في روما سنة ٩٦٢ م .

وكان لقبول اتون الكبير لهذا القربى كبير على خلفائه من بعده الذين اتقل كاهلهم لقب الامبراطورية وجعلهم يرزحون من عبثه . فكان عليهم في خلال ثلاثة قرون أن يحكموا ألمانيا ، ويدبروا شؤون إيطاليا والبابوية . وبعد حروب مريرة ، وضحايا عديدة خسروا كل شيء فقد خرجت إيطاليا عن سلطانهم واستقل البابوات عنهم ، وتجزأت ألمانيا الى دويلات صغيرة .

وكانت علاقة اتون الكبير مع البابا سيئة . فلم يكدر يرجع الى بلاده حتى ثار عليه البابا ، فعاد الى روما وجمع مجلساً وعزله ونصب غيره ، إلا ان اهل روما رفضوا الاعتراف بابا المنتخب باشراف اتون مما جعله مضطراً الى العودة الى إيطاليا ومحاصرة روما واجبرهم على ان يعترفوا بابا الذي من منصفه . وبعد عدة سنوات اضطر أن يقوم بحملة ثانية لإيطاليا ليعيد البابا الذي طرده اهل روما لنفسه . ولم تكن حالة البابا الذي خلفوا اتون بأحسن مما تقدم فكانوا يضطرون للقيام بعدة رحلات يجتازون بها جبال الألب إما لحضور حفلة التتويج او ليعضدوا احد البابوات الذين عاثوا عليهم او ليجموا احد البابوات من تورة قامت عليه . وكانت هذه الرحلات شاقة لاسبابها وان الامراء الألمان كانوا يكتسبون فرصة غيابهم ليثوروا عليهم ؛ وقد ظلت امبراطورية اتون التي سميت فيما بعد بالامبراطورية الرومانية المقدسة نحو ثمانية قرون . قضى فيها اباطرة الألمان وقتهم في المناوشات مع البابوات عوضاً عن ان يوطدوا سلطانهم في بلادهم . واحيراً انتصر البابوات عليهم .

وسألتكم عن الكنيسة والبابوية واترها فيما يلي :

الفصل الخامس

نشأة الكنيسة المسيحية

نشأت الكنيسة المسيحية في آخر عهد الامبراطورية الرومانية ، وقد اتبع لها ان تدبر وتوجه حياة وافكار أوروبا خلال العصور الوسطى . ولا يزال تأثيرها كبيراً حتى يومنا هذا . ولم تكن منظمة دينية لحسب — كما هي حالة الكنائس في الوقت الحاضر — ولكنها كانت دولة عالمية كبيرة تشمل جميع غربي أوروبا . فكانت الوريث الحقيقي للامبراطورية الرومانية .

كان اليونان والرومان متدينين . انشأوا المعابد لآلهتهم المتعددة وكانوا يصلون لهذه الآلهة ، ويقدمون لها الذبائح . الا انه لم يكن لديهم كنيسة — عالمية — . وكان من ينكر وجود الآلهة ينظر اليه باشمزاز فقط ، لان كل فرد متروك حراً لان يكون لنفسه فكرة عن طبيعة الآلهة وكان لديهم تسامح ديني عام . وبالْحَقِيقَة كان لكل مدينة او قِصْبَة آلهة خاصة يقدمون لها اجل الاحترام دون ان يحتقروا آلهة الآخرين . او بكلمة اخرى كان كل فرد يعبد الآله الذي يراه مساعداً له . إن فكرة تعدد الآلهة ، ينظر اليها عادة وشركاء ، وهي تتعارض مع فكرة الوثنية الجديدة أي الايمان باله واحد ، التي اخذها المسيحيون عن اليهود ، والتي كانت موجودة عند بعض المذكرين الوثنيين الذين كانوا يؤمنون بوجود اله واحد عظيم .

ومن تعاليم المسيحية ايضا اعتقادهم بوجود عدد كبير من المخلوقات الجيدة والشريرة — وهي الملائكة والقديسين من جهة — والشيطان من جهة أخرى . وكان الكتاب المسيحيون سابقا يعتقدون بوجود فوارق كبيرة بين المسيحية وبقية الاديان ، وكانوا يكرهون ان يذكروا أن الاديان كلها تتشابه بعضها مع بعض في بعض النواحي ، تشابه بعض الافكار الوثنية ، الا ان علم مقارنة الاديان الذي ظهر حديثاً ، أظهر أن الديانات كلها اخذ بعضها عن بعض . ولذلك فقد كانت المسيحية في العصور الاولى في نزاع شديد مع كثير من الديانات التي تقبل فكرة التجسّد في اليوم الآخر ، والتخلص من الذنوب ، والوعود بالجنة للعقّارين وبالمذابح للكافرين .

وقد برزت المسيحية بالجنة والخير لمن يقيم تعاليمها ، ويمتد بها ورد بالانجيل . وبينت ان الحياة

الآخرة هي أفضل من الحياة الدنيا . وقد تغيرت المسيحية كثيراً بعد أن اعتنقها الوثنيون مما كانت عليه عند ابتداء ظهورها في فلسطين ، لأن هؤلاء الوثنيون ادخلوا كثيراً من معتقداتهم في الديانة الجديدة . فكثيراً من صيغ وأشكال العبادة دخلت إلى المسيحية . فبعد أن كانت العبادة بسيطة تعقدت بإيجاد طبقة من الكهنة ، وأشكال للصلوات لم تكن موجودة في بادئ الأمر .

رجال الكنيسة

لقد وجدت الكنيسة منذ نشأتها ضرورة التنظيم في جهازها . لذلك انخبت بعض الموظفين الذين لا يعرف على العموم واجباتهم . وكان المسيحيون الأول في بدء حماسهم الديني ، لذلك كانوا يقيمون معالم الانجيل ، باخلاص وينظرون إلى اليوم الآخر بشوق ، دون حاجة إلى نظام كنسي معقد ، وعدد كبير من الكهنة والاساقفة . ولكن كلما تقدم الزمن كان حماس الديني يخف من جهة ، ويزداد عدد المسيحيين الذين ليس لديهم حماس الرجال الأولين . فكان من الضروري إيجاد نظام ثابت تدارسه الكنيسة . ومنذ سنة ٢٥٨ م كان المسيحيون يعترفون ، الكاثوليكية Catholic ، أي وجود كنيسة عالمية جامعة لجميع المسيحيين المؤمنين في أي مكان وجدوا . وكل مسيحي يريد النجاة كان عليه أن يقع هذه الكنيسة العامة ، وكل من يفصل عنها يفصل عن وعود الكنيسة له بالنجاة ، وهو مخائف وغير مقدس ، ونجس ، وعدو . ولا يمكن أن يكون الله أباه من ليست الكنيسة أمه .

وقد وجد فاصل واضح فيما بعد بين رجال الكنيسة وبين بقية الناس ، فرجال الكنيسة يعملون على إدارة الكنيسة وتعليم أفرادها . فكان في كل مدينة رومانية يوجد اسقف Bishop وعلى رأس كل قرية يوجد كاهن Brist ثم يأتي بعد ذلك جماعة أقل من تقدموا وهم بالترتيب : الشمامسة Deacon ، والقندلفت Acolyte والمغزم Esecorcist والقاري Reader والبراب Doorkeeper . وكان الاسقف يدير الكهنة الذين هم في منطقتهم وكان من العائلي أن يكون الاساقفة في المدن الرومانية الكبيرة بعض النفوذ في إدارة شؤون الكنيسة ، لذلك كانوا يسمونهم رؤساء الاساقفة Archbishops وكانوا يجتمعون مع الاساقفة أحياناً لعدالة في الأمور المهمة .

مبدأ سلطة البابا

بعد أن ارتفع البابوات على رأس الكنيسة الغربية ، صار لهم من السلطة والنفوذ ما لا يساهبها سلطة أي ملك أو أمير في عصرهم .

ولم يكن لأسقف روما في بادئ الأمر سلطان زائد عن غيره من الأساقفة، إلا أنه كان دون شك ذا مركز ممتاز بنظر المسيحيين . وذلك لأن الكنيسة الرومانية كانت هي الوحيدة التي تستطيع أن تميز نفسها في بلاد الغرب ، بأنها كانت تدل منذ البدء من قبل بعض حواري المسيح « وهما القديس بطرس وبول » .

فالعهد الجديد يذكر دائماً عن حضور القديس بول Baul إلى روما . كما أن القديس بطرس Peter أشار إلى ذلك . ومن المثير أيضاً في الكنيسة المسيحية أن القديس بطرس كان أول أسقف في روما ، وبالرغم من أنه لا توجد وثائق تثبت أنه يوجد ما يثبت هذا الرأي أو يخالفه . وبكفي الاعتقاد بذلك — سواء كان صحيحاً أو خطأ — لأن يجعل هذا الأمر حقيقة ناسئة . وكان القديس بطرس مفضلاً بين الحواريين ، وكثيراً ما كان يرافق المسيح بمفرده في أحيان كثيرة . ولقد وردت فقرة في العهد الجديد عن إيمان السيد المسيح كان لها تأثير كبير في تاريخ أوروبا المسيحي وهي : « وأنا أقول أيضاً لك بطرس ، وأنت ستبنى على هذه الصخرة كنيسة وأبواب جهنم سوف لا تقهرها ، وسأعطيك مفاتيح الجنة ، وكل من ستقرمه في الدنيا سيدخل الجنة . ومن ستتركه في الدنيا سيهلك في الآخرة . » وبذلك أصبحت كنيسة روما محترمة منذ البداية في بلاد الغرب ، واعتبرت تعاليمها أصبح التعاليم لأنها صادرة عن حواري النبي عيسى .

وعندما يوجد بعض الاختلافات في النظر عن إحدى التعاليم المسيحية فإنه يؤخذ بين الاستمرار رأي أسقف روما . كما أن أسقف روما ممتاز عن بقية الأساقفة بوجوده في عاصمة الإمبراطورية الرومانية فكان من الطبيعي أن يعترف بقية الأساقفة بسيادته عليهم ، لأن روما كانت سيدة بلاد العالم في زمن الرومان . ولم يتبع البابا بالنفوذ السياسي إلا بعد انحطاط الإمبراطورية الرومانية . ومنذ أصبح ليو الكبير (٤٤٠ — ٤٦١) Leo the Great أسقف روما إنشأ تاريخ البابوية

لأن الإمبراطور فالنتينيان الثالث Valentinian III الذي كان يحكم القسم الغربي من الإمبراطورية الرومانية الغربية أصدر بياناً في سنة ٤٤٥ م أعلن فيه امتداد سلطة أسقف روما على جميع بلاد الغرب ، وذلك استناداً للقديس بطرس من جهة ، ولكون روما عاصمة الإمبراطورية . وأمر بأن ما يقوله أسقف روما يعتبر قانوناً ، وكل من يخالف أوامرهم يجب على احترامها بواسطة السلطة الزمنية وبعد ستة سنوات عقد مجمع ديني في خلفدونيا Chalcedon قرر جعل القسطنطينية على البسفور مركزاً دينياً بمعدل روما على نهر الدنوب . وأصبح أساقفة هاتين المدينتين متميزين عن بقية الكهنة الآن هذا القرار رفض من الكنيسة الغربية (اللاتينية) التي انفصلت بالتدرج عن الكنيسة الشرقية (اليونانية) . وكما أمم — بابا — Pope المشتق من اللاتينية papa أي (الأب) يطلق

على جميع أديانهم روما . وكانت غريغوري السابع سنة ١٠٨٥ م أول من خص إسقف روما بهذا اللقب .

الكنيسة والحكومة

إن أهمية الكنيسة في القرون الوسطى لا ينحصر في عملها الديني ، بل بمعناها الحكومي أيضاً وقد كانت الكنيسة في بادئ الأمر على صلة وثيقة مع الحكومة ، وكان كلاهما يساعد الآخر ويدعمه . وعندما كانت الامبراطورية الرومانية قوية كانت تدار من قبل الامبراطور . وكان كلاهما يجده مناسباً يصبح قانوناً ، ولا يستطيع احد من رجال الدين المانعة او التشكي ، وذلك لأن الحكومة كانت أمراً ضرورياً بالنسبة اليهم لأنها كانت تكافح الوثنية ، وتهدم هياكلها ، وتكسر أصنامها ، وتمنع أصحابها وتعاقب بشدة من لا يأخذ بتعاليم الكنيسة .

بعد هجمات البرابرة وسقوط الامبراطورية الرومانية أخذ رجال الدين في الغرب يتدخلون من تدخل الحكام في شؤون الكنيسة ، ولم يكونوا يحترمونهم . وبدأ الكهنة يخاضعون بالتدريج من سلطة الحكومة . وساروا يحلون محلها في كثير من أعمالها ، وفي سنة ٥٠٣ م عقد مجمعا في روما واعاد مفعول الامر الذي أصدره اوداكر Odacer الذي عمل ثم أبطل من بعد ذلك ، والذي ينص على أنه ليس لأي رجل علماني الحق بالتدخل في شؤون الكنيسة . ولقد صرح احد أساقفة روما سنة ٩٦٠ بأن المبدأ الذي تليقه الكنيسة هو أنه « يوجد سلاطين تحميهم العالم : السلاطة الدينية والمدنية ، والأولى تدخل المانية لأنها مسؤولة أمام الله عن سلوك جميع الناس حتى الأباطرة أنفسهم » . ولم يكن احد في القرون الوسطى ينكر بأن منافع الكنيسة للخدمة تزيد أهمية عن منافع الدولة التي تصرف على الأمور الدنيوية . لذلك كان من الطبيعي فيما اذا حصل خلاف بين الطرفين أن تكون الكلمة الأخيرة لرجال الدين . وقد صرح رجال الكنيسة بأن لهم الحق لأن يدبروا شؤونهم بأنفسهم ، ومن ثم أخذت الكنيسة تحل محل الدولة الرومانية في الاعمال التي كانت تقوم بها ، والتي تقوم بها حكوماتنا في الوقت الحاضر ، مثل استئجاب النظام وإدارة التعليم العام ، وسن القوانين ،

ولم تقتصب الكنيسة هذه الحقوق عنوة من الحكومة بل أنها كانت تحل محلها عندما تعجزت عن ممارستها ، لأنه لم يكن في أوروبا الغربية لمدة عدة قرون حكومات بالمعنى الصحيح بعد سقوط الامبراطورية الرومانية . . وأسبغت سلطة الملاك لا تقي يفرض النظام في داخل مناطقهم بسبب حروب ونزوات الامراء المقتربين في انحاء الدولة ، والذين كان الحرب شغلبم الشاغل وسلوئهم العظمى ، فلم يكن الملوك قادرين على نشر السلام ولو كانوا راسين فيه . ففي مثل هذه الظروف

كان من الطبيعي أن تحفظ الكنيسة التي كانت منظمة أحسن تظيم الأمن والنظام وأن تهتد أو تمنع المسيحيين للقوضى بالهدوء والسكينة ، وأن تشرف على تنفيذ التعهدات بين المتعاقدين ، وأن تتدخل في شؤون الزواج ، ودفن الأموات وتنظيمها وأن تحمي الدينامي والارامل ، وتصرف عليهم عند العوز ، وأن تشر التعليم في زمن فقد فيه المعلمين من طبقة الفقراء والأغنياء على السواء . وأن تحفظ المدنية والمعارف القديمة وأن تحافظ على اللغة اللاتينية وتبقيها حية بين رجالها . وأن تكون البرابرة من نقويض الامبراطورية الرومانية فان الكنيسة التي ورثت هذه الامبراطورية تمكنت من امتصاصهم وتغلبهم وإخضاعهم لدينها .

سيادة رجال الدين في القرون الوسطى

لنا امتيازات الكنيسة الرفيعة مع منظماتها العالمية و ثروتها الواسعة جعلت رجال الدين اقوى طبقة حاكمة في القرون الوسطى . ففي يدهم مفاتيح الجنة وبدون مساعدتهم لا يستطيع احد الدخول اليها . ومن نحرمة الكنيسة بطرد من رحمتها ، ومنع الناس من التعامل معها ، وبلغن ويصبح من حزب الشيطان . ويمكن لرجال الدين ان يحرموا مدينة او قرية بكاملها بأن يلقوا ابواب الكنائس ويوقفوا الصلوات وبقية المراسيم الدينية فيها . وقد ازداد تأثير رجال الدين كثيراً لانهم هم الطبقة المتعلمة فقط . فبعد مضي ستة او سبعة قرون على سقوط الامبراطورية الرومانية في بلاد الغرب ، لم يكن أحد يحلم حتى الكتابة او القراءة . فقد كان المحكوم عليه في القرن الثالث عشر ، والذي يريد أن يثبت أنه من طبقة رجال الدين ايحاكم في محاكمها الخاصة التي كانت لها ، بكفي ان يقرأ او لو سطرأ واحداً . لان المعروف عند المحاكم بأن القراءة لا يعرفها الا رجال الدين .

وكانت جميع الكتب تواف من قبل الكهنة والرهبان ، وادرج رجال الدين هم المديطرون على الحياة الفكرية والدينية والادبية كما انهم كانوا الشجعون والمأرسون لتحذارة القديمة . وكانت الكتب والمخطوطات مخزن في مكاتب الاديرة والكنائس ويعدل النسخ على زيادة عددها وتبخر القيم منها ومبادئها مع غيره من المخطوطات في الأماكن الأخرى

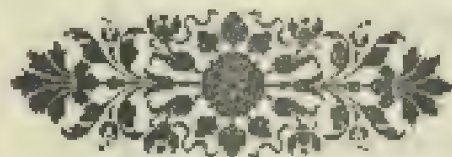
وكانت الحكومة مجبرة على الاعتماد عليهم في كتابة ونشر واعلان اوامرها العامة . فقد كان الكهنة والرهبان يكتبون الملوك ، وكان للكنيسة ممثلون عنها يجلسون في بلاط الملك ويمثلون كائناً ، سراً او وزراء او مستشارين . وبالخليفة فقد كانت ادارة الحكومة منوطة بهم الى حد كبير في خلال القرون الوسطى .

كانت وظائف الكنيسة مفتوحة امام جميع الناس ، وكثير من البابوات ارتفعوا من أحر الطبقات الى كبري البابوية ، وبذلك كانت الكنيسة دائماً تجدد أعضائها من اجناس وعناصر جديدة

ولم تكن وظائف الكنيسة وراثية ، لأنه لا يوجد زواج شرعي عند رجال الدين ، لذلك لم يكن يرث الولد أباه في منصبه بعد وفاته كما هي الحالة في أكثر وظائف الحكومة في ذلك الزمن .

كانت واردات الكنيسة لا تعتمد فقط على إعانات أعضائها ومساعداتهم الكثيرة كما هي الحالة في الوقت الحاضر ، وإنما تعتمد على الأموال التي تستخلصها من إهلاكها الواسعة ، وعلى الضرائب المتنوعة التي تفرضها على أتباعها لأسباب الدين ، الملتحق من العهد القديم الذي كان ضريبة رسمية تشبه ضرائب الحكومة في الوقت الحاضر .

الخلاصة : إن الكنيسة لم تكن مؤسسة دينية حسب تشرف على العبادة ونظم مراسيم الصلاة وتقود الحياة الروحية ، وإنما كانت أكثر من ذلك فقد كانت دولة لها نظامها وقانونها الكنسي ومحاكمها المستقلة وسجنها الخاص . وكانت أهم مؤسسة في القرون الوسطى ويديرها معظم الأمور الدينية والمدنية . وقد دفعت العالم الغربي في سنة ١٠٩٥ م لغز والتمرد وحمات المسيحيين على اختلاف طبقاتهم للقيام بالحروب الصليبية .





الباب التاسع

الحروب الصليبية

٤٨٩ - ٦٩٠ هـ أو ١٠٩٥ - ١٢٩١ م

الحروب الصليبية حملات دينية قامت بها الشعوب الأوروبية المسيحية إلى بلاد الشرق حاولت فيها تخليص الأراضي المقدسة لاسيما - بيت المقدس - من أيدي المسلمين ، وضم الكنيسة اليونانية إلى كنيسة روما اللاتينية التي انفصلت عنها نهائياً سنة ١٠٥٤ م . وقد سميت بالحروب الصليبية إشارة إلى الصليب الذي حمله أعضاءها علامة على مدورهم وكان ابتداءها في زمن المستظير بالله الخليفة العباسي (١٠٩٤ - ١١١٨ م) .

أسباب الحروب الصليبية

إن من الصعب جداً معرفة أسباب الحوادث التاريخية لاسيما إذا كانت متعاقدة متشابكة وطويلة المدى كالحروب الصليبية ، وإنما نحاول أن نستنتج أسباب هذه الحروب بعد وفوعها مستفيدين من الحالة التي كانت تعيش فيها شعوب أوروبا والبلاد الإسلامية ، ومن الحوادث التي سبقت وعاصرت الحملات الصليبية . لذلك نقدم أسباب هذه الحروب إلى : أسباب بعيدة ، وأسباب مباشرة

الأسباب البعيدة

أولاً - النزاع بين الشرق والغرب :

إن الصراع بين الشرق والغرب بعيد المدى يرجع عهده إلى حروب طروادة وحروب فارس واليونان ، وحروب المسلمين مع هرقل وفتح بلاد الشام . وعند إلى ما بعد الحروب الصليبية عندما فتح الأتراك العثمانيين قسماً كبيراً من أوروبا ووصلوا إلى أبواب فيينا ولا يزال هذا النزاع مستمراً إلى عصرنا الحاضر المتميز بالاستعمار الأوروبي لبلاد الشرق . وقد كانت الحروب الصليبية بمثابة رد فعل ضد الاسلام في العالم المسيحي ، وبمثابة قيام أوروبا المسيحية على آسيا الإسلامية التي كانت اتخذت خطية الهجوم منذ سنة ٦٣٢ م ليس على سورية وآسيا الصغرى فحسب بل على اسبانيا وسفلية .

ثانياً - العامل الديني :

إن الشرق مهد الديانات القديمة ، وكانت سوريا مسرحاً للحياة المسيحية الأولى فيها ولد المسيح

وعلى وترى ، وفي سورية تكونت الديانة المسيحية ، ومنها انتشرت إلى البلاد الأخرى ، وكانت
سلطان الدين قوياً في القرون الوسطى وسيطراً على عقالية رجال الغرب فلما انبثرت هذه النعمة
الدينية ووجهوا أهل البلاد الأوروبية لفتح القدس .

ولم يكن الشرق مهد الديانة المسيحية فحسب بل كان منبع الثقافة المسيحية أيضاً ، فلما سقط
روما بيد البرابرة الجرمن انتقلت الحركة الثقافية إلى القسطنطينية وانطاكية والإسكندرية
والقيصرية . وكانت هذه المدن مراکز تشع منها التعاليم الدينية والمشاط الفكري . وكان الشرق
موطناً للحضارة اليونانية ، وفيه نشأت الكنيسة اليونانية .

ثالثاً — نظام التكفير عن الخطايا :

وهو النظام الذي فرضته الكنيسة على أتباعها ليكفروا عن خطاياهم بالصلاة والصوم أو بتعذيب
الجسد أو بالحج . ولما كانت اورشليم (القدس) أقدس الأماكن والأرض الخزائن الدينية بعداً
عن أوروبا ، وكان الحج إليها غفراً لأعضائها ، فقد كانت منذ القدم مقصد أمثال هؤلاء الحجاج
الذين يرومون التكفير عن سيئاتهم . وإذا رأى الأوروبيون هذا المقصد مخوفاً بالخطر ، فقد عقدوا
العزم على اتقائه وحمايته . ومن ثم كانت الحروب الصليبية بمثابة حج كبير يحمله السلاح ، وكان
الغرض منه إفصاح الطريق وتحرير المكان المقدس ليمسكن الناس من الحج إليه في المستقبل .

وكان المسلمون في العهود الأولى يتسامحون مع الحجاج ويسهلون عليهم للقيام بالحج إلا أن الخليفة
الفاطمي الحاكم تشدد في معاملة النصارى كما رأينا وأمر بهدم كنيسة القيامة سنة ١٠٠٩ م وهدم
غيرها من الكنائس والأديرة . ثم جاء السلاجقة بعد ذلك ووضعوا صعوبات كبيرة في وجه الحجاج
الأوروبيين وفرضوا عليهم ضرائب فادحة أثناء مرورهم في آسيا الصغرى وفي سورية . زد على ذلك
ما كانت تعانيه سورية من الفوضى والاضطرابات الداخلية ، بسبب الحروب بين الإمارات المستقلة
فما جعل وصول الحجاج إلى الأراضي المقدسة صعب المنال حتى أنهم حوالى سنة ١٠٦٥ م جازوا
بشكل جماعات كبيرة من جنوبي ألمانيا تحميهم قوى مسيحية . وكان ذلك فاتحة للحروب الصليبية

رابعاً — طموح البابوات إلى السيادة العليا في الغرب والشرق :

كان النزاع قائماً في أوروبا بين السيادة الروحية والسيادة الزمنية على السيادة الفعلية ، فكانت
البابوات يريدون فرض سلطانهم على حكام أوروبا حتى أنهم حصروا في تنويع أباطرة الإمبراطورية
الجرمانية المقدسة بأنفسهم ، فكان الأباطرة يشكفون مشقة السفر إلى روما لينالوا تاجهم من يد
البابا . وبعثاً حاولوا التماس من ذلك . وكان من نتيجة سيطرة رجال الدين أن وجه البابوات
ملوك وأمرأ وشعوب أوروبا إلى الشرق للقيام بالفتوح الصليبية .

كما ان البابوات كانوا يطمحون من القيام بالحروب الصليبية إلى ضم الكنيسة الشرقية تحت سلطانهم وتوحيدها مع الكنيسة الغربية .
خامساً — فساد النظام الاقطاعي :

كانت الحرب لا تنقطع بين الامراء الاقطاعيين كما مر معنا وقد حاولت الكنيسة عبثاً القضاء على هذه الحروب الداخلية فأوجدت « الهدنة الربانية » و « نظام القروسية » و انتهت بخلف الوسائل لتخفيف ويلات الحروب ، ولما كان من المتعذر ايجاد السلم الداخلي لما انطلق عليه أهل الغرب من حب القتال والحرب ، وجه البابوات الحاربين الغربيين لقتال المسلمين . وكانت هذه الحرب المقدسة حلاً لكثير من مشاكل أوروبا السياسية والاقتصادية والاجتماعية .

أما السياسية : فقد وجد الامراء الاقطاعيون الصغار في الحروب الصليبية فرجاً لهم ، فأنشئوا امارات واسعة في بلاد الشام . وكانت هذه الامارات عبارة عن مستعمرات اقطاعية أدى إليها المهاجرون الغربيون .

أما الاقتصادية : فالحروب الصليبية أوجدت سوقاً تجارية واسعة لأهل الغرب في بلاد الشرق أخذوا منه ما يحتاجون من غذاء ولباس ونزف .

أما الاجتماعية : فكانت الحروب الصليبية وسيلة لتحرير طبقات المجتمع الاوربي من برا الاقطاعية فتخلص الفلاح من ظلم السيد ، وتحرر الارقاء من عبوديتهم ، ونشطت حالة الصنائع كثيراً . وقد أوجدت الحروب الصليبية حاجة ماسة في قلوب أهل الغرب ، لأن أفراد المجتمع الاوربي كانوا يربدون الخلاص من حالتهم السيئة فتقبلوا نداء البابا بشوق وحماس .
سادساً — حب الكسب :

كانت الحملات الصليبية بنظر كثير ممن اشتركوا فيها واسطة للثيب والسلب . فكثير من المتشردين كانوا يسمون للغنمة والكسب اكثر من سعيهم لانقاذ الأراضي المقدسة والتكفير عن خطاياهم . وكانت الحاجة والجوع والفاقة شديدة عند أهل الغرب بسبب سوء المواسم الزراعية وقلة الحاصلات ، وزيادة عدد السكان بالنسبة لمقدرة الأرض على الانتاج بالطرق القديمة التي كانوا يقومونها ، والكثرة الامراض والأوبئة التي تحتاج بلادهم . فكانت الحروب الصليبية واسطة لتحصين حالتهم المادية .

سابعاً — أطماع التجار الايطاليين :

كانت المدن الايطالية آخذة في النمو ، وكان تجار البندقية وجنوة وبيزا وأمالفي وغيرهم قد عرفوا ثروة الشرق وغناه ، وبهرتهم حضارته وعمرانه فشحجوا الحملات الصليبية كثيراً . وساعدوها

ينقل بحبوش الصليبيين بصفهم إلى بلاد الشرق وإمدادهم بأدوات الحصار والذخيرة عند حصار
الآن . وكانت سفنهم تنقل أنواع الحجاج في كل سنة ، وقد أسس التجار الإيطاليون ، مستودعات
على الساحل السوري تمتلئ من بضائع آسيا وحاصلاتها وتنقلها بطريق البحر إلى أوروبا وتأتي
بحبوش الصليبيين بدلاً عنها .

ثانياً — حب المغامرة :

كان حب المغامرة شديداً في نفوس رجال ذلك العصر يدفعهم للابتعاد عن بلادهم الفقيرة والتفتيش
عن بلاد أغنى وأوسع ، وهذا العامل هو الذي دفع النورمان (أهل الشمال) من أسوج وروج
وجلبهم إلى فرنسا وحملية . كما أن قسص الحجاج والتجار والرحالة الذين زاروا الشرق مثل
ماركوبولو ، الذي وصل إلى الصين وكتب كتاباً عن رحلاته كان يقرأ وغيره من الكتب
والأخبار في قلاع وحصون الاقطاعيين ويدفعهم المغامرة في البر والبحر للوصول إلى بلاد الذهب
والعاج والبهارات والحرير والنصود والتمدن

ثالثاً : انقسام المسلمين

إن انقسام المسلمين إلى دويلات صغيرة يتنافس بعضها البعض ، وتفرق وحدة الخلافة ووجود
خليفة سني في بغداد وآخر شيعي في القاهرة ، وقيام دولة السلاجقة وأتابكتهم يتازم بعضهم بعضاً
جراً الفريسيين لدخول هذه البلاد وغزو المسلمين في عقر دارهم .

السبب المباشر

إن السبب المباشر الذي خرجت منه الحروب الصليبية هو انقصار سلاجقة الروم على البيزنطيين
وتوغلهم في بلادهم ، لاسباً بعد موقعة منسكركت Manzikert في آسيا الصغرى سنة ١٠٧١ م
فاستجد الامبرطور البيزنطي ميخائيل بالبابا غريغوريوس السابع سنة ١٠٨٠ م فوجدت هذه الدعوة في
نفس البابا مجالاً رحباً ووعد الامبرطور البيزنطي أن يقود الحملة بنفسه لمساعدته ، ولكنه ما لبث
أن استبدت بترامع مع الامبرطور الجرمان هانزي الرابع ، ففسي وعده . ولما اعتلى الامبرطور
الكسيوس Alexius عرش بيزنطة وجد نفسه محاطاً بالسلاجقة من جميع الجهات فأرسل الدعوة إلى
البابا أوربان الثاني Urban II (١٠٨٨ — ١٠٩٩ م) وهو أفرنجي الاصل ، وكان حريصاً على رفع
مقام البابوية ، ودعم قوتها الزمنية ، فأرسل دعوة للوك أوروبا وأمرائها وأساقفتها سنة (١٠٩٥ م)
(٤٨٨ هـ) بدعوه فيها لعقد مؤتمر في مدينة كليرمنت Clermont الواقعة في جنوبي فرنسا ،

وخطب في الاجتماع خطابه الشهير (١).

الذي دعي فيه إلى الحملة الصليبية . وحركة السسابا جميع المواطنين التي كانت تنور في نفوس
الغربيين من سياسية ودينية واقتصادية ، وبها يقولون دعوتهم ، وصاحوا بصوت واحد هكذا أراد
الله (God Will It) ، واخذوا الصليب رمز تلك الحرب وعلان السبابا غفران ذنوب الخاطئين الذين
يأتشفون بهذا الجهاد الذي ، ووعدهم بأنهم يتوفون في سبيل هذه الحرب جنات الله ، وعلى المحاربين
من الديون والضرائب ، ووضع أموالهم وأهلهم وذوهم في حماية الكنيسة ، وكان أكثر المشتركين
في الحملة الأولى من الفرنسيين لأن الدعوة كانت في أرض فرنسية ومن بابا أحله أفريقي .

الحملة الصليبية الأولى

كان من نتيجة الخطاب الذي ألقاه البابا أوربان الثاني أن قامت الحملة الصليبية الأولى وبمكث
تقسيمها إلى قسمين : الحملة الشعبية ، وحملة الأمراء .
الحملة الشعبية :

قام بهذه الحملة داني اسمه ، بطرس الناسك Peter the Hermit ، وهو فلاح من أصل أفريقي
ولد بقرب مدينة أرميا . أخذ ينتقل من بلد إلى آخر راكباً على حماره يثير عواطف الأوروبيين
الغزاة بلاد المسلمين ويخلص الزير المقدس ويمكن بخطاباته الحماسية أن يجمع خمس فرق من الفلاحين
والمتقنين من الرجال والنساء والأولاد وأنت يسير بهم إلى القسطنطينية ، غير منتظر حملة الزلاء
الاقطاعيين التي تقرر في جمع كلبرمنت أن تسير في ربيع سنة ١٠٩٦ م .

ساوت هذه الفرق الخمس تنهب ما تجده في طريقها من أغنام والعلف ، ونبت في المدن والقرى
التي تمر بها فساداً ونجرباً ، فاصبحت المجر وبلغاريا أرضاً يبابا أمام جموع بطرس الناسك ، فغار بهم

(١) هذه بعض فقرات من خطاب البابا : « أيها الجند المسيحيون ، لقد كنتم تحاولون من غير
حدوى إثارة نيران الحروب والنزاع فيما بينكم ، أفيقوا فهدو وجدتم اليوم دانياً حقيقياً الهبا ، لقد
كنتم سبب إزعاج مواطنكم وقياماً ، فادعوا الآن وأزعجوا (البرابرة) أذهبوا وخلصوا البلاد
المقدسة من أيدي (الكفار) . إنكم إن انصرفتم على عدوكم كانت أكم ممالك الشرق ميراثاً وإن أنتم
خلفتم فستموتون حيث مات المسيح ، فلا يفسدكم الرب من رحمته ، فيجلكم محل أوليائه ، إن هذه
الحرب ليست لامتلاك مدينة واحدة ، بل لامتلاك إقليم آسيا بأكملها مع غناها وخزائنها التي لا تحصى
فاحذوا حجة البيت المقدس ، وخلصوا الأراضي المقدسة من أيدي المحتلين لها ، وامتلكوها أنتم
خالصة لكم من دون أولئك الكفار ، فهذه الأرض كما قال التوراة : تفيض لبناً وعسلاً .

المجربون والبلغاريون وقضوا على عدد كبير منهم ، كما أنهك التعب والمرض والجوع القسم الآخر ، ولم يصل إلى القسطنطينية الا فرقتين إحداهما بقيادة بطرس الناسك والاخرى بقيادة ، والتر المقاس ، *Waller the Penniless* ، والذين وصلوا القسطنطينية كانوا بحالة سيئة من الفوضى والاضطراب وكانوا يظنون أن كل معوية ستكثف عنهم عند تطلأ أقدامهم الاراضي المقدسة . فراد الا ، برطور الكيوس أن يخلص منهم مساعدتهم على عبر البوسفور . دون أن يسمح لاحد منهم بالاقامة في عاصمته ولو الى حين .

وشرعوا في اسيا الصغرى يرتكبون أشنع الفظائع التي تفوق حد الوصف ، ويقول الميشر *Michael* : « إن الصليبيين ارتكبوا جرائم وفظائع جعلت الطبيعة تهز خوفاً وفزعاً من هولها . فكانوا يقتلون الاطفال في أحضان أميائهم ، ويثرون أشلاءهم في الهواء . . . » غير أن سلطان السلاجقة زحف عليهم بخمسة عشر ألف مقاتل وأبادهم عن بكرة أبيهم . انتهت هذه الحملة دون أن تترك أثراً حروبياً يذكر ، وإنما جلبت عاصفة أهل الغرب مدة من الزمن عاصفهم حول شخصية بطرس الناسك من خرافات وأقداس أقرب للتخيل منها إلى الحقيقة التاريخية فجعلوه بطل الحروب الصليبية ، والسبب الحقيقي لها .

صحة امراء

في صيف وخريف سنة ١٠٩٦ م (٤٩٠ هـ) سارت جيوش الصليبيين الى البلاد المقدسة ، وكان أشهر فوائدها :

اولاً : كودفري Godfrey أمير مقاطعة اللورين ومعه ثمانية بلدوين *Baldwin* . سار جيشها من شرقي فرنسا وقطع البلقان إلى القسطنطينية .

ثانياً : ريمون دو طولوز Raymond of Toulouse أمير مقاطعة البروفانس في جنوبي فرنسا وكان أغنى الأمراء وأكبرهم سناً . وهو أول من أجاب دعوة البابا في مجمع كابرنت . سار هذا الأمير صعباً أديباً ، يمثل البابا من جنوب فرنسا إلى سواحل إيطاليا الشامية ، ومنها إلى البلقان فالقسطنطينية .

ثالثاً : يوهنتد Bohemond الزماندي . والترمانديون أسسوا دولتهم في جزيرة صقلية وجنوبي إيطاليا . ولحق به ابن أخيه تسكرد Tascard الذي اجتاز بحر الأدرياتيك . وسار مع عمه إلى القسطنطينية .

تجمعت جيوش الصليبيين مع فوائدها في القسطنطينية . ولم تسكن هناك وحدة بريطانية سوى الوحدة الدينية . فهم خليط من مختلف شعوب أوروبا الغربية ، ليس لهم قيادة موحدة ، ولا أهداف

متفقة ، بل كل منهم يسمى بصلحته الخاصة . وقد سُمِرَ الامبراطور البيزنطي الكيسوس بنوالياهم ، وخاف منهم على مملكته ، ولم يكن متفقاً معهم في الرأي ، لأنه كان قابِلَ الاهتمام بتخليص بيت المقدس من يد المسلمين ، وكان هدفه من دعوة أهل القرب هو أن يمدوه بجيش يستطيع أن يخلص بواسطته أراضيهم في آسيا الصغرى من السلاجقة . كما أنه اختلف معهم عن ضمير البلاد التي يفتحونها هل تكون تابعة له ، أو تصبح ملكاً للكنيسة أو بأخفها الامراء الذين يفتحونها ؟ وأخيراً اتفقوا على أن يكونوا امراء اقطاعيين تابعين للامبراطور البيزنطي في الامور التي يفتحونها ، واقسموا له بيمين الولاء . الا أنهم لم يبروا بيمينهم .

قطع الصليبيون البوسفور سنة ١٠٩٧ م (٥٩٩ هـ) واستولوا على « نيقية » (١) بعد حصار دام مدة شهر ، ساعدتهم فيه الامبراطور البيزنطي الكيسوس ، وضم إليه هذه المدينة مقابل ما وُزِعَ عليهم من الاكراميات والاموال . وفي طريقهم نحو اقطاعية انتقوا مع السلاجقة بقرب مدينة افرولية وجرت بين الطرفين معركة شديدة انهزم فيها السلاجقة ، وفتح طريق سورية أمام الصليبيين وانفصل بهـد ذلك بلدون عن عامة الجيش الصليبي وسار نحو الشرق ، واستولى بمساعدة الارمن على مدينة « الرها » Exessa سنة ١٠٩٨ م وأسس فيها أول إمارة لاتينية . ونزوح بالمرأة أرمينية لتزهد صلاته مع أهالي البلاد ، ولتقرب ويقرب منهم .

فتح اقطاعية ومرة النعمان .

زحف الجيش الصليبي إلى اقطاعية ، وهي من أهم المدن السورية من الناحية الجغرافية والثقافية والسياسية ، لانها مفتاح سورية الشمالية ، ومركز الثقافة الدينية المسيحية ، وقريبة من الدولة البيزنطية . فحاصرها الصليبيون اربعة اشهر من تشرين الاول سنة ١٠٩٧ م حتى حزيران سنة ١٠٩٨ م ساعدتهم في أثناء الحصار المراكب الجنوبية وأمدتهم باليرة والذخيرة وأدوات الحصار . ودافع السلاجقة عنها دفاع الأبطال (٢) ، ونو لا حياة الفائد فيروز الأرمني ، امد محافظي الأبراج لما تمكن الصليبيون من فتحها ، يقال أنه أدلى الجبل بالليل من على الاسوار فسلم عليها الصليبيون . واستولوا على بعض الاستحكامات بعد أن ذبحوا حراسها . ثم فتحوا أبوابها وندفوا لها كل المدينة وأحرقوا الديف في وقاب أهلها وقتلوا منهم عدداً كبيراً . وشرع هؤلاء اللاتينيون بذبحون السكان دون أن يراؤوا حرمة الشيخوخة وضعف النساء ، وعجز الاطفال ، فاشكوا حرمة المسارح ، وكان منظر الجوامع

(١) نيقية : مدينة بخوار اسطنبول .

(٢) دافع الصليبيون أثناء حصار اقطاعية وبلات الجوارح حتى اكلوا اللحوم البشرية ، ويقول المستر ميلر « أن جنود الصليب كانوا يذبشون القبور ، ويأكلون اللحوم البشرية سراً » .

يزيد وحشية على وحشيتهم ، ففوضوا الفصور المنيع ، والأكواع الخفيفة ، وتركوها ركناً ياباً
كما سالت السماء البشرية في الميدان والطرق على السواء ، ويقدر المؤرخون عدد الذين قتلوا في تلك
المدبحة زهاء عشرة آلاف ، وظلت القلعة محاصرة في داخل المدينة ، وبعد عدة أيام ومات آخضار
الحصار إلى الموصل فحاصرها لا تغداد أنطاكية ، فوجد الصليبيون قد استولوا عليها ، فحاصروهم
وشدد الحناق عليهم ومنع البيرة عنهم حتى ضاقت بهم الحياة عليهم ، فصاروا يأكلون الحيوانات
والاعشاب وحدث الاموات ، ودب اليأس في قلوبهم حتى أن كثيراً منهم تسلقوا الاسوار في الليل
وهربوا إلى الشامي ، وجرى حادث أثار الصليبيين وهوان الراهب بيتر واكتشف الحربة المقدسة
التي ظمن فيها المسيح ، فكان ذلك فلا حسناً ينظرون فحشدوا قوام وخرجوا للملايكة وحاربهم
وصدوهم عن المدينة واختلف الصليبيون لمن تكن أمانة أنطاكية وبعد جدل كبير انتخبوا بومحمد
أميراً عليها وزحفوا بحر مرة النيران . فاستولوا عليها عنوة وبمحووا مئة ألف من سكانها ، فمات
الدماغي الشوارع كالأنهر ، ثم لمسته مرض بومحمد أسراة ويقولون بيلز : إنه استولى على الجبال والشباب والاقوياء
لكيما يبيعهم في اسواق الرقيق ، وأمر ببيع الشيوخ والاطفال على مذبح القدوة والذلة ، وفي مرة
النيران أقدم الصليبيون على اكل اللحوم البشرية ، حتى أنها كانت تباع علناً في معسكراتهم .

فتح بيت المقدس :

كانت القدس بيد الفاطميين عندما حاصرها الصليبيون سنة ١٠٩٩ م (٥٩٢ هـ) وساعد الجنود
والبنادقة الصليبيين من ميناء يافا ، فلبوا اليهم بواسطة سفنهم الاعمدة والاخشاب والسلاح والرجال
والارواد ، واشتد حمل الصليبيين كثيراً لمشاهدة بيت المقدس وبعد حصار دام أكثر من شهر سقطت
في أيديهم فقاموا بمدبحة هائلة دامت اسبوعاً ، كانت المسلمون يذبحون ذبح الانعام في الشوارع
والقارل ، ولم يجد أهل المدينة عملاً أيضاً فمضوا به ، فأنقذ بعضهم نفسه من فوق الاسوار ، وازدهم
البعث الآخر في الفصور والحصون والمساجد . ولكنهم لم يستطيعوا برغم ذلك اخفاء أنفسهم من
متصيريهم ، فحاصر الصليبيون جامع عمر - الذي اعتصم فيه المسلمون - وجددوا تلك المناظر
الوحشية التي تعد وصحة في جبين فرسان اليتون إذ هجم الجنود على المسارين وأهملوا الهدف في
رقبهم من غير شفقة ولا رحمة . وقد أحرقت الصليبيون بعض المسلمين وهم أحياء ، وأخذوا يفتنون
بهم أشنع فتيل ، ولم تكن نجدي في ذلك الموقف الدامي دموع النساء ولا صراخ الاطفال ولا منظر
البلد الذي صفح فيه السيد المسيح عن جلاديه . وكتب الصليبيون إلى البابا يهنئونه بفتح القدس
بقولهم : « إنما أردت أن تعلم بما جرى لأعدائنا حتى أنه في أيوان سليمان ومعبدته كانت خيولنا تنجس
في بحر من دماء المسلمين إلى ركبتها » . ويقول أنه هلك من أهالي القدس وحدها زهاء مئتين الفا
في هذه الجزيرة . وأعجب الاشراف كود فري حاكماً للقدس وألقب نفسه بكل خشوع « حامي القبر

المقدس ، وأخذ يتناوش أهل البلاد ، وحدث هجوماً من قبل الفاطميين قرب عسقلان سنة ١٠٩٩ م وما لبثت أن قتل سنة ١١٠٠ م أثناء حصار عكا ، خلفه أخوه بلدوين حاكم ولاية الرها ، وتوج ملكاً على القدس . وبذلك تم تأسيس الدولة اللاتينية . وخلفه في الرها ابن أخيه . وكان تابع إقطاعي له يعمل بأمرته . وعمل بلدوين على توسيع حدوده في البلاد المحيطة بالقدس وكانت جهوده موجهة إلى ناحيتين رئيسيتين .

أولاً : استخلاص الساحل السوري من يد الفاطميين ، لأنه هو المنفذ الحقيقي الذي يصل الصليبيين بالغرب . وبدون المددات الغرب بالرجال والمال لا يمكن لدولة القدس أن تبقى . لذلك استولى بلدوين على أرسوف وقيسرية سنة ١١٠١ م واستولى على عسكارة سنة ١١٠٤ م واستولى على صيدا سنة ١١١٠ م ولم يبق بيد الفاطميين على الساحل إلا صور وعسقلان وشوكة وكانت عسقلان في جنب الصليبيين وعسكارة في أيدي الفاطميين . وسقطت سنة ١١٥٣ م .

ثانياً : كانت جهود بلدوين موجهة إلى الدخول بحارب حاكم دمشق مراراً وتوسيع نفوذه من ناحية الجنوب في ناحية البحر الميت والأردن ، حتى وصل في غزواته إلى خليج العقبة ، وكان همه قطع القوافل التجارية بين مصر والشام ، وفصل القطرين عن بعضها البعض من الناحية السياسية والاقتصادية . وقد نجح إلى حد كبير في عمله وتوفي سنة ١١١٨ م^(١) .

(١) خلف بلدوين الأول بعد موته بلدوين الثاني ، الذي كان حاكماً على الرها . وعمل أثناء حكمه في بيت المقدس على جمع جهود جميع الصليبيين في سورية في جهة واحدة ، وتوفي سنة ١١٣١ م بعد أن بلغت قوى الصليبيين أوجها . خلفه على ولاية بيت المقدس صهره فولك Fulk أمير ولاية أنجو Anjou في فرنسا ، دعى حاكماً في القدس حتى وفاته سنة ١١٤٣ م حافظ خلال سنتين حكمه على مملكة القدس دون أن يحاول التوسع . وخلفه ابنه بلدوين الثالث وهو تولى ملكاً صليبي ولد في سورية ، وتربى فيها . استولى على عسقلان سنة ١١٥٣ م وفي زمنه استولى عماد الدين زنكي على إمارة الرها . وبعد وفاته خلفه أخوه أموري الإل الذي تولى الشام الذي تمكن من ركوبه في الإسكندرية على مصر . وخلفه بلدوين الرابع وكان مصاباً بمرض العرج .

ولم تكن له يد فعالة في إدارة الدولة . وخلفه ابن أخيه بلدوين الخامس وكان صغير السن فكان وصيه ريموند أمير ملباريس . وبعد وفاته سنة ١١٨٦ أخذ الملك في بيت المقدس أحد مقامري الفرنج ويدعى Guy de Lusignan في زمنه سقطت بيت المقدس بيد صلاح الدين الأيوبي سنة ١١٨٧ م .

فتح طرابلس الشام

وجه ريمون حمله لتأسيس إمارة صليبية في طرابلس قرباً أدوات الحصار سنة ١١٠٢ م وبقي قلعة على الضفة المقابلة لطرابلس أقام فيها الصليبيون ، الا ان القدر لم يحمله فمات قبل فتح المدينة سنة ١١٠٥ م فأكمل الصليبيون العمل من بعده وسقطت المدينة سنة ١١٠٩ م بعد حصار دام خمس سنوات ساعدهم فيه أسطول مدينة بيزا الايطالي . وحكم المدينة Bertrand of Verdagne برتراند بن ريمون وقد دافع المسلمون دافع الأبطال عن مدبتهم واستمر حاكمها طر الملقب بن عمار بالصليبيين فلم يهينوه وأخيراً تمكن الصليبيون من الدخول اليها وأعملوا الديف في رقب أهلها وأحرقوا مكنتها العامة ، وكلكتها ومصانعها وقضوا على مزارعها الجميلة وبيوتها الفضة .

نتائج الحملة الصليبية الاولى

لقد أسفرت هذه الحملة الصليبية على نتائج كثيرة منها :

١ - امتزاج الصليبيين بالسوريين في أيام الحرب والدم والاختلاط بهم . بعضهم البعض بسبب التجارة ، والزراعة ، والاسر . واندمجوا بالاعالي وانصهروا معهم وتأثروا بعادات الشرقيين واخلاقهم (١) .

(١) ذكر الأستاذ فيليب حتى في كتابه تاريخ العرب ما يلي : جاء الفرنجة الى الاراضي المقدسة وهم يحسبون انفسهم أرفع منزلة من أهلها ويمتبرونهم وشريين يبدون محمد كالحيا . ولكنهم ما كادوا يمكنكون الصلات بالمسلمين - حتى سادت المشاوة بين دينهم . لما الاثر الذي تركه الفرنجة في نفوس المسلمين فقد عبر عنه المؤرخ العربي أسامة بن منقذ بقوله في كتاب الاختيار : إنهم بهائم فيهم فضيلة الشجاعة والقتال لا غير . ولكن الاختلاط الذي لم يكن منه بين المسلمين في أيام السلم - وهي أطول من أيام الحرب كثيراً - أدى الى تطور الشعور بين الطرفين ، فالتفت على أثر ذلك علاقات الصداقة وحسن الجوار ، ودار الفرنجة يستأجرون مناداً وملاحين بأنوفهم . وما لبث النظام الاقطاعي الذي اوجدوه أن تحول وأصبح على مرير الألام ملائماً لاصحوال البلاد . واتخذ الفرنجة لانفسهم الحبوب العربية والبراذ وكلاب الصيد ، وعقدوا الحافيات مع العرب لحماية الصيادين ومن الاعتماد . كذلك تحالف الفرنجاء على صيانة وجال السفن والتجارة ووضعوا لذلك قوانين جبرى الفرنجاء على مراعاتها . وأقطع الفرنجة عن لباسهم الاوربي واختاروا الاريا الوطنية التي كانت ادعى الى الراحة واكثر ملائمة لطبيعة البلاد . واكادوا أدباً في الخدمة في الشمام خاصة الاثوان التي يكثر فيها استعمال السكر والتوابل . وفضلوا سكنى البيوت الشرقية التي تنوسطها صحنون -

٢ - تأسست أربع أمارات صليبية إحداهما في الرها والثانية في أنطاكية والثالثة في بيت المقدس والرابعة في طرابلس ، ولم تكن جهود هذه الإمارات موحدة دائماً بل كان يعمل كل منها لوحده ، وأكظم هذه الإمارات من الناحية الدينية والحربية ، كانت الدولة اللاتينية في بيت المقدس .

٣ - ازدادت علاقات جمهوريات إيطاليا التجارية مع الشرق لاسيما جمهورية جنوة ، وبيزا والبندقية وألماني . ودار الإيطاليون يبنون مستودعات على الساحل السوري لتبادل التجاري سمح بها الصليبيون في مقابل مساعدتهم لهم أثناء حصار المدن السورية .

٤ - ازداد عدد الحجاج الغربيين الذين ما سمعوا بسقوط القدس بيد الصليبيين حتى توافدوا من جميع أنحاء أوروبا لزيارة البلاد المقدسة ، وكانوا عوناً لأخوانهم الصليبيين في هذه البلاد ، في أعمالهم الحربية .

٥ - ظهرت مؤسسات دينية حربية في الشرق جمعت بين مبادئ الرهبنة والفروسية مهتمتها بحماية النصارى والضعفاء ، والعناية بالمرضى والحرم أثناء الحرب . وكان أعضاؤها يأخذون على أنفسهم العبود بلازمة الفقر والطهارة والطاعة . وأهم هذه المؤسسات : الأستبارية Hospitallers والداوية Templars وفرسان التيثون Teutonic Knigt وغيرهم وما لبث أن انضم الإمبراطور والفرسان بكثرة لهذه المؤسسات ، وانتهت عليهم المنح والأراضي والأموال .

وضع المسلمين السياسي في الشام عند مجي الصليبيين

عماد الدين زنكي :

عند ما جاء الصليبيون اسورية وجدوها مقسمة ضعيفة يحكم في كل بلدة منها حاكم مستقل يخضع اسماً للسلاجقة . وكان النزاع محتدماً بين السلاجقة والفاطميين لا بطرة على سورية . فاستفاد الصليبيون من انقسام المسلمين واستولوا على بعض المناطق السورية . وكان توحيد الجبهة العربية معروناً بجهود الإنابك عماد الدين زنكي (١١٢٧ - ١١٤٦ م) ابن آق - سنقر أحد مماليك السلطان

مكشوفة واسعة فيها نواوير المياه . وزوج بعضهم بالوطنيات فنشأ من هذا المزاج جبل جديد متوسط بين الجنسين أشير الى افراده بلفظ (بولان Poulains) وبلغ أخدم بالمقار المحلية درجة احترامها معها المزارات التي قدسها المسلمون واليهود . وكان اللاتين في بعض خصوصاتهم المشتمة فيما بينهم يرجعون بمساعدة المسلمين الذين كانوا يحسبونهم قبلاً كقلراً . وكذلك فعل المسلمون فكثيراً ما حالفوا الأقوام اللاتينية ضد أخوانهم المسلمين .

ملكشاه السلجوقي .

تولى عماد الدين ولاية الموصل سنة ٥٢١ هـ . أسس دولة في الموصل امتدت إلى حلب ، وحمص ، وعلبك . وأنشأ في سورية الداخلية دولة موحدة فظلم ادارتها وجبايتها ، وأمن سبلها وجيز عيشاً متظلماً حارب فيه الصليبيون والبيزنطيون الذين اتحدوا على قتاله ، وفتنهم عمل حربي قام به استيلاءه على مدينة الرها سنة ١١٤٤ م (٥٣٩ هـ) وطرده الصليبيين منها ، وقد سمي هذا النصر « بعصر الانصار » . إذ كان المسيحيون يعتقدون أن الرها من أعظم مدتهم ، وهي مفتاح الجزيرة ، وبلاستيلاء عليها تمكن رذكي من القبض على ناحية الامور في المناطق والحصون الاخرى المجاورة لها . ثم أخذ يحصن المدن الداخلية المجاورة للصليبيين ، وما زال يجاهد الاقربح تارة واخرى عليه من أهل البلاد اخرى حتى قتل على أبواب قلعة « جعبر » سنة ١١٤٦ م (٥٤١ هـ) استاله احد عماليكه وهو نائم بخريص من أعدائه .

كان عماد الدين رذكي عادلاً كريماً عقلاً تنجع الزراعة والتجارة وشيد المدن القوية وشدد الوطأة على الفتنه والفساد ، ونظف البلاد من السفاكين والهايين ، ومن المأثور عنه قوله : إنه كان يؤثر ظهور السيل على الفرائس الوئير ، وعاصمة السيوف على أشجى الانعام ، وقرعة السلاح على مغازلة الغايات ، وقد أعجب من الاولاد سيف الدين الغازي وهو أكبرهم سناً وأشدت اليه أمارة الموصل . ونور الدين الذي ورث عن ابيه لقب أمارة حلب ، ولقب حامي المسلمين .

نور الدين رذكي :

تدرب نور الدين رذكي (١١٤٦ - ١١٧٤ م) على الفنون العسكرية منذ صغره ، وكانت شجاعتاً عادلاً متديناً محباً للعلم ، أسس الكليات والمستشفيات في جميع أنحاء المملكة ، وكان يفيض على طلاب العلم والعلماء الذين كانوا يؤمنون بلائله بكرم وسخاء ، وأسس داراً للعدل ، وكان جل تأمله في حياته أن يوفر أبواب السعادة والرفاهية لشعبه ، وأدى مكافحة الصليبيين وتوحيد القوى الاسلامية التي بدأ بها أبوه . وفي زمنه قامت الحجة الصليبية الثانية .

الحزن الصليبية الثانية

كان سبب قيام الحجة الصليبية الثانية المثير - سقوط مدينة الرها بيد المسلمين مما حرك حماس القرويين الذي . وقد كلف بوجدين الثالث بشاروما ، سان برنارد ، أن يدعوا لهذه الحجة ، فاستطاع برنارد بخصاصته ودلالة لسانه أن يجمع عدداً كبيراً من الحارثيين ، ونفع امبراطور المانيا . كونرله الثالث Conrad III وملك فرنسا لويس السابع Louis VII أن يترعما هذه الحجة قبل ان يلاقوا صاحب

ملك فرنسا زوجته ، الينور ، معه وعاد كبير من النساء ، مما أدى الى انتشار ضروب الفساد في صفوف الجيش . ولم تكن قيادة الصليبيين موحدة في هذه الحملة ، فقد اتبع امير بطور المانيا طريقة في البر حتى وصل القسطنطينية ، ثم لحق به ملك فرنسا ، ولم ينتظر كونراد الثالث مجيء الفرنسيين بل دخل آسيا الصغرى ، والتهم مع السلاجقة في موقعة أفروثيا سنة ١١٤٧ م فهزموه شر هزيمة . وتأروا لانفسهم من هزيمة أمام الصليبيين في الحملة الأولى ، وانضمت فلول الألمان المهزومة الى الجيش الفرنسي الذي سار شجاعاً لساحل آسيا الصغرى متجنباً الاصطدام مع السلاجقة ووصل الصليبيون الى بيت المقدس واجتمعوا مع بولدين الثالث ملك القدس وقرروا مهاجمة دمشق ، فحاصروها أربعة أيام سنة ١١٤٨ م الا ان الخلاف دب في صفوفهم بسبب اختلاف صائحي الغرب مع الصليبيين الذين عاشوا في هذه البلاد ، فاضطروا لرفع الحصار وبيع هذا الحصار حصار آخر فاشل لمدينة عسقلان ، ولم يلبث كونراد الثالث أن غادر البلاد مع بقايا جيشه الا ان الى أوروبا ولحقه في السنة التالية لويس السابع ، وانتهت بذلك الحملة الثانية .

نتائج الحزن الصليبية الثانية

كانت نتائج هذه الحملة وبالأخص على الصليبيين وذلك الاسباب التالية :

- ١ - اوجدت الجفاء والخلاف بين صليبي الغرب والنسرف وذلك لأن الصليبيين الذين توطنوا في سورية تطلعت أخلاقهم وورقت طباعهم وكانوا اميل لتفاهم مع المسلمين والتفاهم معهم فاتهمهم صليبيو الغرب الذين لم يزالوا على وحشيتهم أنهم أصبحوا نصف مسلمين .
- ٢ - أضرت هذه الحملة بسمعة الصليبيين كثيراً لأن ملكين من أعظم ملوك أوروبا انهزموا أمام السلاجقة ، وعادوا فاشين بحملتهم دون أن يقوموا بعمل حربي يذكر . مما سبب تهيب الغرب للشرق ، وجعل اهل أوروبا يفكرون ملياً قبل القيام بحملة جديدة .
- ٣ - قويت جبهة العرب باستيلاء نور الدين زنكي على معظم ولاية انطاكية ، فسقطت بيده أقاليم ، وحارم سنة ١١٤٩ م (٥٥٤٤) وتل بامر وعشاق سنة ١١٥٠ م كي سقطت دمشق ايضاً سنة ١١٥٤ م فعلموا عجزهم ، وأصبحت معظم سورية بيد نور الدين زنكي .

استيلاء جيوش نور الدين زنكي على مصر

كانت مصر بيد الفاطميين ، وكان الخلفاء الفاطميون في آخر عهدهم يفتني الضعف ، وقد تركوا الأمر لوزرائهم الذين كانوا يتناقصون على الحكم . وفي زمن العاضد (١١٦٠ - ١١٧١ م) آخر خليفة فاطمي كان يتنازع على الوزارة شاور ، و د خرم ، كان شاور والياً على الصعيد

ثم تولى الى الوزارة ، ولقبه الخليفة العاضد « بامير الجيوش » ولم يكده بطل من بكرى الوزارة ، حتى قام في وجهه حاجب الباب الامير ضرغام وسلب الحكم منه . هرب شاوور الى الشام واستجار بنور الدين ووعده ان يدفع له ثلث خراج مصر جزية سنوية مع تكاليف الجند الذي يبعث بهم الى مصر . فتردد نور الدين في بادى الامر ولكنه قبل عندما علم بان ضرغام يستنجد باموري ملك القدس الصليبي . فجهز جيشاً الى مصر سنة ١١٦٤ م بقيادة « أسد الدين شركوه » الذي صاحب معه ابن أخيه صلاح الدين الايوبي . واستطاع جيش نور الدين مع الجيوش المصرية والصليبية عند « بلبيس » وانتصر عليها فثار اهل مصر على ضرغام وقتلوه ، وعاد شاوور للوزارة . الا انه لم يلبس بوعده الذي قطعه على نفسه ، وامتنع عن تقديم الاموال الى نور الدين ، فحاربه أسد الدين شركوه ، فلستنجد بالصليبيين ! كما فعل سلفه من قبله . فجاه اموري بجيش آخر لحاربة شركوه أملاً بأن يمنع جيش نور الدين من الاسفيل ، على مصر ، لأن في توحيد مصر والشام القضاء على دولته في بيت المقدس ومات شهيداً الا فرنج الى مصر . وتخصصت الجنود النورية في بلبيس ، وظل الحرب بين الفريقين نحواً من ثلاثة أشهر . قام في انائها نور الدين بمحاربة الافرنج في فلسطين والشام ليشغلهم عن محاربة جيشه في مصر ، فاستولى على حارم وحاصر قلعة بانياس ، فكان من واجب اموري العودة لتخليص ملكه ، كما ان شركوه أراد الخلاص من حصاره بسبب قلة الذخيرة عنده ، فانفق الفريقان على الصلح بان يتخلى كل منهما عن مصر .

عاد شركوه الى الشام بعد أن اختبر بلاد مصر وفوتها . وقد قال عنها نور الدين : إنها من غير رجال ، وان حكومتها قلقة غير ثابتة ، وانها ضعيفة واهنة . وأن ثروتها وخصب تربتها مما يطمع فيها . وقيل أن يغادر الصليبيون مصر فاقضهم « شاوور » راء للبقاء فيها . فلم نور الدين بهذه المؤامرة ، وأشار عليه أسد الدين شركوه أن يفتح مصر عنوة ، ويضمها الى ملكه ، فأجاب الى ذلك وأرسله على رأس جيش كبير لمصر ، وجاء الصليبيون لمساعدة شاوور ، وجرت معركة بين الطرفين عند « البابين » انتصر فيها أسد الدين شركوه ، ودخل الاسكندرية ، وأقام ابن أخيه صلاح الدين حاكماً فيها . جاءت مجندات الى الصليبيين من ناحية البحر فحاصروا الاسكندرية سبعين يوماً ، وأخيراً تم الاتفاق بين الفريقين على الصلح والانسحاب من مصر وتركها لأهلها . الا أن اموري نكث بوعده وعاد الى مصر أملاً بأن يستولي عليها وكتب الى امير طور الروم يطلب منه المساعدة ، واستولى على بلبيس ، وانجيه نحو القاهرة فأحرق شاوور القسطنطينية ليؤخر تقدم الصليبيين وظلت تحترق نحو (٥٤) يوماً وأرسل الخليفة العاضد يستنجد نور الدين وأرسل مع الكتب شيئاً من شعور نساء القصر دليلاً على شدة الحاجة . وقال له في كتابه « هذه شعور نسائي من قصري يستغنى بك لتقذهن

من الافرنج ، واخذ شاور يفاوض الصليبيين بأن يعطيه مبلغاً من المال بشرط أن يوقفوا حفرهم على القاهرة . وكان يماطلهم أملاً بوصول التجهيزات من الشام .

هرب نور الدين لانتقاذ مصر فدير حبشاً بقيادة شركوه مع خيرة رجاله ، وبحاول أموري أن يقطع عليه طريق اتصاله بالبحريين ، ولكنه فشل . وتمكن شركوه من اسلاء الصليبيين عن مصر وفي كانون الثاني سنة ١١٦٩ م (٥٦٤ هـ) دخل شركوه القاهرة فاستقبله المصريون والخليفة الفاطمي استقبالاً منقطع الظاهر وقبض رجاله على شاور وأرسلوه إلى الخليفة الذي أمر بقطع رأسه ونهب داره وهكذا كان جزاء الخائن الذي استعان بالأجنبي على وطنه وأمه . وأخرج الخليفة مرسومها بتقليد الوزارة إلى أسد الدين شركوه وأقره بذلك المصور . من بعد شركوه برتب أمور الدولة ويضع من ينشئ بهم في الأعمال ، إلا أن القدر عاجله فتوفي يوم السبت في ٢٢ جمادي الآخرة سنة ٥٦٤ هـ (١١٦٩ م) فخلفه في الوزارة ابن أخيه صلاح الدين وألقب ، بذلك الساسر . ويقول السيفي : أن الخدمات التي أداها عمل شركوه للإسلام والمسلمين جديرة بأن يكتبها التاريخ على صفحاته بأحرف من الذهب ، لأنه بعد عشرين سنة من توليته أمر مصر عادت مدينة القدس إلى أيدي المسلمين ، كما عاد كثير غيرها من البلاد التي كانت بيد الافرنج . ولأنه كذلك لم يفرح يوماً واحداً من الحروب ، ولقد كان ذا نظر بعيد في الأمور . يضع الخطط لنفسه فلا يغيرها ، بل تنفذها بكل جسارة وإقدام . ولو مات قبل موته بسنة أشهر لكان مصابه التي ورزقه جساماً على نور الدين وأهله وولاده ، ولكنه مات بعد أن انتهى ما علق في صدره وانقضت مهمته التي تناولها وأذكر كتباً تلوكا ثمرة جهاده وانتصاراته إلى ابن أخيه يوسف صلاح الدين الذي استكمل بكل جدارة شرف الوزارة لهذا البطل الكبير .

الدولة الأيوبية

٥٧٤ - ٦٤٨ هـ أو ١١٦٩ - ١٢٥٠ م

أسس هذه الدولة صلاح الدين الأيوبي بن نجم الدين أيوب وهو من أملى كركي (١) والد

(٢) الأكراد جيل من الآريين . أقاموا زمناً طويلاً في الجهات الحدية التي بين بلاد الفرس وآسيا الصغرى ، ثم قوم أشداء عاشوا حياة بدوية في أيام . وأصفوا بالشجاعة والكرم والفرسية والفرو ، وكان نساءهم يشاركنهم في الحروب ، وظلوا لهم بالدماء والخشونة لم تستخدمهم الدولة العباسية إلا في العصور المتأخرة ، وظلوا يهتدون عن الحضارة ويطايعها . استمكن بعد ذلك من إقليم واستقللهم ولم يظفر شأنهم إلا في عهد الدولة الأيوبية .

صلاح الدين في تكريت على دجلة سنة ١١٣٨ م (٥٣٢ هـ) وكانت ولادته يوم رحيل أبيه وعمره
 ثم كوه وأهله من تكريت إلى عماد الدين زنكي ، فأحسن وفدتهم نظراً لما أسدوا إليه من معونة
 عندما كانت جيوشه منزلة من وجه السلامة ، فاصروا له الجسور على دجلة وساعدوه على عبور
 النهر ، وقدموا له الخلف والازواك . فحفظ لهم هذا الجليل وولى نجم الدين أيوب محافظاً على بعلبك
 سنة ١١٣٩ م (٥٣٣ هـ) وعندما توفي عماد الدين زنكي سبى نجم الدين أيوب بعلبك لأهله دمشق
 على شريطة أن يغاثوه عشرة طيحات بحور دمشق وأن يهبوا له مصر في دمشق ، وما زال يتقرب
 من حكام دمشق حتى وصل إلى ربة فهد فواد عند الدولة البورية التي كانت تحكم دمشق ، أما أخوه
 أسد الدين ثم كوه فعصر إلى حبس نور الدين الذي كان بطبع في الاستيلاء على دمشق . وفي سنة
 ١١٥٤ م (٥٤٧ هـ) جهز نور الدين جيشاً بقيادة ثم كوه ليرسله لفتح دمشق . فلم يشأ نجم الدين
 أيوب أن يقوم في وجه أخيه ففاوضه مدة ستة أيام وأخيراً سلمه البلد . وبذلك زال الإخوان أحسن
 الجزاء من نور حتى ما قام به من الخدمة الصادقة والاعلاص العظيم . فأسند إلى أسد الدين ثم كوه
 قيادة الجيوش التي ذهبت لفتح مصر ليرسل معه صلاح الدين بن نجم الدين كلاً من معنا .

صلاح الدين الأيوبي :

لا نعلم إلا القليل من مقولة صلاح الدين ودراسته الأيوبي في سورية . والظاهر أن ميرته وهو
 في انجبت نحو الاتجاه الدينية . وعاش مع أبيه في بلاط نور الدين وعرف ما يجري من أمور السياسة
 في زمانه ، وكان يتألم من انقسام المسلمين وضمهم أمام الصليبيين فذلك وقف حياته لتحقيق أمتهين :
 الأولى إزال السفة منزلة الشيعة في مصر .

الثانية متوالة الجهاد ضد الفرنجة .

وفي سنة ١١٦٩ م (٥٤٦ هـ) أسندت إليه الوزارة في مصر على أثر وفاة ثم كوه . وبعد عشرين
 من ذلك قضي على خلافة المسلمين وأمر الخطباء بأن يقطعوا خطبة العاضد آخرهم . ويخطبوا للخليفة
 العباسي المستنصر ، فانتقم الأمر .

استطاع صلاح الدين أن يوطد ملكه في مصر وفتح جزء من بلاد الثوبة والمجاز واليمن .
 وخاف نور الدين من قننه صلاح الدين أن يستقل في مصر وينفصل عنه . وكانت المصومة تقع بين
 الرجلين ، وانقسم الجهة العربية مرة أخرى . إلا أنه القدر عاجل نور الدين فتوفي في ٢٩ شوال
 سنة ٥٦٩ هـ (١١٧٤ م) وخلفه ابنه الصغير اسماعيل المنقب بالملك الصالح ، وكان عمره إحدى
 عشرة سنة فأخذ الأمر بالوزارة في الشام فثابروا لأخذ الحكم من هذا الطفل الصغير ، وبقتل
 بعضهم بعضاً ، حتى يستعين بعضهم بالآخر حتى الآمر ، بدأ على ذلك ما قاله صلاح الدين في كتاب

أرسله إلى الخليفة العباسي المستضيء بالله في بغداد قل فيه : ، وتواتر إليها الأخبار ، بما عليه المملكة
 الزورية من تشعب الآراء وتوزعها ونشبت الأمور وتطلمها وأن كل قلعة قد حصل فيها صاحب ، وكل
 جانب قد طمع إليه طالب ، والافرنج قد بنوا قلاعاً يخوفون بها الأطراف الإسلامية ، ويضيقون
 بها البلاد الشامية ، وامراء الدولة الزورية قد سجن كبارهم ، وعرفوا وصودروا والمالوك الاعتماد
 الذين خلفوا الأطراف لا قصود ، وجمعوا إليهم لاقوا رد قهوا الأيدي والأعين والسيوف ،
 وسارت سيرتهم في الأمر بالسكر والتهن من المعارف ، وكل واحد أخذ عند الافرنج يدك . ويجعلهم
 لظهوره سندا .

وكان صلاح الدين يكتب على الدوام إلى الملك الصالح ، فيطلب له - ضوئه وولاه ، فغضب
 السكة بأمره ، وخطب له على المنابر ، وأظهر للزوريين شدة خوفه على مصالح الأمير الصغير ، فطلبوا
 إليه الحضور إلى الشام لينقذهم من الفوضى التي هم فيها ، فجاء بجيش إلى دمشق في ربيع الأول سنة
 ٥٧٥ هـ ودخل دار أبيه وجلس فيها حتى سلمت القلعة ، فذهب إليها واستولى على ما فيها من الأموال
 والكنوز وفرقها على الأهالي الذين فرحوا بقدومه فرحاً كبيراً . ثم استولى على أكثر المدن الزورية
 ما عدا حلب التي بقيت بيد الملك الصالح . وقد لاقى السلطان صلاح الدين صعوبة عظيمة في فتح البلاد
 نظراً لمقاومة الأمراء الزوريين له أشد المقاومة . وقد حاول المشاهدين من الطائفة اثنائه عدة مرات
 إلا أنهم لم ينجحوا في مؤامراتهم التي كانوا مدبوغين إليها من الأمراء الزوريين والصليبيين . وقد
 خلع الخليفة العباسي عليه الخلع وولاه أمر الشام ومصر . وبذلك تم توحيد الشبهة العربية أمام
 الصليبيين .

معركة حطين واسترداد بيت المقدس

قام صلاح الدين بحملات متعددة على الفرنجة ، وفي أول تموز من سنة ١١٨٧ م (٥٨٣ هـ)
 احتل طبرية بعد حصار دام ستة أيام . وعلى مقربة منها جرت معركة حطين الحاسمة في نفس السنة
 المذكورة . بدأ القتال يوم الجمعة الذي كان صلاح الدين كثيراً ما يخارده للجهاد ، فيكون يوم يؤس
 وشؤم على الفرنجة . وكان في معسكر الفرنجة نحو عشرين ألفاً أمهكم الداني والحرق ، فوقع
 جلهم في قبضة صلاح الدين . وكان في مقدمة الأسرى المنسلون في دولوسينيان Guy de
 Lusignan ملك أورشليم . فأحسن السلطان صلاح الدين ، الكريم النفس ، استقباله في خيمته ،
 أما رفيقه الملك راجينالد دو شاليون Reginald of Chailion موقفه ناز الحرب ، فماله
 معاملة أخرى . ولعل راجينالد هذا كان أشد رجلاً للفرنج مقاومة ، وأنهم نددوا ونقضوا لليهود ،

وأوفروهم المنأ بالغة العربية ، وحين كانت الكرك في حيدته أوقع مراراً بالقوافل الآمنة بسلامها أمتعتها ، بينما كان أصحابها يجازون الطريق خلف أسوارها الحصينة . كل هذه الأمور أنها خروجاً على شروط اليهود والمخافة . وفي سنة ١٨٩٦ م عام قلة كانت فيها أخت صلاح الدين ، فلما نظ ذلك صلاح الدين ، ولذلك أقدم أن يفتنه بدهة إذا ورض أياه . وباع منه الكريد للمسلمين أن جهز أسطولاً أخذ يبعث في شواطئ الحجاز مصاداً . ويترك الأذى بدواً كتب المحتاج . فلما قبض صلاح الدين عليه وجد الفرصة قد ضاعت الفرصة بيمينه ، فاحتمل راحته لانه لانه بان شرب الماء في خيمة صلاح الدين ، وهو عارف بأن العادات العربية تحول دون إضاع الأذى بمن شرب ماء القوم . إلا أن صلاح الدين لم يأذن له بالشرب . فلم يحظ بإمالة . بل جورى على غدره بأن ضرب صلاح الدين عنقه بيده ، وير يمينه ، وقتل نحو مئتين من جماعته . فرعب الملك في دولوسينيان ، فطيب السلطان صلاح الدين خاطره وعفا عنه وأرسله إلى دمشق وبقيته قومه بكل حفاوة وإكرام .

جاء الاتصار بحطين قضاء . بهرما على الفرنجة ، وبعد حصار أمبوع سلمت بيت المقدس في ٢ تشرين الأول سنة ١١٨٧ م فصاح صوت المؤذن من على المسجد الأقصى عوضاً عن ناقوس النصارى ، وانزل رجال صلاح الدين الصليب الذهبي من على قمة الصخرة ، وكانت شروط الصلح أن يخرج منها الفرنجة في مدة أربعين يوماً . وأن يدفع الرجل منهم عشرة دنانير والمرأة خمسة والولد اثنين ، ومن لم يستطع ذلك فهو أسير ، وقد تصاح السلطان كثيراً في الشرط الأخير ، فصمخ لكثيرين بالرحيل من غير قدية . وأذن للراجلين أن يحملوا ماشاءوا من المتاع والاموال ، ولم يعترض أحد سبيلهم ، ومالم يقدروا على حمل ما يشاءه المسلمون منهم ، وفلير بذلك الفارق العظيم بين رحمة صلاح الدين والمسلمين وبين قسوة الصليبيين عند فتح القدس ، فقد مر معنا ما ارتكبه الصليبيون وقوادهم من القظائع والوحشية . (١)

(١) يقول السيد أمبر عني في كتابة مختصر تاريخ العرب : ص ٣٠٧ من مر ومفصلح الدين وإنسانيته عند خروج الفرنجة من بيت المقدس ما يلي : « وكان من شروط الصلح أن من يعجز عن أداء الفدية يؤخذ أسيراً ، غير أن ذلك الشرط أهل إجحالا لما ، إذ خال إن السلطان اقتدى وحده عشرة آلاف شخص ، كما أطلق أخوه سيف الدين (الملقب بالملك العادل) سراح سبعة آلاف أخرى وقد كان رجال الدين عندما يادروا المذبة يحملون معهم الاموال والامثلة ، كذلك شوهه كثير من النصارى يحملون والديهم وأصدقائهم الذين بلغ بهم المرض أو الضعف حداً لم يستطيعوا معه السير على الأقدام ، فتأثر السلطان بهذا المظهر وأمر حالاً أن توزع عليهم الصدقات ، وأن يزودوا بالدواب . . . ويقول ميلز : أن كثيراً من المسيحيين الذين غادروا بيت المقدس رحلوا إلى انطاكية . غير أن بوهمندس

وقد احترم صلاح الدين شعور المفلوجين ، فلم يدخل المدينة بجيشه الا بعد ان غادرها جميع الصليبيين . ففي يوم ٢٧ وجب سنة ٥٨٣ ع دخل بيت المقدس بحف به الأمراء وأشراف الدولة وجاء كثير من المصلحين من جميع الأقطار لتهنئته على هذا النصر المبين . ثم ألقت لأصلاح المدينة قلعة بزرجم ما عمرته الجروب ، وشيد الخوامع والكليات التي عدها الفرنج ، ووضع أساساً لإدارة المدينة وأخرج منها بكل الفتح .

وبسقوط حصنة السلطنة اللاتينية كانت إصلاح الدين معظم المدن الفرنجية في سورية وفلسطين وبعد سلسلة حملات باهرة سقطت القلاع وكانت هزائم الفرنجة تؤدي إلى جلائهم التام عن البلاد ولم يبق في حوزتهم إلا أنطاكية وطرابلس ومور و بعض المدن الصغيرة والقلاع .

المحنة الصليبية الثالثة

أقد استثار سقوط القدس حماسة أوروبا ، فندى حكامها خصوصياتهم المدينة وقام رجال الدين وعلى رأسهم البابا غريغوريوس الثامن بدعوى حملة جديدة . ونالت ميخائيل سيليبي الشرق فاستجده الدعوة من أهل الغرب . على النداء انطلقت أوروبا وفرنكيا ، ونشط فرديريك بارباروسا Barbarossa sa إمبراطور ألمانيا ، وريكاردوس قلب الأسد Richard the Lion Heart ملك انكلترا وفيليب أغسطس ملك فرنسا إلى القيام بالحملة الصليبية الثالثة (١١٨٩ - ١١٩٢ م) وهي اكبر الحملات عدداً ، وبقيودها أعظم ملوك أوروبا في ذلك العصر ، وكان يرأسها طاعماً عظيماً إلا أنها لم تنجح في نتائج حربية مهمة ، إذ أن أعظم ما فعله الصليبيون هو حصار عكا والاستيلاء عليها بعد حصار دام سنتين من (٢٧ آب ١١٧٩ حتى ١٢ تموز سنة ١١٩١ م) وكانت نتائج المفاوضات السلمية ، والاتفاقيات الودية بين صلاح الدين وفيلب الأسد أعظم بكثير من الأعمال الحربية .

وكان أول من شرع بالمسير إلى الحرب فرديريك بارباروسا الذي سلك طريق البحر ووصل إلى القسطنطينية وقام النزاع بين الإمبراطور البيزنطي إسحق الكومنين الذي أخذت تتلبه الشكوك من هذه الحملات لأن الإمبراطور كان ينافسه القسطنطينية الإمبراطور في يقوم على قيادتها وكانت هذه الملاحظات بدوراً للحملة الصليبية الرابعة التي اتجهت إلى القسطنطينية .

— أميرها لم يجرمهم الضيافة فحسب بل سلمهم أموالهم ، في حين كان هؤلاء البابائسون أيضاً ساروا في بلاد المسلمين بلاقون ضروب التعطف والكرم .

توغل بفرير وسأ وحشيه في آسيا الصغرى إلا انه غرق وهو يدير نهراً في كيليكية فعاد معظم
أفراد جيشه الى بلادهم وسار الباقي بقيادة ابنه سوابيان الى عكا واشتركوا في حصارها .
أما ريكاردوس وفيليب أغسطس فقد تواعدا على المدير بمرأ الى البلاد المقدسة واتجها نحو صقلية
وقضيا فيها ودعاً من رومن . ولم تثبت المنازعات ان قامت بينهما ، ففارق فيليب أغسطس الجزيرة
في ربيع سنة ١١٩١ م واتجه الى عكا . ولحقه بعد ذلك ريكاردوس الذي عرج في طريقه على قبرص
واحتلها ونسجت هذه الجزيرة فيها بعد ملجأ للصليبيين بعد ان أخرجوا من سورية .

تجمعت القوي كلها في عكا وتزعم الهجوم الملك « في » الذي كان صلاح الدين قد أطلق سراحه
بعد معركة حطين بعد ان أخذ عليه العهد بان لا يعود لقتال المسلمين ، فلم يف بوعده — كما هي
عادتهم — وضرب الفرجة الحصار حول عكا التي كانت بيد المسلمين ، وبالباغ المنهج صلاح الدين أسرع
بجيشه لانتقام المدينة . وضرب معسكره قبالة العدو ، وكانت التجهيزات والمساعدات تأتي الصليبيين
من طريق البحر ، كما ان السفن المصرية والشامية كانت تمد أهل عكا بالميرة والذخيرة نظراً لانقطاعهم
من ناحية البر عن مبرور صلاح الدين .

نشبت القتال بين الطرفين برأ وبحراً وكان أهل عكا يرسلون السلطان صلاح الدين بواسطة
كتب يحملها الخمام الرجال او بواسطة الفواصين الذين يقطعون الخندق في الليل ويحملون
الاخبار للسلطان .

وقد شيد الفرجة أبراجاً خشبية مرتفعة ستروها بالجلود المسفة بالنمل ، وأملوها بالطين ،
وشحنوها بأرجال المذاقة وقربوها من أسوار عكا وأخذوا يحطرون المسلمين بوابل من قذائف النقط
والسهام والحجارة ، إلا ان المسلمين تمكنوا من احراق هذه الأبراج (١)

(١) يصف ابن الأثير كيفية حرق المسلمين لأبراج الصليبيين بقوله « وكان سبب ذلك
أن اسدأاً من أهل دمشق كان مولعاً بجميع آلات التفاطين وتحصيل عقاقير نفوي عمل النار ، فكان
من يعرفه يلومه على ذلك ، وينكره عليه وهو يقول هذه حالة لم ياترها بنفسه وإنما أشبهى معرفها
وكان يمكلاً لأمير بدمه الله ، فلما رأى الأبراج قد انصبت على عكا شرع في عمل ما يعرفه من الادوية
المقوية للنار بحيث لا ينمها شيء من الطين والخلل وغيرها ، فلما فرغ منها حضر عند الأمير قراقوش
وهو متولي الامور بمكا ، والحاكم فيها وقال له يأمر المنجنيق ان يرمي في المنجنيق الحافذي لبرج من
من هذه الأبراج ما أعطيه حتى أحرقه ... فلجأه الى ذلك وأمر المنجنيق بامتثال امره فرمى عدة
قدور نعلماً وادوية ليس فيها نار فكان الفرنج إذا رأوا القدر لا يحرق شيئاً يصبحونه ويرقصون —

وتكاثرت جموع الصليبيين على عكا التي قاومت مقاومة شديدة . وانقطعت عنها البرد كما أن
السلطان صلاح الدين انسحب عنها بسبب انتشار الأمراض والأوبئة من تسخخ حنث القتلى ، ففاوض
قادر حارثة سكا الصليبيين على التسليم ، وبعد مفاوضات طويلة سلم أهل المدينة بشرط الإبقاء على
حياتهم ، على أن يرد المسلمون الصليب المقدس ، وعلى أن يدفع المسلمون مائتي ألف دينار في مدة
شهر . ولما حصل بعض التأخير من المسلمين في دفع المال أمر ريسكاردوس أعدام الأسرى الباقين
عددهم زهاء ألفين وسبع مئة نفس ، وهو عمل شائن يناقض تماماً معاملة صلاح الدين للأسرى اللاتين .
تفاوض الصليبيون على حكم عكا وأخيراً اتفقوا أن يكون (غي) ملكاً عليها ، وعاد فيليب ملك
فرنسا إلى بلاده نظراً لذكره مشاعله فيها . وبقي ريسكاردوس يفاوض صلاح الدين ، وقد اقترح
زواج أخته الملك العادل أخي صلاح الدين على أن تعطى اورشليم هدية للزوجين فينتهي بذلك العداء
المتحكم بين الصليبي والمسلمين . إلا أن الأمر لم يتم بسبب تدخل الكهنة . وقد تبادلت الهدايا بين
صلاح الدين وريسكاردوس دلالة على انجذاب الواحد منها بالآخر حتى أتى ريسكاردوس أتم رتبة
القروسية على الملك الكامل بن الملك العادل في حفلة شائعة . وكان ريسكاردوس شديد الرغبة في
مغادرة سورية والعودة لبلاده لاختار الثورة التي فلم بها أخوه عليه . وبعد وفداً إلى السلطان صلاح
الدين بمرض عليه شروط الصلح وأخيراً تم الاتفاق بين الطرفين في ٢ تشرين الثاني سنة ١١٩٢ م
على أن يكون الساحل السوري بيد الصليبيين والداخل بيد المسلمين وأن لا يتعرض أحد باذى
للتصالح الموقدين على باب المقدس . وحذر بيان بذلك فسادت الطائفتان وانتشر الاطمئنان في ربوع البلاد
وفرح الناس فرحاً شديداً وعادت الجفود إلى أوطانها بعد أن كانت قد حشدت من جميع الاصقاع في
فلسطين ، وعاد ريسكاردوس إلى بلاده ، وفي طريقه قبض عليه أمير القسا وسجنه سنتين ، ولم يطلق
سراحه إلا بعد أن دفعت انكثرا غرامة كبيرة لا تقدره .

نتائج الحزن الصليبية الثالثة

من نتائج هذه الحملة :

١ - أنه حلت فيها عدد لا يحصى من الناس ، وخربت آلاف الدور العامرة ، وخسرت المائيسا
أحد أنظمتها العظام كما فقدت فرنسا وانكثرا زهرة قريساتها . ولم يكسب الصليبيون منها غير
فتح عكا .

- ويليون على سطح البرج . حتى علم أن الذي أنقذ قد تمكن من البرج التي قدراً عظيماً وجعل فيها
الذخائر فتمت من البرج والتي قدراً ثانية وثالثة فاضطربت النار في نواحي البرج وانجملت من في طيفانة
الحبس على الحرب الكامل ج ١٢ ص ١٩ - ٢٠

- ٢ - إنها فتحت باب المفاوضات بين أهل الشرق والغرب ، وزادت في تدارف كلا الطرفين بعضها على بعض ، وجعلتها أكثر حرصاً على السلم من الحرب .
- ٣ - أنها أظهرت بحول قيادة الحملات الصليبية نهائياً إلى السيادة الزمنية من ملوك وأباطرة ، فأصبحت الحملات تحت قيادة الملوك بعد أن كان يقودها الأمراء والفرسان والكهنة .
- ٤ - وطدت حكم المسلمين في قبرص ، فأصبحت هذه الجزيرة ملجأ لهم بعد خروجهم من سورية .

شخصية صلاح الدين ومآثره

كان صلاح الدين مثال البساطة في ملابسه وما كلفه ومسكنه ومعاملته للناس . فكان كل فرد من رعيته يستطيع أن يخاطبه ويدخل عليه دون أن يترد عليه حاجب . وكان ديناً ورعاً تقياً رقيق القلب سريع التأثير يدمع عيناه عند سماعه أصوات الضعفاء والمساكين . وكان متواضعاً لا يحب الابهة فقد بني له مرة منزل خيم في دمشق فقال : ما كنا لنجلس في هذا المكان إلى الأبد ، فهذا المنزل لا يصلح لمن يطلب الموت . وما نحن هنا إلا لنقوم بخدمة الله سبحانه ، وكان جواداً كريماً يقول : إن المال والقراب مبدآن عتدي . كان يكره أن يفد عليه سائل فلا يملطيه ، وما طالب منه أحد عطاء الا واعطى أكثر مما سأل . ويكنى ذليلاً على كرمه أنه لم يخلف في خزائنه غير دينار واحد و ٣٦ درهما أرسلت إلى بغداد مع الرسول الذي فعاه إلى الحليفة .

كان السلطان صلاح الدين جريئاً قوياً القواد شديد الصبر فقد حارب الفرنجة حتى أثناء مرضه . ولقد كان يركب جواده ويقود جنده وهو مريض لا يستطيع الاطمئنان على سرجه فيقال له في ذلك فيقول : إني إنما أشعر بالمرض حين أترك ظهري جوادي . وكان حليماً حسن الأخلاق كثير الشفقة عن ذنوب أصحابه حقيقاً للعلماء والأتقياء حرصاً على أن يكونوا في ميته .

مآثره :

أهتم صلاح الدين بأمر دولته وشؤون رعيته . أنشأ المدارس والمساجد والخوانق والربط والبيمارستانات في جميع أنحاء مملكته ووقف عليها الدور والمساكين والإموال الكثيرة . ومن آثاره الباقية قلعة الجبل في القاهرة التي بدأ في تشيدها مع أسوار المدينة والحندق سنة ١١٨٣ م واستخدم فيها حجار الأهرامات الصغرى .

أبطل صلاح الدين المكوس التي وضعها الفاطميون على التجار في البر والبحر فامتشت التجارة . واهتم بالسدود وأمر بحفر الآقية وتعمير الجسور حتى تسطت الزراعة . وكان يبرح المزارعين من جنده في الشتاء يقوموا بشؤون مزارعهم .

أبطل مغارم أهل الحجاز وعوض أمير مكة عنها في كل سنة بألف دينار وألف أردب من القمح
وبعض الاقطاعات بالصعيد واليمن وبذلك سهل الحج على الراغبين به .

أهتم صلاح الدين كثيراً بأمر الاسطول لماله من عظيم الاثر في رد غارات الصليبيين وتزويد
المدن الساحلية والجيش الصلاحية بالميرة والذخيرة . وأسس ديواناً للاسطول سمي « بديوان الغار »
جمل ريشه أخوه الملك العادل نظراً لأهميته . فزاد الملك العادل أجور البحرية ومجال دور الصناعات
عما كانت قبلاً . وبنى كثير من المراكب . واتخذ مركز هذا الديوان في داخل الصناعة بمصر
ليكون قريباً من المال يصرف عليهم بنفسه . وكانت السفن تصنع في الاسكندرية ودمياط ومصر ،
وضعف أمر هذه الصناعات بعد موت السلطان صلاح الدين . وشهد صلاح الدين بالبطولة أعداؤه
وهو لا يزال يعتبر حتى اليوم مثال القروسية الكاملة . وقد جاء في كتاب تاريخ المؤرخين ما ترجمته
« والذي أدهش المسيحيين من أمر صلاح الدين هو مروءته وشهامته وسخاؤه وكرمه وبرحمته وحلمه
وسفحه وعفوه لاسيما بحفاظته على العهود والمواثيق » .

توفي رحمه الله بأطفي في دمشق يوم الاربعاء في ٢٧ صفر سنة ٥٨٩ هـ (١١٩٣ م) وهو في
السابعة والخمسين من عمره . ولا يزال قبره في العاصمة السورية قرب الجامع الاموي .

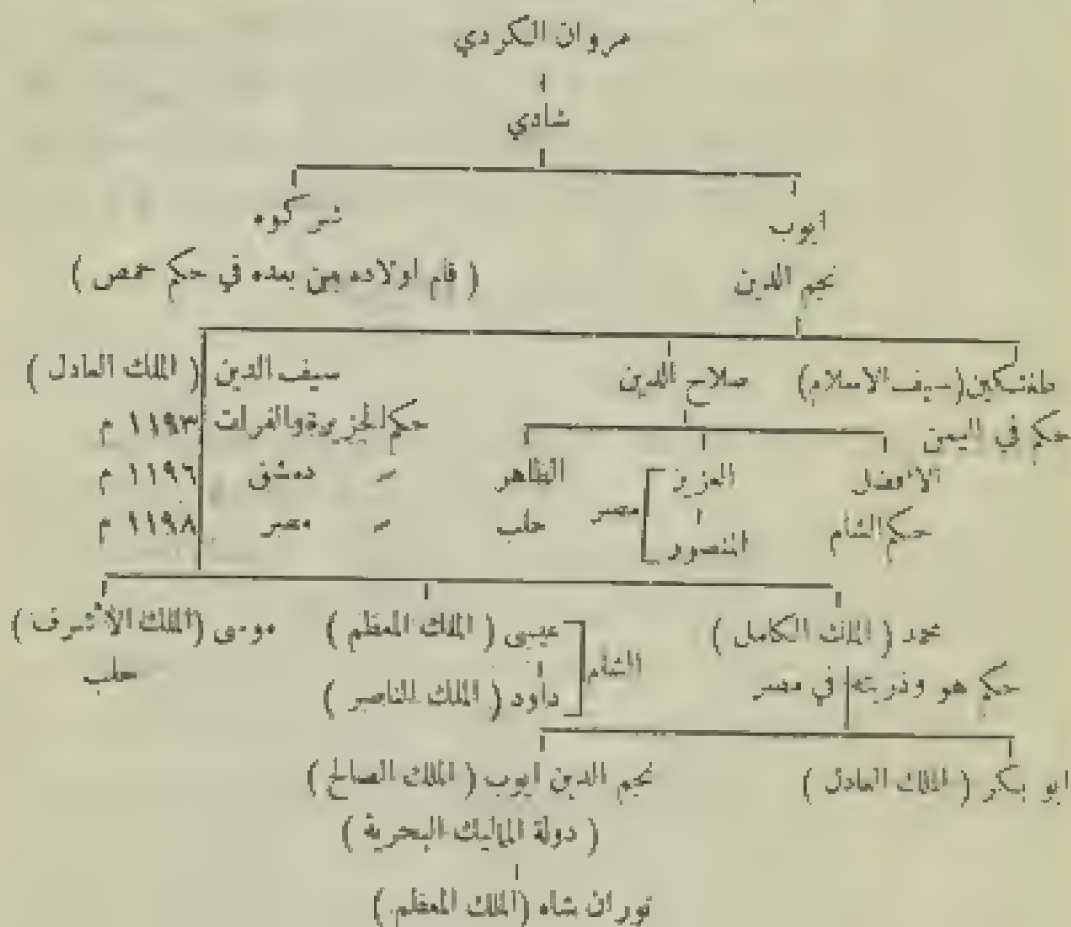


انقسام الدولة الأيوبية (١)

الملك العادل

انقسمت الدولة الأيوبية بعد وفاة السلطان صلاح الدين بين أولاده الثلاثة : الأفضل ، والعزیز ، والظاهر ، وبين أخيه الملك العادل وبغية الأمراء الأيوبيين . وقام كل أمير من الأيوبيين بنازع الآخر على السطة . وكان الأفضل حاكماً على الشام وفلسطين وكانت دمشق عاصمة أبيه مركز حكمه . وبقي العزيز بحكم مصر التي كان والياً عليها منذ زمن أبيه ، وولي الظاهر إمارة حلب وبقي مستقلاً فيها حتى سنة ١٢٦٠ م. وحكم أولاد نركوه في حمص وكان الملك العادل والياً على الجزيرة

(١) تظهر هذه التقاسيم السلالة الأيوبية لاسمها أولاد السلطان صلاح الدين وأولاد أخيه الملك العادل الذين ورثوا الحكم بعد وفاة أبيهم .



الفرات ، وكان أقوى الامراء الايوبيين ، فمالث بعد أن اشترك في النزاع الذي قام بين الأفضل والعزير أن ضم دمشق لسلطنته سنة ١١٩٦ م ولما توفي العزيز وترك ابنه الصغير المصور استولى الملك العادل على مصر سنة ١١٩٨ م ولم يلبث أن ضم إليه بلاد اليمن ووجد جميع البلاد - ما عدا حلب - تحت سلطته وأعاد ذكرى صلاح الدين .

كان الملك العادل بعيد النظر وافر العقل عظيم القناعة حسن السيرة شديد الحزم وكان كاشية محباً للعلم ، مكرماً للعلماء ، امتدت دولته من أعالي الجزيرة حتى بلاد اليمن وكان سيد الشام ومصر . توفي الملك العادل في طريقه الى مصر عندما كان داعياً لرد غارة الصليبيين عنها سنة ١٢١٨ م (٦١٥ هـ) بعد حكم دام عشرين سنة هزم خلالها الفرنجة في عدة مواقع ، واحتبط عزواتهم في البر والبحر . وانقسمت الدولة بعد وفاته بين اولاده . فولي الملك الكامل مصر ما بين سنة ١٢١٨ - ١٢٣٨ م والملك المعظم بلاد الشام ما بين سنة ١٢١٨ - ١٢٣٧ م والملك المنصور الجزيرة وحلب ثم استولى على دمشق سنة ١٢٣٧ م وبقي فيها حتى وفاته سنة ١٢٣٧ م .

وعندما توفي الملك الكامل في مصر خلفه ابنه الملك العادل وكان شاباً ضيف الاخلاق يميل الى اللهو والمجون ، فخلفه سنة ١٢٤٠ م اخوه نجم الدين ايوب الملقب بـ الملك الصالح . حكم ما بين سنة ١٢٤٠ - ١٢٤٩ م وفي زمنه تويت - لحظة التبايك - وتعللوا بعد وفاة ابنه نور الدين سنة ١٢٥٠ م على السلطة وشكلوا دولة المماليك التي قامت على انقاض الدولة الايوبية .

المحركات الصليبية في القرن الثالث عشر

انتهاء العهد الصليبي

ضعفت الجهود الغربية الموجهة لسورية في القرن الثالث عشر ، ونضبت القوى التي تدفقت في القرن الثاني عشر لهذه البلاد او تحولت الى ميادين اخرى .

١ - الحملة الصليبية الرابعة (١٢٠٢ - ١٢٠٤ م) توجهت الى القسطنطينية ، واستولت فيها امبرطورية لاغينية دامت ٥٧ سنة (١٢٠٤ - ١٢٦١ م) استولت خلالها الجيوش الصليبية ، لاثا المحطات المدفوعين بالحساس الديني ، وجدوا في عارضة اعداد الكنيسة الغربية ما ينبغي غياهم . والمدفوعين بالعامل المادي وجدوا في كنوز القسطنطينية وموقعها التجاري ما ينبغي تحصيلهم (١) كما

(١) ارتكبت الصليبيون أشنع الفظائع بسكن القسطنطينية ، فحرقوا البيوت ، وحاربوا الكنائس ونهبوا ما فيها من الأموال ، يقول ميشو : « أصبحت القرى والكنائس حرايا لا تصالح الا للمحراث بشرق ركائنها » . ويقول مؤرخ بيزنطي : « كانت هؤلاء المنيوسيين غلب دسوطهم المادية -

أن القوى الصليبية توجهت الى اوروبا نفسها سواء للمشاركة بالنزاع مع العرب في اسبانيا والفتح المناطق الشرقية في المانيا التي لازال على الوثنية ، او لغيرها من البلاد .

٢ - نجد في هذا الدور ظاهرة جديدة في الحملات الصليبية وهي حماس الاولاد في اوروبا ومحاولة القيام بحملة صليبية لانقاذ بيت المقدس . فقد سارت حملة من الاولاد من فوا - ماتحت قيادة طفل يدعى « سايفن » الى مرسيليا ، فسقط عليهم تجار الرقيق ، وباعوهم في اسواق مصر وحزر البحر المتوسط . كما ان الاولاد الذين ساروا من المانيا بقيادة الطفل « نيقولا » نشدت حملتهم في الطريق وعاد قسم منهم الى بلادهم ولاقي القسم الآخر أسوأ المواقف .

٣ - نجد في هذا القرن تحول وجهة الصليبيين من الشام الى مصر . فالحملة الصليبية الخامسة (١٢١٨ - ١٢٢١ م) التي دعا اليها البابا اثنوسنت الثالث ، والحملة الصليبية السابعة (١٢١٩ - ١٢٥٠ م) التي قادها القديس لويس ملك فرنسا على أثر سقوط بيت المقدس بيد المسلمين انجبتا الى مصر ، وكانت الاعمال الحربية فيها تدور حول الاستيلاء على دمياط ، وكانتا فشلتين في النتيجة . فقد اسر القديس لويس ومعظم وجاله في الحملة السابعة ، ولم يطلق سراحهم الا بعد ان ابل لويس بتسليم دمياط ، ودفع فدية قدرها ٨٠٠ الف دينار .

٤ - تابع الصليبيون سياسة المفاوضة في هذا القرن ، فقد قضى فريديريك الثاني ملكه في الحملة الصليبية السادسة (١٢٢٨ - ١٢٢٩ م) بتفاوض مع الملك الكامل وأخيراً عقد معه معاهدة لمدة عشر سنين أخذ بموجبها فريديريك بيت المقدس والناصرة وبيت لحم وقسم من الساحل يصلحها لبيت المقدس ، مقابل تعهد فريديريك الثاني بعدم إرسال تجيحات صليبية من اوروبا للاستيلاء عليه في الشام وترك المسلمين يزورون اماكنهم المقدسة دون ان يتعرضهم احد .

٥ - زالت سلطة النورمان في هذا القرن عن صقلية وجنوبي ايطاليا ، وخلفهم في حكم تلك البلاد أباطرة من المانيا منهم « شارل الف الحمو » أخى ملك فرنسا القديس لويس . واهتدى بمساعدة الصليبيين فقلما في سنة ١٢٦٨ م بحملة مشتركة الى تونس وهي الحملة الثامنة والاخيرة . مات في اثنائها القديس لويس فاستلم اخوه شارل القيادة ، وفلوش سلطان تونس وأخيراً تم الانقضاء على ان

— اقتزعوا الجواهر من كنوز اكل القديسة ، وطعنوا بشرجون بها الحور ، وفرشوا المائدة التي كانوا يقامرون ، وبأكلون عليها بصور المسيح والقديسين . وداسوا تحت اقدامهم المذنبين المذنبين . ومزقوا في كنيسة سان صوفيا ستارها المشهور واقتزعوا حواشيه الذهبية . وحطموا المنح المنح المرين بالصور الفنية واقتسموا قطعه الصغيرة فيها بنهم .

بدفع السلطان مبلغاً من المال ، اخذ الافرنسيون قسماً منه واخذ الباقي لنفسه . وبذلك انتهت الحملات
القائية التي يمددها المؤرخون . والحقيقة ان الجيوش الصليبية والحجاج الاوربيين لم ينفذوا من
الوفود الى بلاد الشام خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر الذين قامت في انائها الحروب الصليبية .
٦ - جاءت في هذا القرن موجات التتر الى البلاد الاسلامية ، وقد حاول الصاريون نشر
المسيحية بين التتر ، فأرسل البابا اينو سنت الرابع وملك فرنسا الفديس لويس ، بشرين الى بلادهم
ليظفوا قوة نصرانية جديدة تأتي من الشرق وتساعد اهل الغرب في القضاء على المسلمين . إلا ان
حلمهم لم يتحقق بسبب اعتناق كثير من التتر الدين الاسلامي ، وكانت هذا التصار الاسلام
على المسيحية .

٧ - انتقل الدفاع في هذا القرن عن مصر والشام في وجه الصليبيين من الابوين القرن اقرضت
دولتهم الى المماليك . فقد أزل الملك الظاهر بيبرس (١٢٦٠ - ١٢٧٧ م) الغلبة الفاطمية عليهم ،
وفي سنة ١٢٦٣ م احتل الكرك وهدم كنيسة الناصرة ، ولم تقو قسارية وبافا وناطكية على الوقوف
في وجه هجماته المتتفة فاستسلمت ، وفي سنة ١٢٦٨ م أعدم حامية انطاكية التي كان يبلغ عددها
سنة عشر ألفاً ، وسبى من رجالها ونساءها وأطفالها نحو مائة ألف فباعهم في الامم وافى فكان ثمن
الطفل يومئذ اثني عشر درهماً ، وثمان العفلة خمسة دراهم ، وما جرى تقسيم الغنائم كانت الاموال تشكل
كيبلاً . وفي سنة ١٢٧١ م انزع بيبرس حصن الاكراد من أيدي الفرس ، أما الارقب الذي
بحوار طرطوس فانزعه سنة ١٢٨٥ م خليفته فلاوون الذي استولى على طرابلس سنة ذلك والرابعة
اقوام ، ولم يبق في سورية من مرا كز الفرنجة الطاعة الا سكا ، وجرى حصارها في عهد الملك
الاشرف خليفه فلاوون . وبعد قتال دام شهر استخدم المسلمون فيه (٩٢) منجقاً سقطت عكا في
أيار سنة ١٢٩١ م وعملوا السيف في رقاب طيبتها من الفرسان المداوية وأبديهم . وبهذا سقط
آخر حصن منبع اللاتين في الشرق . وفي السنة نفسها استولى المسلمون على صور وجبيل وبيروت
وطرابلس . وهكذا اسدل الحجاب على أروع الفصول الحربية في تاريخ سورية في العصر المملوكي
وكثير من المؤرخين من يعتقد ان الحروب الصليبية تم بانه في ١٢٩١ م بل ان الغرب لا يزال في
حرب صليبية مع الشرق سواء من ناحية السياسة أو الدين .

٨ - انتقل بقايا الصليبيين من سورية الى جزر البحر المتوسط ، فقد أصبحت قبرص التي
استولى عليها ريكاردوس من اليونانيين في الحرب الصليبية الثالثة مائلاً لاصحاب الاقطاع الفاطمية
تحت حكم ملوكها من اسرة لوزيليان . وكذلك احتل رودوس فرسان الاسطورية بعد أن خسروا
عكا نهائياً ، واستقروا في الجزيرة حتى عام ١٥٢٣ م وبعد هذا التاريخ نزحوا الى مائة . وسقطت

كبرت بيد البنادقة على أثر الحرب الصليبية الرابعة . وأخذ الجنويون بعض جزر بحر إيجه من الدولة
البرنقلية . وكان الصليبيون يشنون الحرب على المسلمين من هذه الجزر من وقت إلى آخر إلى أن
ساد الأتراك العثمانيون على البحر المتوسط وجزره .

٩ - قام بعض الباحثين في أوروبا بحثون في أسباب اخفاق الحملات الصليبية ، وبتحريه طرق
اشغالها من جديد ، واتساع الشواهد الماضية التي وقع بها الصليبيون ، فبعضهم جعل السبب الرئيسي
في فشل الحملات الصليبية اطلاع البابوات ، ومنهم من وجه انتقاده إلى ملوك العرب وامراتها وارجع
الفشل إلى منازعاتهم الداخلية ، ومنهم من لاقى وأنهم المدن الإيطالية بزعيمها القاذية التجارية . ومنهم من
وجد السبب في فشل الصليبيين شدة المنافسة بين الداوية والاستقلالية . واتباع كلا الطرفين مصلحه
الخامسة . ويترشح بعضهم لوحيد جهود الغرب في القضاء على الشرق . ويرى البعض الآخر يرجع
املاك الكنيسة وثقافتها في هذا السبيل ، ويحدد آخرون غير هذه المقترحات فليكنه التعرف التام
وليأخذ لنفسه الحذر .

نتائج الحملات الصليبية

كانت نتائج الحملات الصليبية مردودة فبعضها كان تأثيره على الغرب . كما أن البعض الآخر كان
تأثيره على الشرق . وسندرس هذه النتائج في كلا الجانبين .

أثر الحروب الصليبية في الغرب :

خرجت أوروبا بعد الحروب الصليبية من العزلة العصور الوسطى إلى عصر النهضة والاكتشافات
البحرية والاصلاح الديني . ويقول باركو : إن الحروب الصليبية كانت عاملاً من جملة عوامل كثيرة
أحدثت هذه التغيرات ، وأنها ليست هي السبب الوحيد .

ألا إن الحروب الصليبية كانت من جملة العوامل على نحو غزو القبايل ومناخضة الرهبنة من
الناحية الدينية ، كما أنها عملت على المساواة بين الطبقات من الناحية الاجتماعية ، وساعدت على نمو
طبقة الفلاحين الأحرار وجماعات الصنائع التعاونية وعلى ازدهار التجارة والصناعة والدراسة من
الناحية الاقتصادية ، وتما في ميدان السياسة فكان للحروب الصليبية الأثر الكبير في التعاون الحربي
بين مختلف شعوب أوروبا وإلى قيام الدول المستقلة والحكومات المركزية والتعاون الدولي بين هذه
الحكومات . كما أن الغرب استفاد من الثقافة العربية بالتواصل المباشر لحضارة المسلمين مما أدى إلى تفتح
عقول الغرب ، وظهور كبار المفكرين في الفلسفة والعلم والآداب لاسيما الآداب الحياتية منها . كما
أنه ازدادت المعلومات الجغرافية على أثر الحروب الصليبية التي ساعدت أوروبا وجرأتها على القيام

بالرحلات البحرية ، واكتشاف أمريكا ، وقد انقضى عصر العبارة الرومانية وخلفه فن العبارة القوطية .
 ويجب ان نعترف بأن أخذ أوروبا من الحضارة العربية لم يكن في ميدان الحروب الصليبية حسب
 بل ان الغرب أرسل بالشرق في ميادين أخرى لاسيما في الأندلس وصقلية ، وتعد معرفة ما أخذته
 الأوروبيون من الثقافة الإسلامية في ميدان الحروب الصليبية ثمرات غيرها من الميادين . فتجد مثلا
 في اللغات الأبرشية كثير من الالفاظ العربية مثل : حبة ، وصنارة ، وليرال — امير البحر —
 — وارسل — دار الصناعة — وسكر ، وغيرها من الالفاظ الكثيرة فمثل هذه الغرب باحتكاكه
 مع الشرق في زمن الحروب الصليبية او في وقت آخر ؛ ان علم اشتقاق اللفظ هو الذي يبرهننا على
 ذلك ، ولكن الوصول الى الحقيقة في كل هذه النواحي أمر صعب جدا .
 وما أخذته الغربيون عن الشرق في زمن الحروب الصليبية هو :

١ — تقدم فن الحرب والقتال في أوروبا على اثر الحروب الصليبية ووجد فن جديد لبناء القلاع
 في أوروبا ، كما ان الغرب تعلم من المسلمين بعض وسائل الدفاع استلزمها فن حركات المعارك الذي
 ارتقى في الشرق . فاستعملوا مدعية من الخنازير والتكيش الهادية ، وتعلموا صناعة الثيران
 المحرقة كالنار اليونانية وقوارير النفط والقذور المملوئة ب مواد مشتملة وقذائل المجراتي تخذ من حجر
 مدور فيه أربعة ثقب تملأ بالنفط وتهدف بخنازير ، والمطافون ان تستخدم الدرع الفارسي والقرب في
 القرب مأخوذ عن الشرق من الحروب الصليبية . وتعلموا استخدام الوسائل القطنية تحت الدروع
 واستخدام الخيام الراسل لقتل الأتجار . وتقدم فن البارود والفروسية أثناء الحروب الصليبية
 واقتبس استعمال الدارات ، كالنسر المزودج ، وحرارة الفرنجة ، والمغناطيس في أوروبا على اثر اتصال
 الصليبيين بالمسلمين في سورية . وتعلموا استعمال الطابل والطبور في حوسباتهم الموسيقية ، وتعلموا
 عدة الاحتفال بالظفر بأشكال الثيران .

٢ — توسعت التجارة مع الشرق على اثر الحروب الصليبية وتعرف الصليبيون على منتجات
 مصر والشام والهند والصين والفرنجية وبضائعها . وتعود الغربيون على هذه المنتجات والمصنوعات
 ونقلوها الى بلادهم . فدخلوا السهم والخروب والذرة والارز واليخون والبطيخ والشمس والشموم
 وبعض الاقمشة كالقوسطين والدمقس والماني والأطلس والسجاد والبساط وبعض الالوان كالقمرمي
 والاسباع كالبني . والعقاقير كعبر اللب ، والتوابل كالقرفة والسكر ، والمطهر كالعود والقرنفل
 واللبان وبعض القطع الفنية المصنوعة كالخيار والرخام والمصوغة كيميض المالي من الذهب والفضة
 والمينا حتى أنهم أخذوا المسيحة ...

٣ — أخذ الغرب عن الشرق بناء المستشفيات لمعالجة الأمراض وفتحوا الحمامات العمومية

للنظافة ونزق ذوقهم فاستعملوا الروائح العطرية من ماء الورد المدمشق والعطور المشتهرة بها فارس ، وادخلوا التوابل في أطعمتهم وتعلموا صنع الحلويات ، وامتد الحرب الصليبية عرف القرب السكر ، وما كانوا يعرفونه من قبل ، وكانوا يستعملون العسل لتحلية أطعمتهم ، فقد وجدوا في ساحل سورية الاولاد يحضون قصب السكر فلما ذاقوا طعمه ادخلوا زراعته بلادهم .

٥ - أخذ الأوربيون في زحف الحملات الصليبية من العرب علم الحار وادخلوا الأعداد العربية ، وركبوا الأرقام الرومانية وادخلوا الصفر في حساباتهم . وانتشر علم الحساب في القرب بسبب التجارة التي كانت قائمة بين سورية وإيطاليا . وانتشرت دراسة اللغة العربية والشرقية في القرب بغاية التشير المسيحية في البلاد العربية والشرقية وادخل تعلم هذه اللغات في الجامعات . هذا شيء مما انتجته الحروب الصليبية في القرب فلتنظر ما كان تأثيرها على الشرق .

آثار الحروب الصليبية في الشرق :

١ - ورت الشرق من الحروب الصليبية ذكريات التعصب الديني والتفريق بين المسلمين والنصارى
٢ - تركت الحروب الصليبية بعض الاثنية الحربية والمدنية من قلاع واسوار وكنائس وأديرة شاد بعضها أهالي البلاد ليدافعوا عن أنفسهم من الغارات الصليبية ، وعمر البعض الآخر الصليبيون بالاستعانة بعمالين وسناعات سوريين . وأهم القلاع التي بنيت في العهد الصليبي في سورية ولا يزال آثارها باقية حتى الآن هي : قلعة الشموخ قرب بانياس ، وقلعة الشقيف بطريق صيدا وقلعة سنجر وبعض الأبراج الصليبية في طرابلس ، وقلعة الحصن ما بين حمص وطرابلس ، وقلعة المرقب وسهيون بقرب اللاذقية ، وقلعة الكرك والشوبك بشرق الأردن . وتعتبر سورية في الوقت الحاضر من أفضل الميادين لدراسة الفن القوطي في زمن الحروب الصليبية .

٣ - أخرج الصليبيون مع قسم من أهالي البلاد ونشأ عن التامع جبل جديد يعيش قسم منه في سورية بعد خروج الصليبيين منها ولا يزال اسفاده موجودين حتى الآن .

٤ - انتقل الى الشرق بعض الالفاظ الاجنبية التي لا زال مستعملة حتى يومنا هذا منها : البوسطة - بك - باله - كروسة - كبيالة - ملوكائند وغيرها .

٥ - بدأت بذور الاستعمار السياسي والاقتصادي والديني تنمو في البلاد الشرقية فعمل الأوربيون على فرض امباراتهم في البلاد الشرقية إما لحماية الاقلية المسيحية او بالقوة والظلم او بطرق الخديرات الخيرية من فتح المدارس الاجنبية او تأسيس المستشفيات او الملاهي او الارشاليات وغيرها ولا يزال تعاني البلاد الشرقية وآثار الحروب الصليبية مما سببته من خراب البلاد وتأخر الحياة الاقتصادية والفكرية والاجتماعية .

11-1-35

لائحة باسماء ملوك طين المحاربك البحرية

| اسم السلطان | | سنة توليه الحكم | | اسم السلطان | سنة توليه الحكم | |
|-------------|------|-----------------|------|----------------------|-----------------|---------|
| ميلادي | هجري | ميلادي | هجري | | ميلادي | هجري |
| ١٢٥٠ | ٧٤٨ | ١٢٥٠ | ٧٤٨ | ١ - شجرة الدر | ١٣٤٠ | ٧٤١ |
| ١٢٥٠ | ٧٤٨ | ١٢٥٠ | ٧٤٨ | ٢ - ايبك | ١٣٤١ | ٧٤٢ |
| ١٢٥٧ | ٧٥٥ | ١٢٥٧ | ٧٥٥ | ٣ - علي بن ايبك | ١٣٤٢ | ٧٤٢ |
| ١٢٥٩ | ٧٥٧ | ١٢٥٩ | ٧٥٧ | ٤ - قطز | ١٣٤٣ | ٧٤٣ |
| ١٢٦٠ | ٧٥٨ | ١٢٦٠ | ٧٥٨ | ٥ - بيبرس البندقداري | ١٣٤٥ | ٧٤٦ |
| ١٢٧٧ | ٧٧٦ | ١٢٧٧ | ٧٧٦ | ٦ - بركة خان | ١٣٤٦ | ٧٤٧ |
| ١٢٧٩ | ٧٧٨ | ١٢٧٩ | ٧٧٨ | ٧ - سلامش | ١٣٤٧ | ٧٤٨ |
| ١٢٧٩ | ٧٧٨ | ١٢٧٩ | ٧٧٨ | ٨ - قلاوون | ١٣٥١ | ٧٥٢ |
| ١٢٩٠ | ٧٨٩ | ١٢٩٠ | ٧٨٩ | ٩ - الاشرف خليل | ١٣٥٤ | ٧٥٥ |
| ١٢٩٣ | ٧٩٣ | ١٢٩٣ | ٧٩٣ | ١٠ - الناصر محمد (١) | ١٣٦١ | ٧٦٢ |
| ١٢٩٤ | ٧٩٤ | ١٢٩٤ | ٧٩٤ | ١١ - كشتغا | ١٣٦٣ | ٧٦٤ |
| ١٢٩٦ | ٧٩٦ | ١٢٩٦ | ٧٩٦ | ١٢ - لاجين | ١٣٧٦ | ٧٧٨ |
| ١٢٩٨ | ٧٩٨ | ١٢٩٨ | ٧٩٨ | الناصر محمد (٢) | ١٣٨١ | ٧٨٣ |
| ١٣٠٨ | ٧٠٨ | ١٣٠٨ | ٧٠٨ | ١٣ - بيبرس الجاشنكير | ١٣٨٢ | ٧٨٤ |
| ١٣٠٩ | ٧٠٩ | ١٣٠٩ | ٧٠٩ | الناصر محمد (٣) | ٩٠٠-٣٨٩ | ٧٩١-٧٩٢ |

ملاحظة : تشير الاعداد التي بين قوسين الى عدد المرات التي تولى فيها السلطان الحكم .

الباب التاسع

الممالك

٦٤٨ - ٩٢٣ هـ أو ١٢٥٠ - ١٥١٧ م

أصلهم :

المماليك جماعة من الرقيق الأبيض استخدمهم الخلفاء العباسيون في خدمتهم لاسبغ الخليفة المعتصم الذي استعان بهم على العرب والفرس ليحمي سلطته ويقوي نفوذه في الدولة . وأصبح اقتناء المماليك سنة متبعة عند بقية الدول الإسلامية لاسيما في مصر . ففنى الطولونيون والاشقيديون والفاطميون والايوبيون عدد كبير منهم .

كان المماليك خليطاً من عناصر مختلفة منهم التركي ، الكردي ، الرومي ، الروسي ، والكردية والارمني وبعض الاثوريين جاء بهم النجاشيون (تجار الرقيق) من بلاد ماوراء النهر وشبهه جزيرة القرم وقفقاسيا والقفجاق والخزر وأواسط اوريا ، وكانوا يحملونهم الى مصر والبلاد الإسلامية الأخرى ويبيعونهم احدائاً في أسواق النخاسة ، ثم يربونهم تربية حسنة ، فيدربونهم على الحرب والفروسية ويعلمونهم القراءة والكتابة والفقه والحساب وكان المماليك أيام حكمهم في مصر منفصلين عن أهالي البلاد لا يختلكون بهم كثيراً . لذلك ظفروا بحافلين على جنسيتهم وعاداتهم القديمة . وكانوا ينسبون الى أسيادهم الذين اشتروهم فأبيك كان ينسب الى سيده الملك الصالح نجم الدين ايوب لذلك تسمى « بالصالحى التجمي » وقد استكثر الملك الصالح نجم الدين ايوب من اقتناء المماليك حتى تغلبوا على دولته الايوبية . وبعد وفاته لم يستطع ابنه توران شاه من كبح جماحهم فقتلوه وولوا امه شجرة الدر مكانه فتلقت « بمحنة المدين ام خايل » وحكمت البلاد ، وخطب لها من منابر مصر وضربت النقود باسمها . الا ان الاحوال قد اضطربت في زمنها بسبب امتناع امرائه عن دفع وجاب من الاعتراف بسلطانها . وقد أرسل أمراء المماليك الى الخليفة المعتصم العباسي يطلبون الموافقة منه على سلطنتها فكتب اليهم : « ان كانت الرجال قد عدت عندكم فانهووا حتى نسير اليكم رجلاً » فعارض الشعب في توليتها عرش مصر ، فزوجت بعز الدين ايوب ، وجعلته اياًكاً على الدولة ، وبذلك تم انتقال الحكم من الايوبيين الى المماليك ، الذين حكموا مصر واتساع نحو ثلاثة فروع حكم في خلافتها نحو خمسين سلطاناً أظهر بعضهم كفاءة منقطعة الثيل ، لذلك مستحكم عن بعض هؤلاء وأشهر أعمالهم .

القسم حكم المايك الى قسمين :

القسم الاول : حكم فيه المايك البحرية أو التركية من سنة (١٢٥٠ - ١٣٨٢) م أو

(٦٤٨ - ٥٧٨٤) .

القسم الثاني : حكم فيه المايك البرجية أو الشراكسة من سنة (١٣٨٢ - ١٥١٧) م

أو (٧٨٤ - ٩٢٣) .

وعرفت الدولة الاولى بالبحرية لان المايك كانوا يسكنون في سكنات بناها لهم الملك الصالح نجم الدين ايوب في جزيرة الروضة في بحر النيل وسموا بالمايك التركية لان اكثرهم كان من الاتراك . وعرفت الدولة الثانية بالبرجية لانهم كانوا يسكنون في أبراج قلعة القاهرة التي بناها السلطان صلاح الدين الايوبي على جبل المقطم في مصر . وسموا بالمايك الشراكسة لان اكثرهم كان من الشراكسة .



الفصل الاول

دولة المماليك البحرية

٦٤٨ - ٧٨٤ هـ أو ١٢٥٠ - ١٣٨٢ م

كانت الفتن الداخلية قائمة في البلاد في زمن المماليك البحرية بسبب نزاع أمراء المماليك على السلطنة ، وذلك لأنه لا يوجد طريقة ثابتة لتولي الحكم . فاستأطرت كانت عندهم نهياً الأقوى . فمن كان عنده حاشية قوية والياح كثيرون أصبح ساطناً . فإذا ضعف خلفه غيره وحل مكانه . وكانت البلاد بأسرها غنيمة للسلطان وجنده ، يأخذون مغانمها ويتعمون بحيراتنا في سبيل إشباع رغبتهم وتفتيد استبدادهم . فإذا ضعفوا غلبهم غيرهم وحلوا مكانهم . واشتهر من سلاطين المماليك البحرية : عز الدين ايبك ، وقطز ، وبيرس ، وقلاوون ، والملك الناصر وسفكاهم عنهم باختصار وقد نوات السلطنة في بيت قلاوون من أبنائه وأحفاده حتى انتهاء دولة المماليك البحرية . إلا أن الأمراء أتقوا أولاد قلاوون بالسلطنة وحكموا باسمهم لذلك كانوا المعوية بدم .

عز الدين ايبك

٦٤٨ - ٦٥٥ هـ أو ١٢٥٠ - ١٢٥٧ م

هو أحد مماليك الملك الصالح نجم الدين ايوب تزوج شجرة الدر سنة ٦٤٨ هـ فزات له عرش العرش بعد أن حكمت مصر تسعين يوماً ، برهنت فيها على كفاية وبراعة وحكمة في تصرف الأمور وقد اعترض ايبك في عهد سلطنته عدتة غارات منها (١) أن المماليك البحرية كانوا لا يزالون يذكرون حتى الأيوبيين الشرعي في عرش البلاد ، فاستدعوا أحد الأيوبيين وهو الناصر صلاح الدين يوسف صاحب بلاد اليمن . وبايعوه بالسلطنة ولقبوه بالملك الأشرف . إلا أنه لم يحكم مع ايبك ، ولم يكن له سوى الاسم . فلما قويت شوكة ايبك بانضمام عدد كبير من المماليك اليه ، انهم فرصة ازدياد خطر التفر في بلاد الشام وتهدددم مصر سنة ٦٥٠ هـ فقطع اسم الأشرف من الخطبة ، وكانت الأشرف آخر ملوك بني ايوب بمصر . ولم تقم الأيوبيين بعد ذلك قائمة على الرغم من المحاولات الكثيرة التي حاولها بعضهم في سبيل الوردول إلى عرش مصر واسيا الدولة الأيوبية فيها . (٢) وكذلك لم يعترف بسلطنة ايبك الاثني عشر فارس الدين اقطاي مقدم المماليك البحرية وكان يأنه

بشق او امره ، فبعث السلطان ابيك في طلبه ، ونظاير بانه يريد استشارته في مهام الامور ، والموصل الى قلعة الجبل سنة ٦٥٢ هـ افاق بابها ومنع مما يليك من الدخول معه ، ثم امر به فقتل ، ورمى رأسه الى عماليك غاف انصاره وهربوا الى الشام .

وليجعل ابيك ملكه شرعياً أرسل الى الخليفة العباسي ببغداد المستنعم بالله يلتمس منه التخليد والخلع والاثوبة السوء بمن تقدمه من ملوك مصر ، وأنه نأى به فيها . فأرسل له ذلك ، فصفا الجو له الى سنة ٦٥٥ هـ . الا أن العلاقة ساءت بينه وبين زوجته شجرة الدر إذ علمت انه أرسل بخطاب بن الملك بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل فديت الفيرة في نفسها ، فقامت عليه مع بعض خصياتها وقتلوه في الحمام في ١٤ ربيع الاول سنة ٦٥٥ هـ وبايع الامراء لابنه علي وعمره يومئذ احدى عشر سنة على ان يلقب بالمصور وبين الامير سيف الدين قطز انايكاً له .

وقد بدأ هذا السلطان الشاب عهده بالانتقام لابيه ابيك من شجرة الدر فأوعز الى بعض الجوارى فقتلنها بالقباقيب . وفي عهده طغت موجة المغول على البلاد الاسلامية واستولى هولاكو على بغداد سنة ٦٥٦ هـ فالتخذ قطز هذا الحادث زريعة لاخذ السلطنة لنفسه فاعتقل الملك المنصور بقلعة الجبل وأعان نفسه سلطاناً على مصر سنة ٦٥٧ هـ .

قطز

٦٥٧ - ٦٥٨ هـ او ١٢٥٩ - ١٢٦٠ م

تولى قطز السلطنة لقتال التتر ، كما أعلن ذلك بنفسه لامراء المماليك عند مائتكر واعليه خلع الملك المنصور . فخرج للقائهم في اواخر شعبان سنة ٦٥٨ هـ ولاحق بهم في عين جالوت بين بيسان ونايلس في فلسطين . وجرت معركة بين الطرفين انتصر فيها المماليك انتصاراً باهراً ثم تجمع التتر في بيسان ونايليم قطز وهزمهم هزيمة منكرة . الا ان بعض المماليك بزعمه الامير ركن الدين بيبرس اتفقوا على قتله ، وذلك لانه كان وعد بيبرس بنبأته حلب ثم اطلقها لصاحب الموصل . فقتلوه وهو عند في طريقه الى مصر سنة ٦٥٨ هـ ونادوا بيبرس سلطاناً عليهم .

بيبرس البندقداري

٦٥٨ - ٦٧٩ هـ او ١٢٦٠ - ١٢٧٧ م

كان بيبرس أسطم سلاطين دولة المماليك البحرية ومؤسسها الحقيقي . وهو في الاصل رقيق تركي من في اول ملكه على تانايام شؤون البلاد الداخلية . فاعتنى بترتيب الجيش وتعمير الاستطول ،

وتحصين قلاع سورية ، واهتم بحفر الترع ونحسين المواني وربط القاهرة ودمشق بواسطة مصادرة
بريد سريع يصل ما بين المدينتين في اربعة ايام . وكانت بدائل الخيل تنقب على اهبه الجري في كل
محطة للبريد ، حتى لقد كان في سكة السلطان أن يلعب الصولجان في كلتا المادتين خلال مدة لا
تزيد على اسبوع واحد . وكذلك اهتم باستخدام حمام الزاجل في نقل البريد فكان يربى ويحفظ
انسابه في سجلات خاصة . واهتم بيبرس بالانشغال العامة ، فأسس المعاهد وبنى المساجد واسلمح
المسجد النبوي وقبة الصخرة وأقام المؤسسات الخيرية . ومن العبارات الشهيرة التي شيد بها :
الجامع الكبير والدرسة التي تحمل اسمه . وهو اول سلطان يتصرف بعين اربعة فضاء المذاهب الاربعة
ووضع نظاماً دائماً للمجمل المصري . وكان يجلس العظام بنفسه ويعتقب على الفقراء والموزون
واسدر عدة قوانين تهذيب اخلاق المصريين ، فأمر سنة ٦٦٤ هـ بتنع بيع الخمر وأقال الخانات
التي بالقاهرة وجميع اعمال مصر ، ونفى كثير من المفسدين . وخفض الضرائب وكانت يراقب
حياتها وصرفها حتى لا تنسرب الى جيوب الموظفين وكان يعاقب المرتبة والخاص اشد عقوبة . وكان
له مقام عظيم بين امراء مصر ، فقد هابوه وخشوا يأسه حتى لم يكن احد منهم يجسر على الدخول
عليه الا بأذنه وهذأت الاحوال في زمنه .

كان بيبرس قائداً شجاعاً ضربت الامثال بطولاته وشهامته - حتى أن سيرته وادب الظاهر ،
لا تزال تقرأ حتى يومنا هذا . وقد تجلت بطولاته في حروبه ضد الصليبيين فارتهم ، في عشر سنوات
انهك قواهم وهدم حصونهم وشدت ثملهم . وكذلك حارب فرقة الحشاشين من الاسمايلية في جبال
العلوين وأخضعهم ونشر حكمه ايضاً على بلاد النوبة والبربر ، وتماقد مع ملوك المغول وملوك اوربا
فمقد محالفة مع زعيم خانك المنون في قساق من وادي الفولان وكذلك الذي اذانية تجارية مع
شارل دو أنجو Charles of Anjou ملك صقلية ، ومسمع جيمس ملك اراغون والفونسو
ملك اشبيلية .

ومن اروع الحوادث في ملك بيبرس اقدامه على تجريد الخلافة العباسية واسياها في مصر . بعد
ان قضى عليها هولاكو النثري في بغداد سنة ٦٥٦ هـ وكان جيل قصده من ذلك جيل ساطع شمعية
واكساب بلاطه رفعة في فطر سائر الافطار الاسلامية . لذلك استقدم من دمشق في حزيران سنة
١٢٦١ م أحمد العباسي عم المستنصر آخر الخلفاء العباسيين . وكان قد نجح من مذبحته بغداد ، فابع
له بيبرس والناس على طيفاتهم بالخلافة ونقب بالمستنصر بالله وكتب بيبرس الى التواصي بأخذ البيعة
للعليفة وبالخطبة باسمه على المنابر وبنش اسمه على الكعبة . وقد اتبس مخالفة شاررات السلطنة الى
بيبرس وفوض الامور اليه في البلاد الاسلامية وقلده الحشم على مصر وسورية والارمنكر والحجاز

واليمن والعراق ، وبعد ثلاثة اشهر توجه بيرس من القاهرة ومنعه الخليفة طامعاً في إعادة بغداد الى املاك الخلافة ولكنه لم يرافقه الا الى دمشق فودعه فيها وعاد الى مصر . وقبل ان يسلم المذبح الى بغداد اُخبر عليه حاكم القول ببغداد في الصحراء فكان ذلك آخر العهد به ، ونسب ابنائه على الخلافة مدة قرين ونصف وليس لهم من الخلافة الا الاسم . ولما اخرج الاطراف باسم العثماني مصر في سنة ١٥١٧ م من ايدي المماليك نقل معه الى القسطنطينية الخليفة المذوكل آخر خلفاء هذه الأسرة .

توفي بيرس في ٢٧ محرم سنة ٦٧٦ هـ على اثر عودته من واقعة قيسية اوية ودفن في دمشق وكان قد عمد باسماط لابنه محمد المسمى بركة خان وكان قد بلغ الخامسة عشر من عمره ، وقام الخلاف بينه وبين الامراء المماليك من بعده حكمه مما ادى في النهاية الى خلعه ونفيه الى الكرك منق سلاطين المماليك .

سيف الدين قلاوون

٦٧٨ - ٦٨٩ هـ أو ١٢٧٩ - ١٢٩٠ م

كان قلاوون فنجاني الاصل ثمته الف دينار لذلك عرف بالافني . واسبح الفلكا بدير لدين سلاش بعد خلع اخيه بركة خان ، واستأثر بالحكم لصغر سن السلطان . وظهر نفوذ قلاوون بأبلى معانيه حين ضربت الفسكة باسم الملك العادل سلاش على احد الوجرين وباسم قلاوون على لوجه الآخر ، وزاد نفوذه وارفع ذكره حين خطب له والعادل معاً . واحذر عهد العادل لولاه الى السلسلة ، فعزل نواب السلطان بركة خان عن البلاد الشامية وولى من يشق بهم من قبائعه وتخلص من منافقيه البارزين الذين كانوا يطمحون الى السلاطنة ، وبعد ان دغا بالولاة قلاوون بمراضاة الامراء والبايعاء اتفق معهم على خلع السلطان سلاش ، لانه لا فائدة في بقاء ذلك الصبي الصغير ، وتولى مكانه .

سار قلاوون على نهج بيرس في ادارة شؤون البلاد وتقريب الشعب اليه . وكانت سياسته قائمة على الاشارة من المماليك ليكونوا عوناً له والاولاد من بعده في تربيت عروشهم ، وانشأ لذلك فرقة جديدة من المماليك اطلق عليهم اسم البرجية نسبة الى ابراج القلعة التي اقاموا بها . الا انه قدر لمر لا أن يسدوا المروش من اولاده ويشكلوا دولة المماليك البرجية .

واتبع قلاوون سياسة بيرس في اخراج الصليبيين من بلاد الشام واستولى على ما بقي في ايديهم

سنة ٦٨٦ هـ عندما مدته عكا التي استولى عليها ابنه الاشراف خايل سنة ٦٩١ هـ بعد وفاة ابيه .

وبذلك قضى على آخر حصن كان يدهم ، ولم يبق بعدها للصليبيين في بلاد الشام اى حصن بلنجهون
اليه وهاجر بقاياهم الى جزر البحر المتوسط كما مر معنا .
وقد قلاوون سياسة بيجس في ازالة اثر من بلاد الشام وجر الخوارجهم بقرب حمص وكانوا في
ثمانين الف فارس فكسرهم وابعد ادم عن البلاد .
كان قلاوون سلطاناً عظيماً منقاداً في سفك الدماء ، يحب جمع المال ، وقد انفذ على المشاريع
العمرائية كبناء المدارس والمساجد والمكتبات والملاجئ . وتولى تولاد من بعده على عرش
السلطنة وتكتفى بذكر الناصر منهم .

الناصر محمد

٦٩٣ هـ او ١٢٩٣ م

تولى الناصر عرش السلطنة في التاسعة من عمره ، وقد تولى على منعة الحكم ثلاث مرات ، كان
يلتجئ خلالها الى الكرك ويستأجر غيره بالسلطنة ثم لا يلبث ان يستعيد الممالك للحكم على اثر
قيام الاضطرابات والعين .

وكانت الحوادث السياسية تدور في زمن الناصر حول النزاع على السلطنة من قبل كبار المماليك
الطامعين بها . والمختلوا في بادى الامر حدثت من الناصر . فوسيلة واحدة لتحقيق اغراضهم .
وكان الاتباع من المماليك الصغار يشتركون في هذا النزاع متخذين جانب الامراء الكبار ، ويريدون
في تشويش الحالة وسوتها . وكذلك كان العامة من اهل مصر يدسسون في المنازعات بين السلطان
والمماليك فتضطرب الاحوال وتشتد العين .

وفي سلطنة الناصر الثالثة (٧٠٩ - ٧٤١ هـ) انفرد الناصر في حكم البلاد ، وتمكن من القضاء
على الذين اختصوا عرشه . واقاموا الدين والدستار . وولاه . واستمرت هذه الفترة اثنتين وثلاثين
سنة ، وهي المدة التي بعدها المؤرخون عهد سلطنة الناصر المائتية ، اذ انه قبل ذلك لم يكن الا
العوية بيد الامراء الاقوياء الذين يجادلونه على العرش او يصرونه منه حسب اهوائهم ، وقد حكم
في الفترات التي تلحق الناصر بها من السلطنة كبريتا ، دلاين وبيرس الماشكيز الا انه - في
الناصر في وراثته عرش ابيه ممكنه ان يحكم مصر نحو نصف قرن .

وتتميز سلطنة الناصر الثالثة ازهى عصور مصر في عهد المماليك . فقد كانت القاهرة عاصمة
لمملكة واسعة تمتد من بلاد برقة غرباً الى ساحل البحر الاحمر شرقاً ، ومن آيا الصغرى شمالاً
الى بلاد النوبة جنوباً ، كما خضعت بلاد اليمن والحجاز لسلطة الناصر . وكانه بعض ملوك أوروبا

وأسيا و قدوا معه المعاهدات و أرسلوا إليه الهدايا . وحارب المغول الذين استولوا على دمشق و عاشوا
في بلاد الشام و فلسطين و بلاداً . فلاقى بهم في مرج الصفر قرب دمشق سنة ٥٧٠٢ هـ و هزمهم
هزيمة منكرة .

اصولات الناصر

بعد ان استتب الامن في البلاد انصرف الناس الى عمارة اراضيهم الزراعية و ترويح التجارة
و تحسين الصناعة ، و نظراً لان الناصر كان مثديلاً لعم بنشيد العمائر الدينية و المؤسسات الناجمة التي
لا يزال بعضها قائماً و يهدد بها كان عصر المماليك من البراعة في الفنون و العمارة . و يعتبر الناصر من
اعظم السلاطين شغفاً بالنشيد و البناء ، و كان له خبرة فيها . و قد ابدع من الامراء بالعناية بالمباني
و الثاني فيما حتى اصبحت أهم شواهد عصر المماليك البناء و العمران .

و قد اهتم الناصر بالاصول الداخلية منها انه و جد الموازين و المقاييس و السكايل في الدولة و راقب
شعبها ، و خفض الضرائب على الرعية و من الفقراء بصورة خاصة و عني بالاخلاق العامة و المحافظة
على آداب الدين ، و اهتم بالعلم و المعارف . و وصفه ابو الحسن في كتابه النجوم الزاهرة بقوله انه :
« اعدل الملوك في الحكم زماناً و اعظمهم ديانة ، و احسنهم سياسة . و اكثرهم دعاء ، و اجودهم تدبيراً
و اقوام عدلاً و شجاعة . مرت به التجارب و قدس الشاوب و باشر الحروب ، و تغلب مع الدهر
الولاء و نشأ في الملك و الرئاسة ، وله في ذلك الفخر و السعادة ، خليفة بالملك و السلطنة ، فهو سلطان
و ابن سلطان و ولد تسمية سلاطين من سلبه ، و الملك في دربه و احفاده و عقبه و خلائكه و عائلته
مما يلكه الى ان تفرس الدولة التركية ، فهو أحمل ملوك الترك و اعظمهم بلا مدافع . »

توفي الناصر سنة ٦٤٩ هـ ١٢٥٠ م . ولم يقدر الولاده ان يقوموا بالسلطنة فوكت البلاد في قوضى
نحو سبع سنة الى ان انت اذني الامر بانقراض دولة المماليك البحرية التي كان لها الفخر باستئصال
الصليبيين من سورية و حالت بين المغول و تدويع العالم و حالت دولة المماليك البرجية محلها .



لائحة بأسماء سلاطين المماليك البرجية

| سنة توليه الحكم | | اسم السلطان | سنة توليه الحكم | | اسم السلطان |
|-----------------|---------|----------------------|-----------------|--------|-------------------------|
| هجري | ميلادي | | هجري | ميلادي | |
| ٨٤٢ | ١٤٣٨ | ١١ - حقيق | ٧٨٤ | ١٣٨٢ | ١ - برقوق (١) |
| ٨٥٧ | ١٤٥٣ | ١٢ - المنصور - عثمان | ٧٩١ | ١٣٨٩ | حاج بن شهبان (٢) |
| ٨٥٧ | ١٤٥٣ | ١٣ - إيشال | ٧٩٢ | ١٣٩٠ | برقوق (٣) |
| ٨٦٥ | ١٤٦٠ | ١٤ - المازد - أحمد | ٨٠١ | ١٣٩٨ | ٢ - فرج بن برقوق (١) |
| ٨٦٥ | ١٤٦١ | ١٥ - خشفدم | ٨٠٨ | ١٤٠٥ | ٣ - عبد العزيز بن برقوق |
| ٨٧٢ | ١٤٦٧ | ١٦ - بلباي | ٨٠٩ | ١٤٠٦ | فرج (٢) |
| ٨٧٢ | ١٤٦٨ | ١٧ - تيمور يوغا | ٨١٥ | ١٤١٢ | ٤ - الخليفة الماتين |
| ٨٧٣ | ١٤٦٨ | ١٨ - قيقاي | | | العباسي |
| ٩٠١ | ١٤٩٥ | ١٩ - الزاهر - محمد | ٨١٥ | ١٤١٢ | ٥ - المؤيد - شيخ |
| ٩٠٤ | ١٤٩٨ | ٢٠ - الظاهر - قنصوه | ٨٢٤ | ١٤٢١ | ٦ - الظاهر - أحمد |
| ٩٠٥ | ١٤٩٩ | ٢١ - جنبلط | ٨٢٤ | ١٤٢١ | ٧ - الظاهر سيف |
| ٩٠٦ | ١٥٠٠ | ٢٢ - قنصوه اتقوري | | | الدين ططر |
| ٩٢٢ | ١٧-١٥١٦ | ٢٣ - طومان باي | ٨٢٤ | ١٤٢١ | ٨ - الصالح - محمد |
| | | | ٨٢٥ | ١٤٢٢ | ٩ - برصباي |
| | | | ٨٤٢ | ١٤٣٨ | ١٠ - العزيز - يوسف |

الفصل الثاني

دولة المماليك البرجية

٧٨٤ - ٩٢٣ هـ أو ١٣٨٢ - ١٥١٧ م

صفات المماليك البرجية

كان المماليك البرجية من أصل شركسي ما عدا اثنين منهم وهما خشمقدم ونعمور بونا اللذين كانا من أصل يوناني . ولم يكن الملك عندهم وراثياً كما كانت الحال في بيت قلاوون وإنما كانت السلطنة عندهم نهياً للأقوى . وبلغ عدد سلاطين هذه الدولة ثلاث وعشرين سلطاناً حكموا ١٣٤ سنة امتد سلطانهم في خلالها على مصر والشام والحبشة . كانت هذه البلاد أيام حكمهم في أعظم عبودها ، لأن عدداً من سلاطينهم كانوا بقاء سفاحين بل إن منهم من كان ما جناً خليعاً وكانت بعضهم لا يملك شيئاً من الكفاية أو الثقافة . فالؤيد شيخ الذي اشتراه السلطان برقوق من تاجر شركسي كان مسكيراً بفترف جسام القبائح . ورسباي من مماليك برقوق أيضاً لم يكن يحسن اللغة العربية . ومن مساوئه أنه أمر بقطع رأسي طبيبه عندما تمذر عليها شفاؤه من داء عضال . أما إنال وهو أيضاً من مماليك برقوق فكان أيضاً مجهل القراءة والكتابة وعلى الرغم من تطاول عهد سلطته فإنه لم يكن يعرف توقيع اسمه على المراسم إلا بعد أن يرسم له الموقع رسماً خفيفاً عليها فيعيد هو على ذلك بالقلم أما بلهاي فلم يكن أمياً لسبب بل مشوهاً . وأما قايي الذي اشتراه رسباي بخمسين ديناراً فقد أمر بالكجاوي علي بن المرشوشي أن تلع عيناه ويقطع لسانه لعجزه عن تحويل المعادن المسببة إلى ذهب .

فساد الحالة الاقتصادية

كانت البلاد في زمن المماليك البرجية في حالة سيئة من الناحية الاقتصادية ومما زاد في سوءها الحالة الاقتصادية سياسة السلاطين النفعية القائمة على مصالحهم الشخصية من ذلك أن رسباي منع استيراد التوابل من الهند ، وفي جملتها الفلفل المرغوب فيه كثيراً ، وقبل أن ترتفع أسعارها احتكر جميع الكميات الموجودة منها في البلاد وباعها بعد ذلك من الناس بأسعار فاحشة ضمنت له ربحاً كبيراً كذلك احتكر صناعة السكر ، وبلغ به الطمع أن حظر زراعة قصب السكر زمناً لكي يؤمن

نفسه ارباحاً عظيمة . وفي عهده اجتاحت الطاعون مصر والبلدان المجاورة ، وهو ضربة نكبت بها
البلاد مراراً ، فكثر الطلب على السكر إلا كان يستخدم علاجاً خاصاً لهذا الداء . ومع ان الطاعون
لم يفتك بالناس فذلك الموت الاسود Black Death في اوروبا فانه مات من جرائه نحو ثلاثمائة
الف نسمة في العاصمة المصرية وحدها خلال ثلاثة اشهر . وخلف السلطان من الوباء نفسه عقاباً من
الله لا يشار المعصية بين الناس وعدم خروج النساء في الاسواق سبب ذلك الوباء فنهين من الخروج
وسعى الى التكفير عن سوء عمله بفرض ضرائب جديدة على اليهود والنصارى .

على ان ايزار الاموال لم يقتصر على اهل القمة بل كان المليون ايضاً متقلبون بالضرائب وذلك
لعدم وجود نظام معين لزيادة الضرائب . فكان الملايين يفرضون ضرائب قاسية في سبيل جمع
الاموال اللازمة لقتالهم الخارجية . وكانت البلاط انما حاشية وتشيد العبرات الكبيرة . وكانوا
يصادرون اعيان كبار المؤلفين في اثناء الذين اروا على حساب الجمهور

وما يزيد المائة سوء الفاقة قباله ايدو من الصحراء على الفلاحين في وادي النيل وعشيم في
مزارعهم والافلام مزروعتهم ونهيم ما فصل اليه ايديهم . ثم ان الجراد كالاوثة كانت يزور
البلايين الفينة والفينة حتى اصبح الجوع ينتاب البلاد خاصة في سنين الطاعون والجفاف الثاني عن
النفاس ماء النيل وبذلك عدد كبير من السكان . وتقدر خسارة سورية ومصر بسبب الجوع
والامراض في عصر المايك نحو ثلثي مجموع السكان .

ضياح مجاعة الخمد

في آخر عهد المايك الخارجية أخذت بعض العوامل العالمية تزيد البلاد فقراً وتعاث في سنة
١٤٩٧ م اكتشف الملاحة البرتغالي فسكودوكا طريقاً بحرية جديدة حول رأس الرجاء الصالح .
وهو حادث خطير كان قد اورد الس في قرون ماض وبلا الشام وذلك لان اساطيل البرتغاليين
تألولو يربح أخذت تخرب دفين المسلمين وتطرد تجار المسلمين من البحر الابيض والمياه الهندية وتخليج
قارس وتحتكر تجارة التوابل وسواها من محصولات الاستوائية التي امنازت بها الجازر المصرية
وبلا الشام . وبذلك انتقلت الارواح التي كانت تدور على مصر والشام الى اوريطا واوريطا الواسع السلطان
بقصود انشورجي اساطيل الخبارية للبرتغاليين الا انه كسر لغامهم . وبذلك ضاعت هذه التجارة
من يد المايك نهائياً .

تجور تلك

ولقد تجور تلك في بلاد ما وراء النهر سنة ١٧٦٦ م (١١٣٥ م) من اسرة تركية من سلاله

أحمد وزراء جنكيز خان . وفي سنة ١٣٨٠ م سار على رأس قومه التتر في سلسلة حملات متواصلة افتتح بها أفغانستان وبلاد المجمع وفارس وكردستان . واستولى سنة ١٣٩٣ على بغداد ودوغ ارض الرافدين . ففي تكريت مثلاً انشأ هرمأ من رؤوس القتلى . وفي سنة ١٣٩٤ انطلق الى روسيا واحتل موسكو واقام بها ما يزيد عن السنة . ثم تحول عنها بعد ثلاث سنوات الى الهند الشمالية واحتل دلهي سنة ١٣٩٨ م وقتل ثمانين ألفاً من اهلها .

وكانت سرعة اكتساح تيمور لسورية الشمالية سنة ١٤٠١ م أشبه بالمهيفة تمر بالبلاد فلا تبقى ولا تتر في حلب أقام عساكره نحو ثلاثة ايام بأسرون ويهبون ويقتلون ويستبيحون كل شيء حتى عمل تيمور من رؤوس القتلى البالغ عددهم عشرين ألفاً كرات محيطة بكل واحدة منها عثرون ذراعاً وارفعاهما عشرة ازرع جاءلاً الوجوه بارزة الى الخارج راحا من يربها . وهدم اهل ما فيها من مساجد ومدارس وتوجه الى دمشق فاحتل في طريقة حماة وحمص وبعلبك ولم يقو جيش المماليك الذي كان بقيادة السلطان (فرج) على الصمود في وجه التتر فاهزم وسقطت دمشق بعد ان دافعت عنها حامية قلعتها شهراً واعمل جيش تيمور في دمشق القرب والسلب والنار حتى لم يبق من الجامع الاموي الا بعض جدرانه . ومن دمشق عاد تيمور الى بغداد ليأثر من اهلها قتلهم بعض رجاله فاعمل في المدينة السيف وقتل عدد كبير من اهلها واقام فيها مائة وعشرين رجلاً من رؤوس خيالة . وفي سنة ١٤٠٢ زحف تيمور على اسيا الصغرى فسحق جيش العثمانيين عند انقرة وأخذ السلطات بإيزيد الاول اسيراً ووضعه في قفص كان يحمله معه في غزواته واستولى على بامشهر بروسة وعلى ازمير . ولحسن حظ المماليك مات تيمور سنة ١٤٠٥ م (٨٠٧ هـ) وهو زاحف لاقتحاح الصين فذهب النزاع بين ورثته وافترقوا قوام في المشاحنات والفتن الداخلية وانزعاج على العرش .

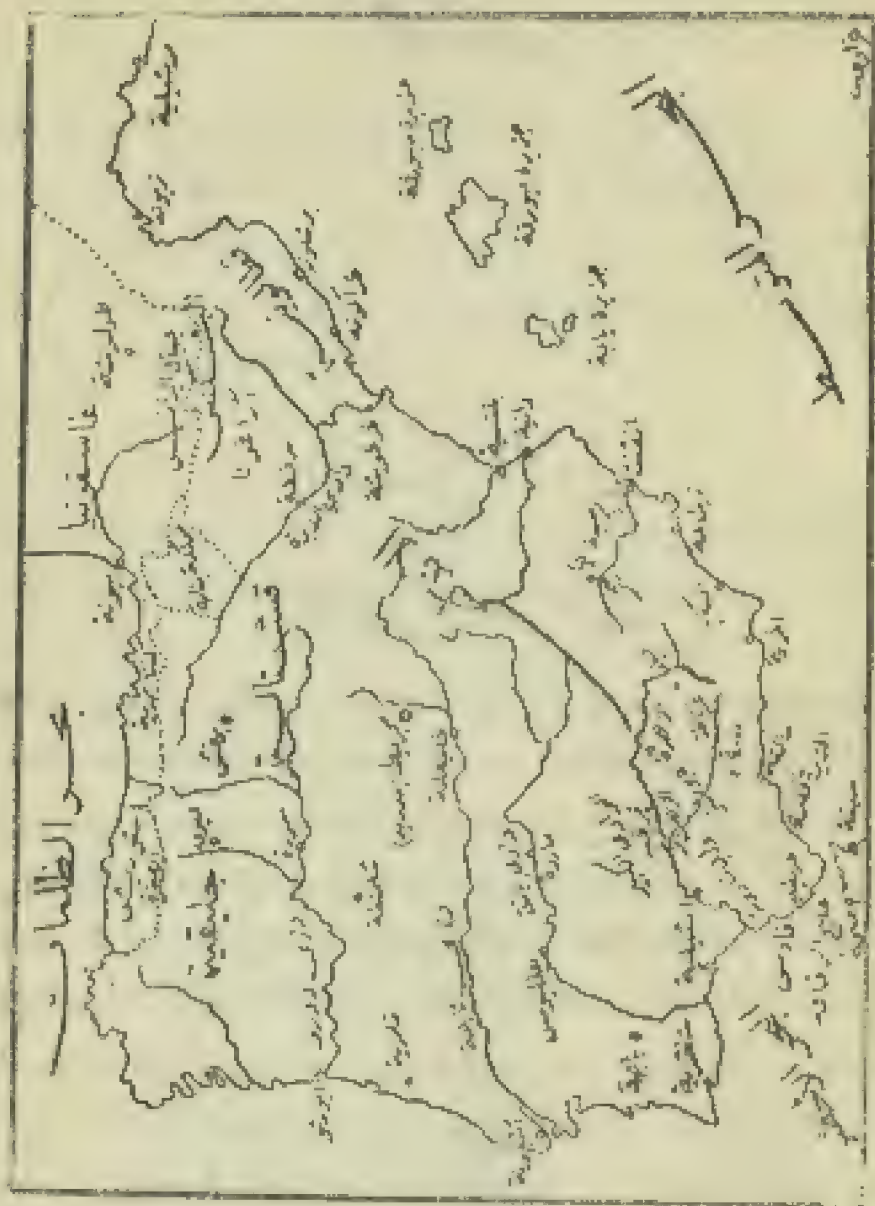
العثمانيون والقضاة على دولة المماليك

جاءت الفرية القاضية على المماليك من جانب العثمانيين في اوائل القرن السادس عشر ميلادي وبدأت المنافسة بين الحائزين بسبب اطماع السلطان سليم العثماني والتوسع في البلاد العربية واتخذ مساعدة قانصوه الغوري شاه اسماعيل الصفوي ملك الفرس وابوائه العصاة والقارون من وجه السلطان سليم ذريعة للحرب وجرت المركة الحاسمة في مرج دابق بالقرب من حلب سنة ٩٢٢ هـ (١٥١٦م) انقصر فيها العثمانيون على المماليك وقتل فيها قانصوه الغوري ودخل السلطان سليم العثماني مدينة حلب ظافراً فرحب به اهلها وما لبثت سورية بأسرها أن انتقلت اليه . ثم زحف هذا الفاتح جنوباً الى مصر فاحتلها سنة ٩٥١٧ وقضى على آخر سلاطين المماليك البرجية طويمان باي وخضعت مصر والشام والحجاز للدولة العثمانية .

القسم الأخير

الاندرلس

الفردوس المفقود



محمود بلاط الدارلسن زمني الحكم العربي

الباب العاشر

الأندلس

يعتبر تاريخ الأندلس من أهم أدوار الحياة العربية وأجودها فقد نحت الحياة العربية نحواً خاصاً في الغرب بما يتلاءم وطبيعة تلك البلاد . والعناصر المختلفة التي تسجلها من عرب ، وبربر ، وروم ولذنين . كما كانت تلك الحياة في كثير من نواحيها مدى لها كانت تجري في الشرق في الحياة السياسية ، والاجتماعية ، والاقتصادية ، والفكرية ، والفنية . وقد مر تاريخ الحياة العربية في تلك البلاد بمراحل مختلفة نذكرها بما يمكن من الاختصار .

الفصل الأول

الأندلس قبل الفتح العربي

كان يسكن اسبانيا من أقدم الأزمان اقوام من الجنس الايري Iberians والساني Celts . ثم جاء القارمون والوطم الفينيقيون في القرن الحادي عشر قبل الميلاد . وفتح الرومان اسبانيا ونسروا فيها لغتهم وثقافتهم وحضارتهم . دخلت اسبانيا بيد الرومان من القرن الثاني قبل الميلاد حتى القرن الخامس بعد الميلاد . وبدأت عوامل الانحطاط عند الرومان في اسبانيا بسبب : (١) انحطاط الاخلاق (٢) وحصر الثروة والمال بطبقة الأشراف (٣) وانحلال كاهن الطبقة المتوسطة بالاضراب (٤) وامبودية القسم الأكبر من السكان من الفلاحين الأفنان . وعندما اجتاحت البرابرة الجرمن الأمبراطورية الرومانية الغربية أباد اسبانيا فصيب من هؤلاء مهاجمها قبائل القاندا والمويف التي غالت في البلاد فساداً وخراباً ولم تترك فيها من الآثار غير اسمها - فاندلس - الذي اشتقت منه كلمة الأندلس التي أطلقت على القسم الجنوبي من شبه جزيرة ايبيريا ثم شمل البلاد بكاملها . وحل محالهم قبائل قوط الغرب الذين حكموا البلاد منذ منتصف القرن الخامس ميلادي حتى اوائل القرن الثامن ميلادي وقاوتوا بالحضارة الرومانية ، واصبحوا الطبقة الحاكمة في البلاد فكانوا ورجال الذين منقسمين المملكة فيما بينهم . تاركين امر الزراعة والصناعة لطائفة الفلاحين او العبيد الذين لم يكن

لهم ثمة أمل في استئصال نسيب الحرية ، ويمشون في ذلك وشمة لا يملكون عتقاً ولا منقولا ولا يستطيعون الزواج الا بادن اسياهم .

وكان يهود اسبانيا يعانون ابلغ صنوف العذاب من جور الاشراف ورجال الدين . وقد حاولوا الثورة قبل الفتح العربي زمن قصير فآخفوا ، وقرت جموعهم ونهبت دوزخهم ، واجبروا على اعتناق النصرانية ، واخذت الكنيسة اولادهم لتربيتهم على النصرانية ، واجبر اليهود على الزواج بالنصرانيات ليضموا قرومهم ، لذلك سهل اليهود فتح البلاد للعرب عند قدومهم ، وكانت الملو ملأها لدخول العرب الى اسبانيا .

فتح الاندلس

٨٩٢ هـ او ٧١١ م

سبب الفتح :

بعد وفاة ملك القوط ديزا Willsa (ويسميه العرب غيطشة) اغتصب الملك رoderik (ويسميه العرب لدرين) وساعده في ذلك الاشراف الذين يريدون ان يكون العرش اختياراً فالتجأ أبناء غيطشة إلى أنصار أبيهم وتحالفوا على العصيان والثورة . وكان يوليان حاكم مدينة سبته في افريقية نائماً على لدرين بسبب شدة (١) فاشترك في المؤامرة ضد لدرين وكتب موسى بن نصير والي افريقية لغزو اسبانيا ووصف له جزيل خيراتها ووفرة غناها فلبث ان موسى الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك بالفتح واطلمه على ما جرى من غارات بينه وبين يوليان ، فاستأمر عليه ان لا يتسرع ، وان يختار البلاد قبل الاقدام على فتحها ، فأتى موسى ٤٠٠ رجلاً ومنه فارس في اربع سفن ، وولى عليهم طريف بن مالك فزلوا سنة ٨٩٠ م (٧١٠ م) في مكان جنوب اسبانيا دعى طريف باسم هذا القائد . وانزلوا على بقعة سموها الجزيرة الخضراء وادابوا بهاهم ككتيبة وعادوا سالمين .

(١) انقلت اكثر المصادر العربية واللاتينية على أن جولييان كان نائماً على لدرين بسبب الفصة التالية : يقال انه كان فلكوت يوليان ابنة رائحة الجلال أرسلها الى بلاط الملك في طليطلة ، كما هي عادة الامراء ، فتلقى ما يليق بها من الترفية بين كبريات العذائل والامراء القرمصان فاستوى جوارها الفنان قلب رoderik وقومته الفتاة في بلاطه فموج بالهواء ، فغارت الفتاة لئلا تدنقها اليه ، واقسم بان يقتحم لشرقه واشترك لدخول العرب لاسبانيا .

حوادث فتح الاندلس :

تجمع موسى بن نصير بعد أن رأى نجاح الحملة الأولى وجهز سبعة آلاف مقاتل من العرب والبربر وولى عليهم طارق بن زياد الليبي والي مينا، طنجة ، وأحد قواد البربر الذين اظهروا شجاعة فائقة في حروب افريقية . وكان طارق جندياً جريئاً وفائداً مجرباً ، عبر البحر من المضيق الذي عرف باسمه (جبل طارق) في شباط سنة ٩٢ هـ (٧١١ م) واستولى على ولاية الجزيرة وهزم شرازم القوط التي تصدت لابقائه . وكان لذريرين إيد ذلك مشتغلاً بالحروب في المقاطعات الشمالية التي ابتلوا عليها اولاد غبطة . فلما سمع بفتح طارق أسرع الى الجنوب ، وجمع جيشاً كبيراً بلغ عدده نحو مائة ألف مقاتل . فلما سمع طارق بهذا الجيش كتب الى موسى يطلب منه النجدة ، فامده بمخمصة آلاف من جند المسلمين فصار مع طارق اثنا عشر ألفاً ، حارب بهم جيش لذريرين . وظلت الموقعة على أيام اتت بانتصار المسلمين . وكان من اسباب انتصارهم خروج أبناء غبطة وحزبهم من جيش لذريرين ، والتحاقهم بجيش المسلمين ، وشجاعة طارق بن زياد ذلك القائد الباسل الذي الهب حاسة جنده بخطابه الشريف : أيها الناس : أين المفر البحر من ورائكم والعدو أمامكم وليس لكم والله الا الصدق والصبر وبعد أن مناهم بالنشائم والعيش الهنيء ووعد من عوت منهم بالجنة حمل على عدوه وحملوا معه حملة رجل واحد ومزقوا جيش القوط شر مزق . واستسلمت المدن الواحدة تلو الأخرى حتى وصل طارق الى طليطلة حاضرة القوط . وكان في كل مدينة فتحتها يظم اليهود الذين فيها الى سرية من المسلمين لحفظها . ولم يك ثمة ما بدعوا الاسبان الى التفور من الفتح الاسلامي ، فقد أبدى المسلمون كآفتلوا في جميع البلاد التي اقتنحوها اعتدالاً في معاملتهم واستراماً لقائدهم فسمحوا لهم بالاحتفاظ بكنائسهم وسككنهم وقضائهم ، وفرضوا الضرائب عليهم بالمساواة والعدل وأكمل طارق الفتح الى الشمال حتى أشرف على خليج غاسقونيا ، ووصلته أوامر موسى ابن نصير بالعودة الى طليطلة .

حمد موسى قائده على هذا الانتصار الباهر وأرد أن يقرن فتح الاندلس باسمه . فكتب الى طارق يشكره أن لا يتقدم حتى يلحق به ، وأن لا يفرر بالمسلمين في تلك الاسفاج الفائية ، وعبر البحر في عشرة آلاف من العرب وثمانية آلاف من البربر نزل بهم ولاية الجزيرة ، وانبغ طريقاً غير الذي سلكها طارق ، وتم الفتح الحقيقى على يده . واستقبل طارق بالقرب من طليطلة فأنبه موسى وضربه بسوطه ، وزجه في اعماق السجن بنهة الخروج والعصيان ، وكانت هذه المعاملة السيئة من عوامل الخلاف الذي قام بين العرب والبربر فيما بعد في الاندلس . لان البربر كانوا يعتبرون فتح البلاد ثم على

بدم وبساعدتهم وأنهم أحق بملك البلاد وبفنائها من العرب .
وبعد أن نظم موسى البلاد . وضرب نفوداً عربية ، أكل مع طارق - بعد أن عفا عنه - فتح
المناطق الشمالية . وكان يفكر في غزو أوروبا والوصول إلى الشام من طريق القسطنطينية . إلا أن
استدعاء الوليد بن عبد الملك له وطارق استدعاه عليه خطاه ، فتقام البلاد وجعل حاضرتها اشبيلية ،
ويهد أدارتها إلى ابنه عبد العزيز وذهب إلى المشرق سنة ٩٥ هـ يصحبه طارق وضباط الجيش
واربعئة أمير قوطي على رؤوسهم التيجان وعلى أوساطهم مناطق ذهبية ، يقبض عدد صغير من
الفلدان والسي حاملين مقادير عظيمة من البكنوز والفضة ، وساروا عبر الفوقية الشمالية حتى
وصلوا إلى العاصمة الشامية . وقد ذكرنا سابقاً ما حل بموسى وطارق .

الفصل الثاني

الولايات المضطربة (١)

٩٥ - ١٣٨ هـ أو ٧١٤ - ٧٥٦ م

حكم الاندلس اثنان وعشرون والياً بعد موسى بن نصير أولهم : عبد العزيز بن موسى بن نصير

لائحة بأسماء وسمي حكم الولاة في الاندلس

(١)

| اسم الوالي | سنة حكمه هجري | اسم الوالي | سنة حكمه هجري |
|---------------------------------------|------------------|--|------------------|
| ١ - عبد العزيز بن موسى بن نصير | ٩٥ | ١٢ - محمد بن عبد الملك الأشجعي | ١١٢ |
| ٢ - أيوب بن حبيب النخعي | ٩٧ | ١٣ - عبد الرحمن بن عبد الله الفائق (٢) | ١١٢ |
| ٣ - الحرث بن عبد الرحمن النقي | ٩٨ | ١٤ - عبد الملك بن قطن (١) | ١١٤ |
| ٤ - السمح بن مالك الطولاني | ١٠٠ | ١٥ - عقبة بن الحجاج السلولي | ١١٦ |
| ٥ - عبد الرحمن بن عبد الله الفائق (١) | ١٠٢ | ١٦ - عبد الملك بن قطن (٢) | ١٢٢ |
| ٦ - عنبسة بن نجيم الكلبي | ١٠٥ | ١٧ - بلج بن بشر القشيري | ١٢٣ |
| ٧ - عذرة بن عبد الله القهري | ١٠٧ | ١٨ - ثعلبة بن سلامة العامري | ١٢٤ |
| ٨ - يحيى بن سلامة الكلبي | ١٠٧ | ١٩ - حسان بن ضرار الكلبي (أبو الخطار) | ١٢٥ |
| ٩ - حذيفة بن الأحوس القيسي | ١١٠ | ٢٠ - نؤابة بن سلامة الجذامي | ١٢٨ |
| ١٠ - عثمان بن أبي نسيمة الخثعمي | ١١٠ | ٢١ - يوسف بن عبد الرحمن بن حبيب | ١٣٠ |
| ١١ - المهين بن عبيد الكناني | ١١١ | ٢٢ - عبد الرحمن بن معاوية | ١٣٨ |

الذي أبدى حمة ونشاطاً في إدارة الحكومة ، وإصلاح أمورهما ، وثوابه عليه المهاجرون من مصر والشام وفارس . إلا أنه قتل في شوارع أشبيلية باغراً من الخليفة سليمان بن عبد الملك سنة ٩٥ هـ خوفاً من أن يشور عليه بعد ما أنزله بأبيه من السكبات . وخسعت القوضى عقب وفاته في أنحاء البلاد نحو أربعين سنة وكان سبب القوضى يرجع إلى مايلي :

١ - الاختلاف في تعيين الامراء : كانت الاندلس تابعة للخلافة الاموية في الشام ، ونظراً لبعد المسافة بين القطرين ، لم يكن هناك انتظام في تعيين الولاة ، فتارة كان الولاة يمينون من قبل الخليفة في دمشق ، واخرى يمينون من قبل عامله على القيروان ، وحينا يمينه أهل الاندلس ، وحينا آخر تبقى البلاد مدة بدون أمير مما سبب الاضطراب في الإدارة .

٢ - انقسام العرب في الاندلس إلى قبضيين وغانيين : حمل العرب معهم إلى الاندلس عصبيتهم القبلية ، وقام النزاع بين قبض وغان على السيادة والحكم ، وساعد على ذلك ما كان قائماً في الشام في زمن سليمان بن عبد الملك من تقريب الغنيين والتكيد بالقبضيين ، وكانت هذه الخصومات في الاندلس سدى لما كان يحدث في الشام .

٣ - التنافس بين العرب والبربر : ان هذا التنافس بدأ منذ زمن موسى بن نصير وطاوق بن زياد ، وزاد في سوء الحالة ان العرب عندما قسموا الاندلس بعد الفتح خصصوا انفسهم بالسهول الحصينة ، والرياض الغناء ، وأقطعوا البربر المناطق الجرداء والجبال حيث كانوا دائماً عرضة لهجمات الاسبان ، فأثار هذا حفيظة البربر .

٤ - النزاع بين العرب والقوط : ظلت فئة من القوط غير راضية عن حكم العرب ، كانت تسكن في المناطق الشمالية في جبال أستوريش الحصينة ، وكانت تعمل على توسيع نفوذها لاختراع العرب من الاندلس ، وكثر عددهم فيها بعد مما توافد اليهم من الافرنج وشككوا بمملكة قشتالة ، وجرت بينهم وبين ولاة الاندلس وقائع كثيرة ، كما جرت بين العرب والفرنج حروب كثيرة ، فيما وواد جبال البرانس (البيرنه) وصل العرب فيها إلى نهر الوار في سنة ١١٤ هـ (٧٣٢ م) حيث جرت معركة بوايه التي هزم فيها العرب وقتل فيها قائد الجيش العربي عبد الرحمن الغافقي .

الفصل الثالث

دولة بني أمية في الأندلس (١)

١٣٨-٣١٦ هـ أو ٥٧٦-٩٢٩ م

عندما سقطت دولة بني أمية في الشرق على المدي العباسيين أسس عبد الرحمن الداخل دولة أموية، في الأندلس، كانت في بادئ الأمر إمارة مستقلة عن العباسيين وأصبحت في سنة ٣١٧ هـ في زمن عبد الرحمن الثالث خلافة أموية شاخص الخلافة العباسية لقب الخلافة والحفارة وسأنتكم أولاً عن الإمارة الأموية ثم عن الخلافة الأموية في الأندلس.

(١) لائحة بأسماء وسني حكم الأمراء الأمويين في قرطبة

| | |
|-----------------------|------------|
| ١ - عبد الرحمن الأول | ١٣٨ هـ |
| ٢ - هشام | ١٧٢ هـ |
| ٣ - الحكم | ١٨٠ هـ |
| ٤ - عبد الرحمن الثاني | ٢٠٦ هـ |
| ٥ - محمد | ٢٣٨ هـ |
| ٦ - المنذر | ٢٧٣ هـ |
| ٧ - عبد الله | ٢٧٥ هـ |
| ٨ - عبد الرحمن الثالث | ٣٠٠-٣١٦ هـ |

عبد الرحمن الرافل

١٣٨-١٧٢ هـ أو ٧٥٦-٧٨٨ م

نشأته الأولى

ولد عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك سنة ١١٣ هـ وتوفي أبوه سنة ١١٨ هـ فكفله وأخوته جده هشام ، وعاش معه في الرضاة في قصر فخم على الفرات ، وكانت أمه ، راح ، من قبيلة زينة إحدى قبائل البربر المشهوره في شمالي إفريقية ، وكان عبد الرحمن يفكر في هذا القصر ، وفي زيارة أخواله . ولما حلت النكبة في أسرته على إثر قيام العباسيين وملاحقتهم أبي أمية وتقتيلهم ، نجوا من القتل كما يروي هو عن نفسه قال : « إني لجالس يوماً في طاعة بيت قواريت فيه ، وأنا شديد الهم ، ومعى خرق سوداء أمسح بها فدى عيني ، وإني ساجد بكرك ولدي بلعب قداسي وهو يومئذ ابن أربع سنين أو نحوها ، إذ دخل الصبي من باب البيت فرعاً باكياً ، فأهوى إلى حجري فغلت أذنيه لما كان بي ، وبأني إلا التعلق وهو دهش يقول ما يقوله الصبيان عند الفزع . فخرجت لأتفكر فإذا بالروح قد نزل بالفرة ونظرت فإذا بالرايات السود عليها منحة ، وأخ لي حديث السن كان معي يشد هارباً ويقول لي النجى يا أخي فهذه رايات المسودة فضررت بيدي على دنانير تناولتها ونجوت بنفسي والصبي أخي معي . وأعلمت أخواني بتوجيهي ومقصدي ، وأمرتهم أن يلحقني ومولا ي بدر معي ان دخلت ، وخرجت فكنيت في موضع نا ، عن الفرة ، فما كان إلا ساعة حتى أقبلت الخيل فأحاطت بالدار ولم تجد ائراً ، ومضيت ولحفي بدر ، فأبيت رجلاً من معارف بشرط الفرات فأمرته أن يتابع لي دواب ، وما يصلح لسفري فدل على عبد سوء له العامل . فما رأينا إلا جلبة الليل تخفنا فخرجنا وقد أحاطت بالأمجة ، فتبادرنا وسبقناها إلى الفرات فترامينا فيه . وأقبلت الخيل فصاحوا علينا من الشط أوجعاً لا بأس عليك ! ! فصبحت حائناً لنفسى ، وكنت أحسن السبع ، وسبيع الغلام أخي ، فلما سرنا ساعة سبقته بالسباحة وقطعت قدر نصف الفرات ، وقصر أخي ودهش ، فالتفت إليه لأقوي من قابله وأصبح عليه ليل لحقني فإذا هو لا سمع نأمينهم إياه أصغى إليهم وهم يمدعون عن نفسه ، وخلف الفرق . فهرب من الفرق إلى الموت فنادته نفلى يا أخي إلى . فم يسمي واعترا بامانهم وخذي الفرق فاستمجد الانقلاب بحوم ، وقطعت أنا الفرات وبمضهم قد هم بالسباحة في أثري فاستكفه أمهاته عن ذلك فتركوني ثم قدموا الصبي أخي الذي صار إليهم بالأمان فضربوا عنقه ومضوا برأسه وأنا أنظر إليه وهو ابن ثلاث عشرة سنة ، فاحتملت فيه شكلاً ملائياً غافة ومضيت إلى وجدي احسب أني طائر وأنا ساع على قدمي فلهجات إلى غيضة أشبه قواريت فهبطت حتى انقطع الطالب ، ثم خرجت هارباً أوم المغرب حتى وصلت إلى إفريقية .

هرب عبد الرحمن الى افريقية :

هانم عبد الرحمن وعلى وجهه متذكراً وسار متراجلاً جنوباً الى ان وصل فلسطين بعد صمويات
جمة ، وهناك تلقى به بدر مولاه النوفى ، فتوجه كلاهما غرباً حتى وصلا شمالي افريقية ، والحق عليهما
عبد الرحمن بن حبيب في طلبه ، فهرب منه غرباً مع بعض من قبيلة الى اخرى ، والعباسيون
يوجدون في طلبه الى ان وصل الى سبته بعد خمسة أعوام الى عند أخواله الذين يقيمون في تلك النواحي ،
فلجأ اليهم فأحسنوا وفادته .

كان عبد الرحمن قد جعل افريقية مطمح آماله ، ولكن بعد ان تحول فيها بضع سنين رأى ان
الاستيلاء عليها امر مستحيل ، فحول أنظاره الى الاندلس ، وأرسل اليها بعضاً من موالاه ليسير غور القبائل ،
وليجمع كافة أنصار بني أمية فيها ووافق قدومه ما كان بين اليمانية والمضاربة من النزاع على الحكم فالتحازت
اليه اليمانية وقبائل الشام ، وطرد بدر بسفينة فيها إحدى عشر رجلاً من اليمانيين دعو لامارة الاندلس
فركب السفينة ووصل الى الاندلس في ربيع الثاني سنة ١٣٨ هـ (٧٥٥ م) فانضم اليه أهالي اشبيلية
وعامل ربة وصاحب شدونة وذهب الى قرطبة ليؤسس ملكه فيها .

توطيد عبد الرحمن الداخل ملكه في الاندلس

كانت والى الاندلس عند دخول عبيد الرحمن تلك البلاد يوسف بن الرحمن الفهري
وكان الصميل بن حاتم مساعده ووزيره مستبداً في الأمور ، وأنساء معاملة اليمانيين انتقاماً لقومه
القيسيين ، فانضم اليانيون لعبد الرحمن . وكان يوسف الفهري في حرب مع ثوار أهل الشمال عند
قدوم عبد الرحمن . فلما سمع بالخبر عاد الى الجنوب ، وجرى المفاوضات بين الطرفين كانت تتيحها
الحرب في مكان يعرف بالمصخرة على شفاف الوادي الكبير في ١٠ ذي الحجة سنة ١٣٨ هـ (٧٥٦ م)
فانصر عبد الرحمن على خصمه ودخل قرطبة فظافر أوفى زمن حكمه وهو يحارب اعداءه في الداخل
والخارج وقضى على الثورات التي قامت عليه وهي ثورة يوسف بن عبد الرحمن الفهري في طليطلة
(٢) ثورة هشام بن عبد ربه الفهري في ضواحي طليطلة (٣) حركة العلاء بن مغيث والى القيروان
الذي أرسله المنصور العباسي لاسترجاع الاندلس (٤) ثورات البائسين والبربر قضى عليها جميعها .
واثقت الى الحروب الخارجية .

وفي زمن عبيد الرحمن جاء شارلمان كما مر معنا الى الاندلس وانسحب قبل ان يلتقي
بجيوش امير قرطبة .

اصوليات عبد الرحمن الداخل

شيد عبد الرحمن الداخل ملك بني أمية في المغرب بعد أن تغلب على أعدائه ومنافيه على الحكم وقضى أكثر أيامه في اخضاع الثورات والفتن ، فلم يشج له الوقت الكافي للقيام بأعمال إصلاحية واسعة فقد نظم الجيش وجعله دائماً ، وحارب قتل العصية القبلية المنتشرة بين اقاربه في سوري قرطبة ، وحمل اليها الماء العذب بواسطة قناة . وأنشأ بلدة الرصافة بظاهر قرطبة ، وأحاطها بالجنان ، وزرع فيها المشمش والرمان والتين ليشد ذكر رصافة جده هشام في بلاد الشام . وقد ثارت الذكريات يوماني نفسه عندما رأى نخلة منفردة فأشدد يقول :

تبدت لنا وسط الرصافة نخلة ثارت بأرض المغرب عند بلد النخل
فقلت شبيبي في المغرب والنوى وطول التناهي عرت بني وعن أهلي



مسجد قرطبة في الاندلس

وأسس عبد الرحمن في سنة ٧٨٦م جامع قرطبة العظيم الذي ، ليس في بلاد الإسلام اعظم منه ، فهو جوهرة في الفردوس المفقود لا يزال قائماً بأعمدته الرخامية المصطفة بتلاحق وتناسق كأنها غابة كثيفة . ولم يتمكن عبد الرحمن من اتمامه فأكنه ابنه هشام من بعده ، وتوالى امراء بني أمية وخلفاؤها على الزيادة فيه حتى صار مضرب المثل بالجمال والقخامة ، وقبض عبد الرحمن الداخل الخطبة للخليفة العباسي المنصور ، الا أنه لم يتخذ لقب الخلافة .

هشام

١٧٢ - ١٨٠ هـ أو ٧٨٨ - ٧٩٦ م

صفاته :

خلف عبد الرحمن ابنه هشام بعهد منه ، وكان حازماً ذا رأي وشجاعة وعدل وخير ، محباً لأهل الخير والصالح شديداً على الأعداء راعياً في الجهاد ، باع من تواضعه انه كانت بطوف في شوارع قرطبة مختلطاً بالرعية ، يسمع المظالم بنفسه ، ويعود المرضي ويشهد الجنازة . وكان يذهب بميزته مذهب محمد بن عبد العزيز . فكان يبعث يقوم من ثقافته الى الكور فيسألون الناس عن سير عماله وحفائظها فإذا انتهى اليه حيف من أحدهم أوقع به وأسقطه .

اعمال هشام الرافضية والخارجية

ثار على هشام اخواه سليمان وعبد الله في طليطلة ، فقمع ثورتها وطلبها العيون الى افرقية فجازها واعطاها مالا مسلحاً على تركة أبيها . وقامت عليه ثورات أخرى قمعها بشدة . ووقد حاول الفرخ في الشمال العصيان على هشام ، واضرام نار الثورة ، فجهز جيشين سار أحدهما الى فرنسا واستولى على تروية ، وجيروندة وعدة ممالك أخرى . وهزم جيشاً أرسله شارلمان بقيادة الكونت دي تولوز سنة ٧٩٢ م . وسار الجيش الآخر الى جليقية لغاربة ثوارها الذين تجمعوا تحت لواء زعيمهم رمودة . وساعدهم سلفاؤهم أهل البشكنس . فهزمهم جيش هشام وشتت مجموعهم . وساد الأمن في المقاطعات التالية حيناً من الزمن .

اعمال هشام الداخلية

أتم هشام بناء مسجد قرطبة وبنى عدة مساجد أخرى ، وزين قرطبة بالمباني الفراء وجدد قطعائها التي بناها السبع ، ونشر المذهب المالكي ، وحمل الناس على اعتناقه ، وأصبح بعد ذلك مذهب أهل الاندلس . وكان لافقهاء نفوذ في عهده وكلمة مسموعة فكثير تدخلهم في مصالح الناس وظلوا كذلك حتى وفاته .

الحكم

١٨٠ - ٢٠٦ هـ أو ٧٩٦ - ٨٢٢ م

تولى الحكم بعد وفاة أبيه هشام بعهد منه ولقب بالمتنصر وقد استكثر من المائليك والجنود

المرتزة والخدم والحواشي ، وجمع كثير من الاسلحة والعدة والخيول ، وكان ميالا الى التهور مولعا بالصيد يؤثر بحال الشراء والمقنين على مجالس القضاة الذين اشتد نفوذهم في عهد ابيه . وكانت سياسة الحكم ترمي الى ابعادهم عن التدخل في سياسة الدولة ، وقصر نفوذهم على اقامة الدين فقاوموه وأخذوا ينددون به على المنابر ، وحرصوا عليه المولدين (مسلحوا الاسبان) المتعصبين لديهم الجديد ، والفاضين على العرب لكبريائهم وانفسهم ، وناقضين على الحكم لافصائهم عن مناصب الدولة ،

اعمال الحكم الداخلية والخارجية

قامت ثورات في قرطبة على الحكم بدافع من الفقهاء حاول الثائرون بها مرة اغتيال الحكم ، فاكشف المؤامرة وقضى عليها وقضى على ٧٣ من زعماء الحركة وسلمهم في قرطبة . وثار عليه أهل ماردة قمع ثورتهم ، وخرج عليه أهل طليطلة ، وكانت هذه المدينة عاصمة الاسبان ، وكان أهلها يذكرون مجدهم الماضي فيثورون من وقت الى آخر ، فولى عليها عمروس بن يوسف من المولدين ، وكتب الى أهلها يقول : اني اخذت لكم فلانا وهو منكم لطيف فلو بكم اليه ، وعافيتكم عن نكروهم من عمالنا ومواليينا ، ولتعرفوا جميل رأينا فيكم ، فمضى عمروس اليهم فأنس به أهلها ونظاهر أمامهم باليفض لبي أمية والمواقفة على طاعتهم ثم بنى بظاهر المدينة قلعة حصينة دعا اليها وجهاء المدينة بمناسبة عودة عبد الرحمن بن الحكم من جرب الفرنج ، فكان كعادته واحد منهم الى القلعة وتوسطها يضرب عنقه ويأق في حفرة حتى قضى على جميع زعماء المعارضة . وهلك في تلك المذبحة التي تعرف بواقعة الحفرة نحو خمسة آلاف من أنصار طليطلة : وبعد هذه الواقعة قضى على روح المقاومة في تلك المدينة مدة من الزمن .

ونار المولدون في قرطبة بتحريض من زعيم الفقهاء يحيى بن يحيى اللبتي وغلوا الحكم وبايعوا أحمد أقاربهم من الامويين الا أن الحكم قضى على ثورتهم بواسطة مماليكه الملقبين « بالخرس » لأنهم لا يتكلمون العربية وشتت شملهم .

وأعظم ثورات المولدين هي قيامهم سنة ١٩٨ هـ في الربض وهي (ضاحية في جنوب قرطبة يسكنها المولدون) وهاجموا قصر الحكم وحاصروه ، الا أنه تمكن بواسطة جنوده الخرس أن يقضي على ثورتهم ويحرق منازلهم ويحلبهم من البلاد فرحل قدم منهم الى غرناطة والقدم الآخري الى الاسكندرية واستولوا عليها الا أن عبادة بن طاهر قائد المأمون أخرجهم منها فترحوا الى أقرطاس (جزيرة كبريت) وظلوا يحكمونها حتى استعادها اليونان منهم .

بينما كانت ربح الحرب الاعلى نصف الولايات الاسلامية ثار عبد الله وسليمان عما الحكم وسمى
عبد الله في مقابلة شارلمان في ايكسلا شايبيل لمساعدته في القضاء على الحكم ، فابى شارلمان الدعوة
وارسل ابنه شارل ولويس على الولايات الشمالية وادقما الحراب فيها ، الا ان الحكم تمكن من اجلاء
الفرنج عن بلاده وقتل محمد سليم وعفا عن عبد الله . وفي سنة ٨١٦ م عقد الحكم الصلح مع لويس
ابن شارلمان الذي خلف ابيه على عرش فرنسا ولم يدم الصلح طويلا .
وقد وطد الحكم الملك لعنه بالاندلس . وكان يشبه المنصور في شدة الملك وتوطيد الدولة
وقمع الاعداء .

عبد الرحمن الثاني

٢٠٦ - ٢٣٨ هـ او ٨٢٢ - ٨٥٢ م

بعد وفاة الحكم تولى الامارة عبد الرحمن الاوسط ، وكان المتغذ في زمنه أربعة أشخاص :
فقيه ، ومفتي وجارية ، وخفي .

أما الفقيه فهو يحيى بن يحيى اللبكي المصمودي : زعيم الفقهاء الذي نال نفو الحكم من قبل
واستعاد نفوذه في زمن عبد الرحمن الثاني . فلهه مقاليد الحكم واصبح صاحب الكلمة العليا في
البلاد ، احترمه الملك واطاعه الفقهاء ، وخافه الاغنياء ، وعظمه النوام ، وهابه الشعراء ومدحوه
فسيطر هو وشيخته .

أما المفتي فهو زرياب : تلميذ اسحاق الموصلي تولى منه ثم تولى اسناده في بلاط هارون الرشيد
فهدده اسحاق واعتلوه ان ينادر بغداد ويذهب الى المغرب وارفع مقامه في بلاط عبد الرحمن حتى
مار راتبه الشهري مئتي دينار عدا ما وهبه من الاراضي والقصور ، وقدمه على جميع المفتين . وكان
زرياب عالماً بالنجوم . وتقوم البلدان ، وقبل انه كان حافظاً لمئسة آلاف مقطوعة من الاغني
بالخائيا . جمع الى ذلك لحظ المماشرة وطيب المأدبة ، فكان الامير عبد الرحمن يذاكره في احوال
الملوك وسيرة الخلفاء ونوادر العلماء .

ادخل زرياب الى الاندلس ازياء جديدة ثياب النساء والرجال تتلاءم مع فصول السنة واحتراع
بعض الوان من الاطعمة والطبي فأوجد بقلة الطابون والتفلية ، وفضل آنية البور على آنية الذهب
والفضة على المائدة . واستخدم ريش النسور للغرب على المود عوضاً عن قطع الخشب المعتملة قبل
ذلك . واصبح زرياب مطرب الملوك ومهذب شعور أهل الاندلس ، وموجد روحيتهم بأغانيه التي
كانوا يجرنون بها رجالاً ونساءً وصبياناً .

أما الجارية فهي سلطنة طروب التي كان لها على عبد الرحمن تأثير كبير واشتركت مع الخدي في
 نسر في تدبير المؤامرات والدسائس في داخل القصر وخارجه وبلغ بلاط عبد الرحمن الأوسط
 من الأبهة والنفخامة ما نال به خلفاء بغداد ، فعمله زاخراً بحاشية كبيرة وزحف عظيم ، وقرب
 التمره وأجزل لهم العطاء . وزي عاصمته قرطبة في فيها الجسور والقصور وشيد المساجد وجلب
 المياه من الجبال .

وفي زمن عبد الرحمن الأوسط جرت ثورات داخلية كثيرة وغزاه الجوس (النورمان) شواطئ
 الأندلس فردم الأسطول الأندلسي . وجاء وفد من القسطنطينية ومعه من هدايا ، وبلغ عبد الرحمن
 مخالفة إمبراطور البيزنطي له ضد الخليفة المأمون العباسي . وفي نهاية حكم عبد الرحمن اشتد تعصب
 نصارى قرطبة وأصبحوا في غلب الحبال تسوداً سفاكين وفي المصحة شهداء قديمين . وجأهروا
 بالاجتراء على مقام النبي (ص) ودينه ودخلوا الجوامع في أثناء الصلاة ورفعوا عقيرتهم بالشتائم
 المنكرة غرركوا وأعمهوا . وعقد مجمع كنسي من القسوس قرروا منع المجاهرة بسب النبي ، وقرروا
 اتخاذ إجراءات شديدة ضد المتعصبين .

وتوفي عبد الرحمن سنة ٢٣٨ هـ وتولى ثلاثة أمراء من بعده وهم محمد والمنذر وعبد الله جرت
 في أيامهم ثورة عمر بن حفصون .

ثورة عمر بن حفصون

٢٦٧ - ٣٠٦ هـ

هو عمر بن حفص كان أبوه من كبار المزارعين النصارى في منطقة رندة في جنوبي الأندلس
 وكان ابنه عمر شريكاً من صفه حرب إلى افرقية وقضى بضع سنوات في مدينة طاهرت ، ثم عاد
 إلى الأندلس وأعلن عداوته على الأمير محمد الأموي واتخذ حصن يوبشر معقلاً له ، وامتد نفوذه
 على المقاطعات الجبلية في الجنوب ، فأرسل له الأمير محمد حملة بقيادة وزيره فصالحه وقدم ابن حفصون
 لقرطبة ، واشترك مع الأمير محمد في بضع غزوات ، وما لبث أن هرب إلى يوبشر وعاد إلى المصيان
 ونصر نداء علماء إلى الأسبان قال فيه : « مضى عابكم زمن طويل ومثلك قرطبة يمحكم بالشرائب
 قبل تبغون طول الدهر مستعبدين للعرب ، الذين يظفرون اليكم ظفرهم للعبيد ؟ لا تظنوا أني خاطبكم
 من أجل مطالبتي الشخصية بل انتموا أن امنوني الوحيدة هي الانتقام ممن أساء اليكم وتخليصكم من
 العبودية » فجاء إليه جميع المستائين من الحكم الأموي وانفقوا حوله ، وعظمت قوته ، فأرسل
 الأمير محمد ابنه المنذر لقتاله ، فحاصر بعض قلاعها ، إلا أن موت ابنه اضطره إلى الانسحاب ليأخذ

الامارة لنفسه . فاعظم ابن حفصون الفرصة وقوى مراكزه في المناطق الجبلية الجنوبية ،
وعاد المنذر لحربه ، وشدد الحصار عليه وفتح أكثر فلاحه وحصونه فطلب ابن حفصون الصالح
فأجابه المنذر انيه ، ولكنه عاد لثورة فرجع المنذر لحربه ، وما زال يحاربه ويصالحه حتى دس عبد
الله السم لاختيه المنذر وأخذ الامارة منه وأخرج عن ابن حفصون .

وفي زمن عبد الله توسع نفوذ ابن حفصون حتى استولى على كثير من البلاد وأصبح على مسيرة
يوم واحد من قرطبة عاصمة الامارة الاموية . وكانت الانابة في افرقية يطلب مساعدتهم وتظهر
الدعوة العباسية ، إلا أن الانابة كانوا مشغولين عنه في اخضاع الثورات في افرقية .

فجاء اليه الأمير عبد الله وحاربه واستولى على بعض حصونه فتعصر ابن حفصون واتخذ اسم
سالم وبل ليفوى جانبه بانضمام نصارى الشمال الاسبان اليه . إلا أنه خسر مساعدة المملحين الاسبان
والبربر ، ولم يتمكن نصارى الاسبان من مساعدته فكاتب الفاطميين وأظهر الدعوة الفاطمية في
الاندلس . ونوفي عبد الله قبل أن يتمكن من القضاء على ابن حفصون بالرغم من الجيود العظيمة
التي يذلها للقضاء عليه .

وتولى عبد الرحمن الثالث الامارة الاموية وكانت خاتمة ابن حفصون على يد سنة ٢٠٥ هـ
وفي زمن الأمير عبد الله قام جماعة من شجعان العرب بحملة موفقة تغلبت في اوربا ، ومرت
بجنوب فرنسا واحتل رجالها مرسلينا ونيس ، وعبروا الى إيطاليا . وذهب فريق منهم الى سويسرة
وحلوا بجوار بحيرة كولستانس واشتدوا مستعمرة فيها .



الفصل الرابع

الخلفاء الأمويون في الأندلس

٣١٦ - ٤٢٢ هـ أو ٩٢٩ - ١٠٣١ م

قامت الخلافة الأموية في الأندلس في نفس الخلافة العباسية في بغداد لقب الخلافة والسياسة والحضارة وحكم تسعة خلفاء أشهر منهم عبد الرحمن الناصر وابنه الحكم . وانتقلت السلطة بعد ذلك من الخلفاء إلى الحشابة الذين أشهر منهم أبو عامر ، ولم تلبث الخلافة الأموية أن سقطت وقم على انقاصها ملوك الطوائف الذين أخرجهم الأسباب من البلاد بسبب تنازهم وتفريقهم وسعتهم عن ذلك بإيجاز .

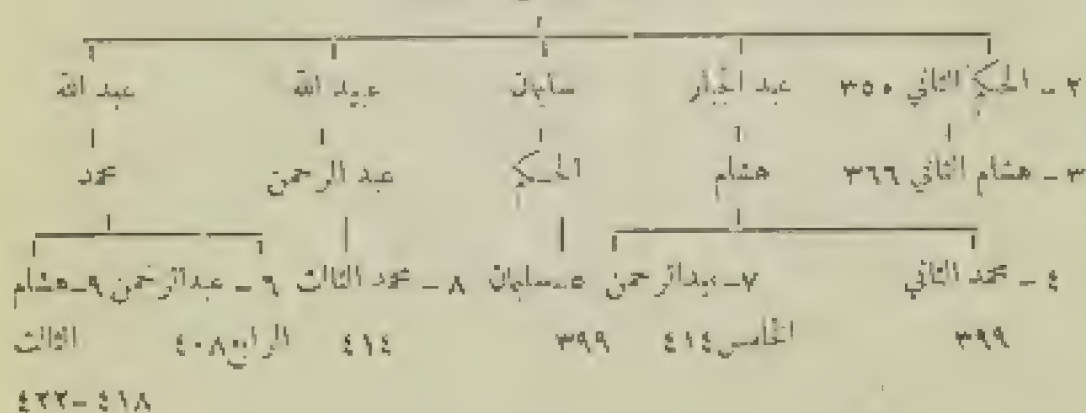
عبد الرحمن الناصر (١)

٣١٦ - ٣٥٠ هـ أو ٩٢٩ - ٩٦١ م

تولى عبد الرحمن الثالث الأميرة الأموية سنة ٣٥٠ هـ وظل يحكم البلاد متخذاً لقب الإمارة حتى سنة ٣١٦ هـ . ولما بلغه أن الخليفة العباسي القادر بالله قتل مولاه مؤنس المظفر اتخذ صفة الخلافة وتسمى بأمر المؤمنين عبد الرحمن الناصر لدين الله ، فكان أول أمير من بني أمية بالأندلس اتخذ ذلك اللقب . وابتدأت الدعوة الجي تسمية بألقاب الخلافة في الأندلس والمغرب الأقصى من بعد ذلك .

(١) لائحة بأسماء وسمي حكم الخلفاء الأمويين في قرطبة

١ - عبد الرحمن الثالث ٣١٦



تولى الناصر عرش مملكة مزقها التفرق واستنفذت مواردها الثورة فتأهب لقمع الفتن وتوالى حملاته على الثوار فغضى على ثورة عمر بن حفصون ، وحارب نصارى الشمال ، وغضى على ملوك ليون وناغار ، وضم أكثر حصونهم الى مملكته . وجاءت رسل الإمبراطور بيزنطة وسفراء الملوك المسانية وفرنسا وإيطاليا والبابا لتعترف بسلطانه ، ووفدت عليه طويطة أميرة ناغار ، وعقدت معه الصلح وكفأها بأن أقر ولدها على مملكة ناغار ، وبلغت دولة الأندلس ذروة الحمد والمناجاة في زمنه . فقد عني بالصلاح الجيش وتقويته ، إلا أنه أخطأ باستخدام الصفانية الذين زاد غوهم في عهده وكان هؤلاء الصفانية في أول الأمر أسرى من قبائل السلاف قبض عليهم الألمان وسواهم وأعورهم من العرب . ثم أطلق هذا الاسم على جميع الأجناس الذين يتحدون في النصارى . وفي الجيش بها كانت جنسيتهم . وكان بين الصفانية الذين يتحدون في بلاد الخلافة النصارى : المان ، وفرنديون ، وجالبيوت ، ولبارديون ، وروس . وكان معظم هؤلاء الصفانية يأتى بهم أطلاقاً بواسطة اليهود الذين يبيعونهم من العرب فجربونهم تربية راقية ، ويعلمونهم القرآن واللغة العربية . وازداد عددهم كثيراً في زمن الناصر فأراد أن يرغم بهم أشرف العرب ووجهاء القبائل على الخضوع . ووفى أئمتهم المسمى « نجيعة الصفانية » على حبس من العرب لحاربة نصارى الشمال فترك العرب القتال في واقعة الخندق ونهزموا فكسر الجيش وقتل قائده .

واهتم عبد الرحمن بالأسطول كثيراً فاستعان به على محاربة الفاطميين الذين طعموا بفتح الأندلس عند ما كانت دولتهم قائمة في أفريقيا قبل توجيههم الى مصر ، وبيت المعز الفاطمي عدله على مقاومة لغزو الساحل الأندلسي فغزا منطقة الثربة ، وبعث فيها فساداً ونهب أموالها فرد الناصر عليه بأن أرسل أسطول الأندلس المؤلف من سبعين سفينة تحت قيادة مولاد غالب فغزا سواحل أفريقيا وغاد سالماً .

وفي عهد الناصر ازدهرت قرطبة عاصمة البلاد ، وبلغ عدد سكانها نصف مليون نسمة . وكان فيها سبعة مائة مسجد وثلاثة مائة حمام عام . وكان قصر الخليفة « دار الروضة » من أعظم القصور جانب الناصر اليه النساء من أعلى الجبل وبني حوله الحدائق والمنزهات .

وفي سنة ٣٢٥ هـ بنى الناصر قصر الزهراء بجوار قرطبة قال خلفه أحد بني جواربه التي أوصت أن يتفق لافتدائه أسرى المسلمين من أيدي النصارى . ولما وجد عبد الرحمن منهم أحداً بنى هذا القصر واعتنى برخرفته وتزيينه . وجعله مركز عمله ولتشتغل في بنائه عشرة آلاف حائك والف وخمسة مائة دابة مدة عشرين سنة . ووسع خلفه الناصر الزهراء وحسنوها حتى أصبحت ضاحية كبيرة

وكان عهد الناصر عهد رخاء ويسر زهت الزراعة والتجارة والصناعة والمعلوم والفنون وساد الأمن في اقاصي المملكة ورخصت كلفة العيش وامتلات خزينة الدولة بالاموال مما كان يفتنه الجيش من الغنائم العظيمة ومن الواوادات الاخرى حتى بلغ دخل الدولة السنوي نحو (٦٠٢٤٥٠٠٠٠) ديناراً .

توفي الناصر في شهر رمضان سنة ٦٣٥ هـ في السبعين من عمره بعد ان حكم نصف قرون ، وخلفه ابنه الحكم الملقب بالسننصر بالله .

الحكم الثاني

٣٥٠ - ٣٦٦ هـ او ٩٦٦ - ٩٧٦ م

كان الحكم الثاني مولماً بالمعلوم وجمع الكتب فتح معاهد العلم وأنشأ المكتاب العامة بقرطبة وغيرها من مدن الاندلس .

وكانت مكتبته في قرطبة تحتوي ٤٠٠ الف كتاب وعدد دروسها ٤٤ فيرساً ، وفي كل فيرس عشرون ورقة ، جمع الحكم كتبها من جميع الاقطار لاسيما من بغداد ، والقاهرة ، ودمشق ، وبذل اموالاً طائلة في هذا السبيل حتى انه اشترى نسخة من كتاب الاغاني بألف دينار ، وانتشر هذا الكتاب في بلاد الاندلس قبل ان ينتشر في بلاد الشرق .

قرب الحكم الثاني العلماء والفلاسفة والباحثين ، فقصده رجال الفكر من الشرق ، ومنهم ابو علي الغالي صاحب كتاب الاغاني وجعل الحكم لاندلس ثقافتها الخاصة بها بعد ان كانت تعتمد على ثقافة اهل الشرق ، ويقول دوزي أن الاندلسيين عموماً كانوا يعرفون القراءة والكتابة سوى القليل منهم ، بينما كانت اوربا امية إذا استثنينا رجال الدين . وفتح الحكم في قرطبة ٣٧ مدرسة مجانية لتعليم اولاد الفقراء ، ودفع رواتب اساتذتها من جيبه الخاص فتوافد الطلاب من جميع الجهات لتلك المدارس . وقد ساعد الحكم في ادارة البلا رجل قدبرون ومنهم حاجبه (رئيس الوزارة) جعفر المصنعي ، ومحمد ابو عامر .

دولة بني عامر

٣٦٦ - ٣٩٩ هـ او ٩٧٦ - ١٠٠٩ م

الحاجب المنصور

هو محمد وكنيته ابو عامر ينتهي الى امرة عربية من ادلى بجاني ، قدم اجداده مع طارق بن

زاد الى الاندلس ، وسكنوا في ضواحي الجزيرة الخضراء وتولى بعضهم القضاء في اشبيلية وقرطبة .
 تعلم محمد بن أبي عامر في قرطبة ودروس اللغة على ابن الفوطية والادب على أبي علي القالي ، ثم
 اتخذ دكاناً لكتابة المرائض بجوار قصر الخليفة الحكم الثاني فتمرف على خدم القصر وحاشيه ، وكان
 للخليفة الحكم الثاني زوجة تدعى (صبح) وهي من بلاد البشكس غنمها الحكم في حروبه الدالية وتزوجها ،
 فطلبت صبح رجلاً يقوم بإدارة أملاكها وأملاك ابنها فوقع اختيارها على أبي عامر فأنست اليه واستحسنه
 وأحبته ، وما زالت تبذل له رعايتها وتقدمه لدى زوجها الحكم ولدى ابنها هشام بعد توليه الخلافة من بعد
 وفاة أبيه حتى أصبح أبو عامر والحاجب المصحفي والملوك صبح اوصياء على هشام لصغر سنه .
 دكة: تورية الحاجب المصور

تولى أبو عامر الوزارة وأخذ يعمل على التخلص من كبار رجال الدولة والاستئثار وحده
 بالحكم . وكان يناقسه السلطة رؤساء الجند من الصقالية وأعظمهم جوهر ، وفائق وكان للصقالية
 نفوذ واسع وأملاك وأموال وأتباع من الشعب والجند اتفقوا حول المغيرة أخي الحكم ، وحاولوا
 توليته الخلافة وخلع هشام الذي كان يؤيده حزب أبي عامر والمصحفي . ونجح الحزب الأخير في قتل
 المغيرة والقضاء على نفوذ الصقالية . فبنى فائق الى حزر الباليار وقبلت استقالة جوهر .
 أراد أبو عامر التخلص من المصحفي فأشاع بين العامة ان المصحفي هو الذي أمر بقتل المغيرة
 فكرهه الشعب ، واستعان عليه بالقائد غالب المراهط في مدينة سالم في التهام الشرفي من الاندلس ،
 وتزوج بابنته أسماء وكان عرسه أعظم عرس في الاندلس . ولما تحق أبو عامر من قوته سار الى قصر
 المصحفي واتهمه بالخيانة وسوء الإدارة وعزله وأمر بمصادرة أمواله وحبيسه ، وتكنى بعدئذ
 من القضاء على القائد غالب عندما شعر بخطره وقوته وهكذا أصبح أبو عامر ديكتاتور البلاد
 وتم له الأمر .

سياسة الحاجب المصور وأعماله

كثر حساد أبي عامر المسكنة العليا التي بلغها في الاندلس فأثاروا عليه العامة ، وصاروا
 ينشرون أخباراً عن علاقته مع صبح أم الخليفة ، وديروا مؤامرة على خلعه ، اكتشفها أبو عامر
 وقضى على رؤسائها .

وأنهم الفقهاء بالأحد ليلة الى الفلاسفة وكتبهم ، فاستدعى كبار الفقهاء الى مكتبة الحكم ،
 وأمرهم بأن يخرجوا الكتب المتعلقة بالعلوم والفلسفة ، وأمر بحرقها امام العامة فأضاع بذلك نزوة
 عظيمة في سبيل ارضاء عامة الشعب ، وصار يتظاهر بالتقوى والصلاح .

كان الخليفة هشام يتقسم باليمن خلف ابو عامر بن بسلب منه السلطة ، فبنى مدينة جديدة دعاها الزاهرة في شرقي قرطبة ، ونقل اليها دواوين الدولة ، وبنى الخليفة في الزاهرة ، واشغله بالنساء ، وأبعد عن الناس ، وحجر عليه ، وأعطاه بالميون والخراس ، ولم يسمح له بالخروج فأتى ذلك الى فقدان نشاطه وضعف عقله واكتفائه بحالته .

خلا الجو لابي عامر وعظم في عين الناس وخطب له على المنابر ، وكانت له السلطة جميعا ما عدا لقب الخلافة الذي أبقاه لحشام . وقام بحروب موفقة في الشمال نكب على أثرها بالانصور ، وكذلك ارسل حملة الى مراكنش أخضعت ثورة الادارسة . وقد غزا الانصور (٥٢) غزوة لم يفلح في احداها ، وكانت كلما انصرف من قتال العدو يأمر خادمه ان ينفض غبار ثيابه التي لبسها أثناء المعركة ، وأن يجمعها ويحفظها ، وقبل ان تحضره النية أوحى ما اجتمع من الغبار ان ينثر على كفيه حين وضعه في قبره .

كانت أيام ابي عامر أيام غار وظفر ، ووخ ، وورغ ، فازدهرت الزراعة والصناعة والتجارة وزعت العلوم والآداب ، وفاضت خزائن قرطبة بالأموال وبغني ابو عامر بالبناء فشيده مدينة الزاهرة . ووسع جامع قرطبة وانشأ قنطرة كبيرة على نهر الوادي الكبير اتفق عليها (١٤٠٠) دينار وبنى قنطرة أخرى على نهر استجة . وتوفي ابو عامر سنة ١٠٠٢ واولى بمغصب الحجابة لابنه عبد الملك الذي تلقب بالظفر ، وظل يحكم البلاد حتى سنة ١٠٠٨ م . كانت كلها اعياناً على أهل الاندلس . وتوفي بسم دسه له اخوه عبد الرحمن الذي حاول أخذ الخلافة بعد هشام ، فأجابه الخليفة بعد تردد وكتب له العهد من بعده ، الا انه نتيجة ذلك كانت سيئة عليه وعلى غيره من العاصرين . فقد ثار عليه أهل قرطبة وسكان بقية الاقاليم ، وقد امارت الامويون الذين انتموا فرسة غيايه في غزواته لبلاد ليون فاستولوا على قصره واضطروه على الاعتزال ، وقبض عليه أهل قرطبة وأعدموه سنة ١٠٠٩ م) واضمحلت بقوته الدولة العاصرية .

نهاية الخلافة الاموية في الاندلس

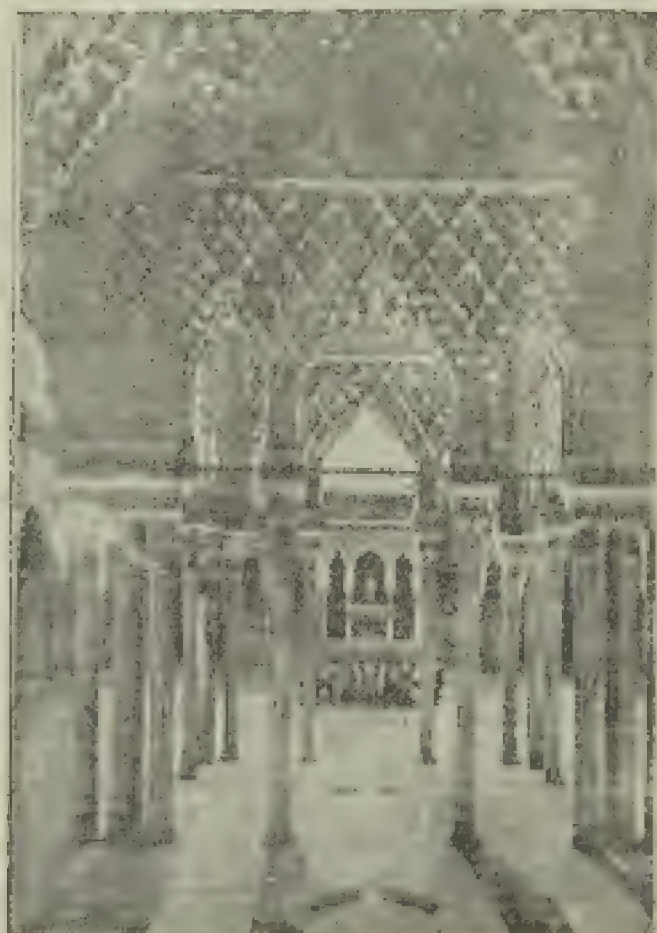
خلف هشام خلفاء ضعاف لم يحسنوا ادارة البلاد فاضطربت الامور وكثرت المنازعات بين العرب والبربر والصقالبة ، وهاجم الاسبان البلاد وازادوا في اضطرابها ، وفي زمن هشام الثالث سقطت الخلافة الاموية في قرطبة سنة ٤٢٢ هـ (١٠٣١ م) وانقسمت البلاد بين امراء الطوائف لذلك دعا المؤرخون الدور الاخير من الحكم العربي في الاندلس بدور ملوك الطوائف .

الفصل الخامس

دور ملوك الطوائف

٢٣٢-٢٩٧ هـ أو ١٠٣١-١٠٩٣ م

ذهبت الخلافة الأموية في الأندلس منجية من يد المدحس الطائفي وقبيلة مضحية الصفاة الغرياء الذين ادخلهم الخلفاء الأمويون بسنة بينواهم ، فصاروا لهم مكانة وألّا عليهم وخراباً على دولتهم . ذهبت الأندلس صريعة مغزبات الدت الأموي ، وعصية العرب القبلية ، وأطاع الولاء ، والخلال شعب فقد حبه وولاه الأسيرة المراكمة ، فمن كان دلس ووجعاً كان يهوج إلى استخدام قواه لافي



ساحة الأسيرة في غرناطة وهي الآن ساحة قصر الحمراء بالأندلس

سبيل الدولة ، وانما لتحقيق مجده الشخصي وانانيته .

هذه الاحزاب التي تقاسمت اشلء الدولة وقادتها الى الدمار لم تحت بدعاب الدولة الاموية ، وانما كان دهايبها في الواقع بدء الفضال فيها بينها ، وانقسمت الدولة الاسلامية في الاندلس باذى ذي بدء الى دويلات عديدة ، حتى كان اسكن مدينة تقريباً اميرها المستقل ، متخذاً لقب امير المؤمنين او الامير او الوالي او القاضي تبعاً لحجم المدينة او المنطقة التي يحكمها . فقام بنو حمود في مالقة والجزيرة الخضراء ، وبنو عباد في اشبيلية ، وبنو ذي النون في ملطبة ، وبنو هود في سرقسطة ، وبنو جهور في قرطبة ، وبنو عامر في بلنسية ، وبنو الاحمر في غرناطة . . .



يهو السفراء في قصر اشبيلية

فسرعان ماتيين ان هذه الدول لا يمكن ان يطول امرها :

اولاً : لما كان يحض به الجميع من الاطماع .

ثانياً : لتباين القوى والرياسات .

ذلك ان الاقوى كان يحاول ان يبطش بالاضعف . فبحاول الاضعف ان يدرك الخطر بالتحالف مع جار اقوى ، يذود اليما له ويمارنه على احراز العسر على عدوهما المشترك او يهزم معه . وكانوا احياناً يلتجئون الى نصارى الاسبان لمساعدتهم ضد منافسيهم من المسلمين . الا ان هذه المساعدة كلفتهم غالباً اذ انهم اصاعوا والفردوس المفقود ، بسبب استعانتهم باعدائهم الاجانب وبسبب اختلافاتهم الداخلية وانانيتهم الشخصية ، واخرجوا من تلك البلاد على أسوء حال ، بعد ان خلفوا وراءهم حضارة زاهرة لاتزال بقاياها تشهد بما كان لهم من ايدي يضاء على بلاد اسبانيا خاصة وعلى نهضة اور بصورة عامة .

محتويات الكتاب

القسم الاول

| صفحة | المقدمة |
|---------|---|
| ٢ — ٥٦ | الباب الاول : الدولة الاموية |
| ٥٧ — ٨٨ | الباب الثاني : الحصار العربي في عهد الخلافة الاموية |
| ٨٩ — ٩٩ | الباب الثالث : حالة أوروبا في زمن الخلافة الاموية |

القسم الثاني

| | |
|-----------|--|
| ١٠٥ — ١١٢ | الباب الرابع : الخلافة العباسية |
| ١١٣ — ١٨٠ | الفصل الاول : دور النفوذ الفارسي |
| ١٨١ — ١٩٦ | الفصل الثاني : دور النفوذ التركي |
| ١٩٧ — ٢٠٣ | الفصل الثالث : دور النفوذ البويعي |
| ٢٠٤ — ٢١٧ | الفصل الرابع : دور النفوذ السلجوقي المغولي |
| ٢١٨ — ٢٢٨ | الباب الخامس : الدولات المستقلة |
| | الدولة الفزنوية — الدولة الحمدانية — الدولة الطولونية — الدولة الاخشيدية . |

القسم الثالث

| | |
|-----------|---------------------------------|
| ٢٣٢ — ٢٤٣ | الباب السادس : الخلافة الفاطمية |
|-----------|---------------------------------|

القسم الرابع

| | |
|-----------|--|
| ٢٤٧ | الباب السابع : حالة أوروبا في زمن الخلافة العباسية |
| ٢٤٨ — ٢٥٨ | الفصل الاول : الدولة الكارولنجية وشارلمان |
| ٢٥٩ — ٢٦٥ | الفصل الثاني : النظام الاقطاعي والفروسية |
| ٢٦٦ — ٢٦٨ | الفصل الثالث : حالة الفلاحين والعبيد في ظل النظام الاقطاعي |
| ٢٦٩ — ٢٧٤ | الفصل الرابع : اسرة آل كابت — تطور انكلترا حتى نهاية الفتح النورمندي — نشأة الامبراطورية الرومانية المقدسة . |
| ٢٥٧ — ٢٨٠ | الفصل الخامس : نشأة الكنيسة المسيحية |
| ٢٨٢ | الباب الثامن : الحروب الصليبية |

القسم الخامس

ص ٣١٦

٣١٧ - ٣١٦

٣٢٣ - ٣١٨

٣٢٧ - ٣٢٥

الباب التاسع : الماليك

الفصل الاول : دولة الماليك البحرية

الفصل الثاني : دولة الماليك البربرية

القسم السادس

٣٣٠

٣٣٣ - ٣٣٠

٣٣٤ - ٣٣٣

٣٤٣ - ٣٣٥

٣٤٨ - ٣٤٤

٣٥٠ - ٣٤٩

الباب العاشر : الاندلس

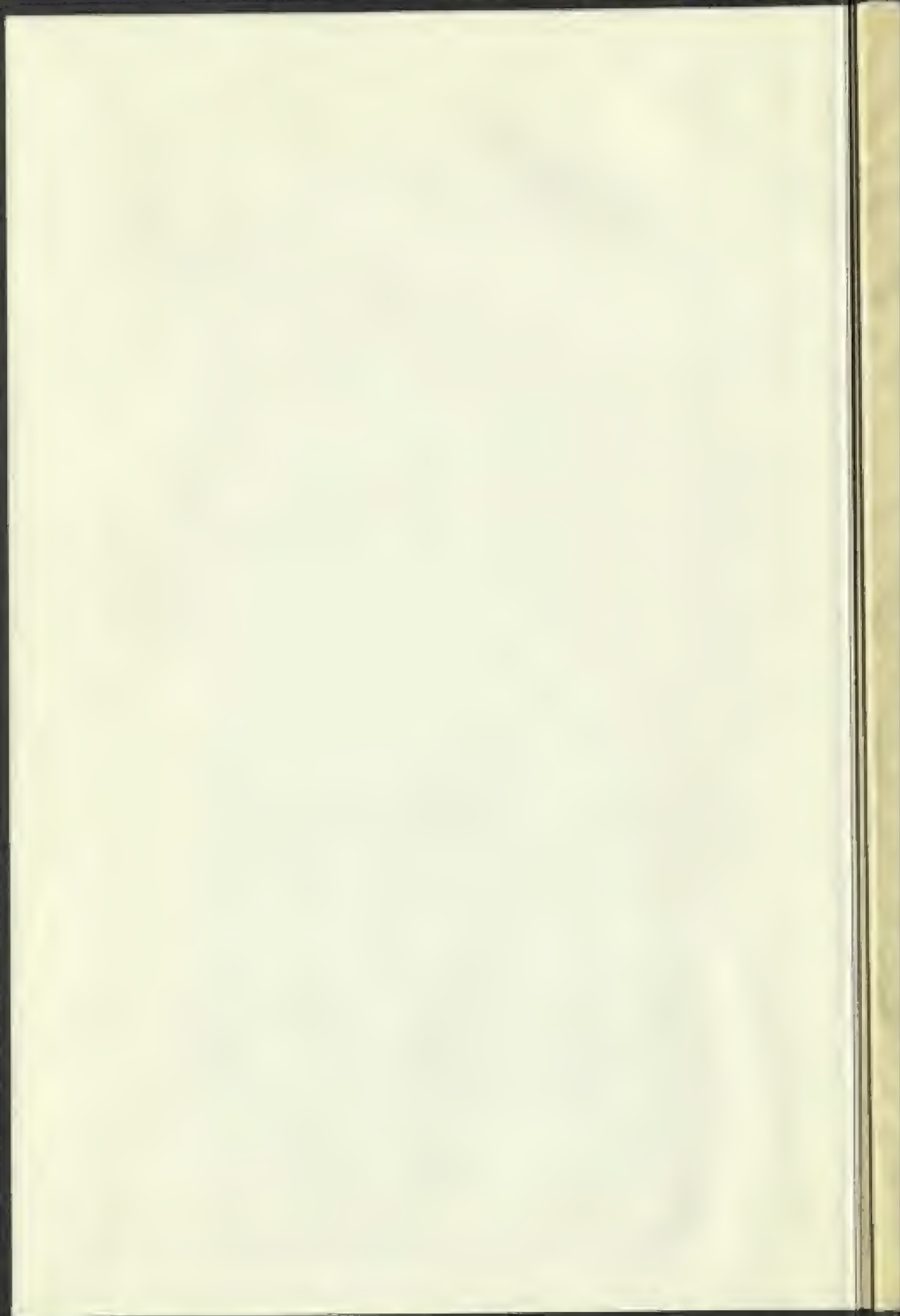
الفصل الاول : الاندلس قبل الفتح العربي

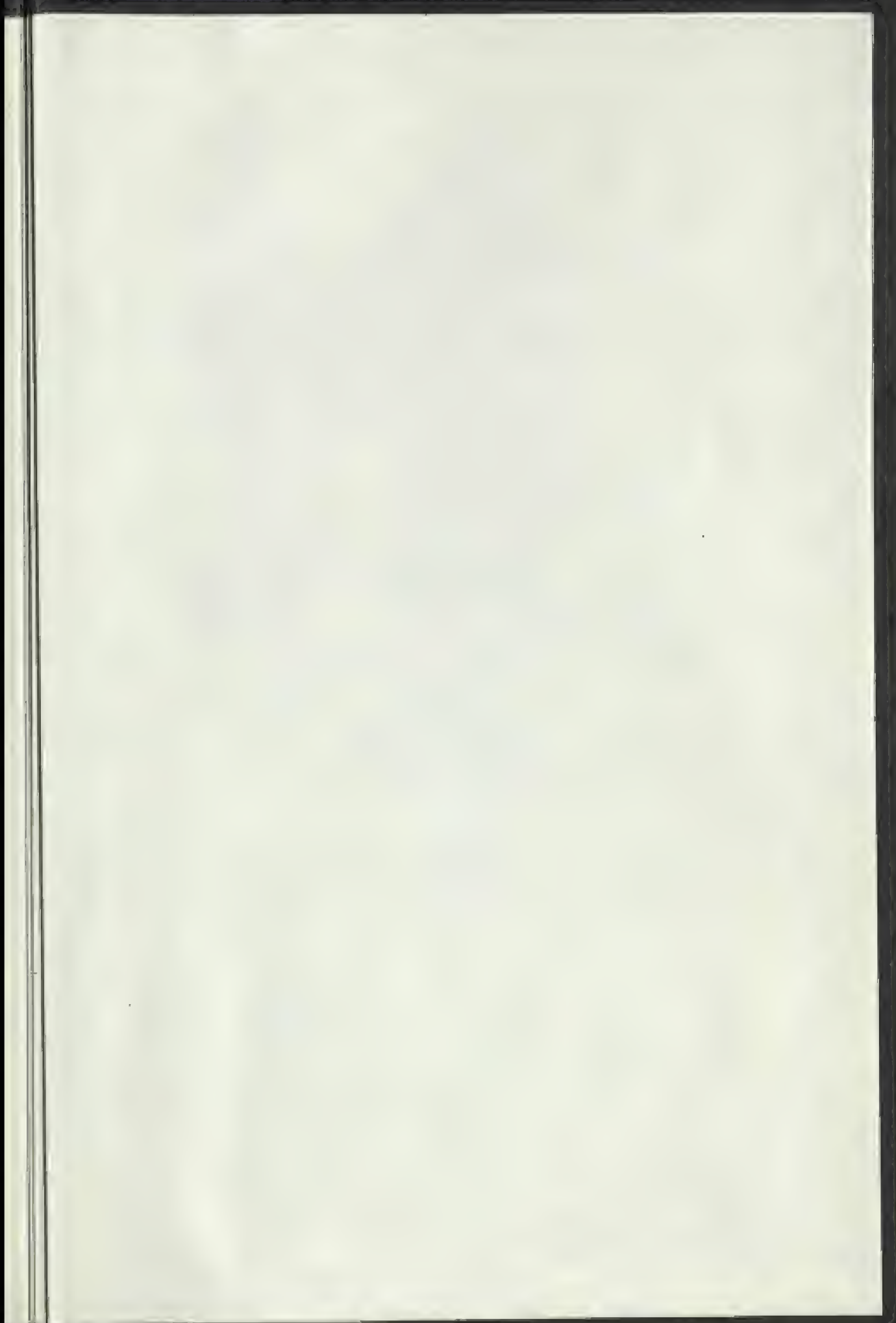
الفصل الثاني : الولايات المضطربة

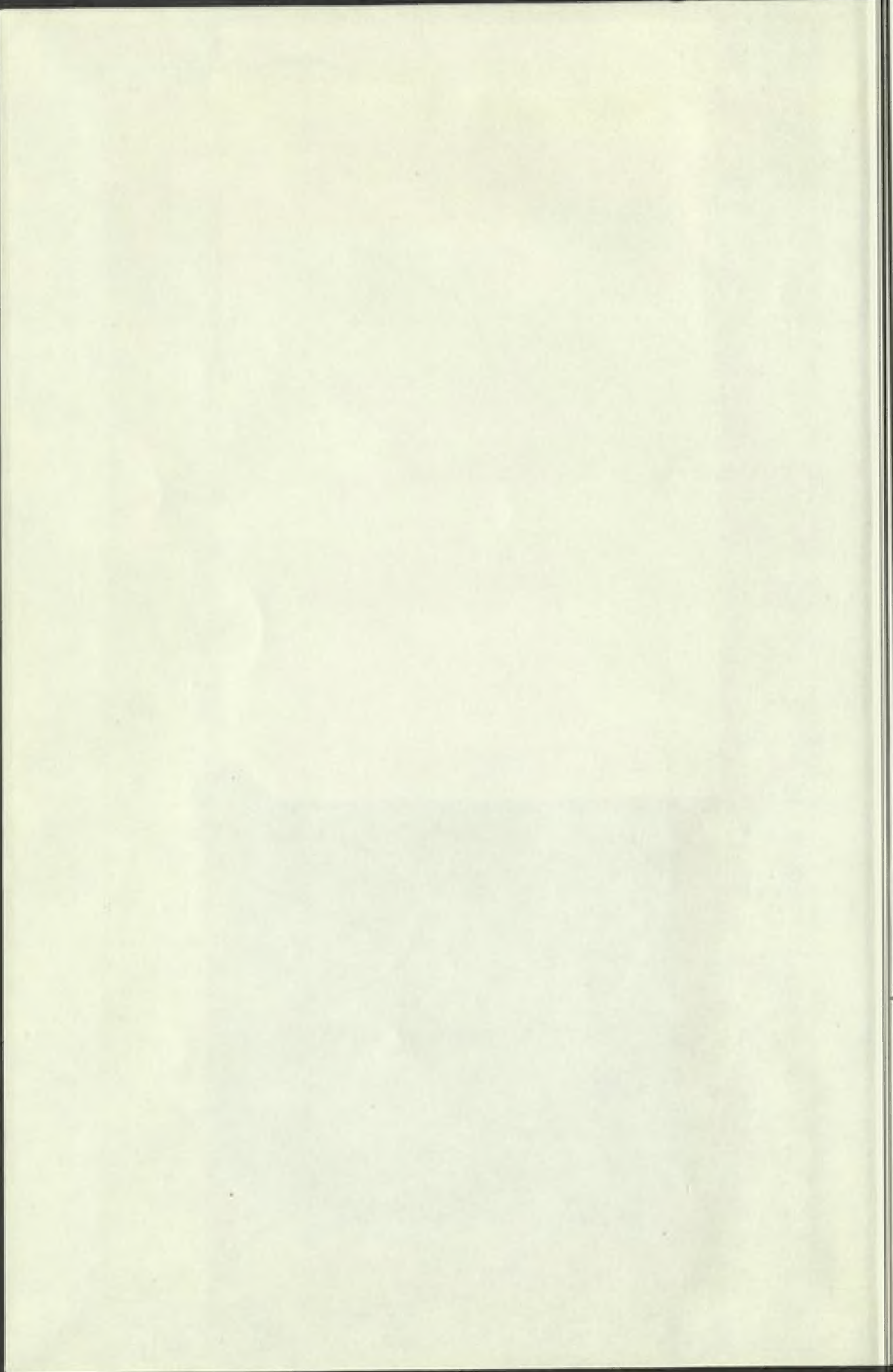
الفصل الثالث : دولة بني أمية في الاندلس

الفصل الرابع : الخلافة الأموية في الاندلس

الفصل الخامس : دور ملوك الطوائف





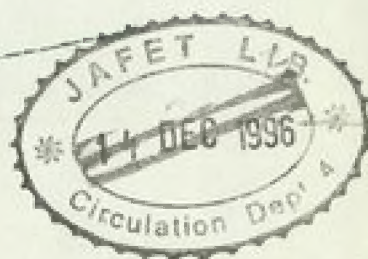


DATE DUE



5

| | | |
|--|--|--|
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |



A. U. B. LIBRARY

297.09:M21A:c1

المهاجر، رفيف

تاريخ الخلافة الأموية والعباسية والدور

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01003025

297.09
M21A



